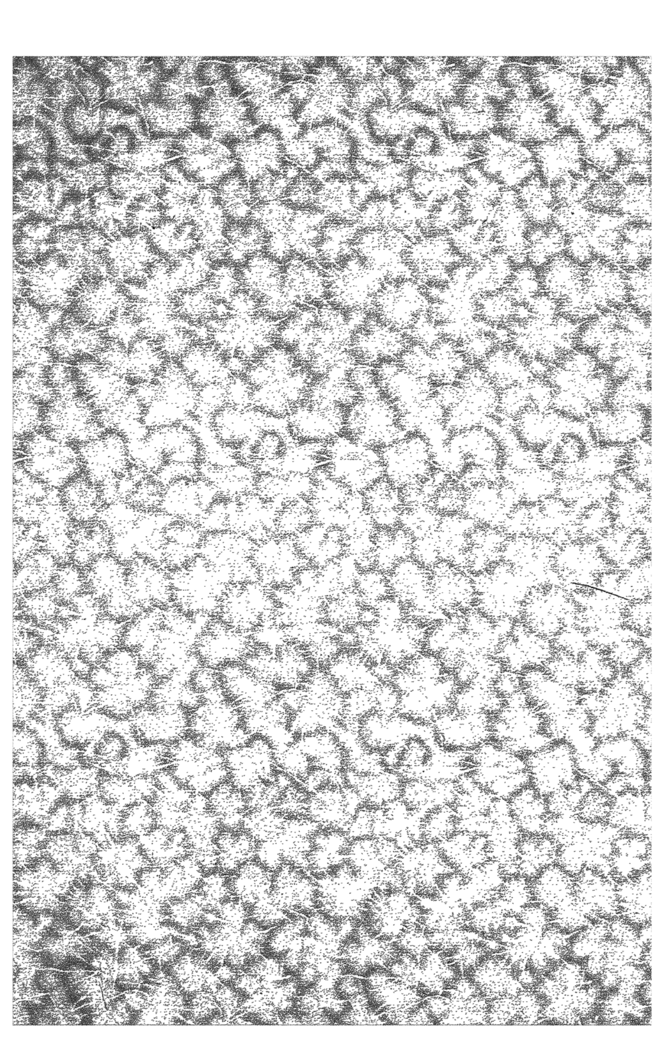






تأليف



دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا]

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

الإهـــــداء

الى أستاذى الدكتور منصور فهمى .

والى صديقى المسيو دى كومنين .

أهـــدى هـــذا الكتاب .

تحية وداد وإعزاز وإخلاص ،

زكى مبارك

مصر الجديدة، أول يناير سنة ١٩٣٤

فهـــــرس (١)

صفحة

فاتحة الكتاب ٧

نقد النثر الفنى ١٧

البـاب الأول

تطور النثر الفنى من عصر النبوة الى القرن الرابع

النثر الجاهلى... ... ... ٣٣

نشأة النثر الفنى ٤٤

النثر الفنى فى العصر الاسلامى... ... ... ٥٧

أطوار السجع ٦٤

البـاب الثـانى

خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع

خصائص نثرية... ... ... ١٠٥

السجع والازدواج ١١٣

تصوير الحياة العقلية ١٢٦

الفكاهات ١٣٢

النسيب ١٤٨

الاخوانيات ١٦٣

صفحة

الوصف ١٧١

المتبذل والطريف فى التعابير الأدبية ... ١٨٠

البـاب الثـالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

المقامات ١٩٧

مقامات بديع الزمان ٢٠٦

أحاديث ابن دريد ٢٢٧

روايات الأغانى... ... ... ٢٣٤

أخبار ابن دريد... ... ... ٢٤٦

حكايات ابن الأنبارى ٢٥٤

التوابع والزوابع ٢٥٨

الانسان والحيوان أمام محكمة الجن ... ٢٧١

أخبار التوحيدى ٢٨١

قصص الببغاء ٢٨٦

أحمد بن يوسف المصرى ٢٩٤

عبد الله بن عبد الكريم ٣١٢

المحسن التنوخى ٣١٥

حكاية أبى القاسم البغدادى ٣٣٨

الفهرس المفصل ٣٥٣

(١) انظر (الفهرس المفصل) فى آخر الجزء .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

هذا كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين، فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى؛ وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليتذكروا أنى ألفته فى أعوام سُودٍ لقيت فيها من عَنَت الأيام ما يقصم الظهر، ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين ، أقضى شطره الأول فى القاهرة، حيث أؤدى عملى ، وأجنى رزقى، وأقضى شطره الثانى فى باريس، كالطير الغريب، أحادث العلماء، وأستلهم المؤلفين، الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم علىّ الله — عز شأنه — بالنصر المبين .

ولكنى أحب أن أكون فى طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب، وهل من العدل أن أظلم نفسى وأنصف الناس ؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية، أو هو — على الأقل — أولُ كتاب صُنِّف عن النثر الفنى فى القرن الرابع، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين فى غيابات ذلك العهد السحيق .

ولن يستطيع أى مؤلف آخر — مهما اعتز بقوته، وتعامى عن جهود من سبقوه — أن ينسى أنى رفعت من طريقه ألوفا من العقبات والأشواك .

وهل يمكن الآرتياب فى أن مؤلف هـذا الكتاب هو أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية، وقهر المستشرقين ومن لفَّ لَفَّهـم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلى ، وأنه دليلٌ على أن العرب كان لهم نثرفنىٌّ قبل عصر النبوة بأجيال ؟

وهل يمكن الشك فى أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من رَجَع الصور الفنية فى نثركُتَّاب الصنعة والزخرف الى أصول عربية صميمة، وكان الباحثون يظنونها أثرا من آتصال العـرب بالفرس واليونان ؟

وهل يمترى منصـف فى أن ما كتبته عن أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى بابٌ من البحث جديد ؟

وهل يتردد أريب فى الاعتراف بأن الفصول التى كتبتها عن نشأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصولٌ مبتكرةٌ كُتبتْ لأول مرة فى اللغة العربية ؟

والفصول التى أنشأتها عن كُتَّاب النقـد الأدبى؟ لقد جلوت فى تلك الفصـول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحدٌ ما تستحق من العناية قبل اليوم .

والمؤلفون المنسيون الذين بعثهم هذا الكتاب ؟

لقد مرت أجيال طوال نسى فيها أبو المغيرة بن حزم نسيانا تاما حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ، الى أن كشف عنه مؤلف هذا الكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربى فى الشرق والغرب يعتقدون أن (رسالة الغفران) أول مَسلاة فى اللغة العربية، ويظنون أن آبن شهيد حاكاه حين ألف رسالة (التوابع والزوابع) فجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة آبن شهيد ألفت قبـل رسالة المعرى بنحو عشرين عاما ، وأن المعرى هو الذى حاكى آبن شهيد .

وكان كتاب أبى محمـد بن حزم فى (فن الحب) مجهولا فى الشرق، فلما جاء مؤلف هـذا الكتاب وأظهره عدّه المصريون أعجوبة ، وتألفت لجنـة من علماء الأزهر برياسة الشـيخ

محمـد عرفة وكيل كلية الشريعـة لتبرئة ابن حزم ممـا نسب اليه! ثم انفضّت اللجنـة وانزوى أعضاؤها الفضلاء! أليس ذلك دليلا على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين بنبأ عظيم ؟

وما كتبته عن ابن دريد؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأقصوصة فى اللغة العربية، والملهم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟

تلك ملامح من شمائل هذا الكتاب، أقف عندها ولا أزيد !

ومعاذ الأدب أن أمنّ على لغة العرب التى أعزنى بها الله . وإنما هى ثورة نفسية أنطقنى بها ما أراه فى زمانى من غدر وعقوق . والله المستعان، على إفك هذا الزمان !

— ٢ —

وأنا، بعد ذلك، مسئول عن عَرض المؤاخذات التى وُجِّهت الى هذا الكتاب .

وأذكر، أولًا، أن فى هذا الكتاب عيبا جله الأساتذة فى جامعة باريس،وهو غلبة النزعة الوجدانيــة، وقد اعتذر عنى المسـيو ماسينيون يوم أداء الامتحان فى السوربون، فذكر أنى شاعر، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .

وأذكر، ثانيا، أنى قصرت تقصيرا ملموسا فى عرض الشواهد، ولم أذكر شاهدا كاملا غير مناظرة الخوارزمى والهمذانى ، واكتفيت بالإشارة فى الهوامش الى مراجع الشواهد . وعذرى فى ذلك أن هـذا الكتاب لم يؤلف إلا للخواصّ، ومن السهل عليهـم أن يرجعوا الى الشواهد فى مصادرها حين يشاءون . يضاف الى هذا أن الشواهد لو ذكرتْ كاملةً لوصل حجم الكتاب الى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى ينفق على نحو ألفى صفحة من هذه الصفحات الطوال العراض(١) ؟!

وأذكر، ثالثا، أن منهج العرض والتأليف يختلف فى هذا الكتاب بعض الاختـلاف . والسبب فى هذا أن الكتاب لم يؤلف فى عام واحد، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت فى خلال سبع سنين، وهى مدّة طويلة يتحول فيها العقل والذوق من حال الى حال .

(١) تردد الحاج مصطفى محمد أولا فى نشر هذا الكتاب لطوله وضخامة نفقاته، ولم تصح عزيمته على نشره إلا بعد أن علم أن حضرة صاحب المعالى الأستاذ محمد حلمى عيسى باشا وعد بطبعه على نفقة وزارة المعارف العمومية .

وأذكر ، رابعـا ، غلبـة الاستطراد فى صلب الكتاب ، وهو عيب لامنى عليـه الأساتذة فى باريس . وعذرى فى ذلك أنى أميل الى هـذا النحو الموروث فى التأليف ، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك ، والقارئ هو الغانم على أى حال ، والفهرس المفصل[1] الذى ألحقته بالجزء الأول والجزء الثانى سيمكّن القارئ من تعقب ما فى الكتاب من شتيت الفوائد الأدبية والتاريخيـــة .

— ٣ —

عُنينا فى هذا الكتاب بدرس النثر الفنى ، أما الزمان فهو القـرن الرابع ، وأما المكان فهو الأمصار الاسلامية لذلك العهد . فهل كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون فى القرن الرابع على اصطناع أسلوب واحد أو مقارب فى التعبير عن مختلف المعانى والأغراض ؟

ذلك سؤال وجهه الينا المسـيو ديمومبين ، وأجبنا عنه فى النص الفرنسى[2] ، ونعرض له فى هذه المقدمة بشىء من البيان .

لا جدال فى أن الموضوعات كانت تختلف كثيرا أو قليلا ، فالمشاكل العقلية والوجدانية التى كانت تعرض لكتاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمثالهم فى مصر والشام وفارس والعراق .

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيهما قليل . لأن العرب الذين هاجروا فاتحين الى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية الى تلك البـلاد ، وكان من هم المؤلفين فى المغرب والأندلس أن ينقلوا الى مواطنيهم أدب أهل المشرق . والتاريخ يحـدثنا " أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده ، فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا رُدّت الينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشـتمل على شىء من أخبار بلادهم ، و إنمـا هو مشـتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه[3] " .

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المقبولة لعبارة Table analytique

(٢) ص ٤١ و ٢٢١ — ٢٣٣ (٣) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٧

ولهذا الخبر الصغير وجهان على جانب من الأهميــة : فالصاحب كان يتشوف الى أدب أهل الأندلس، لأنه لم يكن منشورا فى المشرق ، وكان يرى أن أول ما ينبغى أن يشــغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما آبن عبــد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من الصاحب ، فآجتهــد فى أن ينقل اليهــم أدب أهل المشرق، وكانوا يرونهــم اساتذةً فى الشعر والبيان . وآهتمام أمثال آبن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التى كان يصطنعها كتاب الشام وكتاب العراق .

وما وقع فى الأندلس وقع مثله فى المغرب، فان مؤلف زهر الاداب يحدثنا فى مقــدمة كتابه أن العباس بن سليمان آرتحــل الى المشرق فى طلب الكتب " باذلًا فى ذلك ماله ، مستعذبا فيه تعبه، الى أن أورد من كلام بلغاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفــة، وغرائب غريبة " وسأله أن يجمــع له " من مختارها كتابا يكتفى به عن جملتها " فألف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب.

أيكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفون بآثارهم الأدبية ؟

لا، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق، فكانوا يجدون فى نقل ما أُثِر عن أهل الشرق من القصائد والرسائل وا لحِكم والأمثال .

وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول الذى آعتمدت عليه فى أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسىّ من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد فى الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة فى هــذه الأيام ألسنا نرى العرب والمستعربين فى مختلف الأقطار الإسلامية يتأثرون ما يجــد فى القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألسنا نرى مناهج النشر والتاليف التى يبدعها أهل القاهرة تنتشر فى أكثر الأمصار الإسلامية بشىء من التغيير قليل ؟

والمسيو ديمومبين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس ٱستطاع أن يؤثر فى الأغانى الأندلسية ويصبغها بصبغة شرقية، أفيرتاب أحد فى أن أغانى محمد عبد الوهاب تعطر الأغانى الشرقية بنفحة مصرية، وتنقل الى أكثر البلاد العربية أسرار الغناء فى وادى النيل ؟

يضاف الى هذا نظام الرحلة فى طلب العلم، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك ، وكان الأخذ عن علمــاء المشرق ممــا يرفع رأس الرجل حين يعود الى بلاده موفور العـلم والعقل ، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمنا بمصر فى طريقهم الى المشرق، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون فى أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطى معروفة، وهى لا تخلو من فكاهة، فقد حضر مجلس ٱبن النحاس فى مصر وهو يملى هذه الأبيات :

خليلىّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ تُبكِّى على ليلى لعــلى أعينهــا
قد ٱسلمها الباكون إلا حمامةً مطوّقةً باتت وبات قرينهــا
يجاوبهــا أخرى على خيزرانةٍ يكاد يدنِّيهــا من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله، باتا يصنعان ؟ فقال ٱبن النحاس : وكيف تقوله أنت يا أندلسىّ ؟ فقال : بانت وبان قرينها .

وبالطبع ماكان يتفق لجميــع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما ٱتفق لٱبن ســعيد مع ٱبن النحاس ولكن المهم أن نشــير الى أن ٱبن النحاس ٱستثقل ٱبن سعيد بعــد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فينتسخ من نســخته ، فٱنصرف عنه الى الانتساخ من نسخة أبى العباس بن ولاد[1] .

وفى أمثال هذا الخبر ما يدل على أن الأندلســيين والمغاربة فى رحلتهم الى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع الى الرجال وٱنتساخ ما يظفرون به من نادر المصــنفات ، حتى إذا عادوا الى بلادهم ٱشــتغلوا بالوراقة والتدريس، أما الوراقة فلكسب الرزق ، وأما التدريس فلطلب المجد .

(١) أنظر معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٢ ، ٧٣

و بعض هذا كافٍ لصبغ أذواقهم بالصبغة المشرقية فى الشعر والبيان .

أيكون عجيبا بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتّاب فى القرن الرابع كانت متقاربة فى السمات والخصائص و إن آفترقت مساكنهم بين المغرب والمشرق ؟

— ٥ —

مرت المناقشات هادئة فى هذا الكتاب ، ولم يستعرْ ضرمها إلا حين آتصلت برجلين من كرام الرجال ، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الآطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ، وكانت له آراء مدوّنة عن نشأة النثر الفنى عند العرب . وما كدت أصل الى باريس حتى هممت بمهاجمته ، فنصحنى المسيو ماسينيون وأفهمنى أنه رجلٌ صعب المِراس ، وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة ، وأن المستشرقين جميعا يجلونه أعظم الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتى التى قدّمتها للسوربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس ، فغضب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لونٌ من الآستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر الفنى .

وكأنما عزَّ على الرجل أن أهاجمه فى عُقر داره فمضى يعادينى عِداءً خفيا كانت له آثار بشعة لا اتذكرها إلا آنتفضتُ رُعبًا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلَدَدٍ أقسى وأعنف ، ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت الى البحث الذى قدّمته الى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأنى هاجمته فيه ، وآنتهينا الى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيرا فى باريس :

" إن المسيو مرسيه لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك " .

أما أنا فأحب هـذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم فى باريس ، ولأنه كان رئيس لجنـة الامتحان الذى ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقيـة . والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى ما لقيت على يديه من ظلم وإجحاف !

أما الدكتور طه حسـين فما أدرى والله ما ذنبُـه حتى يهاجَم أعنف الهجوم فى هـذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطنى به ألوف من الذكريات، يرجع بعضها الى العهد الذى كنت فيه طالبا بالجامعة المصرية القديمة، يوم كان يصطنع العـدل الذى يلبس ثوب الظلم فى آمتحان الطلاب، فقد ساعد مرة على إسقاطى فى آمتحان الجغرافيا ووصف الشـعوب ، وأسقطنى مرة ثانية فى آمتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط فى الأمتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذى كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل اليه على أكتافى أحجار الأساس لترفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع سـنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلى ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمـان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص، وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب، وزميله الذى لا يخون .

ولكن حماستى للفكرة التى أدافع عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القـلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه فى فصول هـذا الكتاب .

أكتب هـذا وقد شرّق الدكتور طه وغرّبت ، ولم يبق بيننا إلا أطيافٌ من كرائم الذكريات، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هـذا الكتاب على مقدمة وستة أبواب ، أما المقدمة فتبحث عن نصيب النثر الفنى من عناية النقاد ، وتبين الغـرض من تأليف هـذا الكتاب ، وفى الباب الأول يتكلم المؤلف عن النثر الجاهلى والنثر الاسلامى وأطوار السجع والازدواج، وكان من الضرورى فى نظر المؤلف أن ينشىء هذا البـاب،وهو أصل الخصومة بينه و بين أستاذه المسيو مرسيه. وحجـة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة الى القـرن الرابع لتظهر خصائص النثر فى العصر الذى ألف عنه الكتاب، وفى الباب الثانى يدرس المؤلف خصائص النثر فى القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلية، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث عن كُتّاب الأخبار والأقاصيص، ويتحدث فى الباب الرابع عن كُتّاب النقد الأدبى ، ويشرح فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتّاب الآراء والمذاهب ، ويختم الكتاب بالباب السادس عن كُتّاب الرسائل والعهود .

والمؤلف مطمئن الى صحة هذا التقسيم،ويعترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا، فقد حملته الأَثَرَة على أن يستبق هذا الجانب لكتابه "أثر التصوف فى الأدب والأخلاق" الذى يرجو أن يوفق الى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر فى تأليف هذا الكتاب،فتجنبنا ألفاظا وتعابير كانت تستساغ فى القرن الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا فى الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة فى التأليف فأشرنا الى نوازع اللهو والمجون، ودللنا القارئ على مصادرها إن كان يهمه استقصاء الظواهر الاجتماعية التى حفظها التاريخ . والأدب فى رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية، ومثل هذا الكتاب يقدّم للخواص الذين يُعدُّ التحفظ فى مخاطبتهم ضربا من الجمود .

— ٨ —

بين الأصل الفرنسى وبين هذا الكتاب آختلاف قليل ، ففى النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج اليها أهل الشرق، وفى هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج اليها أهل الغرب وتنفع أهل الشرق، ويمكن القول بأن فى النسخة العربية حرية لم تكن فى النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء آمتحان الدكتوراه فى جامعة باريس، تحت إشراف أستاذين فيهما صرامة وقسوة، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين، فالأصل الفرنسى وُجِّه وجهة العلم الصرف، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف .

— ٩ —

أيرانى القارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن مما لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهلى عبئاً ثقيلا باخراجه الى الناس،فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية.وقد قضيت عاما فى طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وآستوجب تحقيقه وتصحيحه جهودا لم تكن تخطر بالبال،وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبرا جميلا،وآحتمل عمال المطبعة ضجر الإفراط فى المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ برادة بك على التسهيلات التى آختصنى بها فى تيسير طبع هذا الكتاب على الطريقة الفنية التى آستطعت بها ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الثناء الى صديقى المفضال محمد افندى نديم على معونته فى إنجاز الطبع على أحسن حال .

والله أسأل أن يقينى شر الفتنة ، فتنة النفس والقلب والعقل ، وأن يهدينى الصراط المستقيم، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافئ ما أضعت فى تأليفه من العمر والعافية. إنه قريبٌ مجيب ما

مصر الجديدة فى { ٦ شوال سنة ١٣٥٢ / ٢٢ يناير سنة ١٩٣٤ }

محمد زكى عبد السلام مبارك

نقد النثر الفنى

١ — ينبغى أن نقيد فى صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد فى كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التى يراد بها ردّ معانى الكتاب الى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا فى درس معانى الشعر و بيان المبتكر منها والمنقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد فى بيت من الشعر فيذكرون أجديدٌ هو أم قديم ، ثم يذكرون مَن أُخِذ عنه إن كان قديما ، و يبينون الفرق بين المعنى فى صورته الأولى و بينه فى صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التى مر بها المعنى منذ عُرِف عن الجاهليين و يبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذى نقوله يبين وجها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر فى نظر النقاد من العرب أكثر حظا من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقييد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود[1] . وليس فى اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن ، على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملا فنيا بالمعنى الصحيح للنقد الأدبى : فقد كان مفروضا فى كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو فى إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد . وليس هذا

---

(١) ومع هذا نجد فى مطالعاتنا إشارات الى سرقات الكتاب فقد كان أحمد بن أبى طاهر يقول فى سعيد بن حميد « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شىء » — الفهرست ص ١٧٩ — و (الكلام) هنا هو النثر الذى يسمى أيضا (الكتابة) وقد سمى النثر (كلاما) فى عدة مواطن منها قول بديع الزمان « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره » ...

وعرض الثعالبي لبعض المعانى التى وردت فى نثر الصاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبي — اليتيمة ص ٨٧ ج ١

وعرض الثعالبي كذلك لاحدى رسائل الصابى فبين أن بعض ألفاظها مأخوذ من فصل كتبه جعفر بن محمد بن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون — اليتيمة ص ١٩١ ج ١

وفى وفيات الأعيان — ج ١ ص ١٥ و ١٦ — كلام لابراهيم الصولى عما أضاف الى نثره من معانى الشعراء .

من النقد فى شيء . إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبى موقف الممتحن للمحاسن والعيوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن النقاد اطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذى تقف عنده حدود الطبيعة الانسانية فى البلاغة والبيان .

٢ — فاذا خلينا القرآن جانبا وانتقلنا الى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية النقاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبى تمام والبحترى ومسلم بن الوليد وأبى نواس و بشار والمتنبى، بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شُغل بهم الناس كانوا سببا فى نشاط النقد الأدبى و إمداده بتلك الحيوية العظيمة التى ظهر أثرها فى مثل مؤلفات أبى هلال العسكرى وابن الأثير وابن رشيق وأبى الحسن الجرجانى وغيرهم من فحول النقاد الذين شُغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قلّ أن نجد أثرا لمثل ذلك الاهتمام اذا شئنا أن نعرف ما صنع النقاد فى الموازنة بين كاتبين كالبديع والخوارزمى، أو الصاحب والصابى ، أو عبد الحميد وابن المقفع ، أو الصولى وابن الزيات ، أو ابن زيدون وابن شهيد، وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدبين والناقدين[1] .

(١) ولا ننكر مع هذا أنه وضعت كتب كثيرة فى نقد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذى نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادى . وكتاب (المذهب فى البلاغات لابن العميد) — ١٩٤ فهرست — وكتاب (غرر البلاغة) أورد منه صاحب صبح الأعشى شواهد — ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٩ — و(تحفة الكتاب فى الرسائل) — ٢٧٤ ج ٦ ياقوت — و(كتاب الكتاب) — ٢٧٩ ج ٦ ياقوت — و(غلط أدب الكاتب) و(مصابيح الكتاب) — ٢٨١ ج ٦ ياقوت — و(الاختيار من الرسائل) أو (فقر البلغاء) — ١٣٠ ج ياقوت — و(علم النثر) — ٢٥١ ج ١ ياقوت . و(أنواع الأسجاع) — ٧٥ ج ٤ ياقوت — و(الرسائل السلطانيات والاخوانيات) و(الفرق بين المترسل والشاعر) — ٢٥٧ ج ٢ ياقوت .

وفى مطالعاتنا نجد كتبا كثيرة ألفت فى النثر : لا نعرف أهى من قبيل المجموعات أم من باب النقد أم من علم البيان، لأن أصولها لم تصل الينا . وهى تدل على أن المتقدمين اهتموا بالدراسات النثرية . ولكنا لا نزال نرى أن الشعر استبد بجهود أكثر النقاد ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل .

ولنقيد أن نقد النثر الذى انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذى عرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها « الرسالة العذراء » التى قدمناها مع مقدمة بالفرنسية الى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ونشرناها فى سنة ١٩٣١ و(أدب الكتاب) للصولى . و(كتاب الكتاب) لابن درستويه، وما الى ذلك من الدراسات التى تتصل =

٣ — وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة فى البيئات العربية ، فهذا أبو بكر الخوارزمى الذى كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه اهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هى كتاب الصاحب الى ابن العميد جوابا عن كتابه عليه فى وصف البحر [(١)] . والواقع أن الشعر أقرب الى النفس من هذه الناحية ، وهو بالذاكرة أعلق ، وعلى الألسنة أسير ، بفضل القوافى والأوزان .

٤ — ولنذكر هنا أن فى كتاب القرن الرابع من نظر فى هذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر وبيّن مقام الكتّاب ومقام الشعراء . وأهم مالفت نظرى فى تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبى فى تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيق ردا عليه فى تفضيل الشعر . والثعالبى يبنى حكمه على أن طبقات الكتّاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء « فان الكتّاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون فى جباية خراج ، أو سدّ ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء الى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية فى رزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشئون ، التى يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ، ومعارف مفننة [(٢)] » .

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر : هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر فى المصالح المعاشية والسياسية والادارية ، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم فى شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما الى ذلك من شئون العمران ، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هى أقرب الى الشعر : فالدعاء الى الألفة والنهى عن الفرقة والتهانى بالعطايا والتعازى فى الرزايا من الموضوعات التى كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس ، وامتلاك القلوب والنفوس .

= فى الأغلب بأحوال الكتّاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية . وأهم كتاب فى هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذى يعدّ أنفع ما صنف فى أدب الكتّاب . على أن هذا النوع من التأليف حافل بالملاحظات الفنية التى تقربه من (النقد الأدبى) وإن لم تسم به الى المصنفات الممتعة التى قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء .

(١) ص ٨٧ ج ٣ نثر من يتيمة الدهر . (٢) ص ٣ نثر النظم .

والثعالبى صدق فى نصه على أن ما يشتغل به الكتّاب يقضى بأن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة : فانه يكاد يغلب على جمهور الشعراء فى اللغة العربية فراغ الأفئدة وفقر الرءوس . والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين آستطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام . فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومى وأبو تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبى، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء فى الملك والسياسة، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيّت أو غرض دفين .

ونظرةٌ الى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفكرة، فالشعراء النابهون فى عصرنا هم الذين لابسوا رجال الملك وآتصلوا بالجماهير آتصال آستثمار وآستغلال: فقد كان شوقى شاعر القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودى شاعر السيف، وقد خمل من خمل من الشعراء الذين قعدت بهم ثقافتهم ووقفت بهم هممهم عند الاكتفاء بمضغ الكلام الموزون !

٥ — والثعالبى بعد كلماته تلك يذكر فى أسباب تقديم النثر على الشعر أن الشعر تصوّن عنه الأنبياء وترفّع عنه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون الى أرواح الأنبياء، وأنا لا أتصوّر الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافى والأوزان، لأن الشعر الحق روحٌ صرف، والنبوّة الحقة شعرٌ صُراح . أما الملوك فترفُّعهم عن الشعر لا يحط من قدره، ولا يغض من شأنه، والملوك لو آستطاعوا أن يضموا إلى قواهم المادية تلك القوّة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ . ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ — وربما كان أظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبى إذ قال : وقد أفصح عبد الصمد بن المعذل عن حقيقة الحال فى انحطاط رتبة الشاعر لآشتغاله بخلاف المراشد حيث قال لأبى تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين آثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مُذالِ

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال

أى ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف أن لا يدخلها أبداً (١) .

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعذل تصوّر حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات الى وصية أبى تمام للبحترى لأرى الأغراض التى كان يهتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمديح إذ قال :

"وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر من بيان الصبابة وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه (٢) " .

فالشاعر على هذا الوضع لا يبرح دامع العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل المال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغى أن لا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع الى أنه سخرية تدل على براعة وذكاء ، فانه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطمعون فى عطايا الملوك فانا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفتَن عيونهم بالحسن ، وأن تخفق قلوبهم بالوجد ، فان للشاعر رسالة يؤدّيها الى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر فى تقديس الحسن المصون . والشاعر الملهم حين يفهم المعانى الروحية لصباحة الوجوه وأسالة الخدود ، ورشاقة القدود ، يعود وهو قيثارة إلهية يمضى رنينها ساحرا أخّاذا لا يملك الغض منه إلا صُمّ المسامع أو غُلْف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكر أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، وفى رأيه

(١) ص ٤ من نثر النظم . (٢) ص ١٠١ ج ١ زهر الآداب .

أنه اذا آتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا فى التسمية : لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، فالدر — وبه يشبّه اللفظ — اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى كسب له وآنتخت من أجله، وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدّد فى الأسماع ، فاذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وآزدوجت فرائده[1] .

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق، لانه اذا صح أن يشبّه الشعر بالعقد المنظوم فانه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنثور : لان النثر منظوم أيضا، والكاتب يؤلف بين الكلمات و يزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التى يعنى بها ناظم العقد ، واللؤلؤ المنثور له قيمته دائما، لأن اللؤلؤة هى هى فى قيمتها ونفاستها، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال. أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهى مفردة إذ كان سحرها يرجع الى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر. وقد نص عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هى كلم مفردة، وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ، وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس فى موضع، ثم نراها تثقل وتوحش فى موضع آخر، وأننا قد نرى رجلين آستعملا كلما بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السِّماك، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض[2] .

٩ — على أنه يخيل الىّ أن تقديم الثعالبى للنثر كان أثرا لغرض شخصىّ، فلا يبعد أن يكون خوارزمشاه الذى قدم اليه "نثر النظم وحل العقد" كان من هواه أن يقدّم النثر على الشعر إيثارا لبعض الكتّاب، أو حقدا على بعض الشعراء . وهذا الذى نقوله ليس بغريب من كتّاب ذلك العصر، فعهدى بهم يصوّرون الحقائق حسبما توحى الأهواء، حتى أننا نجد آبن رشيق الذى فضل الشعر على النثر يقول: "ولم أهجم بهذا الرد وأورد هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله

(١) ص ٤ و ٥ من كتاب العمدة . (٢) راجع ص ٣٨ و ٣٩ من دلائل الاعجاز .

قد جمع النوعين، وحاز الفضيلتين، فهما نقطتان من بحره، ونوارتان من زهره"[١] فهذه الفقرة صريحة فى أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء .

١٠ — وأبو هلال العسكرى أكثر دقة من الثعالبى فى الكلام على الشعر والنثر، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافَه بها، والرسالة يكتَب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة ، فى أيسر كلفة، ولا يتهيأ مثل ذلك فى الشعر من سرعة قلبه وإحالته الى الرسائل إلا بتكلف، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة[٢] .

١١ — هذا فهم أبى هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر فى رأيه عليه مدار السلطان، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان، وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام، أما الصدق فيطلب من الأنبياء[٣] .

وفضل الشعر على النثر — عند أبى هلال — يرجع الى استفاضته فى الناس، وبُعد سيره فى الآفاق ، والى تأثيره فى الأعراض والأنساب ، والى أنه ليس شىء يقوم مقامه فى المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، والى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس

---

(١) ص ٦ العمدة . (٢) ص ١٠٢ — وهذا صريح فى أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر. فالكلام ينقسم الى قسمين منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندى للتعليق على كلمة أبى هلال فى صبح الأعشى — ج ١ ص ٢٢٦ — فقال : "إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكتاب اليها فى صدور بعض المكاتبات وفى البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير" . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططا حين زعم أن الكلام ينقسم الى ثلاثة أصول أساسية : هى النظم والنثر والخطب، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذى يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة . وقد بقى صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تلقى عادة إلا فى المواسم أو عند كبريات الحوادث . أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة الى قبيلة على أيدى الرسل وكانت فى الأغلب مما يكتمه المرسلون . (٣) أنظر الصناعتين ص ١٠٣

إلا بانشاد الأشعار، والى أن الشعر أصلح للألحان التى هى أهنى اللذات، ولا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة[١] .

قال أبو هلال : ومن صفات الشعر التى يختص بها دون غيره أن الانسان اذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة فى ذلك أو عمل خطبة فيه جاء فى غاية القباحة ، وإن عمل فى ذلك أبياتا من الشعر آحتمل . ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه اليه وشهرته فى حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك وتنقص به فيه ، ولو قال فى ذلك شعرا لكان حسنا[٢] .

١٢ — وهذا كلام يحتمل النقض ، فان مدح الرجل نفسه ، إن جرى مجرى الدفاع والمفاخرة ، صح وقوعه فى النثر ، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم ، فليست خطب على بن أبى طالب فى جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويها بقربه من الرسول . أما الفخر الذى يجرى مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود فى الشعر والنثر . وان كان الشعر أصلح الفنين للتغنى بكرم الأعراق وشرف الأحساب .

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به ، لأن الغزل غناء ، والشعر أقرب الى الأنين والرنين ، ولكنا لانجد بدا من الاشارة الى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوقع تشبيبه موقع القبول ، وفى رسالة الجاحظ الى ابراهيم بن المدبر[٣] ورسالة اسحاق بن ابراهيم الى على بن هشام[٤] وما نقله صاحب زهر الآداب فى الجزء الأول والثالث من وصف النساء والغلمان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضا للمعانى الغرامية . ولا معنى لتضييق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح ، ولكن هيهات أن تنجو الحياة الأدبية أو الاجتماعية من أثقال التقاليد التى تسيطر على الذوق ، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعا لما ألف الجمهور من ملابسات الحياة .

---

(١) ص ١٠٣ (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ٦٧ ج ٦ ياقوت .
(٤) ص ٢١٩ ج ٢ ياقوت .

١٣ — بعد هذا البيان أحب أن أدوّن رأيى فى الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر وهو رأى لم أُسبَق اليه : رأيى أن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة ، فليس ينبغى أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبليغ الموفّق هو الذى يفهم سياسة الفطرة فى مثل هذه الشئون . ففى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العىّ ، كما يكون أحيانا أسمى أنواع البيان . وقد أذكر أننى كنت أحاور المسيو مرسيه فى تطوّر السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

”إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابا الى رجل فقال فيه : لهو أهون علىّ من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : امح (من كلاب الحرة) واكتب (من الكلاب) كأنه كره آتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه“[1]

وكان المسيو مرسيه يظن أن فى هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر: ذلك أن السجع فن رقيق، لا يصلح فى مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبا ، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تتبعنا آثار الكتّاب الذين مُنِحوا موهبة الشعر لرأيناهم يجنحون إلى القريض فى مواضع لا يغنى فيها النثر شيئا . فبديع الزمان يمضى فى رسائله ومقاماته ناثرا، ثم ينتقل إلى الشعر بغتة حيث يرى الشعر أقرب إلى ما يريد . وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يراسل الصاحب بن عباد فيبدأ خطابه ناثرا ثم يميل إلى النظم ولا يفوته أن يعلل ذلك الميل فيقول : ”ابتدأت أطال الله بقاء مولاى الصاحب بكتابى هذا وفى نفسى إتمامه نثرا، فمال طبعى إلى النظم، وأملى خاطرى على يدى منه ما كتبت، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض“[2] .

(١) ص ١٠٥ رسائل الجاحظ . (٢) اليتيمة ص ٩١ ج ٢

١٤ — قلنا إن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع . و إذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والادراك كان النثر أوجب ، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لايجيدون الشعر إلا قليلا ، لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحى والإلهام إذ كان الشعر فى صميمه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التى تسيطر عليها القوّة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمى بالقلب فى سعير الحب وفتنة الجمال .

* * *

١٥ — ونعود فنذكر أن كتّاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض فى المواطن التى لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتّاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم فى الصنعة فان الشعر أدخل فى الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهـم كانوا جميعا من الشعراء المتفوقين . كلا ! فان عبد العزيز بن يوسف الذى كان يقرنه الصاحب إلى الصابى لم يكن جيد الشعر، والقطع التى وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس ، والتوحيدى أُثِر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتّاب كان شعرهم أجود من نثرهم وكانوا من المبرزين فى الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات وسقط الزند وهما من دواوين الشـعر الممتازة فى اللغـة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التى تعدّ من آيات النثر العربى ، ومنهم الشريف الرضى وهو من أفذاذ الشعراء ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البـلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيـد أحد كتّاب الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المجيدين فى المنظوم والمنثور ، والشعر عليه أغلب .

أما الكتّاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم عديدون منهم على ابن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو اسحق الصابى ،

و بديع الزمان الهمذانى، وأبو اسحق الحصرى[١]، وأبو الفرج الببغاء، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر إجادة تامة فى موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولنذكر نماذج من شعر هؤلاء الكتّاب لندل على تفوقهم فى الصناعتين تفوقا يجعل منزلتهم فى النثر الفنى أعلى وأرفع ، إذ كان النثر عند هؤلاء فنا خالصا لا يفضله الشعر بغير القوافى والأوزان .

فمن ذلك قول ابن العميد فى معشوقه وقد فُصِد :

ويح الطبيب الذى جست يداه يدك ما كان أجهله فيما قد اعتمدك
بأى شىء تراه كان معتذرا من مسه بحديد مؤلم جسدك
لو أن ألحاظه كانت مباضعه ثم انتحاك بها من رقة فصدك

وقال الصاحب بن عباد فى رجل كثير الشرب بطئ السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالت عليه من نداماه قرقفُ
فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا فان لم تجد عقلا فماذا تحيِّف

وقال بديع الزمان فى طبائع الناس :

كذاك الناس خدّاعٌ إلى جانب خدّاعِ
يعيثون مع الذئب ويبكون مع الراعى

١٧ — والقلقشندى من الذين رجحوا النثر على الشعر : فقد ذكر فى كتابه (صبح الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه، وتساوى قوافيه، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة لسهولة حفظه، وجمال إنشاده بمجالس الملوك، فان النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاما، وأحسن نظاما[٢] .

---

(١) الحصرى مقل فى كتابته وشعره ، ولكن الفقرات التى تتفق له أحيانا فى (زهر الآداب) تنم عن ذوق فى الانشاء، واهتمامه بأدب القرن الرابع هو الذى أوحى الينا فكرة تأليف هذا الكتاب . (٢) صبح الأعشى ص ٥٨ ج ١

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح، ولكن القلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافيه يحتاج الشاعر معهما الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومدّ المقصود، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ماينصرف من الصرف ، الى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه ، والكلام المنثور لا يحتاج فيـه الى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه .

وتفسير القلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد، فان الشعر الذى نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذى تكون معانيه تابعة لألفاظه ، وإنما هو الشعر المحكم الذى تكون فيه الألفاظ دائما تبعا للمعانى، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء .

ومما تنبه له القلقشندى خطر الموضوعات التى يعرض لها النثر حيث يراه مبنيا "على مصالح الأمة وقوام الرعية" لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة النـاس فى مهمات الدين وصلاح الحال ، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقلام[١] .

ونقل القلقشندى عن "مواد البيان" أن العرب كانت أحست بانحطاط رتبه الشعر عن الكلام المنثور، كما حكى أن امرأ القيس بن حجر همّ أبوه بقتله حين سمعه يترنم فى مجلس شرابه بقوله :

إســـقيا حجــرا على علاته   من كُمَيت لونها لون العــلق[٢]

وما روى أن النـابغة الجعدى كان سيدا فى قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته[٣] .

ونحن نرى مسألة امرئ القيس تحتاج الى تأويل، أما مسألة النـابغة الجعدى فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية . وقد تحادثت مرة مع الأستاذ ابراهيم مصطفى

---

(١) ص ٥٩   (٢) الكميت الخمر فى لونها كمتة وهى حمرة فى سواد ، والعلق بالتحريك الدم الشديد الحمرة .
(٣) ص ٦٠ و ٦١

فى مثل هذا الموضوع وكنا نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابلى باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابلى باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى، ولم أفلح فى إقناع صديق ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال[1] .

١٨ — وخلاصة هذا الفصل أن التأليف فى نقد النثر كان قليلا بالإضافة الى التأليف فى نقد الشعر، ويرجع ذلك الى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال، أما النثر فكان فى نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية، ولذلك كانوا حين ينقدونه يتوجهون فى الأغلب الى ما فيه من معان وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر فى أساليب الإنشاء، ظنا منهم أن الدقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ — ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده و إحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين، فان النثر اليوم هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب، والكتّاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى اليها الشعراء، لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شىء ، والشعر — كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان — غير خليق بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى، وهو حين يجود يظل مقصورا على بعض النوازع القلبية والنفسية التى لا تستريح إليها الجماهير إلا فى لحظات الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته، لا، فانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تتشوف الى التغنى بالشعر البليغ ، لأن الطبيعة لا تزال تتأنق فى خلق دواعى الشعر، ولا يزال فى الدنيا نجوم تتألق، وأزهار تتفتح، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشى عليها من أسراب الظباء .

---

(١) وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشرى بمناسبة ما كنت أثرته فى جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب : « إن أبى أجل قدرا من أن يشرح قصيدة لشاعر» وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر . وقديما زعموا أن الشافعى قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما نريد أن نَقْدِر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة فى كتّاب القرن الرابع، لأنه فى رأينا أوّل عصر فى اللغة العربية أراد فيه الكتّاب أن يستبدوا بمعانى الشعراء وألفاظهم وتعابيرهم، وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق فى جميع الأجواء .

٢٠ — وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن أوّل ما يهمنا هو المعانى والأغراض، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعانى وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب فى حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهداه . ومن أجل هذا اهتممنا اهتماما بالغا بتحليل آراء الكتّاب ومذاهبهم الاجتماعية ، واتجاهاتهم العقلية ، وثوراتهم النفسية والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتبا (écrivain) أى رجلا قديرا على تلوين أفكاره وخواطره تلوينا يستهوى العقول والألباب ، فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستميلنا الكتّاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء .

الباب الأول

تطور النثر الفني

من عصر النبوة إلى القرن الرابع

---

١ – النثر الجاهلى

١ — هل كان للعرب نثر فنىّ فى عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال ؟

لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبى ولا سياسىّ قبل عصر النبوّة ، وأن الإسلام هو الذى أحياهم بعد موت ونبههم بعد خمول .

وهذا الاتفاق يرجع إلى أصلين : فهو عند مؤرخى الإسلام من المسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقا وأنشأهم إنشاء : فنقلهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم الى الوجود . وهو عند مؤرخى اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك فى كثير من النصوص الأدبية التى أُثِرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال .

٢ — وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكل فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار الى أن مجموعة الأدب التى أُثِرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس ، وأنها على ضآلتها كانت مغنية فى تثقيف الأدباء لذلك العهد أمثال على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فان الثقافة التى ظهر أثرها فى خطباء العرب لعهد النبوّة كانت تشهد بوجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ — وهناك رأى مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين . وذلك الرأى يقضى بأن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أوّلية (Primitif) والحياة الأوّلية لا توجب النثر الفنى لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه فى المحاضرة التى افتتح بها دروسه

فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعا فى كراس خاص[١]. وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأى وأذاعه فى دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته فى كتاب (المجمل) الذى اشترك فى وضعه للمدارس الثانوية[٢]. وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذى وسموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد . وفى ذلك العصر كان النثر الفنى موجودا عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان ، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ، كأن العرب انفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال .

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب فى العصر الجاهلى ، وينكر إنكارا مطلقا أن يكون هناك نثر فنى كالذى يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة ، أو دفع شبهة ، أو إيضاح مشكلة . وفاته وفات أشياعه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبى عليه السلام حتى يُتَّهم بأنه لفَّق القرآن مما نُقِل إليه من علوم الأولين ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون[٣] ﴾ .

وكانت حجة المسيو مرسيه التى واجهنى بها فى صيف سنة ١٩٢٧ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن فى آثار الهند والفرس والروم . وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفى لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود . على أن فى القرآن الكفاية وهو أثر جاهلى كما سنبينه بعد قليل .

٤ — وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الاسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم ، وسلامة طباعهم ، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية ، وقلة التدوين ، وبُعدُ ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الاسلام ودوَّنها القرآن .

---

(١) يمكن الرجوع الى نص هذه المحاضرة فى
(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er & 2e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) سورة القصص .

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى اليها الكاتبون إذ ذاك، وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعيّن مدرسة نثرية ، ولا مذهبا اجتماعيا ، ولا رأيا عاما ، وإنما يعيّن أذواق واضعيه ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية .

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى، وهو منقول عن ابن الكلبى ، ومثبت فى الجزء الأوّل من الأمالى (١) : وهو حديث مختلَق وضع بعد الاسلام . وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلى مع أنه قيل — على فرض صحته — فى عصر النبوة : لأنى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية ، إذ لم يكن الاسلام آستطاع أن يمحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتّابة وأن يبدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين .

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبى إلى الجن ، وهى مسألة لا نعرض لها برفض ولا قبول ، وانما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعينا فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة اللغة اليمنية، فذكر "الزخيخ" و"الهوب" بدل النار، و"الواهر" بدل الساكن و"الجحمتين" بدل العينين، ليوقع فى رُوع القارئ صحة الرواية، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لاتخالفها إلا فى بعض الألفاظ.

وكل ما يمكن آستخلاصه من مثل هذا الحديث هو آطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشىء من الشعر. ولهذا قيمته فى تصوّر حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى، وإن لم يصل بنا إلى تحديد ماكان عليه من قوّة أو ضعف ووضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذى نقضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا

(١) ص ١٣٣ ج ١ طبع بولاق .

شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفّقين من أصحاب الحكمة فى عهد الجاهلية . وهى كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوأم الحميرى .

٦ — ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلى من آيات النثر الفنى خطب وفود العرب عند كسرى . وهى خطب طويلة فصيحة مثبتة فى الجزء الأول من العقد[1] الفريد . وأنا أرى أن هـذه الخطب منحولة وضعها الرواة بعـد الاسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يثبتوا فضـل العرب فى الجاهليـة ، وانهـم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسـيف واللسان . وأكبر الظن أنهـا وضعت فى العصر الإسـلامى، فان لغتهـا تشابه تمـام المشابهة للغـة التى كتبت بهـا مشاورة المهدى لأهل بيته فى بغـداد سنة ١٧٠[2] . ويكفى أن يرجع البـاحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشـاورة ليقتنع بأن التشابه بين الأثرين بيّن واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسـلوب . وتدلنـا خطب الوافدين على كسرى على تصوّر العرب بعد الاسلام لمـا كان عليه أسلافهم من المَنعة وقوة الجـانب ، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومتـه والخروج على سـلطانه . وهى فى جملتها صـورةٌ لشمائل العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسيرٌ لمـا أُخذ عليهم من الشـذوذ فى بعض الأوضاع الاجتماعية .

ويؤيد ما ذهبت إليه من أنها كتبت بعد الاسلام أننا نجد الكلام الذى فاه به كسرى موضوعا فى لغة تماثل تمـام المماثلة لغة أولئك الخطباء ، ممـا يدل على أن يدا تعمدت تحرير ما جرى فى تلك الوفادة . ولسنا نستطيع إثبات أن ذلك كان فى الجاهلية، فليس لدينا ما نعرف به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير فى قصره[3] ، ولكننا نعـرف أن العرب بعـد الإسلام

(١) ص ١٠١ — ١٠٦ ج ١ (٢) تجد نص هذه المشاورة فى العقد ص ٥٧ — ٦٤ ج ١

(٣) هذا لا يمنع انه كان فى قصر النعمان ديوان للانشاء : فان أبهة الملك توجب ذلك ، وكان أولئك الناس حريصين على مجاراة من يتصلون بهم من الفرس والروم فى التحلى بالمظاهر الرسمية ، وأخصها تنظيم دواوين الملوك .

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدى لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

"وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد"

٧ — والذى قلناه فى خطب الوفود يمكن أن تقوله فى أكثر القصص والمحاورات التى نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذى وضعت له والظرف الذى قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطى النثر الفنى فى العصر الجاهلى لونا نطمئن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف ما بقى من النثر : لأن الشعر موزونٌ مقفًّى يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل فى حوادث مشهودة ساعدت على ترديده ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير . (١) على أن فى القدماء من آرتاب فى صحة أكثر الشعر الجاهلى مثل محمد بن سلام ، وفى المحدَثين من يكاد يرفضه كله كالدكتور طه حسين .

وإذا كان الشعر الجاهلى مهددا بمثل هذا الرفض مع آتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والناسخين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين ، وكانت لهم شهرة مستفيضة جدا مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عُنُوا بتدوين أصول الآداب .

٨ — قلنا إنه كان للعرب نثر فنى فى الجاهلية ، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها فى جملتها من صنع الرواة ، فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر فنى قبل الاسلام ؟

(١) فى حديث لعبد الصمد بن الفضل الرقاشى : "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون : فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره" راجع البيان والتبيين ص ١٥٨ ج ١

فليعلم القارئ ان لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغى الأندهاش من عدّ القرآن أثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجـاهلى : إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده وتعابيره ، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرّده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى من الكتّاب والخطباء .

وقد قدّمت هـذا الشاهد للمسيو مرســيه الذى يرى أن النثر الفنى يبتدئ بابن المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد الى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى الى مخرج لطيف ، وذلك إعلانه أخيرا فى دروســه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنمـا هو قرآن[1] .

وقد بلغتنى عنه هذه الكلمة وأنا فى باريس ، فحسبته يمزح ، والمزاح مما يباح ! فلما عدت راجعته فوجدته يصر على أن الكلام ينقسم الى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينجو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قـدم النثر الفنى عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفرس واليونان[2] .

---

(١) وهى متابعة غير موفقة للمسيو مرسيه الذى يرى أن القرآن ليس خليقا بأن يسمى نثرا ويقول :

On est donc fondé à refuser à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند المسيو مرسيه أنه فى الأغلب مسجوع وموزون rimé et cadencé ولا يحرر من قيـد إلا ليقع فى قيد ، ولو صح رأى المسيو مرسيه لأنكرنا أن يكون فى آثار كتّاب القرن الرابع والخامس ما هو حليق بأن يسمى نثرا : لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يقف عند العصر الجاهلى فى نفى النثر الفنى ، فقد صرح فى إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٣ — أن القرن الأوّل بعد الهجرة لم يكن فيه نثر يعتدّ به ولم تكن للكتّاب أهمية اجتماعية . وانما كان الشأن للشعر والشعراء . وسيرى القارئ ان هذا الرأى قليل الحظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الاسلامى ؟ وكيف والاسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفرّ إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطَبون بغير ما يفهمون . والنبى جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى الحدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداةً لنشر تلك الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل، وهدتهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل ﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ . وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق ، و إلا فكيف يعقل أن يحدّث النبى قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد الى الإغراب فى الألفاظ والتعابير، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لواضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد تتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال إن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أخماسها مفردات عربية ثم لا يغنيك ذلك فى فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم ، ووصل الى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحا ويقينا، وآستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رءوسهم من عناد. أفكان شيء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية؟

١٠ — القرآن ليس بشعر، لأنه خال من القوافى والأوزان، وهذا موضع آتفاق .

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعرى لمن يقال هـذا الكلام ! أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهـذه مسألة لغوية لا دينية ، وليس فى أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ! أيقال لمؤرخى اللغة العربية؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منثور و إن تفرّد ببعض الخصائص والمميزات.

أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر و إنما هو قرآن لتصدّق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فنى قبل الإسلام ، لأن النثر الفنى لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أوّلية لا تبيح لأمثالهم غير التغنى بعواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفنى أنه أداة لشرح الحقائق التى توحى بها العقول ، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التى كانت تغزو أفئدة العرب فى الجاهلية ؟ أو من ذا الذى يرتاب فى أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن الى أصلها فى اللغة السريانية ، فهى هناك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون فى الصدر الأوّل يجهرون بتلاوة القرآن .

وهـذا منطق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون فى أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مما أنشئ للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، و إنما نزل لدفع عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود ، و إن كان هذا لا يمنع أنه اشتمل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة فى سبيل الدعاء والابتهال .

١١ — وأنا مع هـذا أقرر أن القرآن — بالرغم من وضوح لغته وقربها أشدّ القرب من الآثار الأدبية لعهد الاسلام — يعدّ أثرا أدبيا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التى جاءت بعده ، ويتفرّد بالصفات الآتية :

(أولا) خلوّه من الشعر الموزون خلوّا تاما ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر : فقد كان يمزج غالبا بأبيات من الشعر تأتى فى أثناء الرسائل، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .

(ثانيا) نظام الآيات الذى يسمح فى الغالب بوقف كامل يستريح عنده نَفَس القارئ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذى أثر عن الجاهليين وشاع بعد الاسلام.

(ثالثا) ضرب الأمثال وسَوق القصص . وهى طريقة لم تعرف إلا قليلا فى الآثار الأدبية لتلك العصور . والقرآن يستبيح تكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة، فى تصرف قد يكون قليلا فى كثير من الأحيان .

رابعا — الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التى اختلف فى تأويلها المفسرون ، والتى لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية[1] .

---

(١) كنت أتحدّث عن فواتح السور مع صديق وأستاذى المسيو بلانشو (Blanchot) فعرض علىّ تأويلا جديرا بالدرس والتحقيق، وفى رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هى كالحروف (A O I) التى توجد فى بعض المواطن من (Chansons de geste) فهى ليست إلا (Neúmes) أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون وقد كانت الموسيقا القديمة بسيطة يشار الى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة، وكان ذلك كافيا لتوجيه المغنى أو المرتل الى الصوت المقصود .

وفى الكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le chant grégorien) وفى أتيوبيا مثلا ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك : فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر بـ(الم) فى القرآن أو (A O I) فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . ميم) فهى ليست رمزا كتابيا، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية : فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل، وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية، مع تطوّعهم بعرض كثير من الفروض . ولو أنه كان معروفا فى الصدر الأوّل لما تعرّض لمثل هذا الإغفال .

ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقا فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الاسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد . والى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين .

خامسا — يظهر أن القرآن نُظم نظما غنائيا، وأن ترتيله كان ملحوظا فى أوضاعه النثرية، بدليل أن كثيرا من الآيات ينتهى قبل أن ينتهى المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفا فى صدر الاسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية . لذلك ندهش حين نرى فى سورة المدثر مثلا أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حلّ لهذا الإشكال إلا ما نلمحه فى الآيات الطوال من الاشارات التى تبيح الوقف القصير . على أن فى هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس فى نظم القرآن ، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة فى صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتزم القرآن السجع، فقد نجد سورا قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفا مسجوعة من السور الكبار . ولكن ذلك لا يطّرد فيه . وكثيرا ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل . وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنَى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التى لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعا موسيقيا، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك ما درجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يبتدئ القرآن السور بالبسملة ، وهى سمة إسلامية أريدَ بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات فوجدوا لذلك حديثا يقول "كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" .

١٢ — وهذه الخصائص ليست كل شيء فى متن القرآن، فهناك مميزات يختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تتميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية . ولكنه لا يمكن الفصل فيما تميز به أسلوب القرآن فى جملته تميزا جوهريا إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذى عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية : تلك تصويره للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التى كان يعرفها العرب قُبيل الاسلام، وتصويره لبعض ما كان يعرف العرب عن

أسلافهم الأولين ، وبعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب .

١٢ — والخلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم نثر فنى قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل [١] ، وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال .

(١) هو رأى المسيو مرسيه وتابعه الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن (شوقى وحافظ) .

٢ – نشأة النثر الفنى

هل الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية ؟ — الصور الفنية فى القرآن — وجوب الاهتمام بدرس عصر النبوّة — خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبيـة فى عصر النبوّة — آثار المعارضين من المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئـك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما ترك النبى وأصحـابه من الآثار الأدبية — ضياع الأدب الجاهلى — رأى ابن فارس فى قدم النحو والعروض — رأى فى قدم علم البديع

١ — بينا أن النثر الفنى وجد عند العرب فى الجاهلية . وهو يفرض نوعا من الزخرف يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزخرف فى طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان .

يرى المسيو مرسـيه أن الزخرف الفنى وصـل إلى العرب من الفـرس ، وكان الدكتور طه حسين يشايعه فى ذلك ، ثم تغير بغتة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان[(١)] . وكانت حجته وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين .

وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها الى رينان (Renan) ،وهى ترمى إلى الحكم بأن المدنية العربية غريبـة عن العرب ، وأن العرب مدينون فى علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهـذه المدرسة إلى حد بعيـد : فهو يقول بأن البلاغة العربية أُخذتْ حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى فى الشواهد والصور والتعابير[(٢)] . وأذكر أنه أوصانى بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب الفرس الذين أوحوا إلى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

---

(١) إشارة الى آراء متناقضة أعلنها الدكتور طه فى سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ (٢) قال ذلك فى محاضرة ألقاها فى مسرح حديقة الأزبكية فى ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أثبتـه فى البحث الذى نشر مع كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ — وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس فى حياتهم الأدبية،فان من الطبيعى أن تدخل فى اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاغتراب والاطلاع على آداب الناس فى مختلف الأقطار . فكل أمة فى الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالنماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار فى العلوم والفنون والآداب .

ولكنى — مع هذا — أقرر أن الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يجحد وهو القرآن .

٣ — أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبيعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب المتين . وإننا لنرى المؤلفين فى علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التى قد يعزّ وجودها أحيانا فى الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثا رجع فى تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن واهتم ببيان الجدة والروعة التى يحتويها ذلك الكتاب الفذ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدثونا ما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسّمين فى القرآن. هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل فى رأيى خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن الرأى العام فى مصر والشرق الإسلامى لا يسمح بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة . والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبىٌّ قبل الاسلام، والعرب بعد الاسلام فى رأيهم متأثرون بالفرس والروم. كأن العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافيــة ، وعقولهم القويّة، وأذواقهم السليمة، ما يكفى لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقرية أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنفرض جدلا أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثـلى بمعالجة هـذا البحث وأن المستشرقين كذلك اهتموا به فستظل المسألة فى رأيى معقّدة صعبة الحل : لأنه لا يمكن الوصول الى يقين فى تحديد العناصر الأدبية التى يحتويها القرآن إلا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عنـد العرب قبل الاســلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون، فانه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هى الصفات الأصــيلة فى النثر العربى، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة، أم هو فنٌّ من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل فى الوقت الحاضر الوصول الى نمـاذج أدبية تمثل من الأدب العربى ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام، وإذن بقى القرآن وحده يتقدّم الينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيها موثوقا به قبل الاسلام كما يعتقد المسلمون . والخطب والوصايا والرسائل التى نقلت الينا على أنها جاهليــة هى موضوع شك، وهى على فرض صحتها منسوبة الى القرن الذى يباشر الاســلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وجد فى مدّة قليلة لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربىٌّ صرف، لأن الرسول الذى تلقاه وبلّغه عربىّ، ولأنه نشأ فى بيئة عربية، وبلسان عربىّ مبين، وليس أمامنا أى دليــل على أنه متأثر تأثرا محسوسا بآداب أخرى أجنبية ، وإن كان هـذا ممكنا ، لأن العرب قبل الاســلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعـدين علاقات تجارية . وهذا كله لا يفيد غير الظن وهو لا يغنى عن اليقيـن .

أفأستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد : إن صور النثر العربى لا ينبغى البحث عن أصولها فى القرن الثانى والثالث، وإنمـا ينبغى الرجوع اليها فى القرآن، وإذن لا يصح الحكم

بأن الزخرف الفنى فى النثر العربى جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل فى اللغة العربية تطوّر مع الزمن وأخذ لونا بعد لون وآنتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت فى قوة هذا التطور وأضافت اليه قُوًى جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربى مدين للفرس فى تطوره ونموّه . وهذا يفسر جانبا من أسباب التطوّر ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرته كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقوّاد الذين شهدوا عصر النبوّة أو جاءوا بعده بقليل . ففى خطبة الوداع للنبى عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب علىّ وزياد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد فى القرآن .

٧ — ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الاسلام لم تكن تخالف كثيرا لغة القرآن لأن التطوّر الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلا . وانما يتطلب مدة طويلة . خصوصا فى أمة بدوية محافظة قليلة الآختراع والتبديل فى لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض آفتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعيِّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهى أيضا فى رأيى قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الاسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى عهد القوة

والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغمــوض[(١)] .

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت فى عهد متأخر حين اشتدت الخصومة بين علماء الكلام ، والجاحظ فى رأيه أول من اهتم بالبلاغة اهتماما جديا . وأنا أرى أن نشأة البلاغة قـديمة سبقت القرآن وتطورت من بعـده . ولكن ذلك كان يجرى ببساطة وسهولة لا توقع فى الزخرف، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرخو الآداب أن بشارا هو أول من كلف بالبديع فى شعره، وتبعه فى ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس، وأن أبا تمام تأثر مسلما، وأولئك من شعراء القرن الثانى، فهل نشأ البديع فى يوم وليلة، أم كان موجودا وتطور على ألسنة أولئك الشعراء ؟

٩ — ولنقيد هنا أن القرآن فى بلاغته إنما كان يخاطب قوما يفهمونه ويتذوقونه . وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع اتفاقا و بلا استعداد ، بل لا بد من أن تكون عند الجماهير التى سمعته وتأثرت به واعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة . وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التى ظفر بها العرب بعد الإسلام . ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلا أو كثيرا مع ما فى القرآن من فصاحة وعمق . وهذا الذى أقوله يحملنا على الشك فى التقاليد التى جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة وأنهـم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئا يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم . بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجا لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقيــة واجتماعية وفلسفية

(١) يذكر أبو هلال فى كتاب الصناعتين — ص ٣٥١ — أن أكثم بن صيفى كان اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : (إفصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضــه ببعض) وأن الحارث بن شمر الغسانى كان يقول لكاتبه المرقش : (اذا نزع بك الكلام الى الابتداء بغـير ما أنت فيه فافصــل بينه و بين تبيعته من الألفاظ ، فانك ان مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق نفرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستثقلتها الرواة) .

وفى أمثال هــذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاما فى صناعة الكلام . وفى ذلك ما يصلح للاستئناس به فى هذا الموضع . وليشك من شاء فى صحة هــذه النصوص فهى على كل حال صــورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية .

فى الحدود التى كان يستطيعها العرب، لأنه لا يمكن رجلا فردا مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم الى الوجود ومن الظلمات الى النور ومن العبودية الى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد آستعدّت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث آستطاع رجل واحد أن يكوِّن منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقا وأوروبا فى زمن وجيز . ولو كان يكفى أن يكون الانسان نبيا ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

١٠ — بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والآجتماعية فى عهد النبي لم تصوّر الى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غيّر أمة كاملة فى عشرين عاما ولقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الآقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرّخين ؟

وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه وآضطرته إلى الهجرة ؟

وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

أفيعقل أن تمرّ حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكتّاب وشياطين الشعراء ؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أسماره بين خواصه ، وأيامه فى ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقدا وتحليلا ويعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره فى الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول فى النفح

عن دياناتهم والقدح فى الديانة الجديدة التى تهاجمهم فى عقر دارهم، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورهبانهم؟ هل يعقل أن يمر ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة وألف رسالة، وألف قصيدة ؟

١١ — أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف ، أفكان حقا أن الاسلام لم يقم إلا على أكتاف ذلك العدد القليل ؟

إن الحياة العقلية فى عهد النبىّ لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية، ويرجع ضياع صورتها فى رأيى إلى سببين :

أوّلا — ضياع آثار حزب المعارضة معقول، لأنه انهزم ولم يعد فى الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللذاعة التى هوجم بها النبىّ وأنصاره . خصوصا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والحرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التى رُمىَ بها النبىّ وجُرّح بها الاسلام، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعنا أن نفهم إلى أى حدّ كان خصوم النبىّ يفهمون آراءه الاجتماعية والمنزلية، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذى كان يستبيح مهاجمة النبىّ ورسالته فى عنف وإقذاع .

ثانيا — ضياع آثار النبىّ وأصحابه معقول أيضا. فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهدّدا بالضياع، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدّد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس كما هو الحال فى الأحاديث التى دوّنت أخيرا، بعد إذ مات الحفاظ الأوّلون .

١٢ — وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدوّنوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فانه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصوّر ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووفاءهم وغدرهم، إلى آخر الألوان النفسية التى يقتضيها عصر التحوّل والانتقال فى جميع الأمم بلا استثناء .

وانما ينبغى أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوىٌّ متين يقرب فى روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فان البيئة واحدة واللغــة واحدة والعصر واحد، ولم يكن محمد إلا بشرا ألهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن نفســه وصف العرب فى عدّة مواطن بأنهــم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعنــاد ، ولم تكن فصاحتهم صمتا ، ولا جدلهم سكوتا، ولا خصومتهم فرارا ، ولا عنادهم آنهزاما ، ولكنهم بالفعــل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب .

١٣ — والواقع أن تســمية ذلك العصر بالجاهلى تسمية دينية صرفة، فان العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع الى الأدب كانوا يرونه من أرق العصور ، وكانوا يتأثرون شعراءه وخطباءه وحكماءه فى كثير من أبواب القــول[1] .

وقد آستمسك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدُّوه وحده المرجع فى ضــبط أساليب اللغة العربية . ولم يتخذوا شواهد من الشــعر الإسلامى إلا فى الحدود التى حسبوها قريبة أشدّ القرب من النزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يجتهدون فى تذوق الأدب الجاهلى وفى رياضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعابيره وألفاظه . وقد نَفَق ذلك الأدب نفاقا عظيما حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال فى لغــة جاهلية ليبيعها فى الأسواق وفى قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مَثَل ذلك الشعر الجاهلى مَثَل الآثار المصرية التى يخلقها التجار خلقا ليبيعوها للأغنياء من عشاق العاديّات . وقــد نشأ عن

(١) ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن العصر الجاهلى لا يتمثل أمامنا فى بواديه ، فان البوادى العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التى تعتمد على العقل والمنطق . وانما نقصد الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شعر ونثر وقصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمدائن الكبيرة فى العصر الجاهلى كانت فيها حضارة تتمثل فى مظاهر مادية من المنازل والقصور، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال ، وهذه وتلك توجب ثروة من الترف العقلى والوجدانى . والنثر الفنى مظهر من ترف العقل والوجدان .

هذا فنٌّ من النقد برع فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلى الصحيح من الأدب الجاهلى المصنوع ، نكاية بالرواة الملفقين، أو حبا فى تصفية الأدب الجاهلى من الزيف المدخول .

وفى ذلك مقنع لمن يحب أن يطمئن الى أن العصر الجاهلى لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين . أما فى الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان، كما تشهد آثار القدماء .

* * *

١٤ — هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلى منحول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أبين أنه لا تعارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول باثباته : فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلى واسع النطاق ، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التى تفرقت فى الحواضر العربية .

يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهلى ؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن تتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية .

وهنا يبتسم المنكرون قائلين : ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع !

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب : لأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثانى والثالث فقد عرفوه وتدارسوه . فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التى جمعها المفضَّل الضبى فى القرن الثانى مجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلى كثير جدا اختيرت منه المفضليات ؟

١٥ — أضيف الى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتبا كثيرة من آثار العصر الجاهلى ، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعا تاما ، وفى ذلك ما يشعرنا بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم .

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلى . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما آختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هـذا أن أبا تمـام خلق ديوان الحماسة خلقا ، ولكن معناه أن الحيـاة كتبت لذلك الديوان . وليس أبو تمـام وحده هو الذى عنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون آهتموا بذلك النوع من الآختيار ثم ضاعت مختاراتهـم ولم يبق إلا ذكراها فى كتب التراجم . ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلى بما قرأناه منه فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدا لم يكتب عليها الفناء وغفل عن آستغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بهـا ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقـيرة التى جمعت ذخائرها آتفاقا ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسيها فكرة الأستقصاء . وفى مكاتب اسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهلى لم يستغلها أحد، ولعلها لو فُهرستْ ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحى مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدبين عندنا يحكمون على الغائب بلا بينة ولا شهود !

١٦ — أنا أقول بأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدّمون فكانوا يعرفونه و يروونه و يتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك .

ولكنى مع هـذا أقرر أن هناك شطرا من الأدب الجاهلى قبره المسلمون عمـدا فى القرن الأوّل، وإلى القارئ البيان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الاسلاميـة آختلافا شديدا . ففى الأعوام التى سبقت الاسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أونصرانية أو يهودية، فلما جاء الاسـلام تبدلت تلك التقاليـد وصار من اللائق تناسى ما يمسها من الأدب الجاهلى وصفا أو شرحا أو تعليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صونا للوحدة الاسلامية . وليس فى هـذا شىء منكر، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية أو طباع ذميمة ، وفى حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجايا والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون فى العرب المسلمين من تناوله شعراء الجاهلية وكتابهم وخطباؤهم بالقدح والثلب والتحقير ، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت فى الجاهلية ثم ألّف بينها الاسلام . أفيكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيروونه ويحيونه وفيه إثارةٌ لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد ؟

١٧ — إن العرب فى الصدر الأوّل من الاسلام تناسوا عامدين أبوابا كثيرة من الأدب الذى كان محفوظا قُبيل الاسلام صيانة للوحدة الاسلامية من عبث الأهواء . وليس هـذا الذى نقوله مجرّد افتراض : ففى التاريخ الاسلامى شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشاءمون من رواية الأدب الجاهلى . وهم بالطبع لا يتشاءمون إلا من الأدب الذى يصوّر ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون الى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذى تقضى به فى الشعر هو نفس ما نقضى به فى الرسائل والخطب والأسجاع . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يستبيح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأسجاعهم وهى تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يروى ما أُثِر عن النصارى واليهود قبيل الاسلام، فى حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسى جميع الآداب التى تنافى أدب القرآن[1] .

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصرى قبل الحرب العالمية التى ثارت سنة ١٩١٤ فان رسائل الشيخ عبد العزيز شاويش ضد الأقباط ورسائله فى مهاجمة سعد باشا زغلول ، وقصائد حافظ بك ابراهيم فى حادثة دنشواى والمثالب التى طوق بها عنق ابراهيم بك الهلباوى ، كل ذلك لا تمكن روايته اليوم : لأن فيه إثارة للعداوة التى كانت بين المسلمين والأقباط . وفيه تحقير لناس رضى عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصرى قبل الحرب فأبت أن تنشرها جريدة (البلاغ) فزادنى ذلك اقتناعا بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد ابراهيم الجزيرى خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس تحرير جريدة السياسة =

١٨ — من أجل هـذا كله أستبعد أن يكون العـرب ظلوا خالى الذهن من العلوم الأدبيـة الى أن آتصلوا بالفرس والروم . وإذا كان المستشرقون ومن لفّ لَفَّهـم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أوّل من فكر فى النحو ويرجحون أن يكون النحو أثرا من آتصال العرب بالسريان والروم، فأنا أستقلّ أن يكون أبو الأسود أوّل من فكر فى النحو ، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الاسـلام، وأن آتصال العـرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن ، كأن لغـة العرب بِدعٌ من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبـدّل . وذلك رأى واضح البطلان . وانمـا أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهـم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبيـة . ألسنا نرى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة[١] ؟ ولغة القرآن هى لغة قريش ، وهى التى تهمنا، فإذا كنا نجهل إلى الآن كيف تطوّرت وكيف نشأت علومها وفنونها، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين وأن لا نجـزم برأى ستنقضه الأيام .

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه ، وأرجو أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيهـا القرآن ، والتى تستحق أن تدرس من جديد درسا علميا يكشف اللثـام عن ذلك العصر الذى سمّوه خطأً عصر الجهل ، وهو فى رأيى أهل لأن يسمى عهـد معرفة ونور .

* * *

١٩ — على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من آرتاب فى نشأة العلوم اللغوية ، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الحطيئة التى أوّلهـا :

= مقالا بين فيه أن فى نشر خطب سعد باشا كاملة خطرا على ائتلاف الأحزاب ، لأن فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطبا جارحة فى مهاجمة ثروت باشا ، وكان من أصـدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارئ أننا اليوم أشدّ تسامحا ممـا كان عليه العرب فى صدر الاسلام ، فما نكرهه نحن كان عندهم إثمـا وفسوقا .

(١) عدم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب لذلك العهد كانوا عرفوا النحو ، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التعبير ، وهذا كاف للاقتناع بأنهم كانوا فكروا فى ربطها بقواعد النحو وأصول البيان .

شاقتك أظعـان لليـ لى دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجئ مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بالرفع لاختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكون ، وهذا برهان على فهم الحطيئة لقواعد النحو والعروض[1] .

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء والهمزة والمد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الكتابة[2] . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام .

٢٠ — والذى قضى به ابن فارس فى نشأة النحو والعروض هو الذى نقضى به نحن فى نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فان القرآن سجل مظهرا من مظاهر الزخرف والسجع ، فهو إذن كان موجودا قبل الاسلام ، وليس السجع فقط هو الذى قيده القرآن ، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدها من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب فى جاهليتهم اهتموا بالنثر الفنى اهتماما ظهر أثره وعرفت خواصه فى خطب الخطباء ورسائل الكتاب ، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقييد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماما جديا بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين فى هذا الفن الجميل[3] .

---

(١) الصاحبى ص ٩ (٢) الصاحبى ص ١١ (٣) جاء فى زهر الآداب (ص ١١٤ ج ٤) مانصه :

"قال أبو بكر الصولى : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبى العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته : فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعبا من شعابه ، وأرانا أحسن ما قيل فى بابه" .

فالمسألة إذن هى أن ابن المعتز كان يدعى التفوق فى علم البديع . فعلم البديع كان معروفا . ومن الصعب أن نقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجىء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه .

وماقلناه فى ابن المعتز نقوله فى قدامة بن جعفر الذى عدوه من أوائل المؤلفين فى البديع . وفى حديث خنافر الحميرى — المثبت فى الأمالى ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه "ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف" وهذا الحديث موضوع بلا شك ، ولكن فيه إشارة الى أنه كان مفهوما عند الرواة أن الناس لعهد النبوة كانوا يميزون بين السجع المطبوع ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ – النثر الفنى فى العصر الاسلامى (*)

١ – جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وحبّب إليهم القوّة والجاه والملك، فانطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكتّاب والخطباء والشعراء . وكان من دواعى ذيوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوّة، ثم اشتجار الفتن بينهم : فتن التحزب والاختلاف والانقسام التى كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة فى تلك الأمة التى توارت فى الصحراء زمنا غير قليل . وأول مظهر لقوّة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذى قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سرا وعلانية عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التى كانت تثور فى المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة واشتدت الرغبة فى نشر الدعوة فى الأمصار الإسلامية . ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التى سبقتها فى الجاهلية، لأن العرب شرعوا يتحضرون ويسلكون سبيل الأمم المدنة فى التدوين ، فكان من أثر ذلك أنْ حفظت آثار الكتّاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعيّن مظاهر النثر وخواصه فى عصر بنى أمية وصدر عصر بنى العباس .

٢ – وأوّل ما ينبغى إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التى عرفها العرب حين آنبثوا بفضل الاسلام فى الممالك التى فتحوها واكتسبوا بالمعاشرة والمصاهرة روحا جديدا ظهر أثره فى الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى ليمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير مالم يكن يعطيهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النثر فى العصر الاسلامى تمكن القارئ من تصوّر العهود التى سبقت القرن الرابع ، وكل جزء من هذا الفصل يحتاج الى درس مطوّل . ولكنا وقفنا عند حدود الاشارة لأن الفصل برمته نوع من التمهيد . وأهم ما نحتاجه هو الكلام عن السجع ، وسنفرده بفصل خاص .

لو ظلوا محصورين فى أرجاء الجزيرة العربية[١]. ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة، فان هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربى عن فهم المدنيات الأجنبية، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التى كانت تعيب الأرستوقراطية العربية، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه .

٣ — ومن خواص الكتابة عدم التأنق فى البدء والختام فقد كانت الجاهلية تكتب فى أول كتبها « باسمك اللهم » ثم تكتب من فلان إلى فلان، ويمضون فى الغرض، وكان النبى يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول : من محمد رسول الله الى فلان، ويبتدئ صدورها غالبا بالسلام عليكم، أو السلام على من اتبع الهدى ويثنّى بالتحميد بعد السلام فيقول : إنى أحمد الله إليك الذى لا إله الا هو، ويتخلص من صدر الكتاب الى المقصود تارة بأما بعد وأخرى بغيرها، وكان يختمها فى الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من اتبع الهدى[٢] .

٤ — والذى يهمنا تقييده فى هذا الفصل هو المنهج العام الذى جرى عليه النثر فى ذلك العصر، ويظهر مما اطلعنا عليه أن مسألة الايجاز والإطناب كانت تجرى فى الغالب على مقتضى

(١) ليس معنى هذا أننا ننكر أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربيــة ، لا ، فنحن نؤمن بأن القرآن كان من أقوى البواعث على النشاط الأدبى، وزراه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية التى ازدهرت فى الحواضر الاسلامية . وحسب القارئ أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة الى غاية : هى الايمان باعجاز القرآن . ولم يقف أثره عنــد إحياء العلوم الأدبية ، وانمــا أثر تأثيرا بينا فى أساليب الكتاب والخطباء حتى لوحظ أن ابن نباتة الخطيب كان يسلك فى نثره مسلك الأساليب القرآنية وحتى دوّن المتقدمون أن الروح القرآنى كان يظهر على لسان الصابى وعلى سنان قلمه البليغ ، فن المجازفة أن نوافق المسيو مرسيه حين يقول فى انكار أثر القرآن فى النثر الفنى :

L'influence du livre saint sur le developpement de la plus ancienne prose littéraire arabe est infinement moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1re & 2e trimestres 1927. P. 19).

ولا قيمة لمــا أشار اليه المسيو مرسيه عقب كلمته هذه من أن العرب كانوا يتجنبون محاكاة القرآن، فان ذلك لا ينافى تأثرهم به وتأثيره فيهم ، فان هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصبغ الآثار الأدبية بصبغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف الهرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد .

(٢) راجع خطاب النبى محمد وكتاب أبى بكر للسلمين يعهـــد الى عمر بالخــلافة وخطاب عثمان الى على يستنجده ص ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الوسيط .

الحال فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى وفقا للظروف التى يكتب فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون فى ذلك الى قاعدة غير المناسبات التى توجب الكلام، فتقضى مرة بالاطناب وتقضى حينا بالايجاز . وسحبان وائل الذى عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانا نصف يوم أُثِرت عنه الخطب القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل علىّ بن أبى طالب وخطبه ووصاياه وعهوده الى ولاته تجرى على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهدا يبين فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القطر الذى يرعاه، ويوجز حين يكتب الى بعض خواصه فى شأن معين لا يقتضى التطويل[1] .

٥ — غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكتّاب والخطباء كانوا جميعا موفّقين فى ترك الفضول، بل يظهر أنه فى أوائل العصر العباسى وقع اضطراب فى تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين، فاننا نجد ابن قتيبة يدعو فى مقدّمة كتابه أدب الكاتب الى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه بحيث لا يعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام، ونراه يلاحظ أن الكتّاب لا يفرقون بين من يكتب اليه "أنا فعلت ذلك" ومن يكتب اليه "نحن فعلنا ذلك"[2] .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذى ساد فى العصر الاسلامى حيث ناقش كلمة أبرويز فى الايجاز "وآجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول" فبين أن الايجاز ليس محمودا فى كل موضع ، ولا بمختار فى كل كتاب ، بل لكل مقام مقال، وأنه لو كان الايجاز محمودا فى كل الأحوال لجرى عليه القرآن، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للايجاز ، وكرر تارة للإفهام ، ثم اندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاما فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائر أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن

(١) راجع فصول نهج البلاغة . (٢) ص ١٥ من أدب الكاتب .

كتب إلى عامة فى فتح أو آستصلاح أن يوجز، وأنه لو كتب كاتب إلى أهـل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته :

"أما بعـد فانى أراك تقدّم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت، والسلام" .

لم يعمل هذا الكلام فى انفسها عمله فى نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ، ويحذر وينذر (١) .

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة آبن قتيبة هذه دليل على أن النثر فى الصدر الأوّل كان موسوما بالايجـاز وأن آبن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بمـا كان يكتفى به أمثال يزيد بن الوليد (٢) . وهذا خطأ فى الاستنتاج فان ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضى الظروف . والقرآن أساس المنهج الكتابى لذلك العصر بلا شك. والذى لا يمكن نكرانه أنه حصـل تطوّر فى النـثر فى العصور الاسلامية الأولى ، ولكنه كان تطوّرا بطيئا لم تظهر آثاره إلا فى طرائق التعبير عن الشـئون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبـة الخلفاء ، وهـذا التطوّر متأثر باتصال العرب بالفرس، فقـد كان لهؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب فى محاكاتها حين آطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب (٣) .

---

(١) أدب الكاتب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربى ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبـد الحميد بن يحيى هو أوّل من نقل تقاليد الفرس الى الكتابة العربيـة (راجع الصناعتين ص ٥١) ومعنى هذا أنه كانت للعرب تقاليـد كتابية أضاف اليها عبد الحميد زيادات فنية فى الفواتح والخواتم . فهو لم ينشئ فنا جديدا ، ولكنه أصلح فنا قديما ، وهذا يؤيد رأينا فى نشأة النثر الفنى ، فهو فن قديم عرفه العرب فى الجاهلية ، وتم نضجه فى العصر الاسلامى .

ومن ظريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون فى شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يهتموا به اهتماما يذكر فى دائرة المعارف الاسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يقلدهم فزعم أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشخصية آمرئ القيس ! ! وتحدّانا أن نثبت أن الجاحظ ذكره فى كتبه ، فهالنا هذا التحدّى ، وعدنا الى كتب الجاحظ نسألها أخبار عبد الحميد ، فرأينا الجاحظ تحدّث عنه فى رسائله وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة البحث ، فعاد فتحدّث الى تلاميذه بأن عبـد الحميد بن يحيي كان يعرف اليونانية ! ! ثم أثبت ذلك فى بحث قدمه الى مؤتمر =

٦ — ويهمنا فوق ما تقدّم أن ننص على أن النثر فى العصر الاسلامى لم يؤخذ عليه التزام السجع، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطا مقبولا لا تكلف فيه، ولا نكاد نجد فى القرن الأوّل والثانى وأوائل الثالث كاتبا يتخذ السجع طابعا ملازما لنثره، خصوصا الكتّاب المشاهير الذين أغنوا تلك العهود بأدبهم كابن المقفع وعبد الحميد بن يحيى . والسجع فى الأصل حلية يزدان بها النثر، وهى مقبولة ما دامت تجرى فى حدود الاعتدال والقصد، كما وقع فى القرآن، فان القرآن يسجع أحيانا ولكنه لا يلتزم السجع، لذلك نجا من التكلف والابتذال .

والصنعة التى أثرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتّاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول، وأن الكاتب يجب أن يصفى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلا يتجنب الراء فى خطبه إذ كان ألثغ ، بالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران فى الكلام(١) . وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتّاب ذلك العصر وخطبائه، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان .

٧ — والذى يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتّاب والخطباء ببسط المعانى وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة فى مغزاها ومدلولها . وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصوّر الكتّاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم . وهذا التكرير الذى أشير اليه ليس كالتكرير الذى سأنكره فيما بعد على كتّاب القرن الرابع، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله كالذى وقع فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

” واذكر ياأمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت به

= المستشرقين ... ويظهر أن الدكتور طه نسى أن يحدّث تلاميذه وقراءه عمن دله على مكان عبد الحميد فى كتب الجاحظ . فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق، ورحم الله ابن الرومى إذ قال :

وعزيز علىّ مدحى لنفسى ... غير أنى جشمته للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد يظهر حاله

(١) البيان والتبيين ص ١٠ ج ١ طبعة سنة ١٣٣٢ هـ .

يطول فيه ثواؤك، و يفارقك أحباؤك، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا، فتزودْ له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه "[1].

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكتّاب ولكنه يظل مقبولا أيضا كالذى وقع فى مشاورة المهدى لأهل بيته فى مثل هذه التعابير :

" أيها المهدى! إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة آستفرغت رأيهم وآستغرقت أشغالهم وآستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعرفت بهم، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفيأتهم ظلالها وقرمتهم نواجذها، فلو عجمت ما قِبَلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، وآستودعتنا من أمانتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، و إنفاذ حكمك، و إظهار حقك "[2].

وقد شاع هذا الأسلوب فى القرن الثانى والثالث، واتخذه الجاحظ خاصة أسلوبا مختارا لا يحيد عنه، يظهر ذلك فى مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفى رسائله الأدبية والاجتماعية . وفى رأيى أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملال ، ولولا أنه كان يخلط فى كتابته بين الجدّ والهزل والحلو والمر لانصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالما بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يتملق أهواءهم وأذواقهم وأن ينسيهم برقة دعابته وحلاوة استطراده إسرافَه فى أسلوبه وتطويلَه الذى عرف به واضطر للدفاع عنه فى مقدمة كتاب الحيوان .

٨ — ومن مظاهر الصنعة فى ذلك العصر تعمد الخيال، وتلك صفة نجدها عند أكثر الكتاب والخطباء، فنجد الحجاج مثلا يقول :

(١) نهاية الأرب ص ٢٣٨ ج ٦ (٢) راجع العقد الفريد ص ٥٧ — ٦٤ ج ١

" يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى " .

ويقـــول :

"إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه! — كبّ كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرّها عـودا وأصلبها عمودا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[1] " .

وإيثار الخيال فى النثر ظاهر فى خطب على بن أبى طالب وزياد ورسائل عبد الحميـد[2]، وحكم الواعظين والنساك فى تلك الأيام، ومنشورات الخوارج التى هاجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغى تجاهـله عند تقرير الخواص التى امتاز بهـا النثر فى ذلك الحين .

هـذه المظاهر الفنية التى طبع بها النثر فى عصر بنى أمية وصـدر دولة بنى العباس كانت مقـدّمة لنوع من الاسراف فى الزخرف أفسد النثر فيما بعـد ، وأثقله بألوان من السجع والازدواج .

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و١٦٥ ج ٢ (٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيى هو رسالتـه التى وجهها إلى الكتّاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهنة ومواساة الزملاء — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤ – أطوار السجع

١ – لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا إجمالها فى هذا الفصل[١] . وترجع أهمية هذا البحث الى مايجب من تبديد الشبهة التى تأصلت فى أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا فى القرن الرابع . فقد حدثنى المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابا لمؤلف قديم آسمه الأخضرى ، وأن المؤلف منسوب الى القرن الثالث . ويصرّ المسيو مرسيه على ضمه الى رجال القرن الرابع :لأنه يلتزم السجع . وآستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على آستبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع . وفى هذا الفصل تُبدَّد أمثال هذه الشبهات ، ويعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولع بها الكتّاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكفى أن يكون الكتّاب مسجوعا ليطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم وليم مرسيه وطه حسين[٢] .

٢ – ولنذكر أولا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهو فى أكثر اللغات يجرى بآطراد فى الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالبا مسجوعة ، وقد يجنى السجع على المعنى أحيانا فى تعابير الفطريين من أهل البادية والريف ، وفى ذلك دلالة على أن المحسّنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلا فى لحظة واحدة من أسجاع العامة فيما سار على ألسنتهم من مختلف

---

(١) عرضنا لهذا الموضوع فى الأصل الفرنسى ، ثم عدنا ففصلناه بعض التفصيل فى المقدّمة الفرنسية التى نشرناها مع (الرسالة العذراء) .

(٢) من الانصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير فى كثير من موضوعات النثر الفنى بعد الأبحاث الجدّية التى قدّمناها الى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية فى باريس .

الحكم والأمثال[1] . ولو رجع القارئ الى احدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلا ، لوجد السجع يجرى بأطراد فى هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa place)

ومثـــل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثـــل :

La nuit, tous les chats sont gris

وكالمثل السائر :

Vouloir, c'est pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، كخطبة قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبيانى[2] . ومع أننا نرتاب فى صحة تلك الخطب فاننا نرى فى وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهــم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة الى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله فى التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا الى نص جاهلى لا ريب فيــه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سمــاته الأساسيــة . والقرآن نثر جاهلىّ ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا ينكر متعنت

---

(١) أسجاع العــامة كثيرة ، ومن طريفها ما جرى فى وصف الشهور المصرية مثل : "كياك ، صباحك مساك" يريدون وصفه بقصر النهار . و "برمهات ، روح الغيط وهات" لأن برمهات موسم ظهور البقول . و "برموده ، دق العموده" لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والفول والشعير . و يقولون فى موعد انصرام الشتاء " اذا اخضر التوت البرد يموت" ، ومن فكاهاتهم : "عيشك كويس يا خالتى ! من سوء بختى ، يا بنت اختى !"

وأذكر بمناسبة السجع فى الشهور المصرية أن هناك سجعا يماثله عند عوام الفرنسيين مثل :

En Avril, n'enlève pas un fil

ومثـــل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة فى ص ٣٨ من مجموعة التحفة البهية .

أن القرآن وَضَع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سورا مسجوعة تمـاثل ماكان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين . ولا ننس أن الوثنية كانت دينا يؤمن به أهـله فى طاعة وخشوع، وكانت لهم طقوس فى هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدّى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود. والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب فى صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفـرق بين الملتين يرجع الى المعـانى ويكاد ينعـدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولو دخلت كنيسـة فى باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التى تتلى بهـا الدعوات بعد الصلاة فى مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الاسلام والنصرانيـة واليهودية ترجع الى مهـد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة، فلا تحسب أن القرآن غيّر مناهج الناس فى يوم وليلة، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم الى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هى التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فنا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية ، والصلوات بطبيعتها تحتاج الى لون من الفن يتمثل فى السجع . لأن فيـه آستجابة للوسيقا الوجدانية فى قلوب المتبتلين . واليك أمثلة من سجع القرآن .

” وكم أرسلنا من نبى فى الأوّلين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يسـتهزئون . فأهلكنا أشدّ منهم بطشا ومضى مثـل الأوّلين . ولئن سألتهم من خلق السـموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعـل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقـدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخـرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا آستويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون[1] “ .

(١) سورة الزخرف .

” والسابقون السابقون، أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأوّلين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة[(١)] . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلّدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدّعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلًا سلاما سلاما . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة[(٢)] “ .

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يتخلف بغاءة فى بعض الأحايين : كأن تكون القافية نونية فتجيء فى وسط السياق فاصلة ميمية . وفى هذا برهان على أن المعنى هو الأصل، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق فى الحرف ، وانما يقصد به التلحين والتنغيم، لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية[(٣)] .

٤ — وفى الأحاديث النبوية سجع مقصود، خلافا لما ظن المسيو ماسينيون[(٤)]، ومن أمثلته :

” أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام “ .

ونقل الغزالى فى باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول :

” اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى الى طبَع، ومن طمع فى غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع، فانه بئس الضجيع، ومن الخيانة، فانها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أُردّ الى أرذل العمر[(٥)] “ .

---

(١) موضونة : منسوجة بقضبان من الذهب والجواهر . (٢) سورة الواقعة . (٣) الباقلانى ينفى ورود السجع فى القرآن وقد نقضنا رأيه من الأساس . راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١

(٤) فى ملاحظاته التى أبداها يوم مناقشته الرسالة فى السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولنقيد أن السجع لا يطّرد فى الحديث كما لا يطّرد فى القرآن، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم، لما فى التزامها فى قهر المعانى على متابعة الألفاظ .

وقد نجد فى الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراع فيها القافية، كقوله عليه السلام :

"اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعثى، وترد بها ألفتى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتلهمنى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء"[(1)] .

وهذا النوع من "الوزن" قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود اليه بعد قليل .

٥ — ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يُلتزم فى كثير من الأحيان . والى القارئ خطبة منسوبة الى علىّ بن أبى طالب :

"دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم . وانما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها . واعلموا عباد الله أنكم وماأنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَن قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأعمر ديارا ، وأبعد آثارا ، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخورَ والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة[(2)] الملحَدة. التى قد بنى بالخراب فِناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين ، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الديار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأنْ قد صرتم الى ما صاروا

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٢٢ (٢) اللاطئة : اللاصقة بالأرض .

اليـه ، وآرتهنكم ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المسـتودَع ، فكيف بكم لوتناهت بكم الأمور ، وبعثرت القبور [1] " .

وقد أراد المسيو ديموميين (Demombynes) أن يغض من قيمة ما نسب الى على بن أبى طالب من خطب ورسائل ، استنادا الى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فنتحفظ فى هذه المسألة كل التحفظ ، لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب على وعمر وعثمان كانت محفوظة فى مجموعات [2] . ومعنى هذا أن خطب علىّ كانت معروفـة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهـج البلاغة إلى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعيـة ، فلم لا نقول من جانبنـا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعيـة [3] ؟ .

ولو فرضنا أن أمثال ما آستشهدنا به من خطب علىّ ليس له فان ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب ، لأن من يقلد خطيبـا يحرص على تمثيـل مذهبـه فى الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفـة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة:

" قل لعلىّ : الرقاد محلمـة ، والهوى مقحمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وأن أكيس الكيس من منـح الشارد تألفا ، وقارب البعيـد تلطفا ، ووزن كل شىء بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ، . . ما هـذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ؟ ما هـذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هـذه القذاة التى تغشت ناظرك ؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هـذا الذى لبست بسببه جلد النمر ، وآشتملت عليه بالشحناء والنكر ... الخ [4] " .

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ — ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار اليه ابن أبى الحديد فى شرحه ثم أفاض فى نقض ذلك الاتهام . راجع ص ٥٤٦ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه فى حديث السقيفة من التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ — فاذا تخطينا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجعون[١]، ورأينا مثلا هشام بن عبد الملك يقول :

" وإنا لنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيرا، وما نمنع تقتيرا. وما نحن إلا خزّان الله فى بلاده، وأمناؤه على عباده، فان أذن أعطينا، وإذا منع أبينا، ولو كان كل قائل يصدّق، وكل سائل يستحق، ما جبهنا قائلا، ولا رددنا سائلا[٢] " .

روى هذا الكلام على أنه مرتجل فى الرد على خطيب وفد أهل الحجاز . وفى روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعا حين يحتفل به القائلون .

وقد أُثِر عن الخلفاء والقوّاد كلام مسجوع فى مواطن لا ينتظر فيها تأنق فى التعبير، كأن يكون الكلام جوابا على سؤال . من ذلك ما روى أن عقال بن شبة دخل على هشام وأراد أن يقبّل يده فقال : لا يفعل هذا من العرب إلا هَلُوع ؛ ولا من العجم إلا خَضُوع . وقالت امرأة لأبى مسلم : ناولنى يدك أقبلها فقد نذرت . فقال : عليك بالحجر الأسود تصيبين أجرا، وتقضين نذرا[٣] .

---

(١) ولا ننس أن نشير الى أن لغة الزهاد والنساك فى العصر الأموى كانت فى الأغلب مسجوعة، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصرى يوصى عمر بن عبد العزيز :

" واذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور ... وأنت فى مهل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، لأنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات من دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك "
راجع نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥

(٣) (محاضرات الأصفهانى ج ١ ص ١٤٦)

وكان المسيو مرسيه (Marçais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع فى العصر الأموى . وكانت حجته ماحدّث الجاحظ أن معاوية أملى كتابا الى رجل فقال فيه : "لهو أهون علىّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة" ثم قال لكاتبه : "امح من كلاب الحرة . واكتب : من الكلاب" كأنه كره آتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه(١) .

وقد راجعنا المسيو مرسيه فى هذا وأبنّا له أن معاوية تحامى السجع فى هذا الموطن لأنه فنّ يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع ، وبالغ المسيو مرسيه فحدّثنى فى أحد أيام سبتمبر سـنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو أنه آستقصى أخباره لرآه يذكر أن من البلاغة " ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل(٢) " فآبن المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة . ولاسيما إذا لاحظنا أن الحصرى يذكر أن بشار بن برد كان "سجاعا خطيبا(٣)" وأن المختار بن أبى عبيد كانت له " أسجاع يصنعها ، وألفاظ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى اليه(٤) " وفى هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفتراة ، كانت تنتظر صورة مسجوعة ، لأن السجع كان من تقاليد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين فى عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموى لرينا كتاباتهم " موزونة " على طريقة السجع ، وإن لم تلتزم فيها القافية ، وآنظر قول عبد الحميد بن يحيى :

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذى رواه الجاحظ عن فهم ابن المقفع لقيمة السجع وعدّه بابا من البلاغة كاف فى الرد على من يشك فى نسب كتاب الى ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعمد السجع أحيانا كما فعل مؤلف ضحى الاسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب فى أحد كتب ابن المقفع .

(٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — ولنلاحظ أن « سجاعا » رواها الحصرى بالسين المهملة . ووصف الجاحظ فى الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسلمة بأنه كان « شجاعا خطيبا وبارع اللسان جوادا » فأثبت « شجاعا » بالشين المعجمة . و « سجاعا » و « شجاعا » وردتا مقرونتين الى « خطيبا » ونحن نرجح أن التحريف وقع فى كتاب الجاحظ .

(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

” ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التى التى يستخف بها أهل البطالة و يتسرع نحوها ذوو الجهالة ، ويجد فيها أهل الحسد مقالا لعيب يرفعونه ، ولطعن فى حق يجحدونه ، مع ما فى ذلك من نقص الرأى ، ودرن العرض ، وهدم الشرف ، وتأثيل الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد ، فاذا قدح لاحَ شرره ، ولهب وميضه ، ووقد تضرمه . وليست فى أحد أقوى سطوة ، وأظهر توقدا ، وأعلى كمونا ، وأسرع اليه بالعيب منها الى من كان فى سنك من أغفال الرجال[١] “ .

وفى مثل هذا النثر حرية ظاهرة ، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع فى كثير من الفقرات . وروبت لعبد الحميد أسجاع كقوله : ” الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فمنهم علق مضغة لا يباع ، ومنهم غل مظنة لا يبتاع[٢] “ .

وابن المقفع أكثر كتاب العصر الأموى حرية فى صوغ الجملة ، ولكن يتفق له أحيانا أن يرصع كلامه على منهج الوزن فى السجع فيقول مثلا :

” وليس كل ذى نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى فى ذوى الألباب ... فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده ، وليعد له طول أيامه ، وليؤثره على أهوائه ، فانه قد رام أمرا جسيما لا يصلح على الغفلة ، ولا يدرك بالمعجزة ، ولا يصبر على الأثرة “ .

وما نسميه الوزن نريد به توافق الفواصل الذى يتحصل به هدوء النَفس عند تلاوة الكلام الموصوف .

٨ — ومما يعيّن ميل الأذواق العربية الى إيثار السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أثر عن الاعراب . حدث الأصمعى أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

” كانوا إذا اصطفوا تحت القتام ، ومطرت بينهم السهام ، يشربون الحمام . و إذا تصالحوا بالسيوف ، فغرت فاها الحتوف[٣] “ .

---

(١) رسائل البلغاء ص ٢٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢٨ (٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٩٠

وعذلت أعرابية أباها فى إتلاف ماله بالجود فقالت :

"حبس المال، أنفع للعيال، من بذل الوجه فى السؤال، فقد قل النوال، وكثر البخال، وقد أتلفت الطارف والتلاد، وبقيت تطلب ما فى أيدى العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره[1]" .

وقال بعض الأعراب :

" نالنا وسمىّ[2] ، وخلفه ولىّ[3]، فالأرض كأنها وشىٌ عبقرىّ، ثم أتتنا غيوم جراد ، بمناجل حداد، فخربت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكول، بالضعيف المأكول[4] " .

ووعظ أعرابى رجلا وهو يقول :

"ويحك ! إن فلانا وإن ضحك إليك، فانه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقه عليك، إن عقاربه لتسرى اليك . فان لم تتخذه عدوا فى علانيتك، فلا تجعله صديقا فى سريرتك[5] " .

ودخل اعرابى على خالد بن عبد الله القسرى فقال :

" أصلح الله الأمير ! شيخ كبير، حدته إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام، ومطولة الأعوام، فذهبت أمواله، وذعذعت[6] آباله، وتغيرت أحواله . فان رأى الأمير أن يجبره بفضله وينعشه بسجله، ويرده إلى أهله[7] " .

والسجع فى كلام الأعراب كثير جدا فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرته، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب وآهتم الوضاعون بصوغها مسجوعه لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن آبن دريد .

---

(١) زهر الآداب ج ٤ ص١٤٢ (٢) الوسمى : المطر الأول . (٣) الولى : المطر الثانى .

(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٣ . (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٠٦ (٦) ذعذعت : فرقت .

(٧) أمالى القالى ج ٢ ص ٤٩ .

٩ — وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهده فى العصر الاسلامى قول عبد الله بن شدّاد :

” أى بنى . لا تزهدن فى معروف، فان الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال : فان الكريم يحتال، والدنىّ عيال، وكن أحسن ماتكون فى الظاهر حالا، أقل ما تكون فى الباطن مالا[1] “ .

وقال علقمة بن لبيد لأبنه :

” يا بنى، إذا نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شدّ صولك، وإن مددت يدك بفضل مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وان سألته أعطاك ، وان سكت عنه آبتداك ، وان نزلت بك احدى الملمات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، وان حاول حويلا آمرك[2] ، وان تنازعتما منفسا آثرك[3] “ .

١٠ — وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج ” ياعجاج ! بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشيد الأبنية، أمكنه إخراب الأخبية “ .

قال : فما يمنعك من ذلك؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نُظلَم، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظلِم، فعلام الهجاء؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأنّى لك عز يمنعك من أن تُظلَم؟

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٠٥ (٢) آمرك : شاورك . (٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

قال : الأدب البارع، والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ فقال : الأدب المستطرف والطبع التالد[1] .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل الى معاوية بالشام كتابا صحبة صعصعة بن صوحان فسار به حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وبالباب جماعة من بنى أمية، فأخذته النعال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين" وكثرت عليه الجلبة، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا بن أبى سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لوكانت الرسل تُقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك! ثم اعترضه معاوية فى الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعا أو تكلفا، فقال له ممن الرجل؟ فأجاب : من نزار قال: وما نزار؟ قال : كان إذا غزا انحوش[2]، وإذا انصرف انكمش، وإذا لقى افترش. قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة؟ قال : كان يغزو بالخيل، ويغير بالليل، ويجود بالنيل . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أمهر، قال : وما أمهر؟ قال : كان إذا طلب أفضى، وإذا أدرك أرضى، وإذا آب أنضى . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة. قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد، ويعد الجياد، ويجيد الجلاد[3] . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من دعمىّ . قال : وما دعمىّ؟ قال : كان نارا ساطعا ، وشرا قاطعا، وخيرا نافعا . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات ، ويكثر الغارات ، ويحمى الجارات. قال: فمن أى ولده أنت ؟ قال: من عبد القيس. قال وما عبد القيس؟ قال : أبطال ذادة ، جحاجحة سادة ، صناديد قادة. قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من أفصى . قال :

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انحوش : أسرع، ومثلها انكمش . (٣) رواية صبح الأعشى تصف جديلة بأنه « كان فى الحرب سيفا قاطعا ، وفى المكرمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لهبا ساطعا » وبين رواية صبح الأعشى والأمالى خلاف ملموس ، وهو دليل على التصرف فى أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى ص ٢٣٠ و ٢٣١ ج ٢

وما أفصى؟ قال : كانت رماحهم مُشرعة، وقدورهم مترعة، وجفانهم مفرغة[1] . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْز . قال : وما لُكَيْز ؟ قال : كان يباشر القتال، و يعانق الأبطال، ويبدّد الأموال . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من عِجل . قال : وما عِجل؟ قال الليوث الضراغمة ، الملوك القماقمة ، القروم القشاعمة . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال كان يسعر الحرب ، ويجيد الضرب ، و يكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال : هو الهام للهمام ، والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمة الله : ما تركت لهذا الحى من قريش شيئا !. قال : بل تركت لهم أكثره وأحبه ! قال : وما تركت لهم؟ قال : تركت لهم الو بر والمدر، والأبيض والأصفر، والصفا والمشعر، والقبة والمفخر، والسرير والمنبر، والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أسيرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! » .

تلك رواية الأمالى . أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتختم هكذا بالسؤال عن عبد القيس :

فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حسنا أبيض وهابا، يقدّم لضيفه ما وجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق . يقوم للناس مقام الغيث من السماء[2] .

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل فى سياقه على ثلاث قواف فى كل جواب ، و يطول فى الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الآرتجال ، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شىء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

---

(١) هى كذلك بالغين المعجمة فى الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة، ولعل الصواب « مفرعة » بالعين المهملة ، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . وليلاحظ القارئ أن (أفصى) ذكر مرتين فى هذه الرواية ، ولعل هناك خطأ فى الوضع .

(٢) صبح الأعشى ص ٢٠٥ ج ١

الى خطيب كان مضرب المثل فى البيان المطوّل وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمه نظما جديدا بعد خروجه من قصر معاوية بن أبى سفيان [١] .

وهنا أيضا لا نحتاج الى كثير من الشواهد : لأن السجع فى حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذيوع بحيث لا يحتاج فى إثباته الى تدليل .

١١ — ومن طريف ما هدانا اليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة ، فهو عندهم فنّ من القول كالقصيد يتقربون به الى قلوب الأغنياء [٢] . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر، وبعضها سهل مقبول، وهى فى جملتها تنبئنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقا وبهاء، وينظم قائله فى سلك أهل البيان .

قال صاحب الأمالى : "حدّثنا أبو بكر رحمه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا فى المسجد الحرام اذ وقف علينا أعرابى فقال : يامسلمون! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . انى امرؤ من أهل هذا الملطاط [٣] الشرقى المواصى [٤] أسياف [٥] تهامة . عكفت [٦] علينا سنون مُحُش [٧] فاجتبت [٨] الذرى، وهشمت [٩] العرى [١٠]، وجمشت [١١] النجم [١٢]، وأعجت [١٣] البهم، وهمت [١٤]

(١) هذا النمط من الأجوبة المسجوعة كثير جدا فيما نقله الرواة ، وجزء منه منسوب الى نساء شهيرات . ويمكن الحكم بأن هذا النوع يمثل أدبا قائما بذاته يجد القارىء مواده متفرقة فى كتب الأخبار والأقاصيص . وفن المقامات الذى ظهر ظهورا قويا فى القرن الرابع متأثر بهذه الأحاديث ، فالمقامة حديث مطول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع ويفترض عند بطل المقامة ذكاء يماثل الذكاء الذى يظهر فى أحاديث الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبى العلاء المعرى فى رسالة المنيح :

"وقد كان فيما مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، وتزينوا بالسجع ، تزين المحول بالرجع" راجع نحول البلاغة ص ٢٠٠ . (٣) الملطاط : كل شفير نهر أو واد . (٤) المواصى والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت اذا اتصل بعضه ببعض . (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر . (٦) عكفت : أقامت : (٧) محش جمع محوش وهى التى تحش الكلأ أى تحرقه . (٨) اجتبت : اقتلعت من الجب وهو القطع . (٩) هشمت : كسرت . (١٠) العرى جمع عروة وهى هنا القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجدب . (١١) جمشت : احتلقت . (١٢) النجم ما نجم من النبت ولم يستقل على ساق . (١٣) أعجت : صيرتها عجايا . والعجى المهزول من سوء الغذاء . (١٤) همت : أذابت .

الشحم ، والتحبت اللحم [١] ، وأججنت العظم [٢] ، وغادرت التراب مورا [٣] ، والماء غورا [٤] ، والناس أوزاعا [٥] ، والنبط قعاعا [٦] ، والضهل جزاعا [٧] ، والمقام جعجاعا [٨] ، يصبحنا الهاوى [٩] ، ويطارقنا العاوى [١٠] ، فخرجت لا أتلفع بوصيدة [١١] ، ولا أتقوت هبيدة [١٢] ، فالبخصات وقعة [١٣] ، والركبات زلعة [١٤] ، والأطراف قفعة [١٥] ، والجسم مسلهم [١٦] ، والنظر مدرهم [١٧] ، أعشو فأغطش [١٨] ، وأضحى فأخفش [١٩] ، أسهل ظالعا [٢٠] ، وأحزن راكعا [٢١] ، فهل من آمر بمير [٢٢] ، أوداع بخير ؟ وقاكم الله سطوة القادرة ، وملكة الكاهر [٢٣] ، وسوء الموارد ، وفضوح المصادر [٢٤] " .

وهذا النوع من الكلام كثير أيضا . فلا نشغل أنفسنا بايراد الشواهد . ولنذكر أننا نفترض أن بديع الزمان اقتبس هـذا المنهج فى مقاماته ، فان صاحبه أبا الفتح الاسكندرى يسأل الناس فى المساجد والأسواق على هـذا المنوال . وهذه الطريقة فى الاستجداء لا تزال معروفة : ففى مضايف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون اليهم برقى من الكلام المسجوع : بعضه فى المدح وبعضه فى الدعاء .

ولنقيد أيضا أن ما روى فى سجع العفاة يرجع الى بابين : باب تغلب فيه الصنعة حتى لتميل النفس لنسبته الى صانعى الأخبار والأقاصيص ، كالكلمة التى نقلناها آنفا ، فان أغلب الظن أنها من وضع بعض اللغويين .

---

(١) التحبت اللحم : عرقته عن العظم . (٢) أججنت العظم عوجته فصيرته كالمحجن . (٣) المور : الذى يذهب ويجىء . (٤) الغور : الغائر . (٥) أوزاع : فرق . (٦) النبط الماء الذى يستخرج من البئر أول ما تحفر والقعاع الماء المالح المر . (٧) الضهل القليل من الماء ، والجزاع أشد المياه مرارة . (٨) الجعجاع : الذى لا يطمئن من قعد عليه . (٩) الهاوى : الجراد . (١٠) العاوى : الذئب . (١١) الوصيدة : كل منسوج . (١٢) الهبيدة : حب الحنظل . (١٣) البخصات جمع بخصة وهى لحم باطن القدم ، والوقعة من قولهم وقع الرجل اذا اشتكى لحم باطن قدمه . (١٤) زلعة : متشققة . (١٥) قفعة : مقفعة وهى التى تقبضت ويبست . (١٦) مسلهم : مدبر . (١٧) المدرهم : الضعيف البصر الذى ضعف بصره من جوع أو مرض . (١٨) أعشو : أنظر ، فأغطش أى أصير غطشا ، والغطش ضعف فى البصر . (١٩) الخفش : فساد فى الجفون . (٢٠) يقول : اذا مشيت فى السهول ظلعت أى غمزت . (٢١) أى اذا علا الحزن ركع وكبا لوجهه . (٢٢) المير : العطية . (٢٣) القاهر والكاهر واحد ، وقرأ بعضهم «فأما اليتيم فلا تكهر» . (٢٤) راجع هذه القطعة وشرحها فى الأمالى ج ١ ص ١١٣ — ١١٦ طبع بولاق .

وباب تغلب عليه الفطرة كالأسجاع التى يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحاة . من ذلك ما روى أن أعرابيا وقف يسأل فعبث به فتى فقال: ممن أنت ؟ فقال الأعرابى : من صعصعة . فقال الفتى : من أيهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة : فليس مقامى مقام مجادلة ولا مفاخرة . وأنا أقول : فان لم أكن من هاماتهم، فلست من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويت من فضيلتك إلا النقص فى حسبك . فامتعض الأعرابى لذلك . فجعل الفتى يعتذر ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابى : " يا هذا إنك منذ اليوم آذيتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك وآعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن آعتذر أفرط، وإن حدّث أسقط ، وإن قدر تسلط ، وإن عزم على أمر تورّط، وإن جلس مجلس الوقار تبسط . أعوذ بالله منك، ومن حال آضطرتنى الى مثلك ! "[1] .

ووقف أعرابى على قوم فمنعوه فقال :

" اللهم آشغلنا بذكرك ، وأعذنا من سخطك ، وأولجنا الى عفوك، فقد ضنّ خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ماعندك، وآتنا من الدنيا القنعان[2] . وإن كان كثيرها يسخطك، فلا خير فيما يسخطك[3] " .

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ٢ (٢) القنعان : القناعة . (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء نذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة ، منها قول أحدهم عشية عرفة : "اللهم إن هذه العشية من عشايا منحتك ، وأحد أيام زلفتك ... أتتك الضوامر من الفج العميق ، وجابت اليك المهارق من شعب المضيق ، ترجو مالا خلف له من وعدك ، ولا مترَّك له من عظيم أجرك ، أبرزت إليك وجوهها المصونة ، صابرة على لفح السمائم ، وبرد ليل التمائم ، ليدركوا بذلك رضوانك" ثم قال : «الهى ! إن كنت مددت يدى إليك داعيا ، فطالما كفيتى ساهيا ، نعمتك تظاهرها علىّ عند الغفلة ، فكيف أيأس منها عند الرجعة ... فهب لى ، يارب ، الصلاح فى الولد ، والأمن فى البلد ، وعافنى من شر الحسد ، ومن شر الدهر النكد» راجع الأمالى ص ٣٢٣ ج ٢

ولا يغض من قيمة هذه الأسجاع أن يظن أنها موضوعة ، فقد أشرنا غير مرة إلى أن الواضعين يراعون الذوق المعروف عند آختراع الأحاديث .

وأظرف ما قرأت فى سؤال الأعراب هذه الكلمات :

” أين الوجـوه الصِّباح، والعقول الصحاح، والألسن الفِصاح ، والأنساب الصِّراح ، والمكارم الرباح، والصدور الفِساح . تعيذنى من مقامى هذا[١]“ .

١٢ — وأصرح من كل ما سلف فى إيثار السجع ما قاله عبـد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى وقد سئل : ” لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى و إقامة الوزن ؟ « فأجاب : «إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك . ولكنى أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر ، فالحفظ اليـه أسرع، والآذن لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد و بقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره[٢]“ .

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر اليه نظرة تقدير و إعجاب، وأنه خليق بأن يحفظ و يروى، وأن الكلام المنثور الخالى من الوزن والقافية يراد به فى الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير فى الحاضرين والغائبين فيوجب كلاما مصنوعا يستأهل البقاء، وكانت الصنعة أظهر ما تكون فى القوافى والأوزان .

وفى هذا الكلام أيضا دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية[٣] . والأمر كذلك، فيما نظن، فى سائر اللغات : لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

(١) البيان ص ٢٣٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ — وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثانى وله كلام طريف مع شبيب بن شبة يجده القارىء فى الصناعتين (ص ٣٥٠) وسيرد له ذكر فى كلام الجاحظ بعد صفحات من هذا الفصل فى الدفاع عن السجع . (٣) كلمة الرقاشى تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشره ، فالشعر من باب أولى لم يضع منه إلا قليل ، أى أن معظمه كان موجودا عند أهل القرن الثانى .

ولنشر هنا الى خطأ وقع فيه صاحب (الريحان والريعان) فيما نقله عنه القلقشندى فى صبح الأعشى — ج ١ ص ٢١٠ — إذ قال : « إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره» ثم مضى فبين أن المنثور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر. وانما كان هـذا خطأ لأنه اعتمد على كلمة الرقاشى وأساء فهمها ، فان كلمة الرقاشى كانت جوابا على من سأله كيف يترك الكلام المرسل و يؤثر الكلام المسجوع . ولا ننس أن المنثور والمزدوج من ضروب النثر الفنى . فصاحب «الريحان والريعان» على هذا أخطأ مرتين حيث فهم كلام الرقاشى على غير وجهه وحيث ظن أن المنثور والمزدوج مقصور على كلام الخطباء .

١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرا فى الجاهلية، وكان يغلب على النثر فى عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى، وإن حرص عليه القصاص والخطباء وناقلو أحاديث الأعراب، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع. كقول كلثوم بن عمرو العتابى فى مخاطبة صديق[1]:

"أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه فى الجنة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة: استتماما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وآدخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف، وآشتد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فآنتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك. مع علمى بأنك موضع الرائد، وأنك تغطى عين الحاسد. والله أعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل. وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته".

والعتابى لا يقف عند السجع، بل يكلف أحيانا بالبديع، وهو أدخل فى الصنعة من السجع، وآنظر قوله لمالك بن طوق:

"أيها الأمير! إن عشيرك من أحسن عشرتك، وإن ابن عمك من عمّك غيره، وإن قريبك من قرب منك نفعه، وإن أحب الناس إليك، من كان أخفهم ثقلا عليك"[2].

١٤ — فاذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف، ورأينا أبا العيناء، مثلا، يؤلف كتابا فى ذم أحمد بن الخصيب يحكى فيه أن جماعة من الفضلاء آجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره آبن الخصيب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل، فتجاذبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد —: كان جهله غامرا لعقله، وسفهه قاهرا لحلمه. وقال آخر: لو كان دابة لتقاعس فى عنانه، وحرن فى ميدانه. وقال

(١) الأمالى ج ٢ ص ١٣٦ . (٢) ياقوت ج ٦ ص ٢١٤ وانظر (الصناعتين) ص ٢٥٢

آخر : كنت اذا وقع لفظه فى سمعى، أحسست النقصان فى عقلى . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم آبن الخصيب، يكتب بما لا يصيب، ولو نطق لنطق بنَوك عجيب[1] .

وأظهر من هذا فى إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى و يصف خرابها ويذم بغـــداد :

”كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيهـا ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار ، فما لها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا، على أنها و إن جفيت معشوقة السكنى ، رحبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان، وحصباؤها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر، وطعامها هنىء ، وشرابهـا مرىء ، لا كبلدتكم الوسخة السماء، الومدة المـاء والهواء، جوها غبار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين، وترابها سرجين، وحيطانها نزوز ، وتشرينهـا تموز، فكم فى شمسها من محترق، وفى ظلها من غرق، ضيقة الديار، و سيئة الجوار، أهلها ذئاب، وكلامهم سباب، وسائلُهم محروم، ومالهم مكتوم : لا يجوز إنفاقه، ولا يحل خناقه . حشوشهم مسابل، وطرقهم مزابل، وحيطانهم أخصاص، و بيوتهم أقفاص، ولكل مكروه أجل، وللبقاع دول،والدهر يسير بالمقيم، و يمزج البؤس بالنعيم[2]“ .

ولآبن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والآزدواج :

” لا يزال الاخوان يسافرون فى المودة حتى يبلغوا الشقة، فاذا بلغوا ألقوا عصا التسيار، وآطمأنت بهـم الدار ، وأقبلت وفود النصائح، وأمنت خبايا الضمائر، فحلوا عقـد التحفظ، ونزعوا ملابس التخلق“ .

وقال من كلمة ثالثة :

”سارفى جيوش عليهم أردية السيوف، وأقمصة الحديد، وكأن رماحهم قرون الوعول ،

(١) ياقوت ج ٧ ص ٦٩ (٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٢

وكأن دروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنقع سرادقها ، قد نشرت فى وجوهها غرر كأنها صحائف الرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجين ، وقرطت عذرا كأنها الشنف ، تتاقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ريح النصر"[1] .

وفى هذه الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة مطلقة ، كما سنرى عند كتاب القرن الرابع ، وانما هى طلائع لهجوم السجع نراها عند كتاب القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لا تخلق مرة واحدة ، أو لا تبعث مرة واحدة ، ولكنها تأخذ فى الظهور والانتشار على نحو ما تفعل تباشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذيوع بدعة السجع فى القرن الثالث ما رأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة فى كتاب الزهرة ، وفى هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فنا يؤلَف ويستطاب . وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين :

"من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل الى شفائه — ليس بلبيب ، من لم يصف ما به لطبيب — إذا صح الظفر ، وقعت الغِيَر — التذلل للحبيب ، من شيم الأديب — من طال سروره ، قصرت شهوره — من كان ظريفا ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من مُنع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار من الديار — ما عتب من اغتفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر الغدر ، سهل الهجر — من راعه الفراق ، ملكه الاشتياق — ما خلق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق — من غاب قرينه ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوىَ أساه" .

وأرى فى هذا الشاهد مقنعا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة فى القرن الرابع ، ففى هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابا مسجوعا لرجل من كتاب القرن

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٦٥

الثالث بدون أن يكون فى ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى خطيرة القـرن الرابع؛ كما فعل بعض النـاس[١] .

ولنقيد هنا أن السجع فى عناوين فصول الكتاب الذى شرعه ابن داود — وقـد يكون سُبِق اليه — هو أصل السجع فى عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع فى العصور التالية، حتى لنجد عهودا بأكملهـا يطرد فيهـا السجع فى العناوين . ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للثعالبى كتب كاتبه على أصله ما نصه :

"كان ينبغى للمؤلف رحم الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب المعرب، فيمن غاب عنه المطرب" .

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحيانا مسجوعة، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان :

"الى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق[٢]" .

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا فى الدعوة الى ترك السجع : فللأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جدا نشره أولا فى جريدة الشورى واسمه :

"الارتسامات اللطاف، فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف[٣]" .

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود فى سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث وعاش صدرا من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشّاء، وإلى القارئ نماذج من سجعه فى عناوين الفصول :

(١) جاء فى كتاب (ضحى الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ما نصه : "ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الجاحظ — لم يتكلف فيـه سجع، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها، وإن تكلف فيه سجع ففقرة أو فقرتان، فأما كتاب كله سجع فهذا ما لا نعرفه فى هذا العصر" راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراستنا لأطوار السجع تقنعنـا بأن حكم الأستاذ غير صحيح، وأنه لا مانع أن توجد فى القـرن الثالث مؤلفات مسجوعة، لأن السجع بدأ يكثر فى هذا القرن حتى فى لغة التأليف كما فى الفقرات التى نقلناها عن أبى العيناء، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدعة السجع فى التأليف فى القرن الخامس . ومن المعقول أن يكون لطغيان السجع فى التأليف بوا كير ظهرت فى القرن الثالث .

(٢) ياقوت ص ٢٥٢ ج ٦

(٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون فى عناوين ما يطبعون من المصنفات : فقد سمى فلوجل كتابه فى فهرس الألفاظ القرآنية : "نجوم الفرقان، فى أطراف القرآن"

"باب النهى عن ممازحة الأخلاء، والنهى عن مفاكهة الأوداء — باب الحث على صحبة الاخوان ، والإغراء على مودّة الخلان ، والرغبة فى أهـل الصلاح والإيمان — باب ما جاء فى قبح خلف المواعيد، وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد — باب الحث على كتمان السر، والترغيب فى حفظ ماحنت عليه ضلوع الصدر — باب ماسئل عنه أهل الصدق، من تمـام خلات العشق — باب صـفة ذم القيان ، ونفوذ حيلتهن فى الفتيان — باب زى الظراف، فى التكك والنعال والخفاف — باب زيهم المخصوص، فى الخواتيم والفصوص —"[1] .

والقارئ يرى هذا السجع فى العناوين أقل جودة من سجع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إيثار هذا المؤلف للسجع فى كثير من مواد كتاب "الموشى" وفى هذا دليل واضح على أن السجع دخل فى لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله فى وصف الأديب :

"فحقيق على الأديب أن يخزن لسـانه عن نطقه، ولا يرسـله فى غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحـلم، ولا يعجل فى الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحـدا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لا يفهم، فانه ربما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب"[2] .

وحدّثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجاعا فى أسجاع !

فما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

"القناعة، خير من الضراعة — التقلل، خير من التذلل — السلامة، خير من الندامة — بادر الفرصة ، قبل أن تكون الغصة — الهرب، قبل الطلب — الفرار، قبـل الحصار — الرجوع، قبل الوقوع —"[3] .

---

(١) راجع فهرس الموشى . (٢) الموشى ص ٨ (٣) ص ١٦٣

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص :

"الحين، خير من البين — القبر ، أفسح من الهجر — الموت، خير من الفوت — كأس الهجر، أمر من الصبر — طول الجفاء، يكدر الصفاء — آفة الحبيب، نظر الرقيب — الهوى، ثوب الضنى — ذهب الفراق، بحيلة العشاق"(١) .

فهذا "الحق" من الكلف بالسجع فى الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدا لما سنراه من التزام السجع فى القرن الرابع . ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب فى الغزل والوصف والهجاء وقع فى الاكثر مسجوعا، كأن السجع هو الفن الملائم للموضوعات التى كانت فى الأصل مما يتحدّث عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرها الوزن والتقفية، و إن كان يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التى يوجبها القريض .

ولا ينبغى أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة فى القرن الثالث ، فان عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراه ضربا من التكلف الممقوت ، ومع هذا وجدت فى عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ) و (حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليالى سطيح) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على السجع، لايتحامونه إلا كارهين، ليسايروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية التى تغلب فى بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة وانما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض المناقضة وترفع رأسها فى غير خوف ولا إشفاق . ولولا ما صنعت الصحافة فى رياضة الكتّاب المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتّاب.

١٧ — ولنأخذ فى محاولة أخرى جزيلة النفع ، وهى درس آراء علماء البيان الذين تكلموا عن السجع، ففى كلامهم تحديد لأهمية السجع فى البلاغة العربية . ولنبدأ بالجاحظ، وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا ، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وانظر قوله فى الرد على الشعوبية :

---

(١) ص ١٦٤

"ونحن — أبقاك الله ! — إذا آدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج[١] ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل[٢]" .

ونراه يخص الأسجاع بأبواب من كتابه (البيان والتبين) فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد و بعضها طريف، فيقول :

قال عمر بن ذر : (والله المستعان على ألسنة تصف ، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف) ولما مدح عتيبة بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعصى الرحمن ، و يطيع الشيطان، ويقول البهتان) وفى الحديث المأثور : (يقول العبد : مالى ! وانما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت) ووصف أعرابى رجلا فقال: (صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لئيم النجر[٣]، عظيم الكبر، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل[٤]، إن كثر الجند بها جاعوا، و إن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العُبّاد الى باب بعض الملوك فقال : (باب جديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شىء تَمنى وأى شىء أحب اليك ؟ فقال : (اواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أُمر بقتله — :

(١) المزدوج فى كلام الجاحظ باب من السجع فانا نراه فى كتاب البيان يعقد بابا لمزدوج الكلام — ص ٥٨ و ٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : " اللهم علمه الحساب والكتاب ، وقه العذاب " وقال رجل من بنى أسد لشيخ مات ابنه : " اصبر ، أبا أمامة ، فانه فرط أفرطته ، وخير قدّمته ، وذخر ادّخرته " فقال مجيبا له : " ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته " وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنهما فقال : " جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر " .

وسنرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية فى الازدواج ، و بها يتم السجع ، و إنما يشترطون أن تتفق الكلمات فى الوزن مثل " المستقيم " و" المستبين " .

(٢) ص ١٣ ج ٣ من البيان والتبيين .

(٣) النجر : الأصل .

(٤) الدقل : أردأ التمر .

أجزعت من الموت ؟ فقال : (إن أجزع فقد أرى كفنا منشورا، وسيفا مشهورا، وقبرا محفورا) .[1]

وعقد الجاحظ فصلا آخر للأسجاع جاء فيه :

ومن الأسجاع قول أيوب بن القِرِّية وقد كان دعى للكلام فحبس عليه القول : (قد طال السمر، وسقط القمر، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟) فأجابه فتى من عبد القيس : (قد طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق[2]، فلينطق من نطق[3]) .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأسجاع ؛ بل أضاف الى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها ، فحدّث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل : فقد قيل للذى قال : "يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهلّ، أليس مثل ذلك يُطلّ" فقال رسول الله " أسجع كسجع الجاهلية"؟ فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق فى كلامه.[4]

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرا، قليلا كان ذلك أم كثيرا، وسمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل[4] .

قال الجاحظ : وكان الذى كره الأسجاع بعينها — وان كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئِيًّا من الجن مثل (حاذى جهينة) ومثل (شق) و (سطيح) و (عزى سلمة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع، كقوله (والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء[5]، واقعة ببقعاء[6]، لقد نفر المجد بنى العشراء ، للمجد والسناء) وهذا الباب كثير. ألا ترى

(١) البيان ج ١ ص ١٥٧ (٢) اللثق : الندى . (٣) البيان ج ١ ص ١٦٣
(٤) البيان ج ١ ص ١٥٨ (٥) الصقعاء : الشمس . (٦) البقعاء : السنة المجدبة .

أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار . قالوا : فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم [1] .

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا . وكان الفضل بن عيسى الرقاشى سجاعا فى قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه [1] .

١٨ — ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم فى بلاغة العرب، الثانية أن ناسا من أهل القرن الأول والثانى كرهوا السجع لأنه كان يذكّر بأساليب الكهان، الثالثة أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن سجع . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فان الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة فى اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك انتفع بها القسيسون والكهان فى الجاهلية، وقبلها القرآن، وآثرها النبى وأصحابه، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهى فى الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ — ومن الباحثين الذين فصلوا فى مسألة السجع الخفاجى فى كتابه "سر الفصاحة" [2] وقد تكلم عن السجع فى غير موضع ، وحدثنا "أن السجع الواقع موقعه كثير لمن طلبه" [3] ونقل نموذجا من سجع الأحنف بن قيس ، وخطّأ الرمانى فى قوله إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الاطلاق، لأن الرمانى إن أراد بالسجع مايكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له وهو

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط منه نسختان بدار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ و ٤٤٢ بلاغة .
(٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلَّف فذلك عيب، والفوصل مثله . وكما يعرض التكلف فى السجع عنـد طلب تماثل الحروف كذلك يعرض فى الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

” أظن أن الذى دعا أصحابنا الى تسـمية كل ما فى القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا رغبتُهم فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فأما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعا و بين مشاركة جميعه فى كونه عرضا وصوتا وحروفا وكلاما وعربيا ومؤلفا ... ولا فرق بين الفواصل التى تماثل حروفها فى المقاطع و بين السجع . فان قال قائل : إذا كان عنـدكم أن السجع محمود فهلّا ورد القرآن كله مسجوعا ؟ وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعا و بعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعا جريا به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم “ [1] .

وأشار الخفاجى الى جماعة من زعماء الكتّاب فى القرن الثانى والثالث فبين أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . ” لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى اليسير من المواضع “ .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتّاب القرن الثانى والثالث كانوا يحرصون على على ألوان من الفن فى كتاباتهم . وتلك الألوان الفنيـة ظاهرة كل الظهور لمن يقـرأ آثار أولئك الكتّاب .

ولنضف الى ما أسلفناه من رأى الخفاجى أنه و إن كان يميل الى إيثار السجع حين يوجبه المعنى والغرض فانه يكره أن تجعـل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : ” لأن فى ذلك تعرّضا للتكرار وميلا الى التكلف “ [1] .

---

(١) ص ٩٤ — ٩٧

٢٠ — ولنوجه نظر القارئ الى حقيقتين فى كلام الخفاجى : أولاهما حكمه بأن القرآن "أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم" فان لهــذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت تؤيد رأينــا فى أن القرآن من جنس كلام العــرب وعلى أساليبهم، ولا يمتاز إلا بقــوّة المعنى وقوّة الروح . وثانيتهما حكمه بأن الفصيح من كلام العرب لايكون كله مسجوعا لمــا فى ذلك من أمارات التكلف، فقــد رأينا شواهد ذلك فى كلام الرسول وخطب الصحابة والخلفــاء والقوّاد والوزراء . وأكثر ما رأيناه يتخرط فى سلك قول قطرىّ بن الفجاءة فى وصف الدنيا :

" من أقلّ منها آستكثر ممــا يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يو بقه، ويطيل حزنه، ويبكى عينه . كم واثق بها قد فجعته، وذى حلم تنبه اليها قد صرعته، وذى آحتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا، وذى نخوة قد ردته ذليلا، ومن ذى تاج قد كبته لليدين والفم ! سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض آهتضام ، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجارها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطّلع ، والوقوف بين يدى الحكم العدل"(١) .

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

"مهلا مهلا يا بنى مروان ! تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون ! ! أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فان قلتم : اقتدوا بسيرتنا، فأنّى وكيف؟ وما الحجة وما المصير إلى الله؟ أنقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة، الذين اتخــذوا مال الله دولا، وعبيده خولا؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وآقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعــلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم فى دمائنا وأموالنــا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٤

بالعظات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلوا سبيلها، ينتدب اليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم فى البلاد، ومزقتموهم فى كل واد، بل تثبت فى أيديكم لانقضاء المدّة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة. إن لكل قائم قدرا لا يعدوه، ويوما لا يخطوه، وكتابا بعده يتلوه".

ففى هذا الشاهد والذى قبله سجع مقبول جدا، ولكنه لا يلتزم، وإنما يرد من فقرة الى فقرة بلا قلق ولا التواء. وقد يكون الشاهد الثانى من وضع بعض العلويين: لأن راويه يذكر أن الخطيب "التُمس فلم يوجد" ومن العسير أن يحفظ كلام ألقاه صاحبه فى فورة غضب وفى مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار. ولكن القارئ مرجوّ أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضعون كلاما — يجتهدون فى محاكاة لغة العصور التى ينسبون اليها ما يضعون من خطب وأحاديث[1].

٢١ — وممن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكرى فى كتاب (الصناعتين) ويمتاز أبو هلال فى كتابه بالحرص على ردّ أصول المحسنات البديعية الى القرآن، ومن أمثلة ذلك ماروواه من الشواهد فى باب (التجنيس) من مثل:

"وأسلمت مع سليمان — فأقم وجهك للدين القيم — تتقلب فيه القلوب والأبصار — والتفّت الساق بالساق، الى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض — ثم كلى من كل الثمرات"[2] وعرض أبو هلال للشاهد الذى عرض له الرقاشى فيما نقل الجاحظ. ووقف عند قوله عليه السلام "أسجعا كسجع الكهان" وعلل الاستنكار بما عرف فى سجع الكهان من التكلف. ثم قال: "ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

(١) ومن السجع المقبول عند خطباء القرن الأوّل قول زياد:

" ان للشيطان طيفا، وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه، إنى أنذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أعذر" صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١

(٢) ص ٢٥١

سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه" [1] .

ويحدثنا أبو هلال أن النبيّ كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : "أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة" وإنما أراد ؟ ملمة . وقوله عليه السلام : "ارجعن مأزورات، غير مأجورات" وإنما أراد : موزورات ، من الوزر، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدا للتوازن وصحة التسجيع [2] .

٢٢ — وشدّد أبو هلال فى الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر فى كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأوّل والثانى والثالث، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم :

"أصبر على حر اللقاء، ومضض النزال، وشدّة المِصاع [3]، ومداومة المراس" .

فلو قال : (على حر الحرب، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن [4] .

---

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التى عنى بها أبو هلال كانت مما عرض له الحريرى فى (درة الغواص) وكلام الحريرى هناك أظهر فى الدلالة على أن الموازنة فن أصيل فى العربيــة تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة فى الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لتوازن (قدم) فاذا أفردوها فتحوا الدال، و يقولون " الغـدايا والعشايا " إذا قرنوا بينهما فان أفردوا (الغدايا) ردوها إلى أصلها فقالوا الغدوات . و يقولون (هنأنى الشيء ومرأنى) فان أفردوا (مرأنى) قالوا أمرأنى . وقالوا : "فعلت به ما ساءه وناءه" فان أفردوا قالوا (أناءه) وقالوا فى الشجاع الذى لا يزايل مكانه " أهيس أليس " والأصـل فى الأهيس الأهوس لاشتقاقه من هاس يهوس اذا دق فعدلوا به الى الياء ليوافق لفظة (أليس) وفى الحـديث من " حفنا أو رفنا فليقتصر " أى من خدمنا أو أطعمنا . وكان الأصـل أتحفنا فأتبع حفنا رفنا . ويروى فى قضايا علىّ أنه قضى فى القارصـة والقامصة والواقصة بالدية، والواقصة هى الموقوصة وانما قال الواقصة للموازنة مع القارصة والقامصة . وأنشد القرّاء :

هناك أخبيــة ولاج أبو بــة

بجمع باب على أبوبة ليزاوج لفظة أخبية (راجع درة الغواص ص ٣٠ و ٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ — ٨٣) والازدواج كثير الوقوع فى اللغة العربية وله شواهد عديدة، فلنكتف بهذه الأمثلة فى الدلالة على ذوق العرب فى هندسة الألفاظ والتعابير . ومن طريف التوافق أن اللغة العامية تساير اللغة الفصيحة فى هذا الباب . سمعت مرة تلميــذة تقول وهى تتململ : "النجوح زىّ السقوط" نقلت "النجاح" الى "النجوح" ليوازن "السقوط" وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن تقصد اليه، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد .

(٣) المصاع : القتال . (٤) ص ٢٠٣

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

" حتى صار تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا " .

فالتعريض والتمريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر : فهو سجع فى سجع .

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع (١) .

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى آستعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما فى منظوم ومسجعا فى سجع ، وهذا النوع من الشعر آسمه "المرصّع" ومن أمثلته :

فتور القيام قطيع الكلا م يفتر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

* هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرةً *

وقول أوس :

* جُشًا حناجرها عُلما مشافرها *

وقول النمر :

* من صَوْب سارية عُلّت بغادية *

وقول تأبط شرا :

حمال ألوية شهاد أندية هباط أدوية جوّاب آفاق

وقول الأفوه الأزدى :

* سود غدائرها بُلج محاجرها *

وقول عامر بن الطفيل :

ولكننى أحمى حماها ، وأتقى أذاها، وأرمى من رماها بمنكب

وقد آرتقى أبو هلال بالترصيع الى العصر الجاهلى وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم انتُزِع من النثر وأضيف الى الشعر رغبة فى وفرة الأنغام والألحان .

(١) ص ٢٠٢

٢٣ — ومن أظهر من اهتموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو يمتاز عمن سبقوه الى الدفاع عن السجع بأنه عاش فى عصر كان أهله جميعا يسجعون[١] . وهو يتهم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به "وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"[٢] ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة . وانتقل الى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول . ثم تحدّث عن نهى النبى عن سجع الكهان بمثل ما تحدّث به صاحب الصناعتين ثم قال :

"واعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل اليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطئ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا ، وما من أحد منهم ولو شدا شيئا يسيرا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتى بها فى كلام ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة ، لا غثة ولا باردة . وأعنى بقولى غثة وباردة أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملوّن . وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا . فاذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر: وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، فانه يجىء عند ذلك كظاهر مموّه ، على باطن مشوّه ، ويكون مثله كغمد من ذهب ، على نصل من خشب"[٣] .

(١) ولد ابن الأثير سنة ٥٥٨ وتوفى سنة ٦٣٧ وهو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى . وأبناء الأثير ثلاثة : مؤرّخ ومحدّث وأديب ، وهو صاحب المثل السائر .

(٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد آفترض ابن الأثير أن يقال : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعا ، وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع وغير المسجوع .

وقال فى الجواب : " إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتى كلها مسجوعة . وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والآختصار . والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار ، فترك آستعماله فى جميع القرآن لهذا السبب " ثم قال : " وههنا وجه آخر هو أقوى من الاول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وانما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز[1] " .

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحدثنا فى مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده " لا يكاد يخرج منه شىء عن السجع والموازنة[2] " والواقع أن الموازنة كثيرة فى القرآن ، مثل : ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام : ﴿وآتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا﴾ . فالعز والضد على وزن واحد ، والأز والعد على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما آنتهينا اليه فى أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج فى جوهره عن السجع طوال القرن الثانى والثالث . والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفى عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الأزواج ، ومن كلامه فى وصف إفك الحاسد :

---

(١) ص ١١٨ هذا وقد عرض ابن أبي الحديد فى شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على علىّ بن أبي طالب وبيّن أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع ، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والعسكرى وابن الأثير — وراجع شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة فى ص ٢٧٣ من المجلد الأول .

(٢) المثل السائر ص ١٧٠

" وإن كان المحسود عالماً قال مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، وتابع نيل، لايدرى ماحمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل وجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ مالوا عليه، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته. وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصي إليـه، ويحج ليثنى عليه، ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنتـه، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته (١) " .

وانظر قوله فى مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين :

" ولكنا أحببنا أن نصدر هـذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العـالمين، والسلف المتقدمين، والجلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلى الدنيا، والنجوم التى لا يضل معها السارى، والمنار الذى يرجع إليه الباغى، والحزب الذى كثَّر الله به القليل، وأعز به الذليل، وزاد الكثير فى عدده، والعزيز فى ارتفاع قدره . وهم الذين جلَوا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحـذوا بمنطقهم الأذهان الكليلة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سـوء عادتها، وشفوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداووا من العى الفاضح، ونهجوا الطريق الواضح ... الخ " .

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يهمل السجع إلا حين يسوقه اطراد القول فى لغة التأليف، ولكنه حين يحتفل بالكتابة يسجع ويزاوج، كأن لغة النثر الفنى تنتظم ملاكا من السجع والازدواج (٢) .

٢٦ — وقدامة (٣) بن جعفر — من كتاب القرن الرابع — يرى السـجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون فى موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون فى بعض الكلام

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز للشهرة كان من عيوب الناس فى القرن الثالث . وهو اليوم لا يزال كذلك ! !

(٢) للجاحظ رسائل اخوانية التزم فيها السجع ستجد منها نموذجا عنـد الكلام على الغزل المنثور فى الباب الثانى من هذا الكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) اهتم قدامة بالكلام عن النقد والبلاغة وألف فى ذلك (نقد النثر) و (نقد الشعر) و (جواهر الألفاظ) ومن أحكامه التى تهمنا ما قضى به من أن المنثور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسـلا أو احتجاجا أو حديثا) ص ٨٢ من (نقد النثر) . وهذا يؤيد ما أشرنا اليه من قبل فى هامش صفحة ٢٣

لا فى جميعه " فان السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الانسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله ، وعىٌّ من قائله " وتحدّث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدّث الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير ثم قال : " وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الانسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه ، بل قد أتى فى الحديث : "ويقول العبد مالى مالى ، وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى " .

ثم عرض لأهل عصره ، وهم رجال القرن الرابع ، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محمودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله : " والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد الى الاحسان إلىّ ، ولم يحاضك أحد فى الانعام علىّ ، ولم نتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعا حتى رعيته ، وحق مبخوسا حتى قضيته ، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه ، وبسطت من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتدّ يدا إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك " .

ثم قال :

ومما يباين هذا مما وضع فى غير موضعه قول صديق لنا فى فصل من رقعة له : "ورزقنى عدلك ، وصرف عنى خذلك " . وقوله أيضا : "ولقد جلّت عندى بابن فلان المصيبة ، وعظمت الشعيبة " . وقول آخر فى صدر رقعة : " أطال الله بقاءك لى خصيصا ، ولأودائك فيصوصا " — الى أن قال :

ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالها فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة

المهديون قد آستعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما . فأما ولسنا واجدين فيها فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمناهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها[1] .

٢٧ — وقد لاحظنا أن الكتّاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبه الكلام المبتكر من قوة الرصف، والتأنق فى الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبزرجمهر : أى الاكتساب أفضل؟ فقال : (العلم والأدب كنزان لا ينفدان، وسراجان لا يطفآن، وحلتان لا تبليان، من نالها أصاب الرشاد، وعرف طريق المعاد، وعاش رفيعا بين العباد[1]) وقيل لكسرى : أى الملوك أفضل؟ فأجاب : " الذى إذا حاورته وجدته عليما، واذا خبرته وجدته حكيما، واذا غضب كان حليما، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استُمْنِح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما، وإذا شكى اليه وجد رحيما[2]" .

فهذه فِقَر نقلت عن الفارسية وروعى فيها السجع ، وسنرى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[3] فقرات منقولة عن اليونانية وروعى فيها السجع ، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعى فيها السجع ، من ذلك ما حدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل اليه جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحا طيبا لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين ؟ قال جبريل : أوَلم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن البقعة التى يحلون بها هى أطهر الأرضين،

(١) راجع ص ٩٣ — ٩٥ من كتاب (نقد النثر) .

(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

وأنه قد طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين! قال يوسف : كيف تشبهنى بالصالحين وتسمينى بأسماء الصِّديقين ، وتعدّنى مع آبائى المخلصين ، وأنا أسيرٌ بين هؤلاء المجرمين ؟ قال جبريل : لم يكْلم قلبك الجزع ، ولم يغير خلقك البلاء ، ولم يتعاظمك السجن ، ولم تطأ فراش سيدك ، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة ، ولم تنسك نفسك أباك ، ولا أبوك ربك ، وهـذا الزمان الذى يفك الله به عنوك ، ويعتق به رقك ، ويبين للناس فيه حكمتك ، ويصدّق رؤياك وينصفك ممن ظلمك ، ويجمع اليك أحبتك[1] » .

ولسنا نريد أن نثبت أن كل ما ترجم روعى فيـه السجع والازدواج ، لا ، ولكنا نقول إن فريقـا من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة فى مذاهب الانشاء فسجع وزاوج فيما نقل الى العربية من اللغات الأجنبية . وفى هـذا تأييد لمـا حاولنا إثباته فى هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين .

٢٨ — أما بعـد فقد أسهبنا فى هـذا الفصل إسهابا نخشى أن ينتهى الى الإملال . ولكنه فصلٌ ضرورىٌّ جدا فى بناء هذا الكتاب . ذلك بأن السجع صار خَصيصة أساسية عند كتاب القرن الرابع ، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهـد أسرفوا فى انتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية ، فأردنا أن نثبت أن السجع كان حلية أصيلة فى اللغة العربية ، وأنه أخذ أطوارا مختلفة حتى وصل الى القرن الرابع .

وسنرى بعـد قليل أن السر فى إقبال كتاب القرن الرابع على السجع يرجع الى حرصهم على انتهاب طرائق الشعراء فى المعانى والأساليب .

ونعيذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة الى إيثار السجع . لا ، فنحن نرى السجع قيدا يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغـة العرب من أن تصير لغـةَ مدنيةٍ تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لا يصدها سجع ، ولا يحدّها ازدواج . وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذى سلم فيه السجع من آصار التكلف

(١) عيون الأخبار ص ٢٧٦ ج ٢

الممقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نِيرٍ من السجع ثقيل، حتى وجدنا السجع يلتزم فى موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذى يوحى بالتأنق والافتنان .

وإذا كان كتّاب العصر الحاضر قد انصرفوا انصرافا تاما عن السجع فان ذلك منشؤه أنهم ملّوا هذا الزخرف، وضجروا منه، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا نؤدى فى هـذه الدراسة مهمة المؤرخ : فليس من شأننا أن نقبّح أو نحسّن فنا من طرائق البيان، وإنما نرسم العهود الأدبية رسما واضحا قد يظهر عليه التشيع فى بعض الأحيان، وما بنا أن نتشيع، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن فى العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى فى المواطن التى يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزاوج، وليس خطؤنا فى هـذا بأقل من خطأ من يجنون على المعنى بالتزام السجع . ولكل عصر آفته : فالتأنق المُغرِب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق فى فرض ما توجبه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب (١) .

(١) من أجمل ما قرأنا فى الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١

وفى هذا المعنى قال شوقى طيب الله ثراه :

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فأنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصار من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربيـة رجال قبحوا السجع وعدّوه عيبا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية . فيانشء العربيـة إن لغتكم سرية مثرية ولن يصيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح» .

(أسواق الذهب ص ١٠٩) .

الباب الثاني

خصائص النثر الفني

في القرن الرابع

---

١ – خصائص نثرية

١ — نريد أن نبين فى هذا الباب بعض خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ الى أنه من المتعذر أن نطمئن الى أن هناك خصائص يتفرد بها ذلك العصر، فقد رأى القارئ كيف تطورت الفنون النثرية من عهد النبوّة الى العهد الذى ندرسه فى هذا الكتاب، ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوّة نفسه لم يخلق خلقا، وإنما نشأ وتطور فى عدّة أجيال .

٢ — وكل ما يمكن الاطمئنان اليه فى تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التى ظهرت تباشيرها منذ القرن الأوّل، فليس فى القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدّة، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتّاب القرن الاوّل والثانى والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان .

٣ — وأولى هذه الخصائص إيثار البديع، فقد كان الكتّاب السابقون يميلون الى المحسنات البديعية ولكن فى غير إسراف، فلما جاء كتّاب القرن الرابع قصدوا اليها قصدا، وأسرفوا فى توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفى البلاغة فى القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة، فلما جاء مؤلفو البلاغة فى القرن الرابع حرصوا عليها أشدّ الحرص حتى آستطاع أحدهم أن يقول :

وقد أُلف للألفاظ غير كتاب فقيل : "أصلح الفاسد، وضم النشر، وسدّ الثلم، وأسا الكلم" فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر، وكذلك سدّ وأسا . ولو قيل : "أصلح

الفاسد، وألف الشارد،وأصلح ما فسد، وقوّم الأود" أو قيل "صلح فاسده،ورجع شارده" لكان فى آستقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ وتنافى المعنى والسجع[1] .

٤ — ويمكن تحديد ما آختص به النثر فى القرن الرابع بالصفات الاتية :

أولا — التزام السجع فى جميع الرسائل، حتى الرسائل المطوّلة التى يراد بها تقييد مناظرة أو شرح مسألة كالذى وقع فيما كتبه بديع الزمان الهمذانى عن المناظرة التى كانت بينه وبين أبى بكر الخوارزمى[2]، وكالرسالة التى كتبها الخوارزمى الى الشيعة بنيسابور[3]. وكان الكتّاب قبل ذلك يسجعون، ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع فى جميع الموضوعات ، ومن كتّاب هذا العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضى وأبى حيان التوحيدى ، ولكنهم كانوا يعودون اليه من حين الى حين .

ثانيا — الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال . فمن الكتّاب من يبدأ رسالته ببيت أو بيتين يتقدّم بهما كلامه كما كان يفتتح الأوّلون رسائلهم بحمد الله والصلاة على نبيه، ومنهم من يختم الرسائل بالشعر كما كان يختتمها المتقدّمون بعبارة « والسلام على من اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمة الله » وهم مع ذلك يتخيرون من الأشعار والأمثال ما يحلّون به تضاعيف الرسائل، يذكرون اسم الشاعر تارة ويغفلونه أخرى، والخوارزمى يحرص على تعيين اسم الشاعر وان كان لا يلتزم ذلك .

وفى رسائل البديع الهمذانى رسالة رصعها بالشعر لم أجد لها نظيرا عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاه :

"كما طرب النشوان مالت به الخمر"

ومن الارتياح للقائه :

"كما آنتفض العصفور بلله القطر"

---

(١) راجع مقدّمة جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر . (٢) راجع رسائل بديع الزمان ص ٣٨

(٣) راجع رسائل الخوارزمى ص ١٢٥

ومن الامتزاج بولائه :

"كما التقت الصهباء والبارد العذب"

ومن الابتهاج بمرآه :

"كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب"[1]

وهذا النمط جميل، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ، ولكن الكتّاب لم يلتزموه بالرغم من إسرافهم فى الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب الى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة، خصوصا اذا راعى القافية كما زاوج البديع بين الراء والباء .

ثالثا — ألف كتاب القرن الرابع الكتابة فى بعض الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف . وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية . وكذلك أصبح النثر فى القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية، والملاحظات الفنية، بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير فى قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحى به القلب، أو يشير اليه الخيال .

ولو بحثنا فى الشعر العربى عن قصيدة فى الهجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الهمذانى فى ذم أحد القضاة :

" وهذا الحيرىّ رجل سفلة طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها، وأعجله حصول الأمنية عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً   وهو النهاية فى الخساسهْ
ممن تصدّر للرّيا   سة قبل إبان الرياسهْ

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها، والأمانة عند الفاسق، خفيفة المحمل على العاتق، تشفق منها الجبال، وتحملها الجهال، فقبحه الله من

(١) رسائل البديع ص ١٢٨

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل، وحمال الليل، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم، فما يغنيه موقف الحكم، إلا بالقتل من الظلم، ولا يجيره مجلس القضاء، إلا بالنار من الرمضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أنياب الأسود، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هـذا القاضى وأقاربه . وما ظن القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهـم، و يأكلون النـار فى بطونهم، حتى تغلظ قَصَراتهم من مال اليتامىٰ، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور، وعطلة القدور،وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك فى رجل يعـادى الله فى الفلس ، و يبيع الدين بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهـل السمت، و باطن أصحاب السبت، فعـله الظلم البحت، وأكله الحـرام السحت ؟ وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغـير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عبـاد الله إلا بين الركوع والسـجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعا وجِبـلّة ، حتى أبغضتهم دينـا وملة ، وألعنهـم دربة ، حتى لعنتهم قربة ، بمـا شاهدت من هـذا الحيرى وقاسيت ، وعاينت من خبطه وخطبه ما عاينت ” .

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة منثورة . وهـذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر فى نثر بديع همذان .

ومن أظرف ما كتبه رسالته التى بعث بها الى شاب كتب اليه بعـد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فؤاده ، وهى رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وانظر كيف يقول :

« وردت رقعتك – أطال الله بقاءك! – فأعرتها طرف التعزز، ومددت اليها يد التقزز ، وجمعت عنها ذيل التحرز، فلم تند على كبدى ، ولم تحظ بناظرى و يدى، وخطبت من مودتى ما لم أجدك لها كفؤا، وطلبت من عشرتى ما لم أرك لها رضى، وقلت : هذا الذى رفع عنا أجفان طرفه، وشال بشعرات أنفه، وتاه بحسن قده، وزها بورد خده ، ولم يسقنا من نوئه ، ولم نسر بضوئه . والآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائد غصنه ، وفثأ غرب عُجبه، وكف زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، وأكسفت باله، ومسخت جماله، وغيرت حاله ، وكدرت شرعته، جاء يستقى من جرفنا جرفا ، و يغرف من طيبنا غرفا ، فهلا يا أبا الفضل مهلا .

أرغبت فينا إذ علا ك الشعر فى خدّ لحل
وخرجت عن حدّ الظبا ءِ وصرت فى حدّ الإبل
الآن تطلب عشرتى عد للعداوة يا نجل

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا ، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك .

ومن لك بالعين التى كان مدةً اليك بها فى سالف الدهر يُنظَرُ

أيام كنت تتمايل، والأعضاء تتزايل، وتتغانج، والأجساد تتفالج، وتتلفت ، والأكباد تتفتت، وتخطر وترفل، والوجد بنا يعلو و يسفل، وتدبر وتقبل، فتمنى وتخبل، وتصد وتعرض، فتضنى وتمرض،

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حرّ الرمل غض له ندى

فأقصر الآن، فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودولة عرضت، وأيام انقضت،

وعهد نَفاق مضى وخطب كساد نزل
وخدّ كأن لم يكن وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر غاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثنّ لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها . نختام تدل و إلام؟ ولم نحتمل وعلام؟ وآن أن تذعن الآن ! وقد بلغنى ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء فى الغسق، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر، و إفنائك لتلك الشعرات حفا وحصا، و إشباعك لها نتفا وقصا، وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك! فأما ما آستأذنت رأبى فيه من الآختلاف الى مجلسى فما أقل نشاطى لك، وأضيق بساطى عنك ، وأشبع قلبى منك ، وأشدّ آستغنائى عن حضورك ! فان حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم، ونتعلم به الصبر، ونتكلف فيه الاحتمال، ونغضى منه الجفن على قذى، ونطوى منه الصدر على أذى، ونجعله للعيون تأديبا، وللقلوب تأنيبا .

”مالك يا أبا الفضل تعتاض من الرغبة عنا رغبة فينا، ومن ذلك التدلل علينا تذللا لنا ومن ذلك التعالى تبصبصا، ومن ذلك التغالى ترخصا ، وما بال الدهر أبدلك من التزايد تنقصا، ومن التسحب على الإخوان تقمصا ؟ ! ولئن آعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ، لقد آعتضنا عن هذا النزاع نزوعا، فأنا برحلك وجانبك، ملق حبلك على غاربك، لا أوثر قربك ولا أنده سربك، ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهودِ ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاهُ ما يفعل الشعر بالخدود (١)

رابعا — عدم التقيد بصيغة خاصة فى بداية الكتب ، فقد كان القدماء يحرصون على الآبتداء بحمد الله والصلاة على نبيه، بعد عبارة من فلان الى فلان التى كثر ورودها فى القرن الأول، ولكن كتّاب هذا العصر أخذوا يجرون على فطرتهم فى تخير البدايات، فمنهم من يبتدئ

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٨٤ ، ٨٨ وقد عارضها عبد الوهاب بن حزم برسالة طريفة (الذخيرة ص ٦٦ ج ١).

بيت من الشعر[١] أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف، أو قصة صغيرة[٢]، ثم يدخل فى الموضوع . ومنهم من يكتب فى الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشىء ، وهم فى ذلك كله يجرون على خطة مقبولة ، ولا يراعون القواعد إلا اذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك يبدءون بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع فى بداية خطاب كتبه الى الوزير أبى نصر الميكالى :

" قد عرف الشيخ الجليل آتسامى بعبوديته ، ولو عرفت مكانا بعد العبودية لبلغته معه[٣] " .

وبديع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة فى بداية الكتب يبالغ فى مخاطبة الرؤساء مبالغة ملموسة تظهر فى الجمل الدعائية التى يختص بها من يكتب اليهم ، وكذلك يفعل أبو بكر الخوارزمى ، والصابى ، وآبن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد الى عضد الدولة يهنئه بولدين :

" أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وتأييده ، وعلوه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده[٤] " .

على أنه لا تزال بقية من البدء بحمد الله والصلاة على نبيه تجرى فى رسائل الخوارزمى يجدها القارئ فى عدة مواطن كقوله يخاطب ابن عباد :

" كتابى الى الوزير وأنا على بعد الدار سالم فى جملته ، مستظهر على الامام بدولته ، والحمد لله على سلامى فى سلامته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته[٥] " .

وكذلك قوله فى كتابه الى كاتب خوارزمشاه :

" كتابى وأنا بين محنة قد أدبرت ، ونعمة قد أقبلت ، وولىّ قد ملك ، وعدوّ قد هلك ، والحمد لله الذى آبتلى ثم أبلى فأنعم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين[٦] " .

---

(١) راجع رسائل الخوارزمى . (٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان . (٣) رسائل البديع ص ٣٤٤ (٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠ (٥) رسائل الخوارزمى ص ١٥٢

(٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه ، وانما هى عبارات أُريدَ بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم فى الأغلب على الاكتفاء بعبارة "والسلام" وهى اختصار لكلمة "والسلام عليكم ورحمة الله" التى كانت تختتم بها الرسائل غالبا فى القرن الأول.

٥ — ونعيد ما قلناه من أن هذه الخواص التى آمتازت بها الكتابة فى القرن الرابع لم تنشأ فى يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن، وانما هى صفات نثرية تطورت على مدى القرون التى سبقت هذا القرن، ثم ظهرت فيه ظهورا قويا لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر فى تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون اليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية ، فالسجع مثلا لم يخلق فى القرن الرابع وانما هو حلية قديمة التزمها كتاب هذا العصر، وكذلك تضمين الرسائل أبياتا من الشعر ليس بجديد، فقد وجد منه شىء فى خطاب عثمان بن عفان الذى كتبه الى علىّ يستنجد به ، وفى بعض خطب على بن أبى طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله فى مدافعة خصومه . وأنا أرتاب فى صحة خطاب عثمان ، ولكنه مع ذلك دليل على أنه كان مفهوما أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التى درج عليها المتقدّمون . ومثل هذا يقال فى أخذ النثر لبعض أغراض الشعر ، فقد كانت للتقدّمين جولات فنية فى النثر لا تقل فى طرافة موضوعاتها ورقة حواشيها عن الشعر، ولكن كتاب القرن الرابع ظهروا فى هذه الناحية ظهورا جعلها من خواصهم من حيث الغرض والأسلوب .

٢ – السجع والازدواج

١ — بيّنا فى فصل سلَف أطوار السجع فى النثر الفنى، ورأى القارئ كيف كان كتّاب القرن الأول والثانى والثالث يتنقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والازدواج .

فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع، وأن كتّابه لا يتحررون من السجع إلا الى فن قريب منه هو الازدواج، ولم يخرج من كتّاب هذا العصر الى الحرية فى الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ — وكتّاب هذا العصر ينقسمون الى ثلاث طوائف : طائفة تلتزم السجع التزاما مطلقا ولا تخرج عنه إلا فى قليل من الأحيان، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان والخوارزمى والثعالبى[1] والصابى والميكالى وابن عباد وابن دريد وابن نباته وابن وشمكير ؛ وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع من حين الى حين ، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدى والآمدى والرضىّ والباقلانى والعسكرى والحاتمى وابن شُهيد . وطائفة تؤثر الحرية فى الصياغة الفنية فلا تسجع ولا تزاوج إلا قليلا، ومن هؤلاء ابن مِسكويه والمرزبانى وابن فارس والجرجانى والأصفهانى والتنوخى وأحمد بن يوسف المصرى .

٣ — والطائفة الأولى لا تترك السجع فى جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بديع الزمان وأن أنقل منها شيئا بدون بحث ولا تخير، فلما فتح الكتّاب على هذه الحال رأيت الكاتب يقول :

" عافاك الله! مثَل الانسان ، فى الإحسان، مثَل الأشجار ، فى الإثمار، سبيلُ من أتى بالحسنة، أن يرفّه الى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى، وهما فؤادى

(١) ومع ذلك رأينا للثعالبى صفحات فى كتاب (ثمار القلوب) تمثل النثر المرسل أجمل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف اليتيمة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لغة الثعالبى وتسلس فى ذلك الكتّاب فتذكرنا بالمطمع الممتنع من أساليب البيان .

ويدى، أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود، ولكن هذا الخلق النفيس، لا يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحمله الغريم، ولا قرابة بين الأدب، والذهب ... والأدب لا يمكن سرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة، ولى مع الأدب نادرة، جهدت فى هذه الأيام بالطباخ، أن يطبخ لونا من جيمية الشماخ، فلم يفعل، وبالقصاب، أن يسمع أدب الكتاب، فلم يقبل، وآحتيج فى البيت، الى شىء من الزيت، فأنشدت شيئا من شعر الكميت، ألفا ومائتى بيت، فلم يغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج، فى توابل السكباج، ماعدمتها عندى، ولكن ليست تقع، فما أصنع ؟ فان كنت تحسب آختلافك الىّ، إفضالا علىّ، فراحتى، أن لا تطرق ساحتى، وفرجى، أن لا تجى، والسلام" (١) .

ولأفعل مثل هذا مع الخوارزمى . ولقد فتحت ديوان رسائله عفوا فرأيته يقول :

"فأما الآن، وقد كان ما كان، فانى أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخينا، و يولى حوادثه ركنا من التماسك ركينا، وأن تجده الأيام حرا، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرّا، وأن يدارى مع ذلك سلطانه، و يصغر بلسانه إساءته و يكبر إحسانه، و يروض لسانه فى الخلوة على شكره، لئلا يجمح به فى الجلوة الى غيره، فانما أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيرا، ومن حاسب على قليل من العنت لقى كثيرا" (٢) .

٤ — ومما يؤيد إيثار هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجرى من الفقرات المسجوعة مجرى الأمثال، وقد صنع هذا الثعالبى غير مرة فى كتابه (يتيمة الدهر) فاختار مثلا للصاحب بن عباد :

"من نبت لحمه على الحرام، لم يحصده غير الحسام — من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق، والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصحاح،

(١) رسائل بديع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الرقعة الى «مستميح عاوده مرارا» .
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٩٨

أبلغ من الألسنة الفِصاح — متن السيف لين، ولكن حده خشن، ومتن الحية ألين، ولكن نابهـا أخشن — عقد المنن فى الرقاب، لا يبلَغ إلا بركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة، وبعض الاستقامة مزلة — إنجاز الوعد، من دلائل المجد، وآعتراض المطل، من أمارات البخل، وتأخير الإسعاف، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب، وبعضه كلمع السراب — قد يبلغ الكلام، حيث تقصر السهام — ربما كان الامساك عن الاطالة، أبلغ فى الابانة والدلالة — إنْ نفع القول الجميـل، وإلا نفع السيف الصقيل — تلقِّ الاحسان بالجحود، تعريض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف، ويصحو النزيف، ويستقيم المـائد، ويستيقظ الهاجد — قد يصلى البرئ بالسقيم، ويؤخذ البرّ بالأثيم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه"[1] .

٥ — واذا نظرنا فى نثر آبن العميد وجدنا الحرية غالبـة عليه، ولكنا نراه يلتزم السجع أحيانا كأن يقول :

"أنا أشكو اليك — جعلنى الله فداك! — دهرا خؤونا غدورا، وزمانا خدوعا غرورا، لا يمنح مايمنح إلا ريث ماينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث مايرتجع، يبدو خيره لُمَعا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرعا ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدى لمـا يبسطه وشك آنقباض، وكنا نلبسه على ما شرط، وإن حاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستنم بقصده وظلمه، ونعقد من أسباب المسرة أن لا يجئ محذوره مصمتا بلا آنفراج، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته، ونسترقه من ساعاته ... الخ"[2] .

٦ — والتوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذى آرتضاه إماما فى حياته العقلية والأدبية — ولنذكر مثالا من نثره الذى يعـد من أبلغ النماذج فى اللغة

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٨٧ و ٨٨ (٢) ص ٢٤٤ ج ٢ من زهر الآداب .

العربيــة ، وليكن ماكتبه فى سبب القبض على أبى الفتــح بن العميــد فانه من أروع آيات البيان[1] .

"لمـا مات ركن الدولة ســنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفايتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد أمراء الديلم والأعيان ، وتعاهدا وتواثقا وتحالفـا وبذل كل واحد منهما الاخلاص لصاحبه فى المودة فى السر والعلانيــة ، والذب والتوقير، عند الصغير والكبير، وآجتهدا فى الأيمان الغامسة، والعقود الموثقــة، ودبرا أمر الجيش، ووعدا الأوليــاء وردّا النافر، وركبا الخطر الحاضر، وعانقا الخطب العاقر، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصــة بجدّ من نفسه ، وصريمة من رأيه ، وجودة فكره، وصحة نيته، وتوفيق ربه . فلما ورد مؤيد الدولة الرى من أصبهان وصادف الأمر متسقا ، ولحق كل فتق مرتتقا، بما تقــدّم من الحزم فيه، ونفــذ من الرأى الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرهها ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفتْ هــذه الزيادة هواك فأسقطها : فاليد الطولى لك . وكان ابن عباد قدورد وحَطَبه رطب، وتنّوره بارد، وأمره غير نافذ . هــذا فى الظاهر . فأما فى الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثّبه على أبى الفتح بمـا يجد السبيل اليه من الطعن والقدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغْب، وعظم الخطب، وهم بقتــله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتى فى الدولة وقــد انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيهـا ، أن أُسام الخسف ، والأحرار لا يصــبرون

(١) آثرنا أن نقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال للبلاغة القوية التى تمثل ضغائن الرجال وأحقادهم أبشع تمثيل ، وفى هذا الشاهد تظهر براعة الكاتب فى سرد الحوادث بطريقة أخاذة تبدو طبيعية ، على حين يلمس الناقد فيها آثار الصنعة الخفية والتكلف المدفون . وفى احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد فى مكافحة خصومه عن طريق سرد التــاريخ . فان لم يتبين القارئ خطر ما فى هــذا الشاهد من الدسائس فليقرأ ما كتبناه عن التوحيدى والصاحب فى باب « الرسائل والعهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المبدع أبى الفضل بن العميد، وكان شابا أديبا ناصع البيان ، ولكنه لم يرزق ما رزق أبوه من أصالة الرأى ورجاحة العقل، وكان طيشه من شر ما قاسى أبوه من هموم الحياة .

راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٩ — ٢٠١

على نظرات الذل ، وغمزات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذى يرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف الى اصفهان موفورا ، فوالله لو طالبته منصفا برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ، ولئن أحس الأولياء ، الذين أصطنعهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف . فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك . وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أتظلم منك إليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولّنى ديوان الانشاء واستخدمنى فيه ، ورتبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فانى صنيعة والدك ، واتخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكثر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبتنى الى هذا ، وآمنتنى ، فانى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتبا يطلب الزلفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة[1] التى قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائى علىّ ، فقال فى الجواب : والله لاتجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن علىّ ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى الا بالعود الى مكانك من أصبهان ، والسلو عما تحدث به نفسك . فخرج ابن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متنكرا بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ اصبهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب . وهمّ أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ، ويؤذيه ويهينه ، ويعسفه ، فأحس هو بالأمر . فحدثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة الى نيسابور ما ضاق عطنه ، واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلوف إليهم وتشاورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما الرأى وقد نمى إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس الرأى إلىّ ولا إليك ، ولا الهم علىّ ولا عليك ، ههنا من

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

يقول لك أنت خليفتى ويقول لى أنت كاتب خليفتى . يدبر هـذا بالمـال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك ، قال فاكتب إليه وأشعره ، وأشع ما قد منينا به وأشهره ، وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف فصدر فى الجواب ، إن هذا لأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا ، وله ابن ، فلم يحمل اليه من إرثه شيء زويًا عنه ، واستئثارا دونه ، ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده ، قد كسبه بجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن آستفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه بتة إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه ، وإن شاء حاكمت كل من سام هذا الى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا ، قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت ، وليس لى قول سواه ، هذا الرجل هو الملك والمدبر ، والمـال كله ماله ، والبلاد بلاده ، والجنـد جنده ، والكل له ، والاسم والجلالة عنده ، وليس ههنا إرث قد زوى عنه ، ولا مال آستؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها فى أمر الجد ، وفيما لا تعلق له باللعب . أما خراسان فكانت منـذ عشرين سنة تطالبنا بالمـال ، وتهددنا بالمسـير والحرب ، ونحن مرة نحارب ، ومرة نسالم ، وفى خلال ذلك نفرق المـال بعد المـال ، على وجوه مختلفـة ، فأحسب أن ركن الدولة حى باق ، هل كان له إلا أن يدبر بمـاله ورجاله ، وذخائره وكنوزه ، أفليس هذا الحكم لازما ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى اليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة ، والنصرة ، والمناصحة ، وكل ماسهل وصعب كما كان عليه ذلك بالأمس ، من جهة المـاضى ، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب فى هذا أراه يطول ، والكلام يتردد ، والمناظرة تربو ، والفريضة تعول ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى فى الوقت أن نذكر وجها للمال ، حتى نحتج به ، ثم نستمد فى الثانى منه ، ونرضى الجند فى الحال ، ونتحزم فى الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة ، بالاهتمام والاستعداد ، حتى يطير الخبر الى خراسان بجدنا واجتهادنا ، وحزمنا واعتمادنا ، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم ، وحسما لأطماعهم ، وباعثا على تجـديد القول فى الصلح ورد الحال الى العادة المؤلوفة . فقـال : نسأل الله بركة

هـذا الأمر فقد نشأت منـه رائحة منكرة، ما أعرف للمـال وجها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عندى مرة، بما خدمت به المـاضى تبرعا حدثان[١] موت أبى ومرة بمـا طالبنى به سرا وأوعدنى بالعزل والاستخفاف من أجله ،ومرة بما غرمت فى المسير الى العراق، فى نصرة الدولة، وهذه وجوه استنفدت قلّى وكثرى ، وأتت على ظاهرى و باطنى . وقد غرمت الى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأنى ممتن على أوليـاء نعمتى، و إن سكت كنت كالمتهم عند من يتوقع عثرتى، فهذا هذا، وأما أموال النواحى، فأحسن أحوالنـا فيها أنا نزجيها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تنوبنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها، ولا كانت دولة لاتثبت إلا بها ، وبأوساخ أموالهـا ! فقال مؤيد الدولة، وكان ملقنا هذا ابن كامه وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون و بيـده بلاد وقد جمع هـذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو مختوم ما فض مذ كان . ما تقول فيـه ؟ قال : مالى فيـه كلام . فان بينى و بينه عهدا ما أخيس به ، ولو ذهبت نفسى ! فقال : اطلب منـه القرض . قال : إنه يستوحش و يراه بابا من الغضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فان الحـاجة ماسـة الى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنـا ، وأردّ علينا ، وأحصن لنـا ، والينا من موقع ذلك المـال و بعد رأيه وتدبيره واسمـه وصيته فوق المطلوب منه . قال : و إذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا الرأى ليكون نتيجته من ثمّ قال : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر . قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فان أنت لم تتول حارّه وقارّه، وغثه وسمينه، ومحبوبه ومكروهه ، فمن ؟ قال : يا أيها الأمـير ! لا تسمنى الخيانة ! فانى قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! قال : انى لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسيء اليه، أشر بهذا المعنى الى الملك عضد الدولة وخلاك ذمّ ! فان رأى الصواب فيه تولاه دونك، و إن ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأيناه،

(١) حدثان الأمر بالكسر أوله وابتداؤه، والمراد هنا عقب موت أبيه .

وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدّلها ، وإنما الذى يجب عليك فى هـذا الوقت بين يدىّ كتب حرفين أنه لاوجه لهـذا المـال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليـه ولا مطالبته به ، وفاء له بالعهد، وثباتا على اليمين، وجريا على الواجب، ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه شىء ممـا يدل على النكث والخـلاف والتبديل . وما زال هـذا وشبهه يتردّد بينهما حتى أخذ خطه بهـذا على أن يصدره الى أخيه عضد الدولة بفارس . فلما حصل هـذا الخط عنده وجنّ عليه الليل أحضر ابن كامه وقال له : أما عندك حديث هـذا المخنث فيما أشار به على الملك فى بابك وأورده عليه فى حقك وأمرك واطماعه فى مالك ونفسك وتكثيره عنـده ما تحت يدك وناحيتك ؟ فقال ابن كامه هـذا الفتى يرتفع عن هـذا الحديث ولعل عدوّا قد كاده به وبينى وبينه مالا منفـذ للسحر فيـه ولا مساغ لظن سيىء به . قال ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت . ودع هذا كله فى الريح هـذا كتابه إلى الملك بمـا عرفتك وخطه بيده فيه . قال على بن كامه أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كاتبى فأحضر كاتبه الخثعمى فشهد أن الخط خطه فحال على بن كامه عن سجيته وخرج من مسكنه وقال ما ظننت بعـد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجيز مثل هـذا . قال الأمير أيها الرجل إنما أطلعك الملك على سر هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك وما هو عليه من هنات أخر وآفات هى أكبر فإنه هو الذى حرك مَن بخراسان وكاتب صاحب جرجان وألق الى أخينا بهمـذان — يعنى فخر الدولة — أخبـارنا وهو عين لبختيار ههنا . وقد اعتقـد أنه يعمل فى تحصيل هـذه البلاد ويكون وزيرا بالعراق فقد ذاق من بغـداد ما لا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه ، وكان أبو نصر المجوسى قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يفتل الحبل ويبرم ، ويهاب مرة ويقْـدم، وكان الحديث قد بيِّت بليل واهتم به قبل وقته بزمان ، فقـال على بن كامه : فما الرأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك فى القبض عليه، وقد كنا على ذلك قادرين، ولكن كرهنا أن يظنّ بنا أنا هجمنا على ناصحنا، ومربب نعمتنا، وناشىء دولتنا، فمهدنا عنك العـذر، وأوضحنا لك الأمر . قال : فأنا أكفيكموه !

ثم قبض عليه وكان منه ما كان، وآستدعى ابن عباد من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق" .

٧ — وعند تأمل هـذه الرسالة نجد التوحيدى يمضى على الفطرة فى الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر الى سـطر حين يطيب له ذلك . والى القارئ ما ورد فى هذه الرسالة من الأسجاع .

"ردّا النـافر، وركبا الخطر الحـاضر، وعانقا الخطب العاقر" .

"صادف الأمر متسقا، ولحق كل فتق مرتتقا" .

"كلامك مسموع، ورضاك متبوع" .

"ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف، ومن المزن اذا نطف" .

"والله لا تجاورنى فى حضرة السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير" .

"ليس الرأى إلىّ ولا إليك، ولا آلهم علىّ ولا عليك" .

"لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسئ إليه" .

"ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه" .

"ولىَ الوزارة ودبّرها برأى وثيق، وجد رتيق" .

وما وقع فى هذه الرسالة من المزاوجة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هـذا المسلك فيسجع قليلا، ويزاوج كثيرا، وهو كاتب فحل لم تبق لنا من نثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء . والى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دوّن فيه خطب الامام على رضى الله عنه :

«أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه، ومعاذا فى بلائه ... فانى كنت فى عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صـدر الكتاب ... وعاق عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام أن كلامه

الوارد فى الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، اذا تأمله المتأمل ، وفكر فيه المتفكر ، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لاحظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قبع فى كسر بيت ، أو آنقطع فى سفح جبل ، لا يسمع الا حسه ، ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتا سيفه : فيقط الرقاب ، ويجدّل الأبطال ، ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال» (١) .

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلمه الا فى المقدمات القصيرة التى يمهد بها لأبواب العقد الفريد ، وهو فى تلك المقدّمات لا يلتزم السجع ، ولكنه لا يكاد يخل بالآزدواج (٢) .

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب فى حرية وطلاقة ، وإن لم تخل آثارها النثرية من السجع والمزاوجة ، ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهانى الذى يترسل فى بعض فقرات (الأغانى) ترسلا سهلا مقبولا لا سجع فيه ولا آزدواج ، وآبن مسكويه الذى ينطلق الى غرضه آنطلاق السهم الى رميته ، والتنوخى الذى رقت على أسلة قلمه لغة القَصَص المسلسل ، وأحمد بن يوسف المصرى الذى دوّن مشاهداته فى لغة لا تعتمد فى جمالها الا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

وأهم كتاب هذا الفريق إخوان الصفاء الذين دونوا ما عُرف لعهدهم من الآراء والمذاهب فى أسلوب طلق خال فى جملته من التصنع والزخرف والغموض .

---

(١) كان الشريف الرضى جديرا بأن يعقد له فصل فى هذا الكتاب ، ولكن الشعر غلب عليه ، وضاعت جملة نثره ، ولسنا من المطمئنين الى ماقيل من أن أكثر نهج البلاغة من فيض قلبه ، بالرغم من قدم هذه الشبهة و رواجها فى أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عبد ربه فى النثر قليل ، ولهذا لم نعقد له فصلا فى هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد جزلة ممتعة ، وفيها دلالة على أن قلمه كان حرا من قيود المحسنات البديعية ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب لذلك العهد .

ويمكن القول بأن كتاب المذاهب والاراء هم أخلص الناس من أوضار الصنعة بين كتاب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرض حرية القول ، والكاتب المفكر فى شغل بفكره العميق عن تلمس أسباب التزويق والتهويل .

١١ — وليتبين القارئ الفرق بين كاتب يتأنق كالتوحيدى وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجا مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبى نصر كاتب عضد الدولة إذ قال :

"كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة، فلما كان فى آخر شهر قد بقى منه ثلاثة أيام استدعانى وقال لى : تقدم الى الخازن فى بيت المال بأن يزن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها الى أبى عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب الغلمان بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألنى عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخاطبنى بأغلظ خطاب، فقلت : أمس كان آستهلال الشهر، والساعة تحمل المادة. وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر . فقال : المصيبة بما لا تعلم ما فى فعلك من الغلط أكثر منها فيما آستعملته من التفريط ! ألا تعلم أنا اذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان مالهم وقد بقى فى الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا آنقضى الشهر وآستهل الآخر حضروا عند عارضهم فأذكروه فيعدهم، ثم يحضرونه فى اليوم الثانى فيعتذر اليهم، ثم فى الثالث فتبسط فى آقتضائه ومطالبته ألسنتهم، فتضيع المنة، وتحصل الجرأة،ونكون الى الخسارة أقرب منا الى الربح؟» (١) .

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذى نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذى نقلناه عن ابن مسكويه لا يمترى فى أن التوحيدى كان خليقا بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويعيد .

ولكن هذا اليسر فى رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنق فى التعليق عليه اذ قال :

" ولعل عضد الدولة نظر فى هذا الوقت الى ما وجد فى سيرة المعتصم رضوان الله عليه . وهل ينكَر لبنى هاشم أن يقتدَى بأقوالهم ، أو يهتدَى بأفعالهم ، وهم الأصدقون أقوالا ،

(١) تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٥

والأكرمون أفعالا، والأشرفون أنسابا، جبال الحلوم، وبحار العلوم، وأعلام الهدى، وساسة الدين والدنيا، وفرسان الحروب والمحاضر، وأملاك الأسرّة والمنابر، الى مكارمهم ينتهى الكرم، وبمآثرهم تنجلى الظلم، المعتصم بينهم المعتصم ".

ويمكن المضى فى استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه فى التاريخ: فهو يسرد الأخبار فى يسر ملموس ثم يعقب عليها بتأنق مقبول. وانظر قوله فى خواص الملوك:

" ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذب الأفعال، محمود الخصال، موصوفا بالخير والفعل، معروفا بالصلاح والعدل، فان الملك لا تخالطه العامة ولا أكثر الجند، وانما يرون خواصه: فان كانت طرائقهم سديدة، وأفعالهم رشيدة، عظمت هيبة الملك فى نفس من يبعد عنه، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... ... واذا كان خواص الملك ممن يُقدَح فيهم، وتُذكر مساويهم، قلّت الهيبة فى النفوس، فأظهر الجند استقلالا لأمره، ثم صار الاضمار نجوى بينهم، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلانا، فعند ذلك تقع المجاهرة، وترتفع المراقبة، ويتحكمون عليه تحكم الآمر لا المأمور، والقاهر لا المقهور[1] ".

١٢ — ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء — وفى رسائلهم فقرات تمتاز بوضوح المعانى وبسطها، من ذلك قول أحدهم فى وصف الرسول:

" قال النمر للأسد: ما تلك الخصال التى ذكرت، أيها الملك، أنها يجب أن تكون فى الرسول؟ بينها لنا. قال الملك: نعم. أولها يحتاج أن يكون رجلا عاقلا حسن الأخلاق، بليغ الكلام، فصيح اللسان، جيد البيان، حافظا لما يسمع، محترزا فيما يجيب ويقول، مؤديا للأمانة، حسن العهد، مراعيا للحقوق، كتوما للسر، قليل الفضول فى الكلام، لا يقول من رأيه شيئا غير ما قيل له، إلا ما يرى فيه صلاح المرسل، ولا يكون شرها، ولا يكون حريصا اذا رأى كرامة عند المرسل اليه مال الى جهته وخان مرسله واستوطن البلد لطيب عيشه هناك، أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحا لمرسله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة الى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

(١) تجارب الأمم ص ١٨٨

الى آخره، ولا يخاف فى شىء منه فى تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فانه ليس على الرسول إلا البلاغ[١]" .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويرا صحيحا ، ولكن النزعة العامية تغلب عليها ، وينقصها ما يسميه علمـاء النقد " قوة الأَسر" وهذا المأخذ تجده أنّى سرّحت بصرك فى رسائل اخوان الصفاء ، فهم يقدمون اليـك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية فى أسلوب يغلب عليـه الآنحلال . ولعل السر فى ذلك يرجع الى آنعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراءهم، ولو كان يعبر عن نزعاته الذاتيـة لرجونا أن تكون حماسته أقوى وروحه أظهر، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه بألوان الخيال . وسترى فى الجزء الثانى من هـذا الكتاب[٢] كلاما كثيرا عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين : المعنى والروح، فاذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف اليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعنيه بالنثر الفنى .

١٣ — ولك أن تنظر فيما كتب الفارابى أو ما كتب آبن حزم فى الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين، فهى كتابة خالية من السجع والآزدواج، الا فى أحوال قليلة، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا تمنيق الإنشاء . وهـذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للوضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن الا دليلا على توفيق الكاتب، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من الخير أن نذكر الفرق بين كاتبين يشتغـلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان فى الأسلوب، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيهما كتابة أدبية، كالفارابى والتوحيدى والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكرا قبل أن يكون كاتبا، والثانى كان كاتبا قبل أن يكون مفكرا : فلمـا كتب الأول عجز عن التلوين والتزيين ، ولمـا كتب الثانى وشّى الفكرة بفنون من التصاوير والتهاويل، والأول أبقى فى عالم الفكر، والثانى أخلد فى عالم البيان، وكلا الاسلوبين ضرورىّ فى حياة العلوم والآداب .

(١) رسائل اخوان الصفاج ٢ ص ٢٠٦ (٢) راجع الصفحات ٦٧ — ٧٨

٣ – تصوير الحياة العقلية (١)

١ — ان الكتاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفنى فى القرن الرابع قد اهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التى شملت ذلك العصر، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا فى الأزمات العقلية والمجادلات الحزبيـة والدينية فى الحدود التى سمحت بها قوتهم الأدبية. وسيرى القارئ كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يجرى لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية.

من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعى ممثلة فى رسائل بديع الزمان ورسائل الخوارزمى وفى المقتطفات التى جمعها صاحب زهر الآداب عمـا قيل فى آل البيت مدحا ورثاء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة فى ذلك العصر. وربما كانت رسالة الخوارزمى التى بعثها الى الشـيعة بنيسابور لمـا قصدهم اليها محمد بن ابراهيم تمثـل مأساة الشيعة أصـدق تمثيل، ولننظر كيف يقول:

"وأنتم ونحن — أصلحنا الله وإياكم! — عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل، فأعدّ لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين قسما مات شهيدا، وقسما عاش طريدا، فالحى يحسـد الميت على ماصار اليه، ولايرغب بنفسه عما جرى اليه، قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام: "المحن الى شيعتنا أسرع من المـاء الى الحدور" وهـذه مقالة أسست على المحن وولد أهلها فى طالع المزاهر والفتن، فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة والدنيا عليهم مائلة، فاذا كنا شـيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن، ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن، فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن: غُصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آلهـا

(١) هذا الفصل القصير لا يغنى عن مراجعة الفصول المطولة فى باب (الآراء والمذاهب) بالجزء الثانى. ويمكن القول بأن الأدب فى كل عصر صورة للحياة العقلية، غير أن قوة الحيوية فى كتاب القرن الرابع ميزتهم بطابع خاص.

ميراث أبيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة ، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ، وسمّ الحسن رضى الله عنه سرا ، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهرا ، وصلب زيد بن على بالكناسة ، وقطع رأس زيد بن على فى المعركة ، وقتل ابناه محمد وابراهيم على يد عيسى بن موسى العباسى ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون . وسُمّ على بن موسى بيد المأمون ، وهزم إدريس بفخ حتى وقع الى الأندلس فريدا ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا " الخ

وفى هذه الرسالة تفاصيل مزعجة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود ، والذى يقرؤها كاملة فى رسائل الخوارزمى يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعة قوية حادة فى ذلك العصر ، وكيف تشبعت عقول بعض الكتاب بالمعانى البديعة فى محاوراتهم العقلية ، فمن الرائع حقا أن يقرر الخوارزمى أن علىّ بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته ، وأن النبى محمدا كذب بضع عشرة سنة فما اتهموه فى نبوّته ، وأن إبليس عاش مدّة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته .

وفى رأيى أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيرا مما غمض من تاريخ الأمم الاسلامية فان الكتاب الذين ينتسبون الى أحزاب يدافعون عنها قد تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه .

٢ — وبجانب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التى كانت تقوى وتشتد كلما أثيرت ذكرى الخلافة والخلفاء ونراها ممثلة فى الآثار النثرية فى ذلك العهد ، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وانقسام الأدباء الى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم ، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للموالى وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة ، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان يبذلها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الادبى والسياسى والمادّى جميعا .

ولبديع الزمان الهمذانى رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها الى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا فى رأيه أوفى وأشجع وأعلم وأحلم وإن لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم مطاعم،ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وغ وأن الله قدّم ملك العجم ليحتج عليها وأخر ملك العرب ليحتج بها، وأن العجم ماملكت حتى تواصلت، والعرب ما ملكت إلا حين تصاولت ، وأن العجم ما تواصلت إلا يأسا من نفوسها ، وأن العرب ما تصاولت إلا لما فى رءوسها من النخوة،وهذا طبيعى فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف. ثم يمضى بديع الزمان فيتحدث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو فى ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم .

٣ — والذى يهمنا من ذلك كله هو تقرير ما يمثله النثر فى ذلك العهد من الشقاق الذى كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين ، أما حجج بديع الزمان فى تفضيل العرب على الفرس وحجج خصومه فى تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا يهمنا تحقيقها الآن .

وذلك الخلاف له قيمته فى تقدير الحيوية التى كان يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذى كان يفيض حياة وقوة ، وكان يحتوى أحيانا على مباحث جيدة فى بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التى تمتاز بها الأمم والشعوب .

٤ — ومما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتّاب فى شرح حقائق الحياة. ويظهر أنهم كانوا يميلون الى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والاشارة وانما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل فى تهادى الخمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفا مغريا لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسى فى الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا نكاد نسيغه اليوم، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة فى تصوير الشهوات . وللببغاء الشاعر رسالة جميلة

فى وصف ليلة أنس ذكرها الثعالبى فى الجزء الأول من اليتيمة لا يقرؤها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتّاب لتصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل فى بيان هذه النقطة لأن لها مكانا غير هذا . وانما نقرر أن الذى يراجع آثار الكتّاب فى ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا فى الأغلب رجال حشمة ووقار، وانما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون (١) .

٥ — ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر الخصومات العنيفة التى قامت بين الكتّاب ، فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت من أطماعهم فى الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون فى الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة فى العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء، فلم يكن بدّ من أن يتنافس أصحاب الملك فى تقريبهم، ولم يكن بدّ كذلك من أن يتنافس هؤلاء فى الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الصريح ، فيتحدثون عن الهنات والعورات فى عبارات صريحة لا تسترها كناية ولا تلويح ، وأكثرهم يمزج الجد بالهزل فى أساليب مكشوفة ينفر منها الطبع فى بعض الأحيان . ولا نملك هنا ايراد الشواهد ، لأن الذوق فى عصرنا يأبى ذلك . وحسبنا أن نشير الى ما كتبه الثعالبى عن بعض العورات فقد شعر بشىء قليل من الحرج اضطره الى أن يعتذر بهذه الكلمات :

”ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وانما الاثم فى ذكرها عند شتم الأعراض وقول الرفث فى أكل لحوم الناس وقذف المحصنات“ ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة فى اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار عن هذا الأسلوب فى التعبير ودافع عنه فى حماسة بكلام طويل نكتفى منه بالأسطر الآتية :

” واعلم أنك ان كنت مستغنيا — عن المزاح — بتنسكك فان غيرك ممن يترخص فيما شددت فيه محتاج اليه . وان الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل اليك معك . وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . واذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب“ .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفى الرسالة التى كتبها بديع الزمان الى أبى نصر بن المرزبان فقرات مرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع فى المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى، ومن النبل عند الفقر، إذ "تنسيهم أيام اللدونة، أوقات الخشونة، وأزمات العذوبة، ساعات الصعوبة" وقد كانوا كما قال : " ما آتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا آنطفأ نورهم، ولا زاد مالهم إلا نقص معروفهم، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أعمالهم، ولا فاض جاههم إلا غاضت مياههم، ولا لانت برودهم إلا صلبت خدودهم"(١) وفى تلك المنافسات الشديدة، وتلك الدسائس الملعونة، التى كانت تقع بين الكتاب دليلٌ على جشعهم فى حب الحياة وفهمهم لها فهما ماديا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التى ظهرت فى فقرهم ورسائلهم وأبحاثهم . ومن المؤلم أن تظل قوة الحقد ويقظة الأثرة، وشدّة العداوة، فى كل عصر، من السمات الغالبة على كبار الكتاب، فمن النادر أن نجد كاتبا كريما يعطف على زملائه ويحب لهم الخير ويتمنى لهم السداد . وقديما أفزعت هذه الظاهرة عبد الحميد بن يحيى — وكان رجلا نبيلا — فكتب وصيته المعروفة يدعو بها الكتاب الى التعاون ونبذ الأحقاد . وفى أيامنا تبعث تلك الشمائل من جديد فلا نجد كاتبا فى العالم العربى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بحيث نظن أن شبوب العبقرية يوحى بالطمع والآستبداد بالفضل والآستئثار بالجاه .

٦ — وأهم الخصومات التى وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمذانى والخوارزمى وخصومة التوحيدى والصاحب بن عباد .

أما خصومة الهمذانى والخوارزمى فترجع الى رغبة الهمذانى فى الظهور وطمعه فى الآنفراد بالشهرة، وأهم مصدر لهذه الخصومة الرسالة المطولة التى كتبها الهمذانى فى وصف المناظرة التى قامت بينه وبين الخوارزمى، وهى رسالة مغرضة مملوءة بالتحامل والتهافت، وليس فيها أفكار جدية تجعل خصومة الرجلين خصومة بين عقلين، إنما هى محاورات لفظية تدل على

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٤٥

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دوّن بدوره تلك المناظرة لرأينا وجهين فى بسط ذلك الحادث الأدبى وآستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولكن الهمذانى تكلم وحده فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه فى قهر كاتب كان يومئذ على رأس الكاتبين .

أما خصومة التوحيدى لابن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم الى سبب مادىّ ، وذلك أن التوحيدى رغب فى مال ابن عباد وجاهه فضاق عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضا فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه فى الهجاء أسلوب خطر فظيع إذ يختلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما الى الحضيض . ويعدُّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن، غنىّ اللغة، وافر المحصول، قوىّ الخيال .

وقد تنبه المتأدبون الى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب ضدّ ذينك الوزيرين وشاع الاعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشئوم لا يملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يثق به ! (1) فاذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظلمه وآفترائه : فقد أنطق الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القارئ ويفرّ منها الطبع والذوق، وان كانت نظمت فى أسلوب شائق خلاب .

(1) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠

٤ – الفكاهات

١ — ليست الفكاهات النثرية مما ابتكره كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهورا واضحا ، وصارت فنا واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا ، ويتنافسون فى تزويرها وتحبيرها . ومن أشهرهم فى هذا الباب بديع الزمان ، فقد كتب فى الفكاهة عدّة مقامات ، منها المقامة الشامية التى أنطق فيها « زوج الاثنين » أمام قاضى الشام، وكانت إحداهما تدّعى صداقا، والأخرى تلتمس طلاقا .

القاضى : ما تقول فى الملتمسة صداقها[1] ؟

الزوج : أعز الله القاضى ! صداق عن ما ذا ؟ وأنا غريب من أهل الأسكندرية، فوالله ما أثقلت لى وتدا، ولا أشبعت لى كبدا، ولا عمرت خرابا، ولا ملأت جرابا .

القاضى : إنك تبطنتها !

الزوج : نعم ! لكنّ فما غير بارد، وثديا غير ناهد، وبطنا غير والد، وعينا غير واجد، وريقا غير ريّق، وطريقا غير ضيّق .

القاضى — للمرأة — : ما تقولين ؟

المرأة : أيد الله القاضى ! هو أكذب من أمله ، وأكثر فى اللؤم من حيله ، وأفسد عِشرةً من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا، ومن يده صخرا، ومن صدره سم خياط، لا يرشح بقيراط، ولقد زففت إليه بدنا كالديباج، ووجها كالسراج، وعينا كعين النعاج ، وثديا كحق العاج، وبطنا كظهر الهملاج، وحشّى ضيق الرتاج، خشن المنهاج، حار المزاج، صعب العلاج، ولكن كيف ألد، وهو لا ينجز ما وعد؟ وكيف ينجز ولا يجد؟ وهو يجتهد، لو لم يخنه الوتد !

(١) حولنا هذه المقامة والتى بعدها الى الحوار بتصرف قليل .

القاضى : أيها الرجل، قد رمتك بالعنة !

الزوج — وقد مال الى المرأة محتدًا — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين؟ ألم أعرك فى ليلة عشرين، حتى أسقطت الجنين ؟

المـرأة : إشهد أيها القاضى على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتنى يا دَفار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب فى الفكاهات ، وآنظر كيف يتحدّث عيسى ابن هشام :

”كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معـه دعوة بعض التجار، فقدّمتْ الينا مضيرة تثنى على الحضارة، وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية رضى الله عنه بالإمامة، فى قصعة يزل عنها الطرف، ويموج فيها الظرف، فلما أخذت فى الخوان مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبها وطابخها . وظنناه يمزح، فاذا الأمر بالضد، وإذا المزح عين الجد، وتنحى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلّبت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه، وآتقدّت لها الأكباد، ومضى فى أثرها الفؤاد[1] .

ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها، فقال :

قصتى معها أطول من مصيبتى فيها، ولو حدثتكم بها لـمـا أمنت المقت، وإضاعة الوقت .

قلنا هات .

فقال :

دعانى بعض التجار إلى مَضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغـريم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها . وقمنا، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته، ويفديها بمهجته، ويصف حذقها فى صنعتها، وتأنقها فى طبخها، ويقول :

(١) للقارئ أن يلاحظ الفكاهة فى هذا الموطن .

يامولاى، لو رأيتها، والخرقة فى آستها، وهى تدور فى الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل، وأثر فى ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظرا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته، ولا سيما إذا كانت من طينته، وهى ابنة عمى لحًّا طينتها طينتى، ومدينتها مدينتى، وعمومتها عمومتى، وأرومتها أرومتى، لكنها أوسع منى خُلقا، وأحسن خَلقا .

وصدّعنى بصفات زوجته، حتى آنتهينا إلى محلته، ثم قال :

يا مولاى ! ترى هذه المحلة ؟ هى أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار فى نزولها، ويتغاير الكبار على حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار، ودارى فى السطة[1] من قلادتها، والنقطة من دائرتها .

كم تقدّر يامولاى أنفقَ على كل دار منها ؟

قله تخمينا، إن لم تعرفه يقينا .

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

(وتنفس الصعداء، وقال سبحان من يعلم الأشياء !)

قال أبو الفتح : وآنتهينا إلى داره .

التاجر : هذه دارى . كم تقدّر يا مولاى أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت والله عليها فوق الطاقة، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعها وشكلها، أرأيت بالله مثلها ؟ أنظر الى دقائق الصنعة فيها، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وآنظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب، اتخذه من كم ؟ قل .

(١) السطة : الواسطة، وهى كلمة يكثر ورودها فى كلام بديع الزمان فى مثل هذا المعنى فقد جاء فى المقامة السجستانية ما نصه :

« انتهيت من دائرة البلد الى نقطتها، ومن قلادة السوق الى سطتها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التـاجر : هو ساج من قطعـة واحدة، لا مأروض ولا عفن ، اذا حرك أنّ ، واذا نقر طنّ . من آتخذه يا سيدى ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصـير بصنعة الأبواب ، خفيف اليـد فى العمل . لله درّ ذلك الرجل ! بحيـاتى لا آستعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها ياسيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دوّرها ، ثم آنقرها وأبصرها ، وبحياتى عليك لا آشتريت الحلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق .

قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التـاجر : عمرك الله يا دار، ولا خربك ياجدار ، فمـا أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلتها ، وكم من حيلة آحتلتها ، حتى عقدتها ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هـذه المحلة ، وله من المـال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ومزقه بين النرد والقمْر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأتقطّع عليهـا حسرات ، إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنض تجارتها ، فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة ، والمدْبر يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المـال ففعل ، وعقدها لى ، ثم تغافلت عن آقتضائه ، حتى كادت حاشـية حالة ترق ، فأتيته ، فاقتضيته ، وآستمهلنى فأنظرته ، وآلتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألتـه أن يجعل داره

رهينة لدىّ، ووثيقــة فى يدىّ، ففعل ، ثم درجته بالمعــاملات إلى بيعها فحصلت لى بجد صاعد، وبخت مساعد ، وقوّة ساعد، ورب ساع لقاعد ! وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال ، وحســبك يا مولاى أنى كنت منذ ليال نائمــا فى البيت مع من فيه إذ قُرِع علينا الباب ، فقلت من الطارق المنتاب ، فاذا آمرأة معها عقــد لآل ، فى جلدة ماء ورقة آل ، تعرضه للبيع، فأخذته منها إخذة خلس،وآشتريته بثمن بخس،وسيكون له نفع ظاهر، وربح وافر، بعون الله تعالى .

وانمــا حدّثتك بهذا الحديث لتعلم ســعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط المــاء من الحجــارة، الله أ كبر! لا ينبئك أصــدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك، اشتريت هــذا الحصير فى المناداة، وقــد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات، وزمن الغارات، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطون فلا أجد ، والدهر حُبْلَى ليس يُدرَى ما يلد ، ثم آتفق أنى حضرت باب الطاق، وهذا يعرض فى الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا دينارا . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه، فهو عظيم القدر، لا يقع مثله الا فى الندر، وإن كنت سمعت بأبى عثمان الحصــيرى فهو عمله ، له آبن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده، فبحياتى لا آشــتريت الحصر الا من دكانه، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، لا سيما من تحرم بخــوانه " .

الى هنا يتصوّر القارئ ضجر أبى الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة .

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول :

" ونعود الى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة " .

يا غلام! الطست والمــاء .

أبو الفتح — فى سره — الله أ كبر! ربمــا قرب الفرج، وسهل المخرج .

(ويتقدّم الغلام بالمــاء) .

التـاجر : ترى هـذا الغلام؟ إنه رومىّ الأصل، عراقى النشء، تقدم يا غلام وآحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وآنض عن ذراعك، وآفترّ عن أسنانك، وأقبل وأدبر .

(ويفعل الغلام ذلك) .

التـاجر : بالله من آشتراه ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : اشتراه والله أبو العباس ، من النخاس، ضع الطست وهات الابريق .

(يضع الغلام الابريق ويأخذه التاجر فيقلبه ويدير فيه النظر ثم ينقره) .

التـاجر : أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، أو قطع الذهب ، شبه[1] الشام وصنع العراق، ليس من خُلقان الأعلاق، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وسلْنى: متى آشتريته؟

أبو الفتح : ... ... ؟ .

التـاجر : اشتريته والله عام المجاعة، وآدخرته لهذه الساعة، يا غلام الابريق .

(يقدم الغلام الابريق فيأخذه التاجر ويقلبه) .

التـاجر : وأنبو به منه، لا يصلح هـذا الابريق الا لهـذا الطست ، ولا يصلح هـذا الطست الا مع هـذا الدست، ولا يصلح هـذا الدست الا فى هذا البيت، ولا يجمل هـذا البيت إلا مع هذا الضيف، أرسل المـاء يا غلام، فقد حان وقت الطعام .

(ويصب الغلام المـاء فيتأمله التاجر ويقول :) .

التـاجر : ترى هذا المـاء ؟ ما أصفاه ! أزرق كعين السنور، وصاف كقضيب البلور، استُقى من الفرات، وآستُعمل بعـد البيات، فجاء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، وليس الشأن فى السقاء، الشأن فى الإناء، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصـدق من نظافة شرابه ... وهذا المنديل؟ سلنى عن قصته فهو نسج جرجان، وعمل أرّجان، وقع الىّ فاشتريته، فاتخذتْ بعضه آمرأتى سراويلا، واتخذتُ بعضه منديلا، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا، وآنتزعت

(١) الشبه ، بالتحريك ، النحاس الأصفر .

من يدها هـذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صـنعه كما تراه ، وطرّزه ثم رددته من السوق ، وخزنته فى الصندوق، وآدّخرته للظراف، من الأضياف ... يا غلام ! الخوان، فقد طال الزمان، والقصاع، فقد طال المصاع، والطعام، فقد كثر الكلام .

(ويأتى الغلام بالخوان فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويعجمه بأسنانه) .

التـاجر : عمر الله بغداد! فـا أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان وآنظر الى عرض متنه، وخفة وزنه، وصلابة عوده، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل، فتى الأكل ؟

التـاجر : عجل يا غلام، لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

بقى الخبز وآلاته، والخُبز وصفاته ، والحنطة أين أُشـتريتْ أصلا ، وكيف اكترى لهـا حملا، وفى أى رحى طحن، وإجانة عجن، وفى أى تنور سجر، وخباز استؤجر؟ .

وبقى الحطب، من أين آحتُطب، ومتى جلب، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى يبس ؟ ؟

وبقى الخباز ووصفه، والتلميذ ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته .

وبقيت السكرجات من آتخذها، وكيف آنتقذها، ومن آستعملها، ومن عملها ؟ ؟

والخل كيف آنتقى عنبه، أو آشترى رطبه، وكيف صهرجت معصرته، وآستخلص لبه، وكيف قُيِّرحبه، وكم يساوى دنه ؟

وبقى البقل كيف آحتيل له حتى قطف، وفى أى مبقلة رصف، وكيف تؤنق حتى نظف؟ وبقيت المضـيرة، كيف آشـترى لحمها، ووفى شحمها، ونصبت قـدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها، حتى أجيد طبخها، وعقد مرقها؟ وهذا خطب يطم، وأمر لا يتم !

(ويقوم أبو الفتح) .

التاجـــر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجـــر : يامولاى ! تريد كنيفا يزرى بربيعى الأمير، وخريفى الوزير، قـد جُصِّص أعلاه، وصُهرجَ أسـفله ، وسطِّح سـقفه ، وفرشت بالمرمر أرضـه ، يزل عن حائطه الذر فـلا يقلق ، ويمشى على أرضـه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غير أنه من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن آزدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف فى الحساب !

(ويمضى أبو الفتح فيقول) .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح (ياأبا الفتح ، المضيرة ، يا أبا الفتح) وظن الصبيان المضيرة لقبا فصاحوا صياحه ، ورميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلق رجل الحجر بعمامته ، فغاص فى هامته ، فأخذت من النعال بمـا قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت ، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديما جنت المضـيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الاخيار !

٣ — ومن الفكاهات التى صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاب الصابى فى صـفة حَمَلَ أهداه اليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفـظ مونق ، وعبارة مصيبة ، ومعـان غريبة ، وآتساع فى البلاغة يعجز عنه عبد الحميد فى كتابته ، وسحبان فى خطابتـه ، وتصرف بين جدّ أمضى من القدَر ، وهزل أرق من نسيم السحَر ، وتقلب فى وجوه الخطاب ، الجامع

للصواب، إلا أن الفعل قصر عن القول : لأنك ذكرت حملا، جعلته بصفتك جملا، فكان المعيدي الذى تسمع به ولا أن تراه . وحضر فرأيت كبشا متقادم الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته، صغر عن الكبر، ولطف عن القدم، فبانت دمامته، وتقاصرت قامته، وعاد ناحلا ضئيلا، باليا هزيلا، بادى السقام، عارى العظام، جامعا للعايب، مشتملا على المثالب، يعجب العاقل من حلول الحياة به، وتأتّى الحركة فيه، لأنه عظم مجلّد، وصوف ملبد، لا يجد فوق عظامه سلبا، ولا تلق يدك منه الا خشبا . لو ألقى الى السبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه، قد طال للكلأ فقده، و بعد بالمرعى عهده، لم ير القت إلا نائما، ولا عرف الشعير إلا حالما . وقد خيرتنى بين أن أقتنيه فيكون فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرحل، فملت إلى آستبقائه لما تعرف من محبتى فى التوفير، ورغبتى للتثمير، وجمعى للولد، وآدخارى للعتد، فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء، ولا مدفعا للفناء، لأنه ليس بأنثى فتحمل، ولا بفتى فينسل، ولا بصحيح فيرعى، ولا بسليم فيبق، فملت الى الثانى من رأييك، وعولت على الآخر من قوليك، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال، فأنشدنى وقد أضرمت النار، وحدّت الشفار، وشمر الجزار :

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحى، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت، لست بذى لحم فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمى، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصّت و برى ! ! فان أردتنى للوقود فكف بعر أبق من نارى، ولن تفى حرارة جمرى بريح قتارى ! فلم يبق إلا أن تطلبنى بذحل، أو بينى و بينك دم ! فوجدته صادقا فى مقالته، ناصحا فى مشورته، ولم أعلم من أى أمريه أعجب ؟ أمن مماطلته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضر واللأواء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهيلك الصديق به مع خساسة قدره ! و ياليت شعرى إذ كنت و إليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ فى الضأن والمعز ، وكل كبش سمين ، وحمل بطين ، مجلوب إليـك ، مقصور عليك ، تقول فيـه قولا فلا ترد ، وتريده فلا تصد ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنت مهديا لو أنك رجل من عرض الكتاب ، كأبى على وأبى الخطاب ، ما كنت تهدى إلا كلبا أجرب ، أو قردا أحدب ! !"[1] .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابى يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء عليه تراقعا وتحامقا .

"التعزية على المفقود — أطال الله بقاء القاضى ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعَى قيمته ، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة ، و إخمـاد اللوعة ، وتسكين الزفرة ، وتنفيس الكربة ، فربّ ولد عاق ، وأخ مشاق ، وذى رحم أصبح لها قاطعا ، وقريب قوم قد قلدهم عارا ، وناط بهم شنارا ، فلا لوم فى ترك التعزية عنه ، وأحرِ بها أن تكون تهنئة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق ، قد كان صاحبه به مستظهرا ، وله مستثمرا ، فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعـة منه موقعها . وقد بلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا ، وأجهش عليـه باكيا ، وللندم عليه والها ، وحكيتْ عنه حكايات فى التأبين له ، و إقامة الندبة عليه ، وتعديد ما كان من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره ، واجتمعت فيه وحده ، فكان كما قال أبو نواس ، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ان يجمع العالم فى واحدِ

لأنه يكرب الأرض مغمورة ، و يثيرها مزروعة ، و يدور فى الدواليب ساقيا ، وفى الأرحاء طاحنا ، و يحمـل الغلات مستقلا ، والأثقال مستخفا ، فلا يؤوده عظيم ، ولا يعجزه جسيم ، ولا يجرى فى الحائط مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جلدا لا يسبَق ، ومبرزا

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٣

لا يلحق، وفائتا لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهد الله أن ماساءه ساءنى، وما آلمه آلمنى . ولم يجز عنــدى فى حق وده، استصغار خطب جل عنــده فأرمضه وأرقه، وأمرضه وأقلقه ، فكتبت هذه الرقعة فأصابها من الجوى فى مصابه هــذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له ، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر ، وأن يفرد هــذه البهيمة العجاء بأثرة من الثواب، يضيفها الى المكلفين من ذوى الألباب، فانها وان لم تكن منهم، فقد آستحقت أن لا تفرد عنهم، بأن مس القاضى سببها، وصار اليه منتسبها ، حتى إذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيآتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم الى الجنة التى رضيها لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا، وأورد القاضى أيده الله تعالى موارد أهل النعيم، مع أهل الصراط المستقيم ، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به ! وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلهــا الحدث ، ولكنه عَرق يجرى من أعراضهــم ؛ كذلك يجعل الله ثور القاضى مركبا من العنبر الشحرىّ ، وماء الورد الجــورىّ، فيكون له جونة عطــر ونور ! وليس ذلك بمســتبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر، إذ كانت قدرته بذلك محيطة، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات أنفسهم، وملاذ أعينهم، ماهو منحة من غامر فضــله ، وفائض كرمه، عاقبة ذلك مع صــالح مساعيه، ومحمود شيمه، وقلبى بمعرفة خبره — أدام الله عزه ! — فيما آدرعه من شعار الصبر، وآحتفظ به من إيثار الأجر، ورفع اليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه، وآخذا بقسط المشاركة فيه[1] ” .

٥ — ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة ” عهد التطفل “ وهو عهد أنشأه أبو إسحاق الصابى على لسان طفيلى اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه . والظريف فى هذا العهد أنه يجرى على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص المعهود إليه، ويعين المهمات التى كتب من أجلها العهد فيقول :

(١) راجع جواب هذا الخطاب فى زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٣

"هذا ماعهد به علىّ بن أحمد المعروف بعليكا إلى علىّ بن عرس الموصلى ، حين آستخلفه على إحياء سننه ، وآستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفل على أهل مدينة السلام ومايتصل بها من أرباضها وأكنافها ، ويجرى معها فى سوادها وأطرافها ، لمـا توسمه فيـه من قلة الحياء ، وشدّة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ورآه أهلا له من سدّ مكانه ... " .

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

" أمره بتقوى الله التى هى الجـانب العزيز ، والحرز الحريز ، والركن المنيع ، والطود الرفيع ، والعصمة الكالئة ، والجنة الواقية ، والزاد النافع يوم المعاد ... وأن يستشعر خيفته فى سره وجهره ، ويراقبه فى قوله وفعله ... ... " .

وبعد كلام طويل فى هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

" وأمره أن يتأمل آسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ... فان كثيرا من الناس قد آستقبحه ممن فعله ، وكرهه لمن آستعمله ، ونسبه فيه إلى الشره والنهم ، وحمله منه على التفه والقرم ، فمنهم من غلط فى آستدلاله ، فأساء فى مقاله ، ومنهم من شح على ماله ، فدافع عنه بآحتياله ، وكل الفريقين مذموم ، وجميعهما ملوم ، ومنهم الطائفة التى ترى فيها شركة العنان ، فهى تتدله إذا كان لها ، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها ، وترى أن المنة فى المطعم للهاجم الآكل ، وفى المشرب للوارد الواغل ، وهى أحق بالحرية ، وأخلق بالخيرية ... وقد عُرِفتَ بالتطفيل ، ولا عار فيه عنـد ذوى التحصيل ، لأنه مشتق من الطَّفَل وهو وقت المساء ، وأوان العشاء ، فلما كثر آستُعمل فى صـدر النهار وعجزه ، وأوّله وآخره ، كما قيـل للشمس والقمر : قمران وأحدهما القمر ، ولأبى بكر وعمر : العمران وأحدهما عمر ، وقد سبق إمامنا (بنّان)[1] رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقا أوجب له خلود الذكر ، فهو باق بقاء الدهر ، ومتجدّد فى كل عصر ، وما نعرف أحدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبقى له منـه أثر يخلفه وصيت يستبدّ به

(١) لا نذكر أنا اطلعنا على شىء من نوادر (بيان) هذا ، ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالتطفل فى الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فبيان رضوان الله عليه[1] يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها ، فمن بلغ الى نهايتــه ، أو جرى إلى غايته ، سعد بغضارة عيشه فى يومه ، ونباهة ذكره فى غده . جعلنا الله جميعا من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذكراه ! " .

ويقول فيمن يجب أن يغشاهم المتطفلون :

" وآمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُط الأمراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا آستقراها وجد فيهـا من طرائف الألوان ، الملذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغــة فى الحلقوم ، مالا يجده عنـد غيرهم ، ولا ينـاله إلا لديهـم ، لحذق صناعتهم ، وجودة أدواتهـم ، وآنزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدّد نحوه لحظنا ، ويوضح عليــه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا " .

ويقول فى أخلاق الموسرين من التجار :

" وآمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة[2] الدار ، والعرس والإعذار[3] ، فانهم يوسعون على نفوسهم فى النوائب ، بحسب تضييقهم عليها فى الراتب ، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين ، وأغضوا على تجهم الواغلين ، ليتحدّثوا بذلك فى مجالسهم الرذلة ، ويعدّوه فى مكارم أخلاقهم النـذلة ، ويقول قائلهم الباجح باتساع طعامه ، المبـاهى بكثرة حطامه : إننى كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها ، والأيدى الممتدة فأملؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة ، وإنمـا أرادت المنّ والسمعة ، فاذا آهتدى الأريب الى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها ، إن شاء الله " .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

" وآمره أن يصادق قهارمة[4] الدور ومدبّريهـا ، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها ، فانهـم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهـل مودّاتهم

(١) تأمل الفكاهة فى عبارة (رضوان الله عليه) . (٢) الوكيرة طعام يعمل ابتهاجا بالفراغ من بناء البيت .
(٣) الاعذار : الختان ، وهو أيضا تقديم طعام الختان . (٤) القهارمة جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . وإذا عدّت هــذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها ، واتخذته أخا من إخوانها، سعد بمرافقتها، ووصل إلى محابّه من جهاتها، ومآربه فى جنباتها " .

وأوصاه بعــد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتهيأون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينصب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقترين، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف، وفيه إزراء بمروءة المتطفلين !

ثم قال فى سياسة الأكل :

"وأمره أن يحزر الخوان اذا وضع، والطعام اذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب، عدد الألوان فى الكثرة والقلة، وأفتنانها فى الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشــبع مع آخرها ، وينتهى منها عنــد آنتهائها، ولا يفوته النصيب من كثــيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها، ومتى أحس بقلة الطعــام ، وعجزه عن الأقوام، أمعن فى أوله إمعان الكيّس فى سعيه، الرشيد فى أمره، المالئ لبطنه، من كل حار وبارد، وخبيث وطيب، فانه اذا فعل ذلك ســلم من عواقب الأغمار الذين يكفّون تطرفا ، ويُقلّون تأدبا، ويظنون أن المــادة تبلغهم فى آخر أمرهم، وتنتهى بهم الى غاية سعيهم، فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الوائب، وينقلبوا بحسرة الخــائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقــاء جدودهم، إن شاء الله ! "

ثم قال يوصيه بآحتمال الضيم فى سبيل البطن :

"وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوى دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، وإن أتته اللكزة فى حلقه، صبر عليها فى الوصول الى حقه، وإن وقعت به الصفعة فى راسه، صبر عليها لموقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، اذ كان قد ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وآمتزج بالجمهور ، فلا بد أن يلقــاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ، فان كان حرا حييا أمسك وتذمم، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم، وتجنب عند ذلك المخاشنة، وآستعمل مع المخاطب له الملاينة، ليبرّد غيظه، ويفل حده، ويكف غربه، ويأمن شغبه، ثم اذا طال

المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونال من المحال المجتمع عليها، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفّل على وليمة، لرجل ذى حال عظيمة ، فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيــه الظنون ، فقال له قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى الى هــذا الحق ، فقيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفنى وعرفته نفسى . فجيئ به اليــه . فلمــا رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعــاما زائدا على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فانما تلك الزيادة لى ولأمثالى . وبها يستظهر لمن جرى مجراى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة ورحبا، وأهلا وقربا ! والله لا جلست إلا مع علية النــاس ووجوه الجلســاء ، إذ أطرفت فى قولك، وتفننت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، إن شاء الله ! "

وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تعاهد الأشياء المقوية للعدة المشــهية للطعام " فانها عماد أمره وقوامه، وبها انتظامه والتئامه" إذ كانت تعين على حضور دعوتين، وتنهض المتطفل لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا الختام الطريف :

"هذا عهد عليكا بن أحمد اليك، وحجته لك وعليك، لم يألك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهذيبا وتثقيفا، وبعثا وتبصيرا، وحقا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدجرا، ولرسومه متبعا، وبحفظها مضطلعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1] " .

٦ — وذوق الفكاهه يغلب على كتاب القرن الرابع، ولكن المهم فى هذا الفصــل أن يعرف القــارئ أنهم كانوا يعمدون الى هذا الفن . وعهــد التطفل الذى لخصناه يدل أوضح الدلالة على أن الفكاهة صارت فنا من فنون القول . وكان بودنا أن نكثر من الشواهد، ولكن هذا الباب فى جملته لا يراد منه الا عرض النواحى البارزة فى الأساليب والأغراض .

(١) صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٦٠ — ٣٦٥

٥ - النسيب

١ — النسيب من الموضوعات التى آحتكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء، وذلك يفرض أن تؤدّى تلك المعانى فى كلام مقفّى موزون . ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ، كالذى وقع فى القرآن وصفا للحور والولدان . نحو :

"وحُورٌ عِين(١)، كأمثال اللؤلؤ المكنون"

ونحــو :

"ويطوف عليهم ولدان مخلّدون ، بأكواب وأباريق، وكأس من معين" .

وكما جاء فى سورة الواقعة :

﴿ إنا أنشأناهن إنشاء : فجعلناهن أبكارا، عُرُبا(٢) أترابا ﴾ .

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب. ونسب الى إحدى النساء حديث فى وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنهـا تكلمت عن أوصافه الحسية التى تعين أنه إنسان جميل، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ — ثم جاء القصَص الغرامى الذى شاع فى عصر بنى أميه وأوّل عصر بنى العباس .

---

(١) الحور جمع حوراء من الحور بالتحريك وهو أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والعين جمع عيناء وهى سوداء العين فى سعة . (٢) العرب جمع عروب وهى العاشقة لزوجها أو المتحببة اليه .

وهو قَصص كثير تجد أطاييه مبعثرة فى كتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من الغزل الصرف تؤدى مايؤديه الشعر من مليح الأوصاف . والى القارئ شاهدا من تلك الأقاصيص :

" خرج أَناس من بنى حنيفة يتنزهون الى جبل لهم، فبصر فتى منهم يقال له عباس بجارية فهويها، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل اليها، فطلبوا اليه أن يكف وأن ينصرف معهم فأبى، وأقبل يراسل الجارية حتى وقع فى نفسها ، فأقبل فى ليلة إضحيانة[1] متنكبا قوسه وهى بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : انصرف ، و إلا أيقظت إخوتى فقتلوك . فقال : والله للموت أيسر مما أنا فيه . ولكن لله علىّ إن أعطيتينى يدك حتى أضعها على فؤادى أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم آنصرف . فلما كان من القابلة أتاها وهى فى مثل حالها، فقالت له مثل مقالتها، وردّ عليها وقال : ان أمكنتينى من شفتيك أرشفهما آنصرفت ثم لا أعود اليك . فأمكنته من شفتيها فرشفهما ثم آنصرف. فوقع فى قلبها منه مثل النار . ونذر به الحى[2] فقالوا : ما هذا الفاسق فى هذا الجبل ! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : ان القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسهمه . وأصاب الحىَّ من آخر النهار مطرٌ وندًى فلهوا عنه، فلما كان فى آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهى تريده وقد أصابها الطل فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك فى عباس ؟ نخرجتا تمشيان، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه، فرمى بسهم فما أخطأ قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل واذا هو بالجارية فى دمها فقال :

نعب الغراب بما كرهـ ـت ولا إزالة للقدر
تبكى وأنت قتلتها فاصبر و إلا فآنتحر

(١) اضحيانة : مقمرة .

(٢) نذر به الحى : علموا به .

" ثم وجأ[1] فى أوداجه بمشاقصه[2]، وجاء الحى فوجدوهما مقتولين[3]" .

ففى هذه الأقصوصة تعابير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

" ابغنى آمرأة بيضاء البياض، سوداء السواد، طويلة الطول، قصيرة القصر[4] " .

وقول آخر :

" ابغنى آمرأة لا تؤهل داراً[5]، ولا تؤنس جاراً[6]، ولا تنفث ناراً[7] " .

وقول أعرابى لابن عمه :

" أطلب لى آمرأة بيضاء، مديدة[8] فرعاء[9]، جعدة[10] تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مشاشة[11] منكبها، وحلمتى ثدييها، ورانفتى[12] أليتيها ، ورضاف ركبتيها ، اذا آستقات فرميت تحتها بالأترجة[13] العظيمة نفذت من الجانب الآخر " .

فقال له آبن عمه : وأنّى بمثل هذه إلا فى الجنان[14] !

٤ — وأُثِرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

" هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر ويبطن، ويكثف ويلطف، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعىَّ عنه البيان، فهو بين السحر والجفون ، لطيف المسلك والكمون[15] " .

---

(١) وجأ : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلا غير عريض .
(٣) راجع عيون الأخبار ٤ ص ١٣٣ و ٣٤ . (٤) يريد : كل شىء منها أبيض فهو شديد البياض، وكل شىء منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥
(٥) لا تجعل دارها آهلة بدخول الناس عليها . (٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم .
(٧) أى لا تنم ولا تغرى بين الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ (٨) طويلة .
(٩) الفرعاء : ذات الفرع وهو الشعر . (١٠) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاشة : رءوس العظام . (١٢) مثنى رانفة وهى أسفل الألية الذى يلى الأرض عند القعود . (١٣) الأترجة ثمر شجر من جنس الليمون . (١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦
(١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢

وسمع الأصمعى امرأة من العرب تصف امرأة وهى تقول :

" بيضاء غضة(١)، وذماء(٢) رخصة(٣)، قباء طفلة، تنظر بعيني شادن ظمآن ، وتبسم عن منثور الأقحوان، فى غب التهتان، بأساريع(٤) الكثبان، خلقها عميم ، وكلامها رخيم " .

ووصف أعرابى امرأة يحبها فقال :

" هى زينة الحضــور ، وباب من أبواب السرور ، ولذكرها فى المغيب ، والبعــد من الرقيب، أشهى الينا من كل ولد ونسيب، بهــا عرف فضل الحور العين، واشتيق بها اليهن يوم الدين " .

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت :

" لامتع الهوى بملكه ، ولا ملِّى بسلطانه ! وقبض الله يده، وأوهن عضده ! فانه جائر لا ينصف فى حكم، ولا يقصر فى ظلم، ولا يرعوى للذم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل وفهم . لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها " .

وقال أعرابى :

" دخلت بغداد فرأيت فيهــا عيونا دعجا(٥) ، وحواجب زجا(٦) ، يسحبن الثياب، ويسلبن الألبــاب " .

وقال رجل من فزارة لرجل من بنى عذرة : تعدون موتكم فى الحب مزية ، وإنمــا ذلك من ضعف البنية ، وعجز الروية .

فقــال العذرى : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج(٧) ، ترشق بالأعين الدعج، فوقها الحواجب الزج، وتحتها المباسم الفلج(٨)، والشفاه الســمر، تفترعن الثنايا الغر، كأنها برد الدر، لجعلتموها اللات والعزى، ورفضتم الاسلام وراء ظهوركم " .

(١) غضة : بضــة . (٢) وذماء : جســمها ريان . (٣) رخصة : لينة .

(٤) الأساريع جمع أسروع وهو نوع من دود الرمل تشبه به الأنامل . (٥) الدعج جمع دعجاء من الدعج بالتحريك وهو سواد العين مع سعتها . (٦) زج جم أزج من الزجج بالتحريك وهو دقة الحاجبين فى طول .

(٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض. (٨) الفلج جمع أفلج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان.

وذكر أعرابى نساء فقال :

"ظعائن فى سوالفهن طول، غير قبيحات العطول[١]، اذا مشين أسبلن الذيول، وإن ركبن أثقلن الحمول " .

ووصف آخر نساء فقال :

" يتلثمن على السبائك ، ويتشحن على النيازك[٢] ، ويتزرن على العوانك[٣]، ويرتفقن على الأرائك، ويتهادين على الدوانك، ابتسامهن وميض، عن ثغر كالاغريض، وهن عن الصبا صور[٤]، وعن الحيا حور " .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتّاب القرن الأول ، أما القرن الثانى فنجد فيه شواهد، من ذلك ما حدّث مخارق المغنى إذ قال :

"لقينى أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم[٥] قبل نسكه فقال: أنا والله صب بك، ولوع اليك، مغمور القلب بشكرك، واللسان بذكرك، متشوف الى رؤيتك ومفاوضتك، وقد طالت الأيام على ما أعد به نفسى من الاجتماع معك، ومن قضاء الوطر منك، فما عندك، أنا الفداء لك! أتزورنى أم أزورك؟ قلت: جعلنى الله فداك! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع، وفى هذا المحل، الا الانقياد الى أمرك، والسمع والطاعة لك، ولولا أن أسيء الأدب فى أمر بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل عما عندى من الشوق اليك، والشغف بك، فوجبت لك به المنة علىّ، وأنا بين يديك : فاثن عنانى الى ما أردت، وقدنى كيف شئت " .

وكان أبو العتاهية من المفتونين بغناء مخارق، سمعه يوما يغنى فجعل يبكى، ثم قال :

" يا دواء المجانين ! لقد رققت حتى كدت أن أحسوك[٦] ! " .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

(١) أى أن العطل من الحلى لا يغير من حسنهن . (٢) النيازك : جمع نيزك وهو الرمح القصير .

(٣) العوانك : جمع عانك وهو الرمل المعقد . (٤) صور : منحرفات . (٥) هو أبو العتاهية .

(٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤

وقال على بن عبيدة الريحانى وقد رأى جارية يهواها :

" لولا البقيا على الضمائر ، لبحنا بمـا تجنه السرائر ، لكن نيران الحب نتدارك بالإخفاء ، ولا تعاجل بالإبداء ، فان دوامها مع إغلاق أبواب الكتمان ، و زوالها فى فتح مصارع الاعلان ".

وقال :

" لولا حركات من الأبتهاج أجد حسها عند رؤيتك فى نفسى لا أعرف لهـا مثيرا من مظانها الا مؤانستك لى ، لأبقيت عليك من العناء ، وخففت عنك مؤونة اللقاء . لكنى أجد من الزيادة بك عنـدى أكثر من قدر راحتك فى تأخرك عنى ، فأضـيق عن آحتمال الخسران بالوحدة منك " .

والكلمة الأولى غزل خالص ، والثانيـة بين الغزل والاخوانيات ، ولكنها تفيض بروح النسيب .

وكان على بن عبيدة رقيق الاحساس يتحوّل الودّ عنده الى عشق ، وهو صاحب هـذه الحكمة الغالية :

" اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودّك ، ومن الآسترسال منك ، حتى تجد له مستحقا . فان الأنس لباس العِرض ، وتحفـة الثقة ، وحِباء الأكفاء ، وشعار الخاصة ، فلا تخلق جدّته الا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك[(١)] " .

وكتب إسحاق بن ابراهيم الموصلى الى على بن هشام القائد :

" جعلت فداك ! بعث إلىّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إلىّ يرتفع عن قدرى ، ويقصر عنه شـكرى ، فلولا ما أعرف من معانيـه ، لظننت أن الرسـول غلط بى فيه ، فما لنا ولك يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى اذا نسينا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت قلوبنا ، وعلقت أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ! .

وما ذكرته من شوقك الىّ لولا أنك حلفت عليه لقلت :

---

(١) زهر الآداب ص ١٨٥ ج ١

يامن شكا عبثا إلينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشتاق
لوكنت مشتاقا إلىّ تريدنى ما طبت نفسا ساعة بفراق
وحفظتنى حفظ الخليل خليله ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيهات قد حدثت أمور بعدنا وشغلت باللذات عن إسحاق

قد تركت، جعلت فداك، ما كرهت من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبياتا لا أزال أخرج بها الى ظهر المربد وأستقبل الشمال وأتنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، وإن كنت تكرهها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الثواء قليلُ وأنْ ليس يبقى للخليل خليلُ
وإنىْ وإن مُلِّيت فى العيش حقبة كذى سفر قد حان منه رحيل
فهل لى الى أن تنظر العين مرة الى آبن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفى النفس منه حاجة وغليل

وأما بعد فانى أعلم أنك وإن لم تسأل عن حالى تحب أن تعلمها، وأن تأتيك عنى سلامة فأنا يوم كتبت اليك سالم البدن، مريض القلب ... الخ[1]".

والشعر فى هذه الرسالة أغلب، وفقا للتقاليد الأصلية فى النسيب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمان الديوان الى آخر منهم وكان قد علق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

"ليس من قدرى، أدام الله سعادتك، أن أقول لمثلك جعلت فداك، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة، وثمن معجز، ولأن نفسى لا تساوى نفسك، فتقبل فىّ فديتك على كل حال، فجعلنى الله فداء ساعة من أيامك ! اعلم أيها السيد العلىّ المنزلة أنه لو كان لعبدك من شدّة الخطب أمر يقف على حدّه النعت لأجتهد أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك، وتحنو على الرقة والتحفى أثناء جوانحك، ولكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحنا

(١) ياقوت ص ٢١٩ و ١٢٠ ج ٢

به فيك منع من كل بيان، ونزع عن كل لسان . والحب، أيها الملك، لم يشــبه قذى ريبة، ولم يختلط به قلب معاب، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحزم نيته . والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلسٌ أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدى، وفتت كبدى، فان خف ذلك عليك، ورأيت نشاطا من نفسك اليه، كنت كمن فك أسيرا، وأبرأ عليلا، وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله ،ويكون بعده،ثم أضاف الىّ منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر. فرأيك أيها الســيد المعتمد الإسعاف قبــل أن يندرنى الموت فيحول بينى وبين ما خدعت اليه النفس مواصلا برا . إن شاء الله تعالى» .

فأجابه :

"تولى الله ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة، ولا حافر تشتت، وضمنا وإياك فى أوثق حبال الأنس، وأوكد أسباب الألفة . وقفت على ماتخصته من العجز عن بلوغ ماخامر قلبك، وآنطوى فى ضميرك، من الشغف المقاقل، والهوى المضْرع، ولعمرى لو كشف لك عن معشار ما عليــه مضمر صدرى، لأيقنت أن الذى عنــدك إذا نسبته الى ماعنــدى كالمتلاشى الزائل . ولكنك بفضــل الإنعام سبقتنا الى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك، وذمامى إليك، فطاعة العبد المقتنى ، الطائع لمـا يحكم له وعليه مولاه ومالكه . وأنا سائر إليك وقت كذا، فتأهب لذلك بأجهد عافية ، وأتم عاقبة، وأسعد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى[1] " .

وهذا، كما يرى القارئ، غزل عفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفى نسبته الى غلمان من أولاد أنو شروان دليل على أن هذا الفن وصل الى العرب من الفرس، والفرس المستعربون نقلوا الى اللغة العربية فنونا من القول كان يتحرج منها العرب ، فهــم الذين أذاعوا غزل المذكر فى الشعر ، وهم كذلك الذين أذاعوه فى النثر، لأنـــ هذه

(١) راجع ص ١٣٩ و ١٤٠ ج ١ من زهر الآداب .

العواطف الرقيقة كانت مما يتحاماه العرب فى بداوتهم ، فلما تحضروا أقبلوا على هـذه الفنون الناعمة التى سبقهم اليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجـد الغزل أخذ يظهر فى النثر ، ونرى الجاحظ يكتب الى إبراهيم بن المدبر (١) :

«ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل، مذ فارقتك، إلا وجدت الشوق إليك قد حزّ فى كبدى، والأسف عليـك قد أسقط فى يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين حشا خافقة، ودمعة مهراقة، ونفس قد ذبلت بما تجاهد، وجوانح قد بليت بمـا تكابد، وذكرت وأنا على فراش الارتماض، ممنوع من لذة الاغتماض، قول بشار :

اذا هتف القمرىّ نازعنى الهوى بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفــرق بيننـا وكنا كماء المـزن شيب مع الشهد
لقــد كان ما بينى زمانا و بينهـا كما كان بين المسـك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه، ونجرى فى مودتنا اليه، فى شعره هذا . وذكرت أيضا ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم، ويجرّعنيه من مرارة نأيهم، وبُعـد لقائهم، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك، ولين عيشى بسرعة أوبتك، وقلت أبياتا تقصر عن صفة وجدى، وكنه ما يتضمنه قلبى، وهى :

بخــدىَ من قطر الدموع نُدوبُ و بالقلب منى مــذ نأيت وجيبُ
ولى نَفَس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفـؤاد مذيب
ولى شاهـد من ضر نفسى وسقمه يخــبر عــنى أننى لكئيب
كأنىَ لم أفجع بفــرقة صـاحب ولا غاب عن عينى سواك حبيب»

(١) راجع أخبار هـذه الرسالة فى ياقوت ص ٦٧ و ٦٨ ج ٦

وقد قرئت هــذه الرسالة فى مجلس ابن المدبر فقال أحد الحاضرين : هــذه رقعة عاشق لا رقعــة خادم، ورقعة غائب لا رقعــة حاضر! فضحك ابن المدبر وقال : نحن نتبسط مع أبى عثمان الى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال ابن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة الى قينة فأجابت، فلما مرت فى الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلت اليها أعاتبها فكتبت إلىّ :

" لم أتخلف عن المسير الى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك، وأجيب دعاءه، إلا لعــلة قد عرفتها فلانة، ثم خفت أن يسبق الى قلبــه الطاهر أنى قد تخلفت بغير عذر، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شىء أسرّ إلىّ من رؤيتك، والجلوس بين يديك، وأنت يا مولاى جاهى وسندى، لا فقدت سندى! ولك رأيك فى بسط العذر موفقا " .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحــرمان حظٌّ سُلبتهُ وأحوجنى فيــه البلاء الى العــذر!

فصــبرا فما هــذا بأوّل حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها ابن المعتز :

" كيف أردّ عذر من لا تتسلط التهمة عليــه، ولا تهتدى الموجدة اليه ؟ وكيف أعلمه قبول المعاذير، ولا آمن بعض جواهره الىّ يســير الى انتهاز فرصــة فيما عاد الى الفرطة . فان سلمت من ذلك فمن يجيرنى من توكله على تقديم العذر، ووقوعه موقع التصــديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشــغل والعلة ، وتنقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبــة ، وتدرس آثار المودة[1] " .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غبتِ لم تعرف مكانىَ لذةٌ ولم يلق نفس لهوها وسرورها

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ٤

وبذلت سمعا واهيا غير ممسك لقــول وعينا لا يرانى ضميرها

٧ — وفى القرن الرابع يظهــر الغزل فى النثر ظهورا رائعا بحيث يمكن مقارنة الرسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الآرتياب فى قدرة كتّاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم فى ضروبه تصرف المبدعين .

وأى حسن فات آبن العميد إذ يقول :

” سألتنى عمن شغفنى وجدى به ، وشعفنى حبى له . وزعمت أنى لو شئت لذهلت عنه ، أو لو أردت لآعتضت منه ، زعما لعمر أبيك ليس بزعم ! كيف أسلو عنه وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجــاه ، هو أغلب علىّ ، وأقرب الىّ ، من أن يرخى لى عنانى ، أو يخليني وآختيارى ، بعــد آختلاطى بملكه ، وآنخراطى فى سلكه ، وبعد أن ناط حبــه بقلبى نائط ، وساطه بدمى سائط ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنسم تنسم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت اليــه ، وإن هربت منه وقعت عليه ، وما أحب السلو عنه مع هناته ، وما أوثر الخلو منه مع مَلاته . هــذا على أنه إن أقبل علىّ بهتنى إقباله ، وأن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعــد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نواله . ويردّ عينى خاســية ، ويثنى يدى خاليــة ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدّق مرامى الظنون الكاذبة . وصــله ينذر بصده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنى عنــد ما ينزح ، ويأسو مثل ما يجرح ، حالاته أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه سجال ، الحسن فى عوارفه ، والجمال من منائحه ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وفحواه موافق لنجواه[١] “ .

وأرسل قابوس بن وشمكير الى بعض أودّائه :

” كتبت ، أطال الله بقــاء مولاى ، وما فى جسمى جارحة إلا وهى تودّ لو كانت يدا تكاتبه ، ولسانا يخاطبه ، وعينا تراقبــه ، وقريحة تعاتبه ، بنفسى ولهى ، وبصيرة ورهى ، وعين

(١) ص ١٣٠ و ١٣١ ج ٤ من زهر الآداب .

عبرى، وكبد حرى، منازعة الى ما يقرب منــه، وتمسكا بما يتصل عنه، ومثابرة على أمل هو غايته، وتعلقا بحبل عهد هو نهايته، وخاطرى يميل نحوه، ونفسى تأمل دنوه، وترجو وتقول: أتراه، بل لعله وعساه، يرق لنفس قد تصاعد نفَسها، ويرحم روحا قد فارقها روحها ومؤنسها، وكيف بقلبه لو عاين صورةً هــذه صورتها، وشاهد مهجةً هــذه جملتها، فليرفق — جعلت فداه ! — بمن عاند برحا عظيما، وكابد قرحا أليمــا، وليرق لكبد مزقها البعــاد، وعين أرقها السهاد، وأحشاء محرقة بنــار الفراق، وأجفان مقروحة بدمعها المهراق، وقلب فى أوصابه متقلب، ولب فى عذابه معذب، فلو أنى أسعدت فأعطيت الرضى، وخيرت فاخترت المنى، لتمنيت أن أتصوّر صورتك، وأطالع طلعتــك، وأمثل لهــا مثالى لتراه، فأخبرها بكنه حالى ومعنــاه، لترفق لازالة ما أزله الدهر الىّ، ولتتلطف لإماطة ما أماطه علىّ، وأشكو بعض ما نابنى من نوائبه، وأطلقنى من أشراكه وحبائله"[1] .

٨ — وأمثال هاتين الرسالتين مما يكثر وجوده فى نثر القرن الرابع، وهو فن وسط بين الغزل والاخوانيات . وهناك نماذج عديدة من الغزل الصريح، كالذى تخيره الثعالبى ممــا جاء فى رسائل معاصريه وصفا لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . والى القارئ شواهد تعيّن مناحيهم فى هذا الباب :

—هى روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض .

—هى من وجهها فى صباح شامس، ومن شعرها فى ليل دامس، كأنها فلقــة قمر على برج فضة، بدر التم يضيء تحت نقابها، وغصن البان يهتز تحت ثيابها .

—ثغرها يجمع الضريب والضرب، كأنه نثر الدر .

—قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

—خرطت لها يد الشباب حقين من عاج .

—كأنها البدر قرط بالثريا، ونيط بها عقد من الجوزاء .

(١) ياقوت ج ٦ ص ١٤٥ و ١٤٦

— أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص منهال .

— لها عنق كابريق اللجين، وسرة كمدهن العاج .

— نطاقها مجدب، و إزارها مخصب .

— مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدّها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادى الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها .

— شادن فاتر طرفه، ساحر لفظه .

— غلام تأخذه العين، و يقبله القلب، وترتاح اليه الروح .

— تكاد القلوب تأ كله، والعيون تشربه .

— جرى ماء الشباب فى عوده فتمايل كالغصن، وآستوفى ماء الحسن، ولبس ديباجة الملاحة .

— كأن البدر قد ركب على أز راره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر .

— شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر .

— ما هو إلا نزهة الأبصار، ومخجل الأقمار، وبدعة الأمصار .

— غمزات طرفه، تخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه .

— تخال الشمس تبرقعت غرته، والليل ناسب أصداغه وطرته .

— الحسن ما فوق أز راره، والطيب ما تحت إزاره .

— شادن يضحك عن الأقحوان، و يتنفس عن الريحان .

— له عينان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبى جيده، والغصن قده، والراح ريحه، والورد خده .

— الشكل فى حركاته، وجميع الحسن بعض صفاته .

— قد ملك أزمّة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بعنايته، فصاغه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، ونقشه ببدائع آثاره، ورمقه بنواظر سعوده، وجعله بالكمال أحد جنوده .

— قد صبغ الحياء غلالة وجهه، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .

— له طرّة كالغسق، على غرة كالفلق .

— جاءنا فى غلالة تنمّ على ما يستره، وتحنو مع رقتها على ما يظهره .

— وجهٌ بمـاء الحسن مغسول، وطرف بمرود السحر مكحول .

— السحر فى ألحاظه، والشهد فى ألفاظه، كأنه خاصم الولدان، ففارق الجنان .

— اختلس قامة الغصن، ووشح بمطارف الحسن، وحكى الروض غب المزن .

— الجنة مجتناة من قربه، وماء الجمال يترقرق فى خدّه، ومحاسن الربيع بين سَحره ونحره .

— ماهو إلا خالٌ فى خدّ الظرف، وطراز على علم الحسن، ووردة فى غصن الدهر، ونقش على خاتم الملك، وشمس فى فلك اللطف[(١)] .

٩ — وأوضح ما يكون النسيب المنثور إذا آتصـل بأهل الفنون ، كقول أحد الكتّاب فى وصف جارية كاتبة :

”كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانهـا سحر مقلتها، وكأن سكينها غنج لحظها ، وكأن مِقطها قلب عاشقها[(٢)] “ .

١٠ — هذا، ولعل القارئ لاحظ أن أكثر ما مرّ به فى هذا الفصل يرجع الى غزل المذكر، وهو كذلك، فقـد تحوّل النسيب فى العصر العباسى الى هـذا الفن ، وقل التشبيب بالنساء أوكاد ، وخفّ خطاب المذكر على ألسن الشعراء ، حتى رأينا من يصف محبوبه ، وهو يعنى محبوبته ، كأنّ خطاب المذكر أخف فى اللغة وأسهل فى توجيه الضمائر والإشارات أوكأنه متابعة لمـا يقع من هذا النوع فى اللغة الفارسية .

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ — ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهانى فى محاضراته[١] هذا العنوان :

" الاستحياء من المحبوب بظهر الغيب لتذكره "

ثم جاء بشواهد من شعر جميل، وأشجع، ومجنون ليلى، وكلها فى المحبوبة لا فى المحبوب[٢].

ولنذكر أن غزل المذكر فى النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبيـة ، فان أبا هلال يحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبـه وبكاه من أجله لأستهجن منه ذلك ، ولو قال فى ذلك شعرا لكان حسنا[٣] . فكأن غزل المذكر فى الشعر مستحسن مقبول ، ولكنه فى النثر مستهجن مرذول . فكيف يتفق هـذا مع ما رأيناه من الغزل المنثور فى رسائل ابن العميد؟ الجواب سهل، وهو أن أبا هلال يقول : " لو خطب " ولم يقل " لو كتب " ومن الواضح أن من يلقى خطبة فى الحنين الى معشوق يعدّ سخيفا، ولا كذلك من يحن الى محبوبه بأوتار القصيد .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائمـا موقف المؤرّخ ، وليس فى مقـدورنا أن نحكّم ذوق اليوم، ذوق القرن الرابع عشر، فى ذوق القرن الرابع، فكتّاب عصرنا لا يتغزلون بالنثر، ومنهم

---

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتّاب العصر الحاضر، على عكس ذلك، يفرّون من خطاب المذكر فى الغزل، ويحرّفون الكلم عن مواضعه أحيانا : فقد كتب الدكتور طه حسين فصلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرّض فيه لتحليل احدى مقطوعاته فقال : « أحسن العقاد وصف صاحبته » مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبته . وكتب الأستاذ الشيخ عبدالله عفيفى فصولا عن شـعراء مصر فكان يتفق له كثيرا أن يقول : « وقال فى وصف محبوبته » على حين يتحدّث الشاعر عن محبوبه لا محبوبته . وهذا وذاك نوع من التجمل المقبول . والذى يهمنا هو تقييد هذه الظواهر الأدبية لدلالتها على تطوّر التعابير وفقا لتطوّر الأذواق .

ومـا يحسن ذكره بهذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية الى الفرنسية ينقلون الخطاب من المذكر الى المؤنث وفقا لتقاليدهم الأدبية فان الكلام عن المعشوق بالتذكير غير مقبول فى لغـة الفرنسيس، وقد اتفق لى وأنا أكتب هـذا الكتاب بالفرنسية أن أجارى ذلك الذوق فقهرت بعض الضمائر ونقلتها من المذكر الى المؤنث وفقا للتقاليد الفرنسية . والعرف يطغى أحيانا فيأخذ قوة القانون .

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يلوّن عواطفه فى شعره وفقا لتقاليــد العصر الحاضر فيخاطب المؤنث وهو يريد المــذكر، كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكر وهو يريد المؤنث . ومؤرخ الأدب تفرض عليه الأمانة العلمية أن يصوّر الأدب كما كان، لا كما توجب تقاليد عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأســتاذ مصطفى صادق الرافعى أخطأ حين قرّر فى مقدّمة كتابه (أوراق الورد) أن العرب لم تؤثر عنهــم رسائل الحب ، لتصح له دعوى التفرّد بالسبق الى هــذا الفن الجميل ، وهو يقف عند ما كُتِب فى الشوق الى المحبوبة ، وذلك خطأ من الوجهة التاريخيــة ، فان أقطاب النثر الفنى وجهوا غزلهم الى المحبوب . وللأستاذ الرافعى أن يطعن فى هذا بآسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب فى حيدة مطلقة، ونسايره أين سار، والأدب لا يفرق بين الخير والشر، ولا يميّز بين الجدّ والمجون .

٦ – الاخوانيات

١ — هـذا الفن لا يحتاج الى تمهيد مطـول فى بيان أطواره النثرية ، كما صنعنا فى النسيب ، فانه فن قديم فى اللغة العربية ، وجد فى النثر كما وجد فى الشعر ، غير أنه فى النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعـرا أو نثرا فى مناجاة الأصدقاء .

وقدم هذا الفن فى اللغة العربية لا يمنع أنه صار فى القرن الرابع فنا قويا يخيل إلى القارىء أنه فن جديد ، لكثرة ما جدّ فيه من الصور والتعابير . وهو فى جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما الا آختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أفصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

«الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، ... فأما العلاقة فهى من قِبَل العشق والمحبة والكلف والشغف والهوى والصبابة... الخ»[1] .

٢ — وقد بلغ من ذيوع هـذا الفن فى القرن الرابع أن عقد له الثعالبي فصولا فى سحر البلاغة جمع فيها ما تخيره من عبارات الكتّاب ، كما آهتم فى يتيمة الدهر بجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، والى القارىء شذرات من تلك التعابير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر ، وحلت سواد القلب .

— ودٌّ سليم الصفحة ، أملس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجبهة .

---

(١) الصداقة والصديق ص ٤٠

— مودة أدين بها عن خالصة النفس، وأُودعها واسطة القلب، وأجمع عليها نواحى الصدر، وأجرسها من لواحظ الدهر .

— قد آتخذنا المودة بيننا دينا وخليقة، ورأيناها بين الناس مجازا فأعدناها حقيقة .

— لا أحـول عن عهدك وإن حالت النجوم عن ممارّها ، ولا أزول عن ودك وإن زالت الجبال عن مقارّها .

— عهدك سمير فكرى، وودك سمير ذكرى .

— صدرى وعاء ودك، ولسانى ناشر فضلك، وضميرى وقفٌ على عهدك .

— الحال بيننا أربت على المودة والحرمة ، وأرمت[1] على المشاركة والخلة، وعُقّدت فى شواجر الرحم واللحمة، ومزجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .

— محبة لا تميز معها الأرواح ، اذا ميزت الأشباح، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج، وإن تباينت الأشخاص والصور .

— نحن كالنفس الواحدة : لا تجزؤ ولا آنقسام، ولا تميز ولا آنفصام .

— لا أعظم لحق مودته حقا، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المـالين فرقا .

— أنت جارٍ منى مجرى أبعـاض جسمى ، وأعشـار قلبى ، وأنت جزء من نفسى ، وناظم شمل أنسى .

— أنت منى كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها ، واليد الباطشة التى تحفظ ممـا يدويها .

— هو شقيق روحه، وعديل حياته، وشريك دولته، وقسيم نعمته .

— ما زال مستودَع سرى وجهرى، ومشتكَى بثى وحزنى .

— هو منى بمنزلة الولد، والعضو من الجسد .

— العشرة رَضاع تثبت حرمته، والمودة لبان تلزم ذمته .

— قد تقلبنا فى أعطاف العيش، بين الوقار والطيش .

(١) أرمت : زادت .

— إخوان تطابقوا فى الآراء ، وتآلفوا فى الأهواء، وتمالحوا فى الطعام ، وتراضعوا بالمدام .

— أنا أتهم عليك عينى، وإن كنت لا أتهم قلبى، وأرضى لمودتك نيتى، وإن كنت لا أرضى لها طاقتى .

— لا مرحبا بعيش أتفرّد به عنك، ويوم لا أكتحل فيه بك .

— وددت أن أضرب بحضرتك أطناب عمرى، وأنفق على خدمتك أيام دهرى .

— لا أزال أحن إليك ، وأحنو عليك . ياليت قلبى يتراءى لك فتقرأ فيه سطور ودى ، وتقف منها على رأيى فيك !

— إنى لآسف على كل يوم فارغ منك، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .

— أنت مَن لا يسافر ودى إلا إليه، ولا يرفرف طير محبتى إلا عليه .

— قد مِلت إليك فما أعتدل، ونزلت بك فما أرتحل، ووقفت عليك فما أنتقل .

— أنا أتصبّح باسمك، وأتفاءل بذكرك، وأحلم بوجهك، وأحتلب ضرع الشعر بذكرك .

— ما فى نفسى بقعةٌ أعمر من محلك ، وأنضر من مسكك ، ولا فى قلبى مكان إلا موشًّى بذكرك، مطرز بآسمك .

— عهدى لك أكرم العهود، ووفائى لك وفاء العِرق للعود .

— شوقى إليك زادى فى سفرى، وعتادى فى حضرى .

— شوقٌ لو خُوِّف المجرمون بحره ، وتُوعِّد المشركون بجمره ، لما عُبِد صنم ، ولا نقلت فى الضلال قدم .

— فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبوب ، والعليل بالطبيب .

— حالى بعدك حال عود ذوى بعد آرتوائه ، ونجم هوى بعد آعتلائه .

— ودعت بوداعك العافية ، وفارقت مع فراقك العيشة الراضية .

— يا أسفى على غَفَلات العيش ، ولحظات الأنس ، إذ ظهائرنا أسحار ، وليالينا نهار ، وشهورنا أيام ، وسنونا قصار .

— سقى الله أياما لو كان دهرى عقدا كانت واسطته ، أو كان عمرى جيدا كانت قـلادته .

— أيامٌ حسنتْ فكأنها أعراس، وقصرتْ فكأنها أنفاس .

— سلامٌ كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، وآسمه من صحيفة حفظك .

— أنت سخىٌّ بمالك على من يطالبك، بخيلٌ بكتابك على من يكاتبك، تتوسع فى ألوف، وتضايق فى حروف[1] .

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثعالبى لأقطاب عصره ، ويجب أن نشـير الى أن هذه الثروة الأدبيـة ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها آنتُهب من ألفاظ الشعراء ، فقول أحد أولئك الكتاب[2] :

” فى الأرض مَجالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفى النـاس واصلٌ إن رثت حبالك “

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفى الناس إن رثت حبالك واصـلٌ وفى الأرض عن دار القلى متحوَّلُ

ولا يقدح فى هذا المأخذ أن يحدثنا الثعالبى فى مقدّمة سحر البلاغة أنه حل بعضه من نظم أمراء الشعر فى زمانه، فان ألفاظ الشعراء تواجه القارئ فى أكثر ما ترك كتاب القرن الرابع ، وعمل الثعالبى نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل مَن كتب فى الاخوانيات أبو حيان التوحيدى، وكتابه عن (الصـداقة والصديق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه فى الجزء الثانى من هـذا الكتاب[1] وتعجبنا المحاورات التى أنشأها فى تحليل معانى الصـداقات والعـلاقات والمودات . وآسمع كيف يقول :

---

(١) راجع سحر البلاغة ص ١٢٤ — ١٣٤ (٢) هو بديع الزمان . (٣) ص ١٤٠ — ١٤٣

" قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعمنى اذا جعت ، ويكسونى اذا عريت ، ويحملنى اذا كللت ، ويغفرلى اذا زللت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت انما تريد انسانا يكفيك مؤونتك ، ويكفلك فى حالك ، كأنك تمنيت وكيلا فسميته صديقا . فما أحار جوابا .

"وقلت للبنوى — ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين — من تحب أن يكون صديقك؟ قال : من يقيلنى اذا عثرت ، ويقومنى اذا آزوررت ، ويهدينى اذا ضللت ، ويصبر علىّ اذا مللت ، ويكفينى ما لا أعلم وما علمت .

"وسمعت أبا عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنتما تحتاجان فيهما الى الصدق والانكماش والمساعدة على آجتلاب الحظ فى طلب المعاش[1]" .

٥ — ويمتاز التوحيدى بتأريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبى الذى يهمل التأريخ حتى حين يترجم للشعراء والكتاب ، من ذلك ما حدثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب الى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

" بسم آلله الرحمن الرحيم .

إنى — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدّس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل اليك ، كتوما للسر اذا آستُحفِظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على آجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمك . وغالب ظنى أنك تعيننى على ذلك بيمون نقيبتك ، ومأمون ضريبتك . وجعلت دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق

(١) الصداقة والصديق ص ٦٠

الذى يفاوَض فى الخير والشر، و يشارَك فى الغث والسمين، و يستنام اليه فى الشهادة والغيب . ولى معك عينان إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءنى منك، والأخرى مرفوعه الى كل ماسرنى فيك، فان كنت تجد فى نفسك على قولى هذا شاهدا صدوقا، وأمارا نطوقا، فعرفنى لأعلم أن فراستى لم تفلْ، وحدسى عن طريق الصواب لم يمل . والحالة التى قد جدّدها الله لى هى محروسة لك ، ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركنى فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد ، والسكونُ الى عفو الاجتهاد . وثق بأن الذى خطبته منك ، إنما أريده لك، فلا يقعنّ فى وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقا لنقص، أولمحب لنا فيه بابا الى الزيادة . وآكتف بهذا القدر الذى دللتك عليه ، وآستقبل أمرى وأمرك بالذى أرشدتك اليه . وإياك أن تستشير فيه غير نفسك فانك بعرض حسد يكون عقالاً لحظك . والله يهديك للحسنى ، و يقينى فيك غوائل العيون المرضى. والسلام (1) .

وهذا كلام أفصح من أن يحتاج الى تعليق، واليك ماهو أحلى منه وأعذب :

"قلت لآبن الأبهرى : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك، وزين ظاهره بك ، وبذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يدك عند حاجته ، يراك منصفا وإن كنت جائرا، ومفضلا وإن كنت ممانعا، رضاه منوطٌ برضاك ، وهواه محوطٌ بهواك، إن ضللت هداك، وإن ظمئت أرواك، وإن عجزت آداك (2) . يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك فى القسم والوسم" .

"قلت : أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز" .

قال :

"إنما عزّ هذا فى زمانك، حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، وآستعمل النفاق فى الوفاق، وخيف الهلاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا آبن طاهر أصدقاء ينطوون

(1) ص ٧٠ و ٧١ (2) آداك : أعانك .

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، اذا لحظهم بطرفه تهللوا ، واذا ناقلهم بلفظه تدللوا ، واذا تحكم عليهم تعجلوا ، واذا أمسك عنهم تولوا وخولوا ، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ! فلقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، وإنى لأذكرهم فأجد فى روحى روحا من حديثهم"[1] .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول اذا شئناه ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمذانى ، وكلامه فى ذلك موصول بباب العتاب . كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

"أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بينى و بينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه ، و يحرفوا الكلم عن مواضعه ، و يرموا فى الحكاية ، سهم الشكاية ، و يجيلوا فى الشكاية ، قدح النكاية ، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصدق مالوا الى الكذب ، وإن حلم لهم الجد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، وإيراد ظلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جناياتهم على الفضلاء ، وشدة حنقهم على من لا يخطرهم ببـاله ، ولا يحطبهم فى حباله ... ... والذى فاوضنى القاضى فى معناه ، جلى فى بابه ما حكاه ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة . فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ ألطهارة أصله ، أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحة شكله ، أم غزارة فضله ؟ ! ولمَ يجوز علىّ ما حكاه ؟ ألم يؤونى طريدا ، و يلمنى حصيدا ، ويؤنسنى وحيدا ، و يصطنعنى مبديا ومعيدا ؟ وكان بقدرى أنه اذا رآنى أفعل شنيعا ، أو سمع أنى ألفظ بنكر ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده . ونظر المولى لصنيعه أقرب" .

" والآن ، إذ عاد الأمر الى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنت أخللت بطرف من طاعتى من جهة فقد نقصنى ما عودنى من وجوه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى و يبرئ جلده ، وكان يقوّم قناتى ، فقد صار يحبط حسناتى ،

(١) الصداقة والصديق ص ١٢٤ و ١٢٥

وكان يثمِّر مالى، فقد صار يبطل آمالى، وكان يحتشد لأمرى احتشاده لأمره، فقد نبـذت وراء ظهـره، وقد كان يحمـل فصار يتحامل، وكان لا يضايقنى فى الألوف والدنانير، فقـد ضايقنى فى الشعير، فى حمل بعير... الخ[١] ".

وله من رسالة ثانية :

" ليسوا سواء : فئة بالباب تسعد بالحضرة، وأخرى بالمغيب تكمد بالحسرة، والله ما للساعة من ولىّ النعمة ثمن، ولا كالاعتياض من لقائه غبْن وغبَن، فليت كتّاب الإذن شفى مما نجد، وليت هندا أنجزتنا ما تعد! معاذ الله أن أشتاق الى حضرته، لكنى أفتقر اليها افتقار الجسـد الى الحياة، والحوت الى الفرات، وانمـا مَثَل العبد مع الأصحاب، مَثَل الأرض مع السحاب، أفيسمَّى القحط شوقا، أم يكون الموت وجدا؟ انى عبد الشيخ واسمى أحمد، وهمذان المولد، وتَغلِب المورد، ومضر المحتد[٢] . وعبدٌ بهذه الصفة غريبٌ نادر، وللصـدور والملوك بغريب الأعلاق ولوع ... الخ[٣] ".

٧ — وأبو نصر العتبى له رسائل جيدة فى الاخوانيات، نختار منها قوله فى الاستزارة :

" هذا يوم رقت غلائل صحوه، وخنثت شمائل جوه، وضحكت ثغور رياضـه، واطرد زَرد الحسن فوق حياضـه ، وفاحت مجامر الأزهار ، وانتـثرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار، وقام خطباء الأطيار ، فوق منابر الأشجار، ودارت أفلاك الأيدى بشموس الراح ، فى بروج الأقداح، وقد سبينا العقـل فى مرج المجون، وخلعنا العـذار بأيدى الجنون . فمَن طالَعنا بين هذه البساتين، وأنواع الرياحين، طالَع فتيانا كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين، فبحق الفتوة التى زان الله بهـا طبعك، والمروءة التى قصر عليها أصلك وفرعك ، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لنا بك عقد السرور[٤] ".

وقد ترق الرسائل الإخوانية حتى تعود وكأنها رسائل حب، كالذى اتفق لأبى الفضـل الميكالى وأبى الفضل بن العميد، وقد أشرنا الى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكاتبين فى الجزء الثانى فليرجع اليه القارئ هناك .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) فى هذا رد على من يظنون بديع الزمان فارسى الأصل .
(٣) ص ٨ و ٩ (٤) اليتيمة ج ٤ ص ٢٨٤

٧ - الوصف

١ - أظهر ميزة فى ذلك العصر هى إجادة الوصف : فقد آهتم كتابه آهتماما عظيما بوصف ما رأته أعينهم ، أو جرى فى خواطرهم ، أو آرتابت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتى عفوا عند المناسبات الطارئة — كما كان الحال فى أوائل العصر الاسلامى — لا ، بل تعمدوا آستقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياض والنبات، والليل والنجوم، والجداول والغدران، والأنهار والبحار، والبرك[1] والأحواض، والمنازل والقصور، ومطارح القصف ، ومجالس الشراب، والنساء والغلمان، والجوارى السود، والقيان، وآلات الطرب، ومحاسن الشباب ، وأهوال المشيب، والرعد والبرق، والنسيم والريح، والمطر والثلج، والصحو والغيوم، والبلاغة والشعر والنثر، والخيل والسيوف، والنار ، والأفاعى والثعابين، والطيور والأطعمة، والفواكه، والسكاكين، والكؤوس، والخواتم، والحلى والقلائد، والمحابر والأقلام[2]، والسفن، والدواب، والجيوش والأساطيل، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ - وأطنبوا فى وصف المعانى الوجدانية — كما أطنبوا فى وصف المرئيات — فتكلموا عن أهواء النفوس ونزعاتها، كوصف الحب والوجد، والحقد والبغض، والكرم والنبل، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات .

---

(١) البرك جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبتذلة ، ولكنها كانت طريفة ، ومعناها الحوض «الفسقية» وكانت مما تزدان به صحون القصور ، والصحن ابتذل أيضا ، و يعبرون عنه بالفناء — بكسر الفاء — وفى لغة التخاطب يقولون (الحوش) وهى لفظة عراقية كما فى القاموس . وفى بركة قصر المتوكل يقول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها   والآنسات اذا لاحت مغانيها

(٢) أكثر كتاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لخطر هذه الأدوات وأثرها فى نفسية الكاتب . وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا فى البحث الذى نشرناه بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة العذراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . ولهذا المذهب عيوبه ومزاياه : فعيبــه أنه حملهم على التكلف والإسراف، ومزيته أنه دفعهم الى تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فان القارئ يرى لهم قوة فى تصوير المرئيات والمعنويات لا يجدها إلا قليــلا عند من سبقهم من الكتّاب . وذلك بفضل هذا الاتجاه الذى جعل من عصرهم (مدرسة وصفية) لا نراها فى عصر الخلفاء، ولا عهد بنى أمية، ولا أوائل أيام بنى العباس.

ولا ننكر أن الكتّاب السابقين أجادوا الوصف فى كثير من الموضــوعات، ولكنا نقرر أن كتّاب القرن الرابع عمدوا الى كل ما يقع عليه الحس، أو يجرى فى الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر فى مثلها المتقدمون .

٣ — ولقد مكننا الثعالبى فى كتابه (سحر البلاغة) من تعابير كثيرة عن الأوصاف التى عنى بها كتّاب ذلك العصر، نثبت شيئا منها فى هذا الفصــل ليرى القارئ صــدق ما نراه من قصد كتّاب ذلك العهد الى إجادة الوصف .

من ذلك قولهم فى وصف المــاء :

" ماء كالزجاج الأزرق — غدير كعين الشمس .

— ماء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، يسبح فى الرضراض، سبح النضناض .

— ماء أزرق كعين السِّنور، صاف كقضيب البلور .

— غدير ترقرقت فيه دموع السحائب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب " .

وقولهم فى وصف النثر والنظم :

" نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد — نثر كالسحر أو أدق، ونظم كالمــاء أو أرق .

— رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالمخدّرة الرشيقة .

— نثر كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السَّحر " .

وقولهم فى وصف سكين :

" سكين كأن القدر سائقها، والأجل سابقها، مرهفــة الصدر، مخطفة الخصر، يجول عليها فِرند العتق، ويموج فيهــا ماء الجوهر، كأن المنيــة تبرق من حدّها، والأجل يلمع من

متنهـا ، ركبت فى نصاب أبنوس ، كأن الحدق نفضت عليـه صبغها ، وحب القلوب كسته لباسها ، أخذ لها حديدها الناصع بحظ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج ، فكأنها ليل من تحت نهار ، أو مجمر أبدى سنا نار ، ذات غِرار ماض ، وذباب قاض .

— سكين أحن من التلاق ، وأقطع من الفراق ، تفعل فعل الأعداء ، وتنفع نفع الأصـــدقاء[(١)] " .

٤ — وقد ظلت أمثال هـذه التعابير الوصفية منبعا يستق منه الكتّاب والشعراء الى العصر الحديث . والنقاد فى مصر يعجبون بقول حافظ ابراهيم فى وصف الصهباء :

خمـــرةٌ قيـــل إنهـــم عصروها   من خدود الملاح فى يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشىء من الملام لأن عصير الخدود فى زعمه ممـا تعافه النفوس ، فلينقل اللوم إن شاء الى كتّاب القرن الرابع : لأن هذا الخيال سُرق من هناك[(٢)] !

ويعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى فى وصف النساء :

" صدور كالإغريض ، أو صدور البزاة البيض " .

وهى عبارة مأخوذة من قول الثعالبى فى وصف آثار السرىّ الرفاء :

" كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح " .

وقول توفيق البكرى :

" فمٌ كأنه أقحوانة لم تصوّح ، ووردة لم تفتح ، يضحك عن جمان ، ويتنفس عن ريحـان ، وينطق عن ألحان ؛ وخدود ، كنار أخدود ، أو تفاح ، أو ماء وراح ، أو الشفق فى الصباح " .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٤١   (٢) ورد هذا المعنى أيضا فى شعر ابن خفاجة الأندلسى وورد قبل ذلك فى شعر ديك الجن .

مأخوذ أيضا من كتاب ذلك العهد .

وقوله فى وصف كِبْر أحد الرؤساء :

" كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بنى مروان ، أو أن الايوان داره ، والهرمين آثاره ، وعصام بن شهبر حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والحجاج غلامه ، والحماسة كلامه " .

مأخوذ من قول أحد كتاب القرن الرابع :

"قد أسكرته خمرة الكبر ، وآستغرقته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، و بلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، وداود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يبد إلا من يمينه" .

وكذلك يمكن ردّ أكثر التعابير الوصفية التى كان يغرم بها فريق من كتاب الصنعة فى العصر الحاضر أمثال المبكىّ على أدبهم الرفيع : محمد المويلحى ومحمد السباعى ومحمد هلال .

٥ — وكأن القرن الرابع يؤدّى للقرون التى تليـه ما أخذه عن القرون التى سبقته ، فقد كان كتابه مولعين بحل الشعر القـديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيـالا طريفا إلا آقتبسوه وأضافوه الى ثروتهم النثرية ، يشهد بذلك ما أشار اليه الثعالبى فى مقدّمة (سحر البلاغة) من أنه ضمن كتابه بعض ألفاظ الجاحظ وآبن المعتز ، وما نجده فى مقامات بديع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية . وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجيـدة ، كما فعـل الصاحب بن عباد حين آغتصب بعض معانى المتنبي وأدخلها فى رسائله ، وكذلك فعل الصابى والخوارزمى وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية " الفن للفن " فقد عوّدوا القرّاء تذوّق الكتابة البليغة ، وحببوا إليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب ، وصارت فنون البـديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنيـة يجد القارئ لذة ومتعـة حين يراها وقعت موقعا حسـنا ، وأصابت الغرض الذى وضعت له ولو كان غرضا لفظيا لا يتوقف عليه تمـام المعنى المراد .

واذا كان كتّاب العصر الحاضر لا يستطيبون أكثر آثار ذلك العصر، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية ، فلأنهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه الصنعة ، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعا أو جناسا أو طباقا ، أو أى محسِّن وقع عن قصد، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية، وتلك الطبائع السليمة ، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم ، وأحسته أنفسهم ، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة، بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم ، وقوة فى العقل ، وسلامة فى الذوق .

٧ — ومن أظهر الدلائل على ميل كتّاب ذلك العصر الى الإغراب فى الوصف ما جاء فى نعت البلاغة بصور مختلفة على ألسنة جماعة من أرباب الصناعات[١] :

(١) لم نعرف واضع هذا الحديث ، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبته الى "بعض من ولد عقائل هذا المنثور، وألف فواصل هذه الشذور" وقد رأيت صورة منه فى كتاب اسمه "الفرائد والقلائد" منسوب الى الثعالبى ، ومن المحتمل أن يكون من وضعه ، وكتاب (الفرائد والقلائد) طبع على هامش "نثر النظم وحل العقد" للثعالبى أيضا — المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هجرية .

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الجاحظ قال : قلت لملاح لى — وذلك بعد العصر فى رمضان — أنظر، كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض ؟ قال : "أكثر من مرديين ونصف" — والمردى عود يدفع به الملاح السفينة — وقال آخر : وقع علينا اللصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا المردى، وكانت فخذه أغلظ من هذا السكان ، واسودّ وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير .

وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر وشيخ ملاح جالس ، وكان يوم مطر وزلق، فزلق حمارى فكاد يلقينى بجنبى ، لكنه تماسك فأقعى على عجزه ، فقال الشيخ الملاح : "لا إله إلا الله ! ما أحسن ما جلس على كوثله !" — والكوثل : مؤخر السفينة .

وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) تحدث فيها أربعة وخمسون رجلا (فشرط كل منهم أنه لا يكلم رفيقه إلا بعبارة تناسب حرفته ، وكلما فرغ من نثره أتبعه ببيتين من شعره) وهى رسالة جاءت بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر عليها النزعة المصرية فى الألفاظ والتعابير، وفيها أحيانا نزعة شامية .

ومن طريف ما فى هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزار :

"ذبحتمونى ذبح، ونحرتمونى نحر، انتو عندكم مغنى أحسن من خروف ! بالله استغنموا أيام البدارى قبل انسلاخها عنكم، وانت يا ساقى، يافك النعجة وكبش المراح، ما لنا عنك مراح" . =

قال الجوهري : أحسن الكلام نظاما ما ثقبتــه يد الفكرة، ونظمته الفطنــة ، ووصل جوهر معانيه فى سموط[1] ألفاظه، فاحتملته نحور الرواة .

وقال العطار : أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسـك معانيه، ففاح نسـيم نشقه ، وسطعت رائحة عبقه، فتعلقت به الرواة، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميتــه بكير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر، وخلصــته من خبث الإطناب، فبرز بروز الإبريز، فى معنى وجيز .

وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقــدته يد البصيرة، وجلتــه عين الروية، ووزنته بمعيار الفصاحة، فلا نظر يزيفه، ولا سماع يبهرجه .

وقال الحــدّاد : أحسن الكلام ما نصبت عليــه منفخة القريحة ، وأشعلت عليــه نار البصيرة، ثم أخرجته من فحم الإفحام[2]، ورققته بفطيس[3] الإفهام .

وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقدوم التقدير، ونشرته بمنشار التدبير، فصار بابا لبيت البيان، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفت رفارف ألفاظه ، وحســنت مطارح معانيــه ، فتنزهت فى زرابىّ[4] محاسنه عيون الناظرين، وأصاخت لنمـارق[5] بهجته آذان السامعين .

= وما جاء على لسان البرادعى :

” أنا معكم كل ساعة فى مذلة ، وكم فى بردعتى منكم مســلة ، أنا أخيش وأتعب ، وغيرى ينط ويركب ، فما أقبح حشو كلامكم ، قطع الله حزامكم ، وأنت يا ساق ما بتكرمنا ، اسقينا حتى تلجمنا :

عدمت عليكم ما حييت تجلدى وقد ضاع عمرى فيكمو وتصرما

وحل حزام الصــبر منى ولم يزل فى فيكمو عن شرح حالى ملجما

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة فى النكتة اللفظية .

(١) السـموط جمع سمط بالكسر وهو الخيط الذى تنظم فيــه القلادة . (٢) الافحام : العجز عن الافصاح . (٣) الفطيس ، على وزن سكيت ، المطرقة العظيمة . (٤) الزرابى جمع وهى الأبسطة أو كل ما بسط واتكئ عليه ، الواحد زربى بالكسر ، ويضم . والزرابى من النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

(٥) النمـارق : الوسائد الصغيرة ، والمفرد نمرق ونمرقة بالتثليث .

وقال الماتح[(١)]: أبين الكلام ما علقت وذم[(٢)] ألفاظه بكرة معانيـه ، ثم أرسـلته فى قليب[(٣)] الفطن، فمتحت به سقاء يكشف الشبهات، وآستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات.

وقال الخياط : البـلاغة قميص : فجربانه[(٤)] البيان ، وجيبه المعرفة ، وكماه الوجازة ، ودخاريصه[(٥)] الإفهام، ودروزه[(٦)] الحلاوة، ولابس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنض بهجة إيجـازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال، فراع كواعب الآداب، وألف عذارى الألباب .

وقال الحائك : أحسن الكلام ما آتصلت ألفاظه بسدى معانيـه ، فخرج مفوفا منيرا ، وموشى محبرا .

وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيـه ، فلم يستعجم عنك نشر، ولم يستبهم عليك طى .

وقال الرائض : خير الكلام مالم يخرج عن حد التخليـع[(٧)]، إلى منزلة التقريب[(٨)]، إلا بعـد الرياضة، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته، فى تمام ثقافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه، فأناخه فى مبرك المعنى، ثم جعل الآختصار له عقالا، والايجاز له مجالا، فلم يند عن الآذان، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المخنث : خير الكلام ما تكسرت أطرافـه ، وتثنت أعطافه ، وكان لفظه حلة ، ومعناه حلية .

---

(١) من متح الماء نزعه . (٢) الوذم بالتحريك السيور بين آذان الدلو . (٣) القليب : البئر .
(٤) الجربان بتشديد الباء القميص، اذا كسرت الجيم والراء، فاذا ضممتهما فهو الجيب، كما فى القاموس، وظاهر من نص هذا الحديث ان جربان القميص شىء غير الجيب . (٥) الدخاريص طيات القميص . (٦) دروز الثوب طرائق الخيط فيه . ومنه — ولا مؤاخذه! — قيل للقمل بنات الدروز . وأولاد درزة : هم السفلة، وهم أيضا الحاكة والخياطون . (٧) التخليع نوع من سير الفرس تخلع فيـه الأليتان . (٨) التقريب ضرب من العدو . أو هو أن يرفع الحصان يديه معا و يضعهما معا .

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم ، وصفّاه راووق الفهم، وضمته دنان الحكمة، فتمشت فى المفاصل عذوبته، وفى الأفكار رقته، وفى العقول حدته .

وقال الفقاع[١] : خير الكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك، ودفعت رقته فظاظة الجهل، فطاب حساء فطنته، وعذب مص جرعته .

وقال الطبيب : خير الكلام ما اذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة آستطلقت طبيعة الغباوة فشفى من سوء التفهم، وأورث صحة التوهم .

وقال الكحال: كما أن الرمد قذى الأبصار فكذا الشبهة قذى البصائر، فاكحل عين اللكنة بميل البلاغة، وآجل رمص الغفلة بمرود اليقظة» .

٨ — وقد يقال: إن هذا حديث يدل على ذوق واضعه: فلا يكون دليلا على الاتجاهات الوصفية فى عصره ، ونجيب بأنا نجـد هذا الاتجـاه فى عدّة مواطن من آثار ذلك العصر فى الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة . مثل :

" البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارها، ومن المعانى ثمارها .

— فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأن الألفاظ تحاسد فى التسابق الى خواطره، والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله[٢]" .

ونجد مثل هذا الاتجاه فى الرسائل التى تبادلهـا كتاب ذلك العصر ، كقول أبى الفضـل الميكالى يخاطب الثعالبى :

"وصل كتاب سيدى ومولاى أبدع الكتب هوادى وأعجازا[٣]، وأبرعها بلاغة وإعجازا، فحسبت ألفاظه دِر[٤] السحاب، أو أصفى قطرا وديمة، ومعانيه دُر السـخاب[٥]، بل أوفى قدرا وقيمـــة[٦] " .

---

(١) الفقاع : بائع الشراب . (٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤ (٣) الهوادى جمع هاد، وهو العنق، والأعجاز جمع عجز، والمراد بالهوادى والأعجاز فى وصف الكتاب الفواتح والخواتم . (٤) الدر بالفتح هو فى الأصل اللبن، ومنه : لله درفلان : تمدح الأصل الذى نبت منه. (٥) السخاب، على وزن كتاب : قلادة من قرنفل . (٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٤

٩ — ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة فى فهم ذلك العصر ؟

بلى . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها ، وطرائق تعبيرها ، وكان من همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعانى والتعابير والأخيلة حتى استطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات فى صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته وبأسلوبه الذى يختاره فى مقر مهنته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأول مثلا كانوا يفكرون فى جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأقلامهم على هذا النحو الفضفاض ، وإنما كانوا يكتفون فى الوصول الى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجزة التى يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبحوا فى حاجة الى صفوة من المتأدبين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل الى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع يستطيع أن يتذوق تشبيه الخط الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعانى باللآلئ ، ولا أن يدرك كيف تمنى كل جارحة أن تكون أذنا تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلى مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفاخره .

إذن فالصنعة التى عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجهٌ جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهى الوضوح ، فان الإغراق فى الصنعة باب من الغموض .

٨ – المبتذل والطريف فى التعابير الأدبية

١ — نكتب هـذا الفصل ردا على الأستاذ ديمومبين الذى يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات[١] . ولنشر أولا إلى أنه يذكر كلمـة « كليشيه » وقـد بحثنا فيما يقابل هـذه الكلمة فى العربية فرأينـا كلمة "مبتذل" تؤدى معناها أفصح أداء . وهى كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه الى مبتذل وغريب،وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير آحتياج إلى شدّة نظر لظهور وجهه، وعرفوا الغريب بأنه ما آحتاج فى الآنتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفى هذا التفسير بعدٌ قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشيه، لأن الكليشيه هو الصورة التى تقع لأوّل وضعها جميـلة ثم تسخف بكثرة الاستعمال ، فلنقرر إذن أن كلمة "مبتذل" كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمـة كليشيه لأنهـا أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذى نريده فى وصف التعابير التى هجنها طول الاستعمال .

٢ — والحق أنه توجد فى اللغـة العربية — كسائر اللغات — مبتذلات . فقـد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال النـاس يلحون فى آستعماله حتى يسمج ويبوخ . من ذلك "شحط النوى" و" شط المزار"وهى كلمات كثر ورودها فى قصائد الشعراء ورسائل الكتاب حتى آبتذلت، وكان من ذلك أن لا يهش لها الذوق فى قول ابن زيدون :

شحطنا وما بالدار نأىٌ ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

---

(١) ارسلت الى المسيو ديمومبين — وكنت فى باريس وكان فى هوتو Hautot — فصولا من رسائلى ، فأرسل الىّ كتابا قيما فى ثلاث صفحات عن ملاحظاته ، وجاء فيه قوله عن التعابير فى اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه فى الأصل الفرنسى ، وعدت الى الموضوع فى هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة "عَبْل الشوى" يجدها القارئ فى أكثر ما جاء فى وصف الخيل بحيث تصح إفاضتها إلى المبتذلات . وعبارة "أنشبت المنيه أظفارها" استجادها الناس فى قول الهذلى :

وإذا المنيــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـعُ

ثم عادت مبتذلة بكثرة الاستعمال بحيث يتحاماها الشعراء والكتاب ، ومثلها عبارة "استشعر الندم" وعبارة "حذوك النعل بالنعل" مع أن العبارة الثانية كانت مستجادة جدا فى قول عمر بن أبى ربيعة :

فلما تلاقينا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابله السامعون بالسخرية والصفير[1] . وعبارة "بكرت تلومك" كثر ورودها فى الشعر الجاهلى والأموى حتى ابتذلت وتناساها الشعراء . وكلمة "نؤوم الضحى" كانت من أجمل ما توصف به المرأة، وهى اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول امرىء القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أومساويك إسحل

والأساريع دوابّ ظهورها ملساء تكون فى الرمل أو فى الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان وكان هـذا التشبيه مستملحا لأوّل ظهوره ثم أخذ يثقل بكثرة الاستعمال حتى كاد يضاف الى القبيح المرذول فى قول أبى تمام :

بسطت اليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضا قولهم "نسج على منواله" وقولهم "لا يفرق بين الغث والسمين" وهناك مبتذلات ماتت موتا لا نشور بعده كقولهم : "كثير الرماد" و "جبان الكلب" و "مهزول الفصيل" مع أنها كانت من أطيب الصفات فى شعر من قال :

وما يك فىّ من عيب فانى جبان الكلب مهزول الفصيل

---

(١) كان ذلك فى خطبة ألقاها الدكتور محجوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ — على أن بعض التعابير قد تستثقل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين يخرف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ، فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب، كالذى يقول :

وما أنشد الرعيان الا تعلةً بواضحة الأنياب طيبة النشر

أو الذى يقول :

لئن كان يهدَى برد أنيابها العلى لأفقر منى إننى لفقيرُ

ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة ببرد الأنياب لعدّ من السخفاء، لأن "الأنياب" أخذت معنى أخشن وأقرب الى الوحشية . وكذلك لفظة " النسوان " كانت حلوة فى قول بعض الشعراء :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحةً وحسنا عن النسوان أم ليس لى عقلُ

ولكنها اليوم فى مصر كلمة " هجاء " ولا تؤدى فى الذوق ما تؤديه كلمة "نساء" .

وكذلك وصف الدمع وتشبيه العين الباكية بالقربة المخروقة فى قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب[1]

وقوله من كلمة ثانية :

وما شنتا خرقاء واهية الكلى سقى بهما ساق ولما تبللا[2]

بأضيع من عينيك للدمع كلما تذكرت ربعا أوتوهمت منزلا

ويلحق بهذا قولهم : "نزل المطر كافواه القِرَب" فانه ٱبتُذل لٱنصراف الأذهان عن تلك الصورة البدوية . وكان الشعراء فى عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بانسياب الحية كقول ابن أبى ربيعة :

خرجت تأطّر[3] فى الثياب كأنها أيم يسيب على كثيب أهيلا

---

(١) الكلى جمع كلية بضم الكاف وسكون اللام ، وهى من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، والمفرية : المشقوقة . (٢) الشن والشنة : القربة . (٣) تأطرت الحسناء : تثنت وتمايلت .

ولكن هذا الخيال عاد ممـا تنبو عنه الأذواق لبعد ما بين مشية المرأة وآنسياب الحية ، و إن كنت أعجب كيف سرى هـذا التشبيه حتى نراه عنـد الفرنسيين فى شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون آتفاقهما فى البغى مما يقرّب بينهما فى خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجتا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ — ولنقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشهات تنتقل من عصر الى عصر ومن بيئـة الى بيئة ثم تذوى وتموت ، ومن شواهدها فى عصرنا ما كانت تختم به أكثر المقالات فى الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

" ولله فى خلقه شؤون "

وقد تنوسيت هذه العبارة منذ مدّة بعد أن أملّت القرّاء والكتّاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبـدأ به محاضراته فى الجامعة المصرية من مثل عبارة " قلنا فى المحاضرة المـاضية " وقد آتفق له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول فى همس : " قلنا فى المحاضرة المـاضية " فآبتسم وقال :

" سمعتم فى الدرس المـاضى " .

وهو تخلص لطيف !

وهنالك تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط كقول المرحوم سـعد باشا " أنجلتم تواضعى " وقوله " فى ميدان الضحايا متسع للجميع " فان الكتّاب آنصرفوا عن آستغلال أمثال هذه التعابير لدلالتها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشـعر القارئ أنهـا لا تقع فى الكلام إلا نهبا وآختلاسا . وكذلك قوله " إن الوطن غفور رحيم " وهو تعبير قرآنى نقله سعد باشا من الصيغة الدينية الى الصيغة الوطنية ، فأخذ فى كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التى تأبى الآنقياد لكثير من النـاس ، إلا أن يتفق للحاكين ما آتفق لسعد باشا من علو الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المبتذلات الى أقسام : قسم مفهوم هجنته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدة أمثلة، وقسم غير واضح لا يفهم إلا فى غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن يتبينوا تماما وضع صورته و إن أدركوا معناه ، كقولهم " جاءوا على بكرة أبيهم " فانهم يفهمون المراد من هذا التعبير و إن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم "رفع عقيرته وغنى" وهى عبارة ماتت وحاول المنفلوطى إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، و إن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية، وقولهم "شالت نعامته" اذا مات، وقولهم :

" الى حيث ألقت رحلها أم قشعم " .

وهى عبارة لا تزال حية، وان كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم "سبق السيف العذل" وهى كلمة لا تزال تجرى على ألسنتنا، وان كان الناس لا يلتفتون الى موردها الأوّل . وقولهم " لأيا عرفت الدار " وهى عبارة جاهلية تنوسيت طويلا ثم حاول المنفلوطى إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم "ينحتون أثلته و يصدعون مروته" وهى جملة نستجيدها أحيانا وان كان الجمهور لا يتمثل صورتها إلا بجهد شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشهات جهل أصله منذ زمن طويل فانصرف عنه الكتاب والشعراء كقولهم " يا عيد مالك" و "يا هيءُ مالك" و "يا شيء مالك"(1) وقولهم فى الإغراء "كذبك كذا" و "كذبك العسل" و "كذب عليك الحج" و "كذبت عليكم أوعدونى"(2) وقولهم "عنك فى الأرض" و "عنك شيئا" وقولهم "أعمد من سيد قتله قومه؟" أى هل زاد؟ وقول ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

وفسره الخليل فقال : " معناه هل زدنا على أن كفينا؟ " وهذا لا يغنى شيئا فى توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم "بعين ما أرينّك"(3) فى موضع "عجل" وقولهم "لعا" فى الدعاء

(1) ذكره ابن فارس فيما لم يستطع تفسيره العلماء . انظر الصاحبى ص ٣٥

(2) من قول الشاعر :

كذبت عليكم أوعدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موظبا

(3) ارجع الى الصاحبى ص ٣٤ — ٣٧

للعاثر، وهى جملة ماتت منذ أزمان وحاول شوقى إحياءها فى رواية مجنون ليلى ، وقولهم "مخرنبق لينباع" وهى عبارة تحاماها المتكلمون منذ عصور طوال، وحاول بعض الكتاب أن يمدح صدقى باشا فوصفه بها فظنها الناس من الهجاء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين ! وكان العرب يستنهضون العاثر بقولهم " دعدع ولعلع " فنهاهم النبى عن ذلك وآستحب لهم أن يقولوا "اللهم آرفع وآنفع" فما معنى دعدع ولعلع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى صح النهى عنهما ثم أركهما الموت فآندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجيء ولا الهيء آمتداحيكا

فما هو الجيء والهيء؟ تلك مبتذلات أو كليشهات ضاعت معانيها فسحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ — وفى اللغة العربية تعابير تفيض قوة وحياة ، ولكن الكتاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة " والذى نفسى بيده " وهو قسم ظريف آنفرد به الرسول عليه السلام، وقد وقع منذ سنوات فى خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف، فآبتسم الناس، وقيل إنها عبارة نمقها الأستاذ عبد العزيز البشرى وكان الكاتب البرلمانى لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التى تقرن بحرف" لا " مثل " فلا أقسم بالشفق " و" فلا أقسم بمواقع النجوم " وهى أيمان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفة ، ولكن القرآن آنفرد بها وقصر جمالها على آياته البينات ، بحيث لو وقعت فى كلام غيره لشعر القارئ بغربتها عن مواطنها، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا فى الصلوات . وقد يكون من أسباب هجرها وتناسيها أنها كانت تشير الى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهلية فكانوا يجدون فى تذوّقها ما لا نجد بعد أن تطوّرت العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلسنا ندرك اليوم ما كان يدركه العرب من جلال هذا اليمين " والتين والزيتون وطور سينين " و لا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيهات

لأن الناس آنصرفوا عن آستعمالها كل الآنصراف، و إنما نسميها الطوابع القرآنية ، لأنها تجمل فيه وحده، ولا تنقاد لكلام سواه بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض .

٧ — لنترك المبتذلات التى ماتت ، والتى يحاول بعض المعاصرين إحياءها فى غير نفع، من مثل "يحرقون الأُرَّم" وما أشبه ذلك من التعابير البالية، ولنأخذ فى ذكر نوع من الصور لا يبلى ولا يموت، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على آختلاف الأزمان . والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية : لأن الناس لا يستطيعون فى سبيل الفنّ أن يخلقوا فى كل جيل ألفاظا جديدة يتميزون بها عمن سبقوهم فى تلوين الخيال . ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتّاب فى جميع العصور يتلاقون عند تشبيه الخدّ بالورد، والعين بالنبل، والثغر بالأقحوان، والسن بالبرَد، واللفظ بالسحر ، والنفَس بالريحان ، والقدّ بالغصن ، والطرّة بالغسق ، والغرّة بالفلق، والخال بالمسك ، والشفة بالعقيق ، والريق بالرحيق ، وتشبيه العذار بطراز العنبر ، والعنق بابريق اللجين ، والسرة بمدهن العاج ، والوجه بالصبح ، والشعر بالليل ، ووصف العيون بالدعَج ، والمباسم بالفلَج ؛ ونراهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتى أقرها العرف والذوق، مثل : أشر الصبا، وسكر الحداثة ، وشرخ الشبيبة، وريعان العمر، وعنفوان الشباب، وكبد السماء، وقرارة الماء ، ومطلع الفلق ، ومجمع الغسق ، وآضطراب النفس، وآضطرام الصدر، وصروف الدهر، وغدرات الزمان. ونجدهم يتوافقون أيضا عند الصفات الغالبة ، كالعقاب الكاسر، والبرج الشاهق، والنجم الثاقب، والشعرى العَبور، والأسد الهصور، والجبل المنيع، والحصن الحصين، والصبح الشامس، والليل الدامس، والقلب الخافق، والماء الدافق، والهواء العليل، والنسيم البليل، والطرف الكحيل، والخد الأسيل، والخصر النحيل، والقوام الأهيف، والطرف الأحور، والوعد الخلّب، والزمن القلّب، والرسم الدارس، والطلل الطامس، والغيم الجهام، والسيف الكهام، والبأس الشديد، والعذاب الأليم، والروض الضاحك ، والسراب الخادع ، والغصن الرطيب ، والوادى

الخصيب، والصخرة الصماء، والدرة العصماء، والحية الرقطاء، والداء العضال، والموت الزؤام، والروضة الغناء، والجنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا فى سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم بإعادة ما سبق اليه الأدباء الأقدمون لأنهم فى الواقع يلجأون الى صفات وتشبيهات لا يُستغنَى عنها إلا بخلقٍ من اللغة جديد، واللغات لا تخلق فى أعوام معدودة، وإنما تنمو وتتطوّر فى أجيال طوال، فليس من المعقول إذن أن نرفض تشبيه الخد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا النقاد فى أكثر اللغات يحاكمون الكتاب والشعراء الى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير، ويظهر ذلك واضحا عند نقادنا فى القديم والحديث، حين نراهم يقولون "العرب لا تقول ذلك" أو "لا تعرف العرب ذلك" وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون فى النقد والبيان يرجع فى جملته الى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة فى الألفاظ والمعانى والتعابير والأساليب، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لاوجه لاتهام الأدب العربى بأنه ركام من المبتذلات كما يظن المسيو ديمومبين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لا يوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يبتذل ويفقد الحياة مثل قولهم فى المستثقل من الأشياء أو الأشخاص Embétant comme la pluie .

ونحن إذا رجعنا الى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوثب من فيض القوة والحياة، ونستطيع أن نقدم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر، ولا يوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتطاولت عليه السنون، ومع ذلك تبدو طريفة أخاذة وكأنها عذراء لم يمسسها كاتب ولا شاعر ولا خطيب، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس، ومن ذا الذى ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبلد والجمود، وتقابل من ثانيهما بالتأثر والقبول، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها اثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشذ فيها صوت ، ومع ذلك يكون الفرق بين المغنيين بعيدا ، لأن أحدهما ينقل الصوت نقل المحاكاة ، على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه ويساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ، فلو كانت المعانى تبتذل بمجرد التكرار لوجب أن ننصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ، فان كلمات الحب والعبادة والتقديس قد تكررت وتكررت فى مئات الأجيال ، ومع ذلك يقول المحب لحبيبته " أحبك وأعبدك وأقدسك " فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أوّل آدم الى أوّل حواء ، وهذه الجمل بعينها قد يوجهها رجل الى امرأة فتتلقاها فى خمود ، لا لأنها جمل مبتذلة أضيفت الى الكليشيهات ، ولكن لأنها صدرت عن قلب خامد ولسان كذوب !

فالمعول عليه إذن فى التعابير الأدبية هو حياتها فى أنفس قائليها ، ولا عبرة بالقدم والحدوث فى هذا الباب ، وإن كان الأدباء يتفاضلون بما يبتكرون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون فى المعانى والأساليب .

والى القارئ قطعة من شعر ابن هانئ الأندلسى فى وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها :

وبنت أيك كالشباب النضر	كأنها بين الغصون الخضر
جَنان باز أو جنان صقر	قد خلّفته لقوة[1] بوكر
كأنما شحت دما من نحر	أو نبتت فى تربة من جمر
أو سقيت بجدول من خمر	لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كمثل النهد فوق الصدر	تفتر عن مثل اللثات الحمر

فى مثل طعم الوصل بعد الهجر

فالتشبيهات والصفات فى هذه القطعة قديمة تداولها الكتّاب والشعراء ، ولكن من الذى ينكر أن هذه القطعة من نوادر الشعر البليغ ؟ فان سألت ما سر الحياة فى هذه القطعة فانى أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة فى روح مَن نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) اللقوة : بالفتح ، هى العقاب ، بضم العين .

وإلى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز فى ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان :

لا مثل منزلة الدويرة[1] منزلٌ يادار جادك وابلٌ وسقاك

بؤسا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبى الهوى ومحاك

لم يحل للعينين بعدك منظَر ذُمَّ المنازل كلهن سواك

أى المعاهد منك أندب طيبه ممساك بالآصال أم مغداك

أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى أم أرضك الميثاء أم رياك

وكأنما سعطت مجامر عنبر أو فُتَّ فار المسك فوق ثراك

وكأنما حصباء أرضك جوهر وكأن ماء الورد دمع نداك

وكأن درعا مفرغا من فضه ماء الغدير جرت عليه صباك

فأى جديد من التشبيهات والصفات فى هذه القطعة ؟ لا شىء ! ومع ذلك لا ينكر أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى يندر أن تجود بمثله قرائح الشعراء، فما هو السر فى هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلما اصطبحنا أو اغتبقنا بهذه القطعة الرائعة ؟

السر هو أن الشاعر ينطق عن نفسه فى قوة وحياة، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه، وكأنْ لم يسبقه اليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدّم الكلمة الآتية من نثر بديع الزمان :

”أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول ، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل، أحاسب الشيخ أيده الله على أخلاقه ضنا بما عقدت يدى عليه من الظن به، والتقدير فى مذهبه، ولولا ذلك لقلت فى الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلالك، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك ، فان أعارنى أذنا واعية، ونفسا مراعية، ونزوعا عن هذا الباب الذى يقرعه، ونزولا عن الصعود الذى يفرعه، فرشت لمودته خوان صدرى، وعقدت عليه جوامع خصرى، ومجامع عمرى،

(١) الدويرة محلة كانت ببغداد .

و إن ركب من التعـالى غير مركبه ، وذهب من التغالى فى غير مذهبه ، أقطعته خطة أخلاقه وأوليته جانب إعراضه ، فانى و إن كنت فى مقتبل السن والعمر ،قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر،وصافحت يدى النفع والضر، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمى الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فمـا تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريبـا ، وتسمعنى من أحوالهـا عجيبا ، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافتىْ سمعـه و بصره ، وشغلت حيزىْ فكره ونظره ، فمالى صغرت هـذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى بى عنده حتى ٱحتجب وقد قصـدته ، ولزم أرضه وقد حضرته ؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، و يمتطى ظهر التيه ،على أهليه ،وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده ، وكأنى به غضب لهذه المخاطبة المجحفة ، والرتبة المتحيفة ، وهو فى جنب جفائه يسير " .

وقـد تخيرنا هذه القطعة لكثرة ما ورد فيها من الصور والتعابير القديمة لندل القارئ على أن ذلك لم يمنـع من ظهور شخصـية بديع الزمان إذ كان يعاتب وهو مضطرم الصـدر مهتاج الفؤاد . ولنقدم كلمة أخرى من نثر أبى الفضل بن العميد :

" وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ،فان الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال ، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال ، وأعتقنى من مخالّتك عتقا لا تستحق به ولاء ، وأبرأنى من عهدك براءة لا تستوجب معها دركا ولا ٱسـتثناء ، ونزع من عنق ربقة الذل فى إخائك ، بيدى جفائك ،ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو،وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسّح أعشار قلبى فلاءم قطورى بجميل الصبر ، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء ، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعرض عن النزاع اليك نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيـك رجوعا دونك ، وكشف عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظرى ، حتى حدر النقاب

عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليقتك ، فلم أجد إلا منكرا ، ولم ألق إلا مستكبرا ، فوليت منها فرارا ، وملئت رعبا ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت اليك ذمم عهدك " .

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعا منتهبة من غرر الشعر القديم بحيث لا يبقى لابن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف ، ومع هذا فمن ينكر أنها من طرائف النثر الجميل ؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحة على ما تحمل من دمالج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث ، فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وهو كتاب نفيس لا يختلف فى آستجادته اثنان ، ولا أقول لا ينتطح فيه عنزان ، فرارا من الكليشيه ! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو مسروق من القدماء ، وخاصة رجال القرن الرابع ، وما نظرت فيه إلا تذكرت ما قاله أحد النقاد المتقدّمين فى سعيد بن حميد :

" لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شىء ! "

ولكن هذا لا يمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكرى مأخوذين بابداعه وآفتنانه حتى لنحسب أنه صاحب ما يطالعنا به من الصور والتشابيه ، ولننظر كيف يقول فى شواطئ الآستانه :

"فاذا رأيت ثَمّ حين دلوك الشمس ، وقد شعشع نورها كل بناء وغرس ، وقد عكس فى الماء ، صور ما يحيط به من الأشياء ، أبصرت فى الماء قبابا من ذهب ، وأهلة من لهب ، وكثبانا من زمرد ، ووديانا من زبرجد ، وجبالا وأيفاعا ، وحصونا وقلاعا ، وسقوفا من جوهر ، وعمدا من مرمر ، وصرحا من قوارير ، وتماثيل وتصاوير ، ودورا وحورا ، ونارا ونورا ، وحللا تطوى وتنشر ، وسيوفا تغمد وتشهر ، وأقمارا تصاغ وتكسر ، فكأنما تقرأ فى البر ، قصيدة من شعر ، وتنظر فى البحر ، فانوسا من سحر" .

أفيعد هذا من المبتذلات ؟ هيهات هيهات !

١٠ — لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها الى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحيانا بالرغبة فى وضع بعض الصور الفصيحة فى صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك ليقع فى كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شىء أكثر من أن التعابير العامية صقلتها الألسنة فآستطابتها الأذواق .

وقد تناقل النـاس أن أبا العلاء المعرّى وضع كتابا فى معارضة القرآن، فقيل له :

إن كتابك لجيد، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك آنظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهـذا الرأى برفض أو قبول ، ولكن المهـم أن نسجل أثر الترديد والتقليب فى حياة البلاغات ، فان البلاغة كالموسيقا تبقى صورها فى النفس وفقا لمـا يقدر لها من الذيوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذى يداعب أذنيه فى الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقا القومية ألصق بالقلوب، وأعلق بالنفوس، وإن كانت فى تأليفها وسطا لا تسمو الى اللحاق بكثير من مستجاد الأصوات . وهـذا هو أيضا السر فيما يُعَرف من استعصاء الشعر على الترجمة فى كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بألفاظه آتصال الروح بمـا فى الجسم الذى يلابسه من أعصاب وحواس . فالألفة لها أهمية عظيمة فى آستجادة ما نقرأ وما نسمع، واليها يرجع الفضل فى آستحسان ما ترصّع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر فى الصلات النفسية لوجدنا لتداعى المعانى دخلا فى هذه المشكلة البيانية، لأن الصور المختلفة الألوان تهيىء الذهن والذوق تهيئة خاصة لآستقبال ما يتقـدّم به الشعراء والكتّاب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التحامل فى شىء أن نحكم بأن المستشرقين أقل منا إدراكا لمـا فى التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شياتها وأعراضها ولا يدركوما توحى الى النفوس إلا بجهد شديد ، فاذا وقع لأحدهم فعل "عجم" مثلا فى عدّة مواطن ظن تنقله من هنا الى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوى ، ونسى الصورة الأولى التى أُخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الرماح فصعب عليه تبعا لذلك أن يدرك سر البلاغة فى مثل قول ابن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللئام وخاروا

١١ — بقيت نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته الى المبتذلات . ذلك أن كتّاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من همهم دائما أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يظهروا بالغنى فى ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدبهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا فى تضمين الآيات والأحاديث والأسجاع والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جِواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض ادراكهم الحى لما يشيرون اليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما اندفن من قديم الصور فى مختلف الأغراض .

وهذا التسامى فى خَلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام ، فان الأدب فى ذاته نوع من الترف العقلى وهو يفرض وجود أريستوقراطية فكرية يتفيأ ظلالها الكتّاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى فى عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك ، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى ، بحيث لا يفهَم عنهم إلا مَن يدرك ما كانت ترمى اليه هممهم فى مطارح الحقائق ، أو مدارج الظنون .

الباب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

١ – المقامات

١ — العرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ففى أى بقعة من البقاع العربيــة نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر فى ليالى الصيف، أو حول المواقد فى الشــتاء . ولو آستمعنا اليهــم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء . وقد أتيح لى فى أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والحجازيين والتونسيين فرأيت لهم نوادر غريبــة تشوق الخيال . وتلك القصص الطليقة التى تقال فى غير تحفظ ومن غير فن هى المصــدر الأول لكتاب ألف ليلة وليلة الذى شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التى صورت بهــا النزعات المكبوتة فى تلك الطبقات التى أضناها الاســتعباد واليأس والرق الاجتماعى زمنا غير قليل . ولو أن كاتبا أراد أن يجمع كتابا على طراز ألف ليلة وليلة لوصــل إلى ما يريد من غير مشــقة ولا عناء، فلا تزال تلك الطبقات تحلم وتتخيــل وتبتكر ما شاءت لهــا حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذى يمثل ما ترجو وما تخاف . ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هــذا الباب، إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذى وضع قصــدا، والذى أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخــدمون بها بعض الأحزاب ، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق .

٢ — وأظهــر أنواع الأقاصيص فى القــرن الرابع هو فن المقامات ، وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة

من لمحات الدعابة والمجـون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمـذانى هو أول من أنشأ فن المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من آرتاب فى سبق بديع الزمان إلى هـذا الفن، وإنمـا رأيت من يعلل سـبقه بنزعته الفارسية، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحادث .

٣ — وفى رأيى أن الحريرى هو الذى أذاع هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله إذ كان أشهر مَن أقبل الجمهور عليهم من كتّاب المقامات، وهو فى مقـدّمة مقاماته ينسب إلى بديع الزمان فضل السبق إذ يقول :

” وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التى آبتـدعها بديع الزمان، وعلامة همذان، رحمه الله تعالى، وعزا إلى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعـرف . فأشار من إشارته حُكْمٌ، وطاعتـه غُنْمٌ ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع[1] “ .

إلى أن قال :

”هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سـباق غايات ، وصاحب آيات، وأن المتصدّى بعـده لإنشاء مقامة، ولو أوتى بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فُضالتـه ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . ولله در القائل :

فلو قبـل مبكاها بكيت صـبابة ... بعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبـلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت الفضـل للمتقـدّم[2] .

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنمـا آبتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وإلى القارئ النص الذى اعتمدت عليـه فى تحرير هذه المسألة :

(١) الظالع : الذى يغمز فى مشيته . والضليع القوى الأضلاع . (٢) راجع مقدّمة مقامات الحريرى .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

" كلامه غَضّ المكاسر، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا وذكر أنه آستنبطها من ينابيع صدره، وآستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، فى وجوه مختلفة، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الاسكندرى، وجعلهما يتهاديان الدر، و يتنافثان السحر، فى معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة، و يوقف منها على كل لطيفة، و ربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية[1]" .

وقد دهش المسيو مرسيه حين عرضت عليه هذا النص فى باريس،وعجب كيف آتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشىء فن المقامات ، ثم سألنى : ألا يمكن الآرتياب فى قيمة كلام الحصرى فى هذا الموضوع ؟ فأجبته بأنه تحدث بأسلوب يدل على أنه كان مفهوما فى أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض آبن دريد وحاكاه . فآرتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربى شىء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى صدى هذه الفكرة فى مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردها بجهد خاص وان كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان، ونقلُ ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهرِ القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخى الآداب عن كشف هذا الخطأ أن آبن دريد سمى قصصه (أحاديث) فى حين أن بديع الزمان سمى قصصه مقامات .

---

(١) راجع ص ٣٠٧ ج ١ من زهر الآداب (الطبعة الثانية) .

٥ — وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلعته على ما وصلت اليه فى تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ٱبن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتبا ممتازا، فكيف أثار بديعَ الزمان بما ٱبتكر من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : ارجع إلى كتاب الأمالى للقالى وٱنظر الأحاديث التى نقلها عن الأعراب ، فان رأيته يروى عن ابن دريد — وكان أستاذه — فٱعلم إذن أن الأربعين حديثا التى ذكر صاحب زهر الآداب أنه ٱخترعها لم تكن شيئا آخر غير هذه القصص التى حلَّى بها القالى كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالى وجدت حقا أن القصص التى ٱحتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلا حديث البنات اللائى وصفن أزواجهن[١] ، وحديث العاشق الجميل[٢] ، وقصة خنافر الكاهن[٣] ، والرواد الذين أرسلتْهم مذحج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضىّ فى ٱستقصاء ما ذكره القالى من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعيِّن أنها نفس القصص التى عارضها بديع الزمان[٤] .

٦ — ولكن يظهر مما جاء فى « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعا من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصى المتأدب فيقول :

---

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ١ ص ٣٨ (٣) ج ١ ص ١٣٣ طبع بولاق. (٤) لم يكن أحد تنبه إلى قيمة النص الذى نقلته آنفا عن زهر الآداب ووصلت منه إلى نشأة فن المقامات ، وقد ٱتفق أن المسيو ديمو مبين وجه نظرى أخيرا إلى إشارة وردت فى دائرة المعارف الاسلامية تدل على أن المسيو بروكلمان كان تنبه إلى ذلك النص فكتبت فى هامش ص ٨٦ من الأصل الفرنسى هذا الاستدراك :

J'ai étudié cette question directement. M. Demombynes après avoir lu ce chapitre a attiré mon atteniton sur l'opinion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l'Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39) :

(... à savoir qu'Al-Hamadanî se serait inspiré des Arbaïm d'Ibn Doraïd, nous ne pouvons porter aucun Jugement, car cette œuvre ne nous a pas été conservée.)

ومعنى هذا الكلام أن المسيو بروكلمان الذى كتب عن المقامات فى دائرة المعارف الاسلامية يرتاب فى أن يكون بديع الزمان تأثر بأحاديث ٱبن دريد ، لأن هذه الأحاديث لم تصل الينا حتى نستطيع أن نصدر حكما . وسيرى القارئ فيما سنكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجح لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

"وأنظر فى كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب[١]" .

غير أن «المقامات» فى كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك، وقد عقد ابن قتيبة فصلا سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى، ومقام عمرو بن عبيد بن يدى المنصور، ومقام خالد بن صفوان بين يدى هشام، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة[٢] . وقد تؤنث كقول بديع الزمان فى أحد الواعظين: «غريب قد طرأ لا أعرف شخصه، فأصبر عليه الى آخر مقامته، لعله ينبئ بعلامته[٣]» .

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك الى كلام المعتفين الذين يتوسلون الى الأغنياء بكلام مسجوع، وكثيرا ما نجد عندهم أمثال عبارة «ارحموا مقامى هذا» يريدون الموقف، ثم صار المقام يطلق على مايقال من الكلام فى تلك المواقف . والمقام فى الأصل المجلس، ففى القرآن ﴿أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا[٤]﴾ وفى شعر زهير :

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعلُ

ومن المؤكد أن بديع الزمان حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين فى المساجد والأسواق، ولذلك نجد راويته مشردا فى جميع الأحيان[٥] .

٧ — ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته فى القَصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن فى أذهانهم غير فن بديع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن فى اللغة العربية، ولم تسمَّ تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وانما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان .

---

(١) راجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية) . (٢) ص ١٤٣ من المقامات (طبع بيروت) . (٣) راجع عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٤٣ (٤) سورة مريم آية ٧٢

(٥) راجع ما كتبه بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٠ (Livraison 39) .

٨ — وأوّل من تأثر خطواته فى القرن الرابع أبو نصر عبدالعزيز بن نباته السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان، ثم جاء ابن ناقيا عبد الله بن محمد ابن الحسين المتوفى سنة ٤٨٥ فأنشأ عدّة مقامات تختلف فى أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف[1] .

ثم جاء الحريرى فصير فنّ المقامات شريعة أدبية، وقد انتشرت مقاماته فى جميع الأقطار العربية، وصارت مضرب المثل فى الفصاحة والبيان، ويعدّ الحريرى أشهر من نظم المقامات واليه يرجع الفضل فى ذيوع هذا الفن الجميل .

ومضى الكتّاب بعـد ذلك يترسلون على هـذه الطريقة فى جميع العصور حتى اليـوم . ولم يمض عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرةٌ فيما كتب بروكلمان فى دائرة الاسلامية، أو مادوّن فى فهرس دار الكتب المصرية، ترينا كيف افتنّ الكتّاب فى تلك الأقاصيص .

٩ — وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع فى جوهره الى فن بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والازدواج ، وطريقـة القَصص واحدة ، والافتنان فى الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان ، حتى الطريقـة التعليميـة التى عرفت فى مقامات السيوطى وابن الجوزى والقلقشندى هى أيضا مما ابتكر بديع الزمان، والفرق يرجع الى صور الثقافات فى مختلف العصور، فبديع الزمان صوّر مشكلات عصره ، والحريرى مثّل معضلات زمانه، والسيوطى فصّـل أوهام الناس وعلومهم فى أيامه، وجاء محمـد المويلحى فى العصر الأخير فوضع كتابا فى نقد الحياة الاجتماعية فى مصر تأثر فيه سجع بديع الزمان وحفظ من رسومه اسم راويته عيسى بن هشام .

١٠ — وفن المقامات الذى نشأ فى القـرن الرابع لم يعرف وطنا عربيا ، وانمـا عاش فى جميع الأقطار الاسـلامية، فكان من أهـل فارس والعراق والشام واليمن والحجـاز ومصر

(١) لم يبق من آثار ابن ناقيا إلا تسع مقامات محفوظة بمكتبة (الفاتح) فى استانبول .

والمغرب والأندلس كتّاب برعوا فى فن المقامات، وتفصيل هذه النقطة يحتاج الى كلام طويل، على أنها أوضح من أن تحتاج الى تفصيل .

١١ — ومن طريف ما قرأت ما أشار اليه بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية فقد حدثنا أن هذا الفن انتقل بفضل بديع الزمان الى اللغة الفارسية، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية الى العربية، وأشهر أصحاب المقامات فى الأدب الفارسى القاضى حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخى المتوفى سنة ٥٩٩ وهى تحتوى على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيخوخة، وبين أهل السنة والشيعة، وبين الطبيب والمنجم، وفيها وصف للربيع والخريف، والحب والجنون، وفيها مناقشات فقهية وصوفية، وهى كالمقامات العربية تصاغ فى قوالب فنية[١] .

وأشار بروكلمان كذلك الى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودى الربانى يهودا ابن شلومو الحريزى الذى ترجم مقامات الحريرى الى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سفر تَحْكِمونى[٢]) وضمنها كثيرا من آيات التوراة[١] .

ودخل هذا الفن أيضا الى اللغة السريانية ، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريرى ضمنها جملة من العظات والأخلاق ، فى لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل، ونشرها جبريل قرداحى فى بيروت سنة ١٨٨٩[١]

١٢ — وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريرى يتبين لنا أن لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف، ولا كذلك لغة الحريرى التى تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم فى الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف، ولم يأنس منهم الى فطرته إلا القليل .

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٢ و ١٧٣ من (Livraison 39) .

(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ — ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية بفن من فنون القَصص هو فن المقامات ، وذيوع هـذا الفن يرجع الى أنه وافق السليقة العربية التى تميل الى القصص القصير، والتى تميل الى الزخرف فى الانشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلما أُثير موضوع القصة فى اللغـة العربية، والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصص المعقد الذى وجد كثير منـه فيما أُثِرعن اليونان القدماء ؛ والذى ذاع عنـد الانجليز والروس والفرنسيس والألمـان .

ولا عيب فى أن تخلو آثار العـرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولا على الفطرة ، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التى تقرأ فى أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التى وجدت عند معاصريهم فى الشرق والغرب .

وليس معنى هـذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة، ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية، وقد يكون لبساطة الطبائع العربية أثر فى وقوفهم عند القصص القصير، ومَثَل القصـة فى ذلك مَثَل الموسيقا ، فقد كانت موسيقاهم بسـيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة ، فلمـا أخذت العواطف تتعقـد وتشتبك أخذ القصص والموسـيقا فى التعقد والاشتباك .

ولهـذا السبب عينه لم يفكروا فى التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئا يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسمارهم كانت تغنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ للفنون الأدبية، ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعدّ فتحا عظيما فى اللغة العربيـة، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلفتوا الى فنّه تلفت الدهشة والاستغراب وعدّوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجـد أنه ألهم الحريرى مقاماته التى كانت سببا فى خلود هـذا الفن الجميل، وقد ظلمه شوقى حين قال فى رثاء المويلحى :

رب سجع كمرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقاعه
أو كسجع الحمام لو فصلته وتأنت به ودق اختراعه
هو فيه بديع كل زمان ما بديع الزمان ؟ ما أسجاعه ؟[1]

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأسجاعه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولكن المنصفين فى الناس قليل .

ألم يجرؤ أحد المتحذلقين على ادعاء أن نثر بديع الزمان لا يقرأ اذا ترجم الى لغة أجنبية ؟ لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله الى اللغة الفرنسية فكانت تحفة فى عين من رآها من الفرنسيس ، ولكن أكثر المحدثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفى جمعه فى جريدة البلاغ «٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠» .

٢ – مقامات بديع الزمان [1]

١ – ألف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢ [2] – والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعمائة، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين :

الأول أنه عارض بها أربعين حديثا أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائما فى الكمية .

الثانى أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضيع من آثاره خمسون وثلثمائة مقامة، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل .

يضاف الى ذلك أن الحريرى حين عارض بديع الزمان لم ينشئ فى معارضته غير خمسين مقامة، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب فى هذا النوع من الأقاصيص .

٢ – فى مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها «العقدة» وتحليل الشخصيات ، والمقامة المضيرية التى تكلمنا عنها فى « الفكاهات » تمثل هذا الفن، وكذلك المقامة البغدادية التى أشرنا اليها فى الجزء الثانى [3]، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان.

وفيما عدا ما وفق اليه فى نظم بعض الأقاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد، فيرسل العظة، أو يسوق الوصف، أو يمق الفكاهة، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية، واليك هذا المثال :

حدثنى عيسى بن هشام قال : بينا نحن بجرجان فى مجمع لنا نتحدث ومعنا يومئذ رجل العرب حفظا ورواية وهو عصمة بن بدر الفزارى . فأفضى بنا الكلام الى ذكر من أعرض عن خصمه حلما، ومن أعرض عنه احتقارا، حتى ذكرنا الصلتان العبدى والبعيث وما كان

---

(١) انظر ترجمة بديع الزمان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يليها من الصفحات .

(٢) راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و٣١٦

من آحتقار جرير والفرزدق لها، فقـال عصمة : سأحدثكم بمـا شاهدته عيني، ولا أحدثكم عن غيري، بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلا نجيبة، وقائدا جنيبة[١]، عنّ لي راكب على أورق[٢] جَعْـد اللُّغام[٣]، فحاذاني حتى اذا صك الشبح بالشبح ، رفع صوته بالسـلام عليك، فقلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ! مَن الراكبُ الجهير الكلام، بتحيـة الاسلام؟ فقال : أنا غيلان بن عقبـة . فقلت : مرحبا بالكريم حسـبُه، الشهير نسبُه، السائر منطقُه! فقال : رحُب واديك، وعزّ ناديك، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزاري . قال حياك الله نعم الصـديق، والصاحب والرفيق ! وسرنا فلما هجّرنا[٤] قال : ألا تغوّر[٥] يا عصمة ، فقـد صهرتنا الشمس ؟ فقلت : أنت وذاك ! فملنا الى شجرات ألاء[٦]، كأنهن عذارى متبرجات، قد نشرن غدائرهن، لأثلاث تناوحهن . فحططنا رحالنا ونلنا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيد الأكل، وصلينا بعد، وآل كل واحد منا الى ظل أثلة يريد القائلة، وآضطجع ذو الرمة، وأردت أن أصنع مثل صنيعه، فوليت ظهري الأرض، وعيناي لا يملكهما غمض، فنظرت غير بعيـد الى ناقة كوماء[٧] قد ضحيتْ، وغبيطها ملق، واذا رجل قائم، يكلؤها كأنه عسيف أو أسيف[٨]، فلهيت عنهـما — وما أنا والسؤال عما لا يعنيني ! — ونام ذو الرمة غِرارا[٩]، ثم آنتبـه وكان ذلك في أيام مهاجاته لذلك المرئ، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

أمن ميّـــةَ الطلل الدارسُ ... ألظ به[١٠] العـاصف الرامسُ[١١]

فـلم يبق إلا شجيج القــذال[١٢] ... ومســـتوقَدٌ ماله قابس

وحوض تثـلّم من جانبيــه ... ومحتفَـل دارس طامس

وعهــدي به وبه سكْنه[١٣] ... وميــة والأنس والآنس

---

(١) الجنيبة الفرس يقودها الرجل الى جنبه . (٢) الأورق من الابل ما في لونه بياض الى سواد .

(٣) جعد اللغام : متراكم الزبد . (٤) هجر بالتشديد صادف وقت الهجير، وهو حر الظهيرة .

(٥) التغوير : النوم عند الغائرة وهي القائلة . (٦) الألاء : شجر مرّ . (٧) كوماء : عظيمة السنام .

(٨) العسيف الأجير، والأسيف العبد . (٩) قليلا . (١٠) ألظ به : لازمه . (١١) من رمس الشيء دفنه . (١٢) الشجيج : المكسور . والقذال الرأس، والمراد به هنا الوتد الذي كانت تربط فيه الأطناب . (١٣) السكن بفتح فسكون : الساكنون .

كأنى بمية مستنفر غزالا تراءى له عاطس (١)

اذا جئتها ردنى عابس رقيب عليها لها حارس

ستأتى امرأ القيس مأثورةٌ يغنِّى بها العابرَ الجالس

ألم تر أن امرأ القيس قد ألظ به داؤه الناجس (٢)

هم القوم لا يألمون الهجاء وهل يألم الحجر اليابس؟

فما لهمُ فى العلا مركب ولا لهمُ فى الوغى فارس

ممرطلة (٣) فى حياض الملام كما دَعس الأَدَم الداعس

اذا طمح الناس للمكرمات فطرفهم المطرق الناعس

تعاف الأكارم إصهارهم فكل أياما (٤) همُ عانس

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك النائم وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرمية يمنعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت : ياغيلان من هذا؟ فقال : الفرزدق، وحمىَ ذو الرمة فقال :

وأما مجاشع الأرذلون فلم يسق منبتهم راجس (٥)

سيعقلهم عن مساعى الكرام عقال ويحبسهم حابس

فقلت : الآن يَشرق (٦) ويثور، ويعم (٧) هذا وقبيلته بالهجاء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبحا لك ياذا الرمية أتعرض لمثلى بمقال منتحل؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا ، وسار ذو الرمة وسرت معه، وإنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا " .

فهذه المقامة ليست أقصوصة، وانما هى خبر من الأخبار التى كثر اختراعها فى الأدب القديم، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد، وتصف ما يقع بين الناس من ألوان الخصومات

---

(١) العاطس : الصبح ، ونفرة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .

(٢) الناجس الداء العضال . (٣) ممرطلة : ملطخة . (٤) الأيامى جمع أيم وهى التى لا زوج لها ، بكرا أو ثيبا ، والعانس التى لم تتزوج أصلا . (٥) الراجس : السحاب الراعد . (٦) يشرق : يغص بريقه : كناية عن شدة الغيظ . (٧) يهج .

والأحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها الى الأقاصيص الوصفية التى لا يراد بها الإغراب فى العقدة والشخصيات، وانما تجرى على نمط الأحاديث .

٣ — ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندرى يتنقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشام يحدثنا فى كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته، مع أنه كان يكفى أن يشتبه عليه أمره مرة أو مرتين، ولكنه فى جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع فى المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية، والمقامة الخلفية .

٤ — وبديع الزمان مغرى برسم السوآت ، والمقامة الشامية والرصافية والدينارية من شواهد ذلك ، وله غرام بالأهاجى المقذعات — وكان هذا الفن مما يقصد اليه كتاب القرن الرابع[1] — فقد آتفق لعيسى بن هشام أن يفكر فى التصدق بدينار على أشحذ رجل فى بغداد، وذُكر له اسم أبى الفتح الاسكندرى فمضى اليه فوجده فى رفقة، قد آجتمعت فى حلقة، فقال : يا بنى ساسان؟ أيكم أعرف بسلعته، وأشحذ فى صنعته، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندرى : أنا! وقال الآخر من الجماعة : لا، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا، فقال عيسى ابن هشام : ليشتم كل منكما صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عزّ بزّ!

فقال الاسكندرى يهجو صاحبه :

يا برد العجوز، يا كربة تموز، ياوسخ الكوز، يا درهما لا يجوز ! يافسوة التنين، يا نجلة العِنّين ، يا حديث المغنين ! يا سنة البوس[2]، ياضرطة العروس، يا كوكب النحوس، يا وطأة الكابوس ، يا تخمة الرءوس ! يا أم حُبين[3]، يا رمد العين ، يا غداة البين، يا فراق المحبين، يا ساعة الحَين، يا مقتل الحسين، يا ثقل الدين، يا سِمة الشين ! يا بريد الشُّوم، يا طريد

(١) كما سترى فى حكاية أبى القاسم البغدادى التى حللناها فى آخر هذا الباب . (٢) مخففة عن البؤس .
(٣) دويبة كريهة المنظر .

اللوم، يا ثريد الثوم، يا دية الزقوم! يا منع الماعون، يا سنة الطاعون! يا بغى العبيد، يا آية الوعيد، يا كلام المعيد! يا أقبح من حتى، فى مواضع شتى! يا دودة الكنيف، يا فروة الصيف، يا تنحنح المُضيف، اذا كُسر الرغيف! يا جشاء المخمور، يا نكهة الصقور، يا وتد الدور، يا خزونة[1] القدور، يا أربعاء لا تدور، يا طمع المقمور! يا ضجر اللسان، يا بول الخصيان، يا مؤاكلة العميان، يا شفاعة العريان، يا سبت الصبيان! يا كتّاب التعازى، يا قرارة المخازى، يا بخل الأهوازى، يا فضول الرازى! والله لو وضعت إحدى رجليك على أروند، والأخرى على دماوند، وأخذت بيدك قوس قُزَح، وندفت[2] الغيم فى جباب الملائكة ما كنت إلا حلاجا!!

وقال الآخر:

يا قُراد القرود، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا فسوة السود، يا ضرطة فى السجود، يا عدما فى وجود! يا كلبا فى الهراش، يا قردا فى الفراش، ياقرعية بماش[3]، يا أقل من لاش! يا دخان النِّفط، يا صنان الابط، يا زوال الملك، يا هلال الهلك! يا أخبث ممن باء بذلّ الطلاق، ومنع الصداق! يا وحل الطريق، ياماء على الريق! يا محرك العظم[4]، يا معجل الهضم، يا قلح الأسنان[5]، يا وسخ الآذان! يا أجرّ من قَلس[6]، يا أقل من فَلْس! يا أفضح من عَبرة، يا أبغى من إبرة! يا مهب الخف، يا مدرجة الأكف! يا كلمة ليت، يا وكف البيت، يا كيت وكيت! والله لو وضعت آستك على النجوم، ودليت رجليك فى التخوم، واتخذت الشِّعرَى خفا، والثريا رفا، وجعلت السماء منوالا، وحكت الهواء سربالا، فسدّيته بالنسر الطائر، وألحمته بالفلك الدائر، ماكنت إلا حائكا!».

---

(١) الخزونة: التغير والفساد. (٢) ندفه ضربه بالمندفة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن.

(٣) القرعية طعام يصنع من القرع، والماش حب يقرب من حب الباقلاء. يقرب فى طعمه من العدس فاذا خلط بالقرع كان كريه المذاق. (٤) محرك العظم هو الحمى الشديدة المصحوبة بالبرد والقشعريرة. (٥) قلح الأسنان ما يعلوها من خضرة أو صفرة. (٦) القلس بفتح فسكون الحبل يجر به المركب.

وهنا يحدّثنا عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر ، فما منهما الا بديع الكلام، عجيب المقام، ألد الخصام .

وهذا النمط من الانشاء لا يراد به الا الظهور بقوة القريحة ، وغنى اللغة ، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم الى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجى نجد فيها عبارات طريفة تبعث الضحك الى ثغر الحزين .

وهل فى الدنيا أبرد من « تنحنح المُضيف، اذا كُسِر الرغيف » ؟ !

وهل فى الحياة أثقل من « شفاعة العريان، وسبت الصبيان » ؟

٥ — والوصف من الفنون المقصودة فى مقامات بديع الزمان، وهو يفتنّ فيه من موضع الى موضع، وانظر قوله فى المقامة الأسدية :

« ... الى أن اتفقت لى حاجة بحمص، فشحذت الحرص، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس[(١)] لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته ، ولم تزل أسنمة النجاد[(٢)]، بتلك الجياد، حتى صارت كالعِصِىّ، ورجعت كالقِسِىّ، وتاح[(٣)] لنا واد فى سفح جبل ذى ألاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت الهاجرة بنا اليها ونزلنا نغور[(٤)] ونغور[(٥)]، وربطنا الأفراس، بالأمراس، وملنا مع النعاس، فما راعنا الا صهيل الخيل، ونظرت الى فرس يجذّ قوى الحبل بمشافره، ويخد خد الأرض بحافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال، وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا الى سلاحه فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه، منتفخا فى إهابه، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد مُلِئَ صلفا، وأنف قد حُشِىَ أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا : خطب والله ! وتبادر اليه من سرعان الرفقة فتًى :

أخضر الجلدة[(٦)] فى بيت العرب   يملأ الولو الى عقد الكَرَبْ

(١) الاحلاس جمع حلس بالكسر وهو البرذعة . (٢) النجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .
(٣) تاح : عرض . (٤) نغور : ننزل الغور . (٥) نغور : ننام .
(٦) أخضر الجلدة : أسمر اللون .

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه، حتى سقط ليده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحَين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار اليـه ، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضـه ، وٱفترش الليث صدره . ولكنى رميته بعمامتى، وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجأ بطنـه ، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة فى جوفه . ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أىّ ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها، حتى إذا ضمرت المزاد، ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلَين الظمأ والجوع، عنّ لنا فارس فصمدنا صمده، وقصدنا قصده . ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه (١) ينقش الأرض بشفتيه، ويلق التراب بيديه، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى ، وتحرم بجنابى ، ونظرت فاذا وجه يبرق برق العارض المتهلل، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهّل (٢)، وعارض قد ٱخضرّ، وشارب قد طرّ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجاد تركى ، وزىّ ملكى ، فقلنا : ما لك، لا أبا لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك همّ من قتلى بهمّ (٣) . فهمت على وجهى إلى حيث ترانى . وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله . ثم قال : أنا اليوم عبدك، ومالى مالك . فقلت بشرى لك وأدّاك سيرك إلى فناء رحب، وعيش رطب! وهنأتنى الجماعة، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه ، وينطق فتفتننا ألفاظه ، والنفس تنازعنى فيه بالمحظور ، والشيطان من وراء الغرور، فقال : ياسادة ! إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء (٤)، فخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيدان ، فقال : ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا الماء العذب ؟ فقلت : أنت وذاك ! فنزل

(١) أى عن فرسه الحر العتيق . (٢) وقع هذا التعبير فى كلام بديع الزمان غير مرة وهو فى الأصل من كلام امرىء القيس . (٣) الهم : العزم . (٤) عوراء : قليلة العيون فليس بها ما .

عن فرسه ونحّى مِنطقته[١]، وحلّ قُرطُقته[٢] . فما ٱستترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطها، وإلى الأفراس فحشها[٣]، وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه[٤]، .. وقلت : يا فتى ! ما ألطفك فى الخدمة، وأحسنك فى الجملة ! فالويل لمن فارقته، وطوبى لمن رافقته ! فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ما سترونه منى أ كثر ! أتعجبكم خفتى فى الخدمة، وحسنى فى الجملة، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة؟ أريكم من حذقى طرفا، لتزدادوا بى شغفا؟ فقلنا : هات ! فعمد إلى قوس أحدنا وفوّق سهما فرماه فى السماء، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء، وقال : سأريكم نوعا آخر، ثم عمد إلى كنانتى فأخذها وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره، وطيَّره من ظهره . فقلت : ويحك، ما تصنع ؟ ! فقال : أُسكت يالُكَع ! والله ليشدّنّ كل منكم يد رفيقه، أو لأُغِصَّنه بريقه ! فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسروجنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس فى يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الجِدّ، أخذنا القِدّ[٥] فشدّ بعضنا بعضا، وبقيت وحدى، لا أجد من يشدّ يدى، فقال : اخرجْ بإهابك، عن ثيابك ! فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر . ويقول : أقمت قضيبك، فخذ نصيبك ! ... الخ " .

والقصة فى جملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور، وفيها فقرات تعد من آيات الوصف السابغ، والحركة قوية فى تلك الأقصوصة، والمناظر تتوارد فى حياة وٱنسجام . وعند تأمل ما ٱنتهت إليه نجد الغرض فى غاية من التفاهة، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف .

(١) المنطقة : الحزام .

(٢) القرطقة : مؤنث قرطق وهو قباء ذو طاق واحد وأصله (كرته) بالفارسية (راجع شرح المقامات للشيخ محمد عبده ص ٣٩) .

(٣) ألقى لها الحشيش .

(٤) حذفنا من هذا الموطن كلمات فيها مجون .

(٥) القدّ بالكسر سير من جلد غير مدبوغ .

والمقامة الخمرية وضعتْ قصدا لوصف الصهباء ، فيحدّثنا عيسى بن هشام : أنه كان فى عنفوان شبيبته عدّل ميزان عقله ، وعَدل بين جِدّه وهزله ، فجعل النهار للناس ، والليل للكاس ، وأنه آجتمع فى بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفد ما معهم من الراح ، ثم دعتهم دواعى الشطارة ، إلى حان الخمارة ، والليل أخضر الديباج ، مغتلم الأمواج ، فلما أخذوا فى السبح ، ثوب منادى الصبح ، فخنس شيطان الصبوة ، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وحركات موزونة ، وإمامهم يجدّ فى خفضه ورفعه ، ويدعوهم بإطالته الى صفعه ! حتى إذا راجع بصيرته ، ورفع بالسلام عقيرته ، تربع فى ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ، ويديم آستنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خلط فى سيرته ، وآبتلى بقاذورته ، فليسعه ديماسه [١] ، دون أن تنجسنا أنفاسه ، انى لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ، ثم آبتكر الى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فتألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أقفيتهم ، فأقسموا لا عاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفلتون ، وسألوا من مرّ بهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندرى ؛ فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عِمِّيت ، وآمن عفريت ! والحمد لله لقد أسرع فى أوبته ، ولا حرمنا الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام فى الوصف فقال :

”ولما حسرج النهار أو كاد ، نظرنا فإذا برايات الحان أمثال النجوم ، فى الليل البهيم ، فتهادينا بها السراء ، وتباشرنا بليلة غراء ، ووصلنا الى أنخمها بابا ، وأضخمها كلابا ، وقد جعلنا الدينار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدُفِعنا الى ذات شكل [٢] ودلّ ، ووشاح منحلّ ، اذا قتلت

(١) الديماس : البيت .

(٢) الشكل : الغزل .

ألحاظها، أحييت ألفاظها، فأحسنت تلقينا، وأسرعت تقبل رءوسنا وأيدينا، وأسرع من معها من العلوج، الى حط الرحال والسروج، وسألنا عن خمرها فقالت :

خمرٌ كريق فى العذو بة واللذاذة والحلاوة
تــذر الحليم وما عليـ ـه لحلمه أدنى طلاوة

كأنما اعتصرها من خدى ، أجداد جدى، وسربلوها من القار بمثـل هجرى وصدى، وديعة الدهور، وخبيئة جيب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار، ويأخذها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرج وشُعاع ، ووهَج لذّاع ، ريحانة النفس ، وضرة الشمس ، فتاة البرق(١)، عجوز الملق، كاللهب فى العروق، وكبرد النسيم فى الحلوق، مصباح الفكر، وترياق سم الدهر، بمثلها عُزِّر(٢) الميت فانتشر، ودووى الأكمه فنظر .

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

"هذه الضالة وأبيك ، فمن المطرب فى ناديك ؟ ولعلها تُشعشَع للشَّرب ، من ريقك العذب ! " .

وأنها أجابتهم بأن لها شيخا ظريف الطبع طريف المجون، مر بها يوم الأحد فى دير المربد، فوقعت بينهما الخلطة، وتكررت الغبطة، وذكر لها من وفور عرضه، وشرف قومه فى أرضه، ما عطفها عليــه . واشتاق عيسى بن هشام الى رؤية هذا الشيخ الذى يجمع بين ظرف الطبع وطرافة المجون فإذا هو أبو الفتح الاسكندرى إمام المسجد فى صباح الأمس !

أكان بديع الزمان يريد بهــذه المقامة أن يعرّض ببعض الأشياخ الذين يظهرون بسمت مشرق، وينطوون على زيغ موبق ؟

لا ، إن بديع الزمان نفسه مرتاب، ولذلك نراه ينطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن أى دكاك(٣) تــرانى
أنا من يعــرفه كل تهـــام ويمــانى

(١) البرق بالتحريك : التزين . (٢) عزر : أعين . (٣) الدكاك : المحتال .

أنا من كل غبار انا من كل مكان

ساعةً ألزم محرا بًا وأخرى بيت حان

وكذا يفعل من يعـ ـقل فى هـذا الزمان

ومن المقامات التى أريدَ بها مجرد الوصف المقامة الحمدانية، وهى فى وصف الخيل، وهى مشهورة، وقد شرحها صاحب "زهر الآداب"[١] .

٦ — أكثر بديع الزمان فى مقاماته من الكلام على الشعر والشعراء ، فأنطق أبا الفتح فى المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة :

هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله[٢] ؟

وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله[٣] ؟

وهل لها بيت سمج وضعه، وحسن قطعه[٤] ؟

وأى بيت لا يرقأ دمعه[٥]؟

وأى بيت يثقل وقعه[٦] ؟

وأى بيت يشج عروضه ، ويأسو ضربه[٧] ؟

---

(١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من الجزء الثانى .

(٢) مثاله قول الشاعر :

دراهمنا كلها جيـد فلا تحبسنا بتنقادها

فان هذا البيت كالمنثور لا تقديم فيه ولا تأخير .

(٣) مثاله قول الهذلى :

ولم أدر من ألقى عليـه رداءه على أنه قد سل عن ماجد محض

(٤) مثاله قول أبى نواس :

فبتنا يرانا الله شر عصابة نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

(٥) مثاله قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

(٦) مثاله قول ابن الرومى :

اذا منّ لم يمنن بمن يمنه وقال لنفسى أيها النفس أمهلى

(٧) مثاله قول الشاعر :

دلفت له بأبيض مشرفىّ كما يدنو المصافح للسلام

وأى بيت يعظم وعيده و يصغر خطبه (١) ؟

وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين (٢) ؟

وأى بيت هو كأسنان المظلوم (٣)، والمنشار المثلوم (٤) ؟

وأى بيت يسرك أوله و يسوءك آخره (٥) ؟

وأى بيت يصفعك باطنه ، و يخدعك ظاهره (٦) ؟

وأى بيت لا يخلق سامعه، حتى تذكر جوامعه (٧) ؟

وأى بيت لا يمكن لمسه (٨) ؟

وأى بيت يسهل عكسه (٩) ؟

---

(١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم ... مخاريق بأيدى لاعبينا

(٢) مثاله قول ذى الرمة :

معرورياً رمض الرضراض يركضه ... والشمس حيرى لها فى الجو تدويم

(٣) المظلوم هو الذى كسر ظلمه أى أسنانه .

(٤) مثاله قول الأعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى ... شاء مشل شليل شلشل شول

(٥) مثاله قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

(٦) مثاله قول الشاعر :

عاتبتها فبكت وقالت يافتى ... نجاك رب العرش من عتبى

(٧) مثاله قول طرفه :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

فان السامع يظن أنك تنشد قول امرئ القيس .

(٨) مثاله قول الخبزرزى :

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب ... وأشرف نور الصلح من ظلمة العتب

وقول أبى نواس :

نسيم عبير فى غلالة ماء ... وتمثال نور فى أديم هواء

(٩) مثاله قول حسان :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله[(١)] ؟

وأى بيت هو مهين بحرف، ورهين بحذف[(٢)] ؟

وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأسئلة :

أى بيت شطره يرفع ، وشطره يدفع[(٣)] ؟

وأى بيت نصفه يغضب ، ونصفه يلعب[(٤)] ؟

وأى بيت إن حرك غصنه ، ذهب حسنه[(٥)] ؟

وأى بيت مدحه ذم[(٦)] ؟

وأى بيت يأكله الشاء ، متى شاء[(٧)] ؟

وأى بيت حله عقد ، وكله نقد[(٨)] ؟

---

(١) مثاله قول المتنبي :

عش آبق آسم سد جد قد مر آنه آسر فه تسل   غظ آرم صب آحم آغز آسب رع زع دل آثن نل

(٢) مثاله قول أبي نواس :

لقد ضاع شعرى على بابكم   كما ضاع در على خالصه

فاذا أنشدت «ضاع» كان هجاء ، و إذا أنشدت «ضاء» كان مدحا .

(٣) مثاله قول الشاعر .

ولله عندى جانب لا أضيعه   وللهو عندى والخلاعة جانب

(٤) كقول الشاعر :

كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدى لاعبينا

(٥) مثاله قول الشاعر :

لك قد لولا جوارح عينيـ   ـك لغنت عليه ورق الحمام

(٦) مثاله قول الشاعر :

فان قومى و إن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شىء و إن هانا

(٧) مثاله قول الشاعر .

فيا للنوى جذ النوى قطع النوى   رأيت النوى قطاعة للقرائن

(٨) مثاله قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيد   فلا تحبسنا بتنقادها

وأى بيت نصفه مدّ، ونصفه رد[١] ؟

وأى بيت إن أفلتناه ، أضللناه[٢] ؟

وأى بيت قام، ثم سقط ونام[٣] ؟

وأى بيت أوله يطلب، وآخره يهرب[٤] ؟

وأى بيت ضاق، ووسع الآفاق[٥] ؟

وأى بيت كاد يذهب فعاد[٦] .

وفى المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندرى بأسئلة وأجوبة تعيّن خصائص الشعراء المتقدّمين . واليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطبا أبا الفتح — يا فاضل ! أُدنُ فقد منيّت ، وهات فقد أثنيت .

أبو الفتح — سلونى أجبكم، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول فى آمرئ القيس ؟

---

(١) مثاله قول البكرى :

أتاك دينار صـــدق ينقص ستين فلسا
من أكرم النـاس إلا أصـــلا وفرعا ونفسا

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إننى بال على جمـل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيها النـــوام ويحكو هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟

(٤) مثاله :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغمـد

(٥) كقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العـالم فى واحد

(٦) كقول المتنبى :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أبو الفتح — هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، وآغتدى والطير فى وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يجد القول راغبا، ففضل من تفتق للحيلة لسانه وآنتجع للرغبة بنانه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى النابغة ؟

أبو الفتح — يثلب اذا حنق، ويمدح اذا رغب، ويعتذر اذا وهب، ولا يرمى إلا صائبا .

عيسى بن هشام — فما تقول فى زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى طَرَفة ؟

أبو الفتح — هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافى ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى جرير والفرزدق، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن صخرا، وأكثر فخرا، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوما، والفرزدق اذا آفتخر أجزى، واذا آحتقر أزرى، واذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدّمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدمون أشرف لفظا، وأكثر من المعانى حظا، والمتأخرون ألطف صنعا، وأرق نسجا .

وهذا وذاك يبين كيف كان كتاب القرن الرابع يعنَون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء، وإنما لنجد مصداق ذلك فى مكان آخر إذ يحدثنا عيسى بن هشام بأن « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره » وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد فى أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال.

٧ — ولم يكتف بديع الزمان بالخوض فى الشئون الأدبية، بل تعداها إلى المعضلات الكلامية؛ فعرض لمذهب المعتزلة بالتحقير والتسفيه ، وآتخذ المتكلم من بين المجانين، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال : إن تصدق الطير[(١)] فأنتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال : من القوم ، لله أبوهم ؟ فقلت : أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكرى ؟ قلت : نعم، فقال : شاهت[(٢)] الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده[(٣)] . وأنتم يامجوس هـذه الأمة تعيشون جبراً[(٤)] ، وتموتون صبراً[(٥)] ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، ولو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم[(٦)] . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من ابليس دينا ، قال رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم، وآمن وكفرتم ، وتقولون خُيِّر فاختار ، وكلا فان المختار لايبعج بطنه ، ولا يرمى من حالق آبنه ؛ فهل الإكراه، إلا ماتراه، والاكراه مرة بالمرة[(٧)] ومرة بالدرة، فليخزكم أن القرآن بغيضكم، وأن الحديث يغيظكم، إذا سمعتم «من يضلل الله فلا هادى له» ألحدتم، وإذا سمعتم «زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها» جحدتم، وإذا سمعتم «عرضت علىّ الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها، وعرضت علىّ النار حتى آتقيت حرها بيدى» أنغضتم[(٨)] رءوسكم، ولويتم أعناقكم، وإن قيل عذاب القبر تطيرتم، وإن قيـل الصراط تغامزتم ، وإن ذكر الميزان قلتم : من الفِرغ كفتاه ، وإن ذكر الكتاب قلتم : من القِد دفتاه . ياأعداء الكتاب والحديث بم تطيرون ؟ أبا لله وآياته ورسـوله تستهزئون ؟ انما

(١) يريد : إن تصدق الفراسة . (٢) شاهت : قبحت . (٣) رد على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء مختار فى أفعـاله . (٤) أى مقهورين على الحياة . (٥) الموت صـبرا أن يحبس الرجل حتى يموت والمراد أنهم محبوسون فى آجالهم .

(٦) اشارة إلى جواب القرآن فى الرد على من قالوا : « لو كان لنـا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » .

(٧) المرة بالكسر العقل . (٨) حركتموها كالمتعجبين .

مرقت مارقة فكانوا خَبَث الحديث، ثم مرقتم منها فأنتم خَبَث الخبيث . يامخانيث الخوارج ترون رأيهم إلا القتال، وأنت ياابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك آفترشت منهم شيطانة[١]، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة ؟ ويلك هلا تخيرت لنطفتك، ونظرت لعقبك ! ثم قال : اللهم أبدلنى بهؤلاء خيرا منهم وأشهدنى ملائكتك[٢] ! »

ثم يحدّثنا آبن هشام أنه بقى هو وأبو داود لايحيران جوابا ، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندرى « ينبوع العجائب »

٨ — ولبديع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية فى بغداد لذلك الحين هى المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهى حيل فيها القبيح والطريف عددتها فرأيتها تجاوز السبعين حيلة وما أظن قرائى ينتظرون أنّ ألخص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء! على أن أكثر تلك الحيل لاينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس! — لأن أوضاع اللباس وطرق المعاش تغيرت فى الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون فى بغداد، ولعل اللصوص المحدّثين آخترعوا من الحيل مالو رآه بديع الزمان لبدت له حيل بغداده ألاعيب صبيانية !

وفى المقامة الرصافية قصة ماجنة أظرف المجون ، ولكنها لاتروى فى هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت فى طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عنّ له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع آبن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثا فهم منه اللص أن فى البيت ذخائر يهون بجانبها العرض . وتمت الخديعة ، وخرج من البيت وهو خزيان ، وصح لآبن هشام أن يقول :

« وفتش الغلام البيت ؛ فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

(١) المراد إحدى نساء المعتزلة ، والافتراش هنا الزواج .

(٢) يريد أن الموت خير من صحبة هؤلاء .

٩ — وبديع الزمان مفطور على الفكاهة، وهى منثورة فى رسائله ومقاماته، وفى هذا الكتاب طُرف مما تخيرناه[١]. فلننشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شَعره، واتسخ بدنه، فقد سأل غلامه أن يختار له حمّاما وحجاما "وليكن الحمّام واسع الرقعة، نظيف البقعة، طيب الهواء، معتدل الماء، وليكن الحجام خفيف اليد، حديد الموسى، نظيف الثياب، قليل الفضول".

ودخل الحمام، فدخل على أثره رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه. ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام، ويغمزه غمزا يهدّ الأوصال، ويصفر صفيرا يرش البزاق. ثم عمد إلى رأسه يغسله، وما لبث أن دخل الأول فلطم الثانى لطمة قعقعت أنيابه وقال: يا لُكَع! مالك ولهذا الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجابه وقال: بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدى. ثم تلاكما حتى عييا. وتحاكما الى صاحب الحمّام فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس، لأنى لطخت جبينه، ووضعت عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكه، لأنى دلكت حامله، وغمزت مفاصله!

فقال الحمامى: إئتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا: لنا عندك شهادة.

الحمامى — مخاطبا عيسى بن هشام — يا رجل! لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيهما؟

عيسى ابن هشام — يا عافاك الله! هذا رأسى قد صحبنى فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق. وما شككت أنه لى!

الحمّامى — اسكت يا فضولى!

ثم مال الحمّامى إلى أحد الخصمين وقال:

(١) ونوصى القارئ بالرجوع الى مناظرة بديع الزمان للخوارزمى المثبتة فى آخر الجزء الثانى من هذا الكتاب ففيها شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بديع الزمان.

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس، بهذا الراس ! تسلّ عن قليل خطره، إلى لعنة الله وحر سقره . وهبْ أن هذا الرأس ليس، وأنا لم نر هذا التيس !

وكانت النتيجة أن خجل عيسى بن هشام ولبس ثيابه وآنسلّ من الحمام .

وللقارئ أن يتأمل الدعابة فى هذه الأقصوصة فإنها فى غاية من الظرف .

أما قوله "اسكت يا فضولى !" فهو فى هذا الموضع من وثبات الخيال .

١٠ — وبجانب الأوصاف والفكاهات وضع بديع الزمان طائفة من العظات، كأنه أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيان ، من ذلك ما حدّثنا أن أبا الفتح الإسكندرى لما جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

"يا بنى ! إنى وإن وثقت بمتانة عقلك، وطهارة أصلك، فإنى شفيق، والشفيق سيئ الظن، ولست آمن عليك النفس وسلطانها، والشهوة وشيطانها، فاستعنْ عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم، إنه لَبوسٌ ظِهارته الجوع ، وبطانته الهجوع ، وما لبسهما أسد إلا لانت سورته، أفهمتهما يا ابن الخبيثة ؟! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الكرم، وآسم الآخر القرم[1]، فإياك وإياهما . إن الكرم أسرع فى المال من السوس، وإن القرم أشأم من البسوس[2] . ودعنى من قولهم : إن الله كريم . إنها خدعة الصبيّ عن اللبن . بلى إن الله لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه، وينفعنا ولا يضره، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله . فأما كرمٌ لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى ، فخذلان لا أقول عبقرىّ[3]، ولكن بقرى . أفهمتهما يا آبن المشئومة ؟! إنما التجارة، تنبط الماء من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ريح البحر، بيد أن لاخطر، والصين غير أن لاسفر، أفتتركه وهو معرض ثم تطلبه وهو معوز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المال ، عافاك الله ! . فلا تنفقن إلا من الربح، وعليك بالخبز والملح، ولك فى الخل والبصل رخصة مالم تُذِمهما[4] ، ولم تجمع

(١) القرم ، بالتحريك ، اشتداد الشهوة إلى اللحم (٢) امرأة عربية ثارت بسببها الحرب اربعين عاما بين قبيلتين فضرب بها المثل فى الشؤم . (٣) منسوب الى بقر بضم ففتح وهو الداهية .

(٤) من أذمه وجده ذميما .

بينهما. واللحم لحمك وما أراك تأكله،والحلو طعام من لا يبالى على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش الصالحين، والأكل على الجوع واقية الفوت،وعلى الشبع داعية الموت، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج، خُذ كل ما معهم وٱحفظ كل ما معك !

يابنى قد أسمعت وأبلغت، فإن قبلت فالله حسبُك، وأن أبيت فالله حسيبك»[1] .

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن ، وهو فن يجيده بديع الزمان .

١١ — وهنـاك مقامات كثيرة نحسبها ٱنتُهبتْ من رسائله، وهى بعيـدة عن منحى القصص، وأغلب الظن أنها رتبت كذلك على أيدى بعض النساخ .

١٢ — وبديع الزمان فى مقاماته رجلُ حرص وحذر وٱرتياب ، ولا يُنطِق أبا الفتح بالحكمة إلا ٱقتناصا للمال، ففى المقامة الكوفية يُطرَق باب عيسى بن هشام فيسأل من المنتاب؟ فيجيب الطارق : «وفد الليل وبريده، وفلُّ الجوع وطريده، وحرٌّ قاده الضر، والزمن المر، وضيفٌ وطؤه خفيف، وضالَّته رغيف، وجار يستعدى على الجـوع، والجيب المرقـوع ، وغريب أوقدت النـار على سفره، ونبح العوّاء فى أثره، ونبذتْ خلفه الحصيات ، وكنستْ بعده العرصات، نِضوُه طليح، وعيشُه تبريح، ومن دون فرخيه مهامه فيح[2] » .

ويهش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فينفحه بالمـال ويقول : زدنى سؤلا أزدك نوالا ! فيقول الطارق :

«ما عُرِض عَرف العود، على أحر من نارالجـود، ولا لُقِىَ وفد البر، بأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفضل فليواس، فلن يذهب العرف بين الله والناس» .

---

(١) ولهذه الوصية أشباه فى أدب بديع الزمان، ورسائله فى وصيته لأبن أخته معروفه ، وقد ترجمناها الى الفرنسية « أنظر الأصل الفرنسى ص ١٥٤ و ١٥٥ » .

(٢) المهامه جمع مهمه وهو البيداء، وفيح جمع أفيح وفيحاء، أى واسعة، والمعنى مأخوذ من قول ابن محلم الشيبانى :

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخى مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول: «شدّ والله يا أبا الفتح ما بلغتْ منك الخصاصة ! » :

فيتبسم أبو الفتح وينشىء يقول .

لا يغـــرّنك الذى أنا فيه من الطلبْ
أنا فى ثروة تشـــقّ لهـا بردة الطـــرب
أنا لو شئت لاتخـذ ت سقوفا من الذهب
أنا طورا من النبيـ ـط وطورا من العرب

وفى المقامة القردية يفضل الحمق على العقل ويقول :

الذنب للأيـام لا لى فاعتب على صرف الليالى
بالحمـــق أدركت المنى ورفلت فى حلل الجمـال

١٣ — وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفنى فى القـرن الرابع، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليتعرف اليها القارئ ، فقد كان مفهوما عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعانى مايستحق الدرس، ولكنا بعدمواجهتها مرةومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح مايوجب الإعجاب، وكنا نحفظها فى الحداثة، غير أنا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا فى هذه الأيام .

فى تلك المقامات بعض العيوب، ولكن أىّ عمل فنىّ سلم سلامة مطلقة من العيوب ؟

ونؤكد للقارئ أننا لم نكشف من محاسنها إلا القليل ، فليعد اليها يطالعها فى فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسيرى القارى فى الجزء الثانى لمحات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله ، ولكن ذلك لا يغنى عن العـودة الى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعيـه لذلك العهد من آثار ذلك الكاتب الثجاج .

٣ - أحاديث ابن دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمذانى ليس المنشئ الأول لفن المقامات، وإنما حاكى أحاديث ابن دريد، فمن هو ابن دريد ؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثا التى أنشأها وفتح بها باب القَصَص لبديع الزمان ؟

١ — ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة فى خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار الى عمان فأقام بها مدّة ، ثم صار الى فارس فسكنها مدة، ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث ، وما عُرِف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء، وما أُخذ عليه من افتعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها[1]، وإنما يهمنا أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التى حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال. وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التى تختم على القلب، كان رجلا دقيق الحس، عذب الروح، وليس يكبر عليه أن يكون فنانا بارعا يدين له أمثال بديع الزمان ممن طُبعوا على جودة الفهم وحسن البيان .

٢ — كان ابن دريد شاعرا . ولكن أى شاعر؟ شاعر مُقِلّ ، تحفظ له الأبيات والمقطوعات، وبعض القصائد، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر ، فتسرى معانيه قوية سحارة بلا جلبة ولا ضوضاء ، كما تفعل الجفون النواعس بألباب الشعراء . خرج مرة يريد عمان فنزل تحت نخلة فاذا فاختتان تزقوان فى فرعها فقال :

أقول لورقاوين[2] فى فرع نخلة ... وقد طفل الإمساء أو جنح العصرُ

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ ياقوت . (٢) مثنى ورقاء وهى الحمامة .

وقــد بسطت هاتا لتلك جناحها ومال على هاتيــك من هــذه النحر
ليهنكما أنـــ لم تُراعا بفرقــة وما دبَّ فى تشتيت شملكهما الدهر
فلم أر مثــلى قطّع الشوق قلبــه عــلى أنه يحــكى قساوته الصخر

وهى أبيات تفيض بالرفق والحنـان، وتمثل آئتلاف الطير أرق تمثيل، ولا يعرف قيمتها إلا من ألف مناغاة الطير فى صحوات الربيع وأصائل الخريف .

ومن شعر آبن دريد هذان البيتان :

عانقت منــه وقد مال النعاس به والكاس تقسم سـكرا بين جلاسى
ريحانة ضمخت بالســك ناضرة تمجّ بَرد النـــدى فى حَرأنفـاسى

وفى هذين البيتين صورة شعرية جذابة، والبيت الثانى يبدو وكأنه وثبة من وثبات الخيال .

٣ — فاذا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر آبن دريد — وفيها وحدها الدلالة على التفوق فى الأفتنان والآبتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شهيدة بدقة فهمه، وحلاوة نكته ، وجرأته فى الخروج على ما ألفت الجمـاهير . جاءه يوما سائل فلم يكن عنده غير دَنّ نبيذ فوهبه له . فجاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (١) . وهى نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم . وتذاكر جماعة يوما المتنزهات فى مجلس بعض الأمراء وآبن دريد حاضر، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق وقال آخرون : نهر الأُبلّة ، وقال آخرون بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم نهروان بغداد، وقال بعضهم شِعب بوّان بأرض فارس وقال آخر نو بهار بلخ . فقال ابن دريد : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبـار لابن قتيبة، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر، ثم أنشد :

ومن تك نزهته قينــةً وكأس تُحثّ وكأس تصبّ
فـــنزهتنا وآســـتراحاتنـا تلاقى العيون ودرس الكتب (٢)

(١) ص ٤٨٩ ج ٦ ياقوت . (٢) ص ٤٩٣ ج ٦ ياقوت .

وهذا حديث طريف كانتْ لفتةُ ابن دريد فيه لفتة الشاعر الفيلسوف إذ يقول " هذه متنزهات العيون، فأين أنتم من متنزهات القلوب" على أن فى الشعر الذى أنشده كلمة تستوقف النظر، تلك كلمة " تلاق العيون" التى قدمها فى متعة القلب على "درس الكتب" فهو رجل يرى الجمال فى الطبيعة الناطقة طبيعة الانسان الجذاب التى يؤثرها على جمال الأنهار والبحار والمروج الفيحاء، والرياض الغناء .

٤ — ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكته تلك الرؤيا التى قصها علينا إذ قال :

"سقطت من منزلى بفارس فانكسرت ترقوتى ، فسهرت ليلى، فلما كان آخر الليل حملتنى عيناى فرأيت فى نومى رجلا طويلا أصفر الوجه دخل علىّ وأخذ بعضادتى الباب وقال : أنشدنى أحسن ما قلت فى الخمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئا . فقال : أنا أشعر منه . فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام، ثم أنشدنى :

وحمراء قبل المزج صفراء بعدهُ ... بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائقِ

حكت وجنة المعشوق صِرفا فسلطوا ... عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولم ؟ قلت لأنك قلت : (وحمراء) فقدمت الحمرة ، ثم قلت : (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فألّا قدمتها على الأخرى كما قدّمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء فى هذا الوقت يا بغيض ! وقد رويتْ هذه القصة على نحو آخر فى كتاب طبقات النحاة لابن الأنبارى ص ٣٢٤ فلتراجع هناك .

٥ — وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئا فى بيته وفى درسه جرأة جامحة لا يسمو اليها ولا يقوى على تكاليفها إلا من وثق بأنه أمة وحده وأن على الناس أن يسمعوا له طائعين. فاذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتابا فى اللغة والأدب وأنه كان أعرف أهل زمانه بما ترك الأولون فاذكر بجانب ذلك أنه كان رجلا مرحا طروبا ، وأن نفسه اللعوب

---

(١) ص ٤٨٧ ج ٦ ياقوت .

أوحت اليــه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته فى النثر قوة بارعة تجعله فى الصف الأول من صفوف المبدعين .

٦ — ولكن ما هى آثاره النثرية ؟

هى تلك الأربعون حديثا التى حدثنا عنها الحصرى فى زهر الآداب ، والتى هاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب فى معارضتها أربعمائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيتُ فى البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتلمس الصواب فيما افترضــه الدكتور طه حسـين وأخذت أتتبـع كل ما رواه القالى عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثا بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذى نقله عنه حمزة الاصفهانى جامع ديوان أبى نواس فصحت لدىّ النتايج الآتية :

أولا — حديث ابن دريد فى حج أبى نواس حديث ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساسا لفن المقامات . ولست أشك الان فى أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثا التى ابتكرها ابن دريد .

ثانيـا — الأحاديث التى نقلها القــالى عن ابن دريد تشتمل على طائفــة من القصص المسجوعة تقرب فى وضعها من قصته عن حج أبى نواس وتصلح أيضا أن تكون أساسا لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها شطر من الأربعين حديثا التى عارضها بديع الزمان .

ثالثـا — إذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه أو مما وقع اليه من كلام الاعراب ، كان ما بقى من أحاديثــه المتشابهة فى القدر والوضع والأسلوب قريبا من الأربعين .

رابعـا — يلاحظ أن أكثر ما روى القالى عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حينا من الأعراب ، وتارة يكونون من أقيـال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحيانا يكونون من النكرات التى لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التى ٱبتكرها ابن دريد (جاء اكثرها مما تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع) وأنها وقعت "فى معارض عجمية وألفاظ حوشية" ولو أننا تتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور . وربما ساغ لنا أن نفترض أن ٱبن دريد تعمد أن يدس فى أحاديثه بعض الألفاظ التى ٱتُّهِم بافتعالها وتوليدها، فقد ٱتهمه أبو منصور الأزهرى فى مقدّمة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها، فكان من همه إذن أن يجرى ما ٱتُّهِم بافتعاله على ألسنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق .

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ٱبن دريد، ولنذكر أوّلا أن تلك الأحاديث فى جملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع . وأى نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلا عن حج أبى نواس؟ إن رحيل أبى نواس إلى بيت الله الحرام هو فى نفسه قصيدة من قصائد المجون ، فكان من الحتم أن يُعنَى بعض الكتّاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضا تلتقى فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ما تحت عينيه جِدٌّ صُراح . وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة طريفة حدّثنا فيها أنه لقى فى طريقه نَصَبا إذ ٱنهمل المطر فى أرض بنى فزارة ففزع إلى بعض الخيام فاذا جارية مبرقعة ترنو بطرف مريض الجفون ساحر النظر، فاستسقاها، فمضت تتهادى فى جسم خصب رشيق، وأحضرت إليه الماء ، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معاينة ما تحت تلك الثياب من أسرار الجمال . ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف، وفى قلبه حسرة كامنة وكربٌ دخيل، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا فى الصيد، ولكن مطامعه انتهت بخيبة مخجلة نكتفى فى الابانة عنها بهذه الاشارة ، ونحيل القارئ على مقدّمة الديوان ليرى كيف برع ابن دريد فى السخرية من أبى نواس .

٨ — ثم ننظر بعد فنرى ابن دريد ٱهتم بتصوير الشمائل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء فى فهم الرجال ، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول . كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل له مكانا بين العالمين بالغرائز وأهواء النفوس . ونلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعابير تغلب عليها النكتة، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين تتبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهجاء ، فتلك فتاة تصف الزوج المشتَهى بأنه إن ضم قضقض وإن دسر أغمض[1]، وتلك امرأة تخاصم زوجها فتصمه بأنه يشبع ليلة يضاف، وينام ليلة يخاف[2]، وأولئك بنات عنَّسهن أبوهن فتهامسن بحيث يسمع بأبيات من الشعر قهرته على أن يعجل لهن بالزواج[3] .

٩ — فاذا تحدث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناه رجلا جزل الرأى بعيد الغور ينطق بالحكم وفصل الخطاب ، فنراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة "المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، والقبر خير من الفقر، ومن قلَّ ذل، ومن أَمِر فَلّ[4]، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك[5]" . ونراه أخرى ينطق رجلا أعمى من أزد السراة يقوده شاب جميل فيقول "يا ابن أخى ! إن اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام، ثم تنقشع فلا تمسك منها إلا بالحسرة عليها . ثم تعرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدّم ذخيرة، وأشدّهم اغتباطا يوم الحسرة[6] من أحسن سريرة[7]" .

١٠ — وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يُعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب . ولو بقيت لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حدّ حاكى ابن دريد فى هذا الباب . فان قصة بشر بن عوانة التى اخترعها بديع الزمان نموذج طريف فى ابتداع الأقاصيص ...

إلى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بديع الزمان وأحاديث ابن دريد . وعرفنا مَن السابق ومَن المسبوق، فلننظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد .

---

(١) ص ١٧ ج ١ أمالى . (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢ (٤) أمر الرجل كثر عدده .
(٥) ص ١٠٢ ج ١ (٦) ربما كان الصواب «الحشر» بدل الحسرة . (٧) ج ٢ ص ٣١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال :

دُفعتُ يوما فى تلمسى بالبادية الى وادٍ خَلاء لا أنيس به إلا بيت معتنز[1]، بفنائه أعنز، وقد ظمئت ، فيممته فسلمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنهـا نعامة راخم[2]، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان بغيتى إلا المـاء، فاذا يسر الله اللبن فانى اليه فقير . فقامت الى قَعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ، ثم جاءت الى الأعنز فتغبرتهن حتى آحتلبت قُراب ملء القعب، ثم أفرغتْ عليه ماء حتى رغا وطفت ثُمالته كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببتُ[3] ريا، وآطمأننت . فقلت إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش، والحِلة[4] منك قريب، فلو آنضممت الى جنابهم[5] فأنست بهم . فقالت : يا آبن أخى! إنى لآنس بالوحشة، وأستريح الى الوحدة، ويطمئن قلبى الى هذا الوادى الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأنى أخاطب أعيانهم، وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لى أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومُندّى أموالهم . والله يا آبن أخى لقد رأيت هذا الوادى بشع[6] اللديدين[7] بأهل أدواح[8] وقباب، ونَعَم كالهضاب[9]، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قَمًّا[10] بغرفة فأصبحت الاثار دارسة، والمحالّ طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينيك فى هذا المـلا[11] المتباطن[12] . فنظرت فاذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما آنطوت إلا على أخ أو آبن أخ أو عم أو آبن عم ، فأصبحوا قد ألمأت[13] عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشدا رحمك الله !

---

(١) معتنز: منفرد . (٢) الراخم التى تحضن بيضها . (٣) تحببت : امتلأت . (٤) والجمع الحلال : وهى بيوت الناس . (٥) الجناب : فناء الدار . (٦) بشع : ملان . (٧) اللديدان : الجانبان . (٨) الأدواح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة . (٩) الهضاب : الجبال الصغار . (١٠) قما : كنسا ، قمت البيت : كنسته . والغرفة واحدة الغـرف وهو ضرب من الشجر . (١١) الملا : الفضا . (١٢) متباطن : متطامن . (١٣) ألمأت عليهم : احتوت عليهم وتلمأت عليه الأرض : استوت عليه ووارته .

٤ - روايات الأغانى

١ — من مشاهير الكتّاب فى القرن الرابع أبو الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ فى خلافة المطيع لله[١] . والأصبهانى هـذا يعدّ فى رأيى أكبر مؤلف عرفته اللغة العربيـة . ولا يوجد فى المؤلفين من بعده مَن لم يعوّل عليه ، ويندر أن نجد باحثا فى تاريخ الأدب أو تاريخ الاسلام لم يتخذ كتاب الأغانى مرجعا له . والأغانى هـذا كتاب عظيم فى ٢١ مجلدا ألفـه الأصبهانى فى خمسين سنة وكتبه مرة واحده فى عمره وأهداه الى سيف الدولة بن حمدان[٢] .

٢ — وشهرة الأصبهانى وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وإنمـا أريد هنا أن أنص على ناحيتين فى الأصبهانى وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة فى فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغانى يتلمسون الشواهد فى الأدب وفى التاريخ .

الناحية الأولى خاص بالأصبهانى : تلك الناحية هى خلقه الشخصى . فقد كان الأصبهانى مسرفا أشنع الإسراف فى اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلق أثر ظاهر فى كتابه ، فان كتاب الأغانى أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتّاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدّية إهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ والرزانة والتجمل والاعتدال . وهـذه الناحية من الأصبهانى أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء تكتفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغانى جرّ هذين الباحثين الى الحط

---

(١) ياقوت ص ١٤٩ ج ٥ (٢) ياقوت ج ٥ ص ١٤٩

من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون .

٣ — ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصبهانى كان يتعمد الاختلاق، وأن الجمهور فى العصر العباسى كان مغمورا بالطهر والعفاف، كلا، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين، والحلم والجهل، والهدى والضلال، وإن الانسان لا يكون خيرا محضا ولا شرا محضا ، وإنما بقاؤه فى أن تكون سرائره مسرحا لنوازع الغىّ والرشد، والبر والفجور، ولكنى أريد أن أقول : إن إكثار الأصبهانى من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب، جعل فى كتابه جوّا مشبعا بأوزار الإثم والغواية ، وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى اقتران العبقرية بالنزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين .

٤ — أما الناحية الثانية فهى خاصة بكتاب الأغانى: تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب، ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق: فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدّم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغذّى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغانى الشراب . وإنه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بفِقَر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن . وعلل ذلك بقوله : " إذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه ولا فى كل ما له خبر فائدة، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونقٌ يروق الناظر ويلهى السامع " [1] .

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : "رونق يروق الناظر ويلهى السامع" فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الأصبهانى أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدّم ما راقه من أيام

(١) ص ٢

العرب وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام، وخصوصا إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الرونق الذى " يروق الناظر ويلهى السامع ". فهو إذن يساير القرّاء المتطلعين الى النواحى الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتّاب والشعراء . ولهذا النحو فى التأليف قيمة عظيمة جدا إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح : فهو دليلٌ على خصوبة التصوّر والخيال، وبرهان على أن كتّاب اللغة العربية لم يحرَموا من القَصص الشائق الخلّاب، ولم يفتهم أن يقدّموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأقاصيص وغرائب الأسمار . ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن لروايات الأغانى قيمة تاريخية، وأن يبنوا على أساسها مايشاءون من حقائق التاريخ . لاسيما وصاحب الأغانى يصارحنا بأن "فى طباع البشر محبة الآنتقال من شىء الى شىء، والاستراحة من معهود الى مستجدّ، وكلُّ منتقَل اليه أشهى الى النفس من المنتقَل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود"[1] وأن " انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدَثة ومليك الى سوقة وجدّ الى هزل" أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما فى الكتاب من مختلف الفنون .

٥ — ولأضرب المثل بما قصه صاحب الأغانى من أخبار عمر بن أبى ربيعة، وهى أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة لحياة الحجاز فى القرن الأوّل للهجرة، وقد حدّثنى المسيو ماسينيون بأن لأشعار عمر بن أبى ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد آعتمدت بالفعل على كتاب الأغانى حين فصّلت أحاديث مَن عرف ذلك الشاعر من الملاح فى الطبعة الثالثة من كتابى "حب ابن أبى ربيعة وشعره" ولكننى دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت له أننى أريد أن أرسم من ابن أبى ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان وبيرون عند الانجليز . وأنا أستبيح هذا النحو من آستغلال كتب الأدب والتاريخ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

(١) ص ٤

على أن وجهته فنيــة محضة وأن منحاه أدبيّ صِرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أقاصيص الأدب صــورة صادقة لحيــاة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

” إن كثيرا من حوادث ابن أبى ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الإشارة عنـد التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبى ربيعــة التى أضيفت اليه تدلنا على شيئين : فهى أوّلا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوحيــه فأبدعوا فى ظلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلّاب ، وهى ثانيا دليل على أنه كان للتقدّمين ميلٌ الى القَصَص الغرامى وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القَصصية ونحن نتحدث عمن هَوِىَ ذلك الشاعر من حسان النســاء[1] “ .

لكن صاحب الأغانى لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنمــا ساق أخبار ابن أبى ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالســند شىء ساحرفُتن به كثير من الناس وظنوه علما دقيقا له آداب وشروط ، واعتمادا على هذا العلم الدقيق آطمأن أكثر الباحثين الى روايات الأغانى فضلوا وأضلوا فى حقائق التاريخ .

٦ — قلت إن صاحب الأغانى كان يهتم بالنواحى الطريفة من السير والأخبار . فلأذكر من أدلة ذلك أنه حدّثنا بســنده عن ابن أخى زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبى ربيعة شيخا كبيرا فقلت له : ”حدّثنى عن عمر بحديث غريب“ وكلمة ”حديث غريب“ هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتلفيق والآختلاق ، فان البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبى ربيعــة يدل على ظمأ تلك النفوس الى النادر المستطرف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبى نواس التى اخترعها ابن دريد . فأبو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من

(١) راجع كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حسان النساء . وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهى من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد فى حالة جارحة بدّدت ما نظم من ساحر الأحلام . وابن أبى ربيعة فى حجه تعرض لنسوة من جوارى بنى أمية فخلبنه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر أنسه بهن فى أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مختوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فاذا هو مملوء من المضارب وهى الكيرنجات واذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة وفيها اثنان كبيران على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبى ربيعة . واذا كانت المضارب والكيرنجات هى آلات السفاد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبى نواس .

وتجد صاحب الأغانى فى مكان آخر يروى بسنده عن عثمان بن ابراهيم الخاطبى أنه قال :

" أتيت عمر بن أبى ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو فى مجلس قومه من بنى مخزوم فانتظرت حتى تفرّق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء؟ فقال له صاحبى : يا أبا الخطاب ، أكرمك الله ! لقد أحسن العذرىّ وأجاد فيما قال ، فنظر عمر اليه ثم قال له : وماذا قال؟ قال حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيف رأسى فى مودّتها لمرّ يهوى سريعا نحوها راسى

ثم مضى يهيجه بالشعر حتى طرب ، وحدّثهما بحديث وُصف بأنه " حديث حلو " وتلك الحلاوة لها معناها أيضا فهى نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامرون فى مجالس الشراب . ويتلخص الحديث فى أن خالدا الخرّيت صاحب عمر حدّثه عن نسوة مررن به قبيل العشاء لم ير مثلهن فى بدو ولاحضر ، فيهن هند بنت الحارث المرية ، وأشار عليه بأن يأتى متنكرا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفى نفسى ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة أعرابى ثم يجلس على قَعود فلا يشعرن إلا به وقد هجم عليهن : فأطاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأنشدهن ما سألن إنشاده

من شعر كثيِّر و جميل والأحوص ونُصيْب . و بعد لحظات تغامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هـذا الأعرابى! ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعـة ! ثم مدّت هنـد يدها فانتزعت عمامته وألقتها عن رأسه ثم قالت : هيه ياعمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليـك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى! ثم قالت بعد أن أخذا فى الحـديث : و يحك ياعمر ؟ اسمع منى، لو رأيتنى منـذ أيام وأصبحت عند أهلى فأدخلت رأسى فى جيبى فنظرت الى حِرى فاذا هو ملء الكف ومنيـة المتمنى فناديت ياعمراه ياعمراه! فصاح عمر : يالبيكاه يالبيكاه! ومدّ فى الثالثة صوته، الى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدّث آبن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليلى فى ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت و يضحى كل يوم وليـلة	على منهج تبكى عليــه القبائلُ
قتيلٌ للبنى صدَّع الحب قلبـهُ	وفى الحب شغلٌ للمحبين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

ســلبت عظامى لحمها فتركتها	معــرَّقة تضحَى لديك وتخصَرُ
وأخليتها من مخهـا فكأنها	قوارير فى أجوافها الريح تصفر
اذا سمعت ذكر الفراق تقطعت	علائقها مما تخاف وتحــذر
خذى بيدى ثم آنهضى بى تبينى	بىَ الضر إلا أننى أتســتّر (١)

وللحديث بقية ، وفى هذا ما يكفى لبيان الأسلوب الذى كان يجرى عليه الرواة فى تصوير العشاق الذين تسلوا أو يئسوا، وما كان يعمل أرباب الفضول فى تهييج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

و يشبه هذين الحديثين مارواه محمد بن خلف بسنده عن على آبن عاصم إذ قال :

(١) ص ١٦٣ ج ١ أمالى .

" قال لى رجل من أهل الكوفة من بعض اخوانى : هل لك فى عاشق تراه ؟ فمضيت معه فرأيت فتى كأنما نزعت الروح من جسده وهو مؤتزر بإزار ومرتد بآخر وإذا هو مفكر وفى ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تميمة فى عضدى
أشمها من حبها إذا علانى كمدى — الخ (١)

وما روى عن هند بنت الحارث فى آستدراجها لعمر وآستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ما روى عن الثريا بنت على حين دست من يخبره بأنه سمع عند رحيله عن الطائف صوتا وصياحا عاليا على آمرأة من قريش آسمها آسم نجم فى السماء وقد ذهب عنه آسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه الى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداد وهى أخشن الطرق وأقربها حتى آنتهى الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك !

ومن أحلى القصص التى رواها صاحب الأغانى عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن آمرأة أقبلت عليه وهو فى فِناء مِضربه وغلمانُه حوله فسلمت عليه وسألته : هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خَلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك الىّ ! فاشترطت عليه أن تمكنه من عينيه فتشدهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذى تريد حلّت الشدّ ثم تفعل به ذلك عند إخراجه حتى تنتهى به الى مضربه . فقبل عمر ، ثم قادته الى آمرأة لم ير مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينها وبينه حوار آنتهى بطرده ، فعاد الى مِضربه كاسف البال ، ثم عادت المرأة فى اليوم التالى فقادته مرة ثانية آنتهت بمثل ما آنتهت به المرة الأولى من الإخفاق ، وظلت الحال على ذلك أياما حتى آهتدى عمر الى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، فى حديث شائق طويل .

---

(١) ص ٧ مصارع العشاق وقد وردت هذه الحكاية فى الأمالى ج ٣ ص ١٤٥ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد آستمر صاحب الأغانى ينقل من اخبار عمـر بن أبى ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن فى بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر غائب ، فقال : « وهـذا الخبر عنـدى مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكنى ذكرته كما وقع الىّ (١) » .

٧ — هنا دلنا صاحب الأغانى على آرتيابه فى بعض الأخبار، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدّم ما يروق الناظر و يلهى السامع ، كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنـا أن نشير الى أن هـذا الخبر الذى حدّثنا الأصبهانى بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدّقون كل شىء روى بأسانيد، لو لم ينص الأصبهانى على أنه مدسوس .

وفى رأيى أن أكثر أخبار عمر بن أبى ربيعة وُضع تفسيرا لشعره، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغراميـة ، وقد صنع الرواة مثل هـذا الصنع فى أخبـار أبى نواس ، فقد لفقوا حديثا يشرح قوله فى جِنان :

ياذا الذى عن جنـان ظل يخـبرنا	بالله قـل وأعـدْ ياطيب الخـبرِ
قال آشتكتك وقالت ما آبتُليتُ بهِ	أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويُعمِل الطرف نحوى إن مررت به	حتى ليخجلنى من حـدة النظر
وان وقفت له كيما يكلمـنى	فى الموضع الخِلو لم ينطق من الحصَر
مازال يفعل بى هـذا و يدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى (٢)

واخترع الرواة كذلك قصة طريفة لتفسير أبيات أبى نواس التى مطلعها :

أسأل القادمين من حكمان كيف خلفتما أبا عثمان (٣)

---

(١) ج ١ ص ٢٣٦ "وما قيمة تضعيف الشعر فى هذا الخبر ؟ كان ينبغى تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن" .
(٢) الأغانى ج ٨ ص ٤ طبع الساسى . (٣) ج ١٨ ص ٥

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسّ على أبى نواس، ولم أجد من أشار إلى ما دس على عمر ابن أبى ربيعة ، مع أن الرجلين يشتركان فى أن كلا منهما قضى معظم حياته فى اللهو والعبث والمجون . واذا جارينا صاحب الأغانى فى الاستدلال على وضع الشعر بضعفه، فان فى شعر ابن أبى ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التى عرفتْ فى عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطِّوال .

هـذا . ولو مضينا نحصى ما فى روايات الأغانى من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا، ولنسجل مرة ثانية أن الأصبهانى أراد أن يكون كتابه معرضا لما تجمّع بين أيدى معاصريه من طرف الأقاصيص، فليعتبره القارئ كتاب أدب لا كتاب تاريخ .

٨ — بقيت مسألة لها خطر فى هذا الباب : قد يتوهم القارئ أننا نجزم بأن صاحب الأغانى اخترع ما دوّنه من أخبار عمر بن أبى ربيعة ، فلننف هذا الوهم ، ولنذكر أننا رأينا فى ارشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كان ألف كتابا فى أخبار عمر، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحماد بن اسحق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبى شيبة وأحمد ابن الحارث الخراز[1] .

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم فى كتاب الأغانى، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار . وابن بسام هـذا من رجال القرن الثالث . وفى كتابه عن عمر دليل على أن أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصبهانى بنحو قرن أو يزيد، وكانت موضع عناية المؤلفين .

ولو وصل الينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبى الفرج فى صياغة الأخبار، ولكننا على أى حال نرجح أن أبا الفرج له يدٌ فى تلوين تلك الأخبار ووضعها فى قوالب يغلب عليها اللهو والمجون، فهو لم يخلقها كلها، لأن عبث ابن أبى ربيعة كان مشهورا قبل ذلك، ولكنه نفخ فيها من روحه، وصاغها بلباقة وافتنان .

(١) انظر ص ٣١٩ ج ٥

* * *

ولو خلينا الأخبار المروية جانبا، ونظرنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفســه، لعرفنا مبلغ حذقه فى وضع الأقاصيص .

والى القارئ هاتين النادرتين :

١ — قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمــد بن ابراهيم بن على بن عيسى رحمه الله ماضيين الى دير الثعالب فى يوم من سنة ٣٤٥ للنزهة، ومشاهدة آجتماع النصارى هناك، والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هــذا الدير، وفيه جماعة من أولاد كتّاب النصارى من أحداثهم، واذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشّمال . فضربت بيدها الى يد أبى الفتح وقالت : يا سيدى! تعال آقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد، فمضينا معها، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومأت الى الموضع فاذا فيه مكتوب:

خرجتْ يوم عيدها فى ثياب الرواهبِ
فتنت بآختيالهـا كل جاءٍ وذاهب
لشــقائى رأيتهـا يــوم دير الثعالب
تتهـادى بنســوة كاعب فى كواعب
هى فيهــم كأنها الـ ـبدر بين الكواكب

فقلت لهـا : أنت والله المقصودة بهــذه الأبيات . ولم نشك أنهـا كتبت الأبيات، ولم نفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت :

مرّت بنـا فى الدير خُمصـانه سـاحــرةُ النـاظر فتـانه
أبرزها الذكران من خدرها تعظّــم الدير ورهبـانه
مرّتْ بنـا تخطـر فى مشيهـا كـأنمـا قامتهـا بانه
هبت لنـا ريح فمـالت بهـا كما تثــنَّى غصن ريحـانه
فتيمت قلــبي وهاجت له أحزانه قــدما وأشجـانه

وحصلت بينها وبين أبى الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام وتوفى بها ، ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك[1] .

٢ — وقال فى كلمة ثانية : كنت فى أيام الشبيبة والصبى آلف فتى من أولاد الجند فى السنة التى توفى فيها معز الدولة ، وولّى بختيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومنزلة من الدولة ورتبة ، وكان الفتى فى نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب ويميل الى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة. فمضت لى معه سير لو حفظت لكانت فى كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك مما يطول شرحه . منها أنى جئته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب الى الحلبة . وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة . فجلست على دكة على باب دار أبيه فى موضع فسيح كان عمّرها وفرشها . فكنّا نجلس عليها للحادثة الى آرتفاع النهار . ثم ندخل اذا أقمت عنده الى حجرة لطيفة كانت مفردة له لنجتمع على الشراب والشطرنج وما أشبههما . فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظرا له ، فأبطأ وتصبّح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار ، فعرض لى لقاء صديق ، فقمت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنّا نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل بباب داره ويطول حبسى لانتظاره

وحياة طرفك وآحوراره ومجال صدغك فى مداره

لا حُلتُ عمرى عن هوا ك ولو صَليتُ بحرّ ناره

وقمت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه . وكان شديد الكتمان لما بينى وبينه مطالبا بمثل ذلك مراقبةً لأبيه ، إلا أن ظرفه ووكيد محبته لى وميله إلىّ لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه فاستأذنت عليه فخرج إلىّ خادم لهم فقال : يقول لك : لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الأبيات ، فانه تحتها. فصعدت الدكة فاذا تحت الأبيات بخطه :

(١) ياقوت ج ٥ ص ١٥٨ و ١٥٩

" ما هذه الشناعة ؟ ومن فسّح لك فى هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة؟ ولكن أنا جنيت على نفسى وعليك : ملّكتك فطغيت، وأطعتك فتعدّيت ، وما أحتشم أن أقول : هذا تعرّض للإعراض عنك . والسلام " .

فعلمت أننى قد أخطأت، وسقطتُ — شهد الله — قوّتى وحركتى، فأخذتنى الندامة والحيرة، ثم أذن لى فدخلت فقبلت يده فمنعنى، وقلت : يا سيدى ! غلطة غلطتها، وهفوة هفوتها، فان لم تجاوز عنها وتعفُ هلكت . فقال لى : أنت فى أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبنى على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُديدة حتى قُبض على أبيه وهرب . فاحتاج الى الآستتار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندى . فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار، وكادت مرارتى تنفطر فرحا، فلقيته أقبّل رجليه وهو يضحك ويقول : يأتيها رزقها وهى نائمة! هذا يا حبيبى بخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلعهم لبادرة . وبتنا فى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرا ! وآصطبحنا وقلت هذه الأبيات :

بتّ وبات الحبيب ندمانى	من بعد نأى وطول هجران
نشرب قفصية معتقة	بحانة الشط منذ أزمان
وكلما دارت الكؤوس لنا	ألثمنى فاه ثم غنانى
الحمد لله لا شريك له	أطاعنى الدهر بعد عصيان

ولم يزل مقيما عندى نحو الشهر حتى آستقام أمر أبيه، ثم عاد الى داره[1] .

فهذه الأخبار التى رواها أبو الفرج عن نفسه تعيّن اتجاهاته الذوقية فى الحياة .

ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

(١) ص ١٦٠ و١٦٢ ج ٥ ياقوت .

٥ – أخبار ابن دريد

١ – لقد تكلمت عن آبن دريد فى فصل سبق، وإنى لعائد إليه لأستقصى أمره، إذ كنت أوّل من كشف الغطاء عن محاولاته فى النثر الفنى، ولأذكر أولا أن الذى كان يريب الدكتور طه حسين من آبن دريد هو روايته عن عبد الرحمن آبن أخى الأصمعى، وكان يرى فى كلمة " ابن أخى الأصمعى " مثارا للشك . وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير، فاننا نجد الأصبهانى ينقل " حدّثنى أبومسلم عن ابن أخى رزقان[1] " .

وفى معجم ياقوت " قال أبو حيان : وكان يختلف الى مجالس أبى سعيد على بن المستنير وكان هذا آبن بنت قطرب " وكلمة " آبن بنت قطرب " تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكبار العلماء آتصال قرابة . ومثل هذا ما نقل ياقوت : " حدّث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ[2] " . وفى الأغانى : " أخبرنى محمد بن جعفر صهر المبرّد[3] " . وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحدٌ مَن أبوه، وقد وصلت بعد البحث الى أنه عبد الرحمن بن عبد الله[4] وقد ذكره ابن الأنبارى فى طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد[5] . لكن بقيت مسألة تثير الشك : ذلك أن هناك راوية آدّعى أنه ابن أخت الأصمعى وهو أحمد بن حاتم وأُنكر عليه ذلك[6] . وأحمد هذا الذى آستباح لنفسه أن ينسب الى الأصمعى كذبا كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت . فعبد الرحمن إذن متهم فى روايته، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد .

---

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية، وفى معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١ (٢) ص ٧٨ ج ٦ — وفى بغية الوعاة أخذ عبد القاهر بن عبد الرحمن النحو عن « ابن أخت » الفارسى ولم يأخذ عن غيره — ٣١٠ (٣) ص ٤ ج ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢ (٥) ص ٣٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ج ١

٢ — وقد وصلت الى نصوص مهمة تبين اختلاق ابن دريد وتلفيقه وتثبت أنه راع معاصريه بكثرة مايروى من الأخبار حتى اضطروا الى الارتياب فى أمانتـه . ولننظر ما نقل ياقوت من خط أبى على المحسن : سألت القاضى أباسعيد السيرافى رحمه الله عن الأخبار التى يرويها عن ابن دريد، وكنت أقرؤها عليه، أكان يمليها من حفظه ؟ فقال : لا، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه، وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزبانى — رحمه الله — عن ذلك ، فقال : لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها الينا بخطه فاذا كتبناها خرق ما كانت فيه[1] .

وعبارة " لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ " عبارة خطيرة الدلالة على اتهام ابن دريد بالتلفيق وأخذه بوضع الأقاصيص .

وقال ابن خلكان فى أخبار ابن دريد : " سئل عنه الدارقطنى : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه، وقيل إنه كان يتسامح فى الرواية فيسند الى كل واحد ما يخطر له[2] " .

وهذا النص صريح فى أن ابن دريد كان متهما بين معاصريه، وأنهم أطالوا القول فيه، وأنه كان مأخوذا بعدم الثقة فيما ينسبه الى الرواة، فاذا أضيف هذا الى ما حدثنا به الحصرى من اختراعه الأحاديث عرفنا ان له يدا فى صنع ما نسبه الى العرب القدماء .

٣ — وهناك جانب عقلى من ابن دريد لابدّ من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوة ذكائه كان يطمئن الى بعض الحقائق المزيفة التى يتداولها الناس، فكان يذكر أن أول من أقوى فى الشعر أبونا آدم عليه السلام فى قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كل ذى طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه المليح[3]

وهى سذاجة مطبقـة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليـه أنه أول من وقع فى الإقواء .

(١) ص ٢٤٨ ج ٦ (٢) ص ٣١٠ ج ٢ وفيات الأعيان . (٣) ص ١٠٣ ج ٣ ياقوت .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلى قال :

كان لقمان بن عاد الذى عمّر عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتا فى سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها و يصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل، حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حربا لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك؟ قال : إمرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس إلىّ. قالوا : فكيف نحتال لها؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلونى بينها وشدّوها حزمة عظيمة ، ثم آئتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع، وسموا له يوما، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها الى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج، وتحرك الرجل فحلت الجارية عنه، فكان يأتيها ، فاذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى آنقضت الأيام . ثم جاءوا الى لقمان فاسترجعوا سيوفهم، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فاذا نخامة تنوس فى سقف البيت ، فقال لآمرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى، ففعلت فلم تصنع شيئا، فقال : ياويلتاه ! والسيوف دهتنى ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعا وآنحدر مغضبا ، فاذا آبنة له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه، ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضا من النساء ؟ فضرب رأسها بصخرة فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر[1] .

ولقمان بن عاد الذى عمر عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكرهنّ مخلوق. وقد تكون القصة وضعت تفسيرا لذلك المثل : " ما أذنبت إلا ذنب صحر " فهناك أمثال كثيرة جُهلتْ موارها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة لتتم بها العبرة وليفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا العصر الذى دهش فيه المتأدّبون من الأخبار التى كان يرويها ابن دريد كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، ففى ترجمة السيرافى

(١) ص ٤٨ و ٤٩ مصارع العشاق .

أن نصر بن نوح وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتابا سأله فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها[١] .

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاستطعنا أن نفهم ما بينها و بين الأخبار التى آفتعلها ابن دريد من قرب أو بعد، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما نقله السيرافى من أخبار ابن دريد وفى معجم ياقوت إشارة الى إن المحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه[٢] . وابن خالويه هذا من تلامذة ابن دريد ، أفنستطيع أن نفترض[٣] أن لتلك الحكايات قيمة أدبية، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب ؟

وتعقب روح العصر له أهمية فى فهم هذا الموضوع، وقد كان ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى التيار يقول : أبو أحمد العسكرى يكذب على الصولى مثلما كان الصولى يكذب على الغلابى مثلما كان الغلابى يكذب على سائر الناس[٤]، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة : ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعى مثلما كان الأصمعى يكذب على سائر الناس !

٦ — وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه : "لو طائر طار فى الجو لقال أبو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابى ويذكر فى معنى ذلك شيئا[٥]" . وله حادثة عجيبة دهش لها معاصروه : ذلك أن معز الدولة بن بويه قلد شرطة بغداد غلاما تركيا من مماليكه اسمه خواجا فبلغ ذلك أبا عمر الزاهد وكان يملى كتابه اليواقيت فى اللغة فقال للجماعة فى مجلس الإملاء : اكتبوا " ياقوتة خواجا : الخواجة فى أصل اللغة الجوع " ثم فرّع على هذا بابا وأملاه عليهم فاستعظموا كذبه وتتبعوه[٦] . وقد أخذ على السيرفى أنه كان يشهد كذبا إذ يكتب بخطه فى ذيل

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت. (٢) ص ٢٢٩ ج ٦ (٣) ص ٣٨٣ طبقات النحاة.
(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٢٦ ج ٧ ياقوت .
(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت .

الكتب أنه راجعها وأنهـا صحيحة لتشترى بأكثر من ثمن مثلها[١] . وهــذا نوع من التهاون له خطره فى تقدير أمانة العلماء .

٧ — وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هى ما نقله عنه أبو على القالى فى أماليه. وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل الى ابن الكلبى وبعضها الى الأصمعى، وجزء منها مروى عن أبى حاتم السجستانى . والجزء الذى وصله بابن الكلبى يتحـدث فى الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذى يصف كيف كان قَيْلٌ من أقيال حمير مُنِـع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرا منيفا بعيدا من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها ملكها أهل مخلافها فاصطنعت النسوة اللواتى ربينها وأحسنت اليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرًا دونهن، فقلن لهـا يوما: "يا ابنة الكرام لو تزوجت لتم لك الملك! فقالت : وما الزوج؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشـدائد، وفى الخطوب مساعد، إن غضبتِ عطف، وإن مرضتِ لطف . قالت : نعم هذا الشىء ! فقالت الثانية : الزوج شـعارى حين أَصرد[٢]، ومتكئى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هـذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لمـا عنانى كاف، ولمـا شفَّنى شاف، يكفينى فقد الألّاف ، ريقــه كالشهد ، وعناقه كالخلد، لا يمل قِرانه، ولا يخاف حِرانه . فقالت : أمهلننى أنظر فيما قلتن ، واحتجبت عنهن سـبعا ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملِّكه رقى، وأبثــه باطلى وحقى، فان كان محمود الخلائق، مأمون البوائق، فقد أدركت بغيتى، وان كان غير ذلك فقد طالت شقوتى، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤا كريما يسود عشيرته، ويربُّ فصيلته، لا أتقنع به عارا فى حياتى ، ولا أرفع به شنارا لقومى بعـد وفاتى. فعليكن فابغينه ، وتفرقن فى الأحياء، فأيتكن أتتنى بمـا أحب فلها أجزل الحباء، وعلىّ لها الوفاء[٣] " .

وقد عاد النساء بعـد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذى فضلته فى عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يدوّن أخلاق الرجال .

(١) ص ١٠٥ ج ٣ ياقوت . (٢) من الصرد وهو البرد . (٣) ص ٨٠ ج ١ أمالى .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجّه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج حين أجدبت فقد وصف كل رائد واديا وصفا يمتاز من وصف غيره ، فى عبارات مصنوعة أنيقة تؤدّى ما رمى اليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة [١] . ويشبه هذا الحديث من الوجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبى عبيدة من أنه اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زبيد الطائى وجميل بن معمر العذرى والأخطل التغلبى فقال لهم : أيكم يصف الأسد فى غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفا فنيا فى عبارات جزلة مسجوعة تذكر بما رواه ابن دريد منسوبا الى الأعراب [٢] .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعى فهو فى جملته يتحدّث عن أهل البادية، ومن طريفه هذه الأقصوصة التى حكاها الأصمعى إذ قال :

"مررت بحى الربذة فاذا صبيان يتقامسون [٣] فى الماء، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد . فسلمت عليه فرد علىّ السلام . وقال من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحى . قال: ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا . قال : وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشاقر [٤] . فألقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء، فقلت : تفسأ [٥] حجاب قلبه، وأنشأ يقول :

سقى بلدا أمست سليمى تَحُلّهُ ... من المزن ما تروى به وتسيمُ

وإن لم أكن من قاطنيه فانه ... يحلّ به شخص علىّ كريم

ألا حبذا من ليس يعدل قربهُ ... لدىّ وان شط المزار نعيم

ومن لامنى فيه حميم وصاحب ... فرُدَّ بغيظ صاحب وحميم

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه فصحت بالأصيبية فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

اذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تزين بالخشوع

(١) أنظر ص ١٨٣ ج ١ أمالى . (٢) راجع ص ١٨٣، ١٨٤ ج ٣

(٣) يتقامسون : يتغاطون . (٤) المشاقر : منابت العرفج . (٥) تفسأ : تشقق .

ولى عينٌ أضرَّ بها التفاتى   الى الأجراع مطلقه الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسى   كما أنس الوحيد الى الجميع[1]

وفيما وصله ابن دريد بالأصمعى أخبار تتجه وجهة تعليمية كحديث الأعرابى الذى وصف بنيه[2] والأعرابى الذى وصف قومه[3] والأعرابى الذى وصف المطر[4]. وهناك حديث وصله بالاصمعى وردت فيه القصه المشهورة التى روت كيف مات الشاعر الجاهلى عَبيد بن الأبرص وهى فى رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجريض دون القريض » وقراءة هذه القصة تعطى فكرة عن احتيال الكتّاب والقصاصين فى إحياء العهود الجاهلية[5].

أما ماينقله ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى فهو فى الأكثر من كلام الأعراب الذين يفدون على الحواضر كحديث الأعرابى الذى وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من القحط و يطلب الاحسان، وهو حديث منمق يجرى بنفس اللغة التى كتبت بها أحاديث ابن دريد[6] وهناك حديث وصف به ماوقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو بن سعيد فى مجلس معاوية وهو كذلك حديث مصنوع[7].

١٠ — وهناك حديث احتفل به ابن دريد ليسبغ عليه ثوب الجلال، إذ ذكر أن أبا حاتم كان يضن به و يقول « ما حدّثنى به أبو عبيدة حتى اختلفت اليه مدة، وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين وكان لهم مواخيا» وسنرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث السقيفة، فالجو واحد، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكتّاب . وهذا الحديث مهم من حيث دلالته على تصور كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية فى ذلك الحين، والحديث يقع بين عامر بن الظَّرِب العَدوانى وحممة بن رافع الدوسى وقد اجتمعا عند ملك من ملوك حمير، فقال الملك تساءلا حتى أسمع ما تقولان، فقال عامر لحممة : أين تحب أن

(١) ص ٣٨ ج ١ أمالى . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٣ ج ١
(٥) ارجع الى هذه القصة فى ص ١٩٩ ، ٢٠٠ جزء ٣ من الأمالى . (٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمالى .
(٧) أنظر ص ٤٠ ج ٢ أمالى .

نكون أياديك ؟ قال : عند ذى المرض العـديم ، وذى الخَلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعَف الهضيم . قال : من أحق النـاس بالمقت؟ قال : الفقير المختـال ، والضعيف الصوال ، والعيّ القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند[1] ، والمستميد الحاسـد ، والملحف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال : من اذا أُعطى شكر ، واذا مُنع عذر ، واذا موطل صـبر ، واذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم النـاس عِشرة ؟ قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من ألأم الناس؟ قال : من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع[2] ، ظاهره جشـع ، وباطنه طَبَع . قال : فمن أحلم الناس؟ قال : من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر . قال : فمن أحزم الناس؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه[3] .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

"قال : فمن أبلغ الناس ؟ قال : من جلَّى المعنى المزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز" .

ففى ذلك إشـارة الى أنه كان مفهوما عندهم أن الجاهليين كانوا يدركون ماهية البلاغة ويتساءلون عن الكلام البليغ .

(١) الكاند : الجاحد . (٢) كنع انقبض . (٣) راجع ص ٢٨٠ ج ٢ أمالى .

٦ — حكايات ابن الأنباري

١ — ابن الأنباري هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذين ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقا ثقة[١] . ومن شعره :

اذا زِيد شرا زاد صبرا كأنما ... هو المسك ما بين الصلاية والفِهرِ
لأن فتيت المسك يزداد طيبهُ ... على السحق والحرّ اصطبارا على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف انسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعناق الرجال ، فقال رجل فى الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونهُ ... ولكنه أعناق قوم تَقَصَّفُ
وليس فتيق المسك ما تجدونه ... ولكنه ذاك الثناء المخلَّف

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف إنسان » صريحه فى خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الاخلاق العربية .

٢ — وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالى فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلا ، ودخل مكة مستترا ، فلقى حُرفاءه من الرجال والنساء فقال : ما يمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكاية إلى أمير مكة فارسل اليه فأتى به ، فقال : أىْ عدوّ الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) وفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و ٩١ بغية الوعاة .

المشعر الأعظم تفسد فيـه وتجمع الفساق، فقال : أصلح الله الأمير يكذبون علىّ ويحسدوننى! قالوا : بيننا وبينه واحدة، قال : ما هى، قالوا : تجمع حمير المكارين وترسلها بعرفات، فان لم تقصد الى بيته لمـا تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى : إن فى هـذا لدليلا . وأمر بحمير فجمعت ثم أرسلت فقصـدت نحو منزله فأتاه بذلك أمناؤه، فقال: ما بعد هذا شيء، جردوه،فلما نظر الى السياط قال: لا بدّ من ضربى أصلح الله الأمير؟ قال : لا بدّ منـه ! قال : اضرب، فوالله ما فى هذا شيء أشدّ علينا من أن تسخر منا أهل العراق فيقولون : أهل مكة يجيزون شهـادة الحمير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك اليوم، وأمر بتخلية سبيله (١) .

ولنقيد أن ما يرويه ابن الانبارى لا صنعة فيـه فهو يجرى فى لغـة مقبولة لا يلتزم فيهـا السجع ولا الازدواج . ويمكن الاطمئنان الى أنه كان يتحـدث عن أخبـار كانت معروفة فى عصره بشيء يسير من الترتيب لم يصل قط الى مثل ما صنعه ابن دريد .

٣ — وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشهية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ ﻫ مانصـــه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله قال :

إن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلمـا دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبـله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية أحدثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلمـا خرجت استقبلنى وكيل لى ومعـه مال، فقلت ما هذا؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستغلك الجديد، قلت أمسكها معك،واتبعنى . فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

(١) ص ٣١١ ج ٢ أمالى .

فقلت للخادم : أعندك ماء تستقينيه؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على البـاب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا؟ قال : إياك أريد، قلت : فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحـة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشىء،فقلت قل،قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت نعم، قال هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها وعميت، فقدمت هـذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به فأتوصل إلى سـوار فانه كان صـديقا لأبى، فقلت ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، وإذا هو كان أصدق النـاس إلىّ، فقلت له ياهـذا إن الله تبارك وتعالى قـد أتاك بسوار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منـه فدفعتها إليه وقلت إذا كان غد فسر إلى منزلى ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشىء أظرف من هـذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فلما دخلت إليه حدثته بمـا جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألف دينـار فأحضرتْ فقال : ادفعها إلى الأعمى، فنهضت فقال : اجلس، فجلست، فقال : أعليك دَين؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت خمسون ألفا، فحدثنى ساعة وقال : امض الى منزلك، فمضيت إلى منزلى، فاذا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك، قال : فقبضت ذلك منه،فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى وأتانى رسول المهدىّ يدعونى فجئته فقال : قد فكرت البارحة فى أمرك، قلت يُقضَى دينه ثم يحتاج الى القرض أيضا . وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى فدفعت إليـه الألف دينار ، وقلت له : قـد رزق الله تعالى بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأنى على إسداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئا آخر فأخذه وانصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتيها، وهى خالية من الشعر الذى حُلِّيت به الأولى والفكاهة التى بنيت عليها الثانية، وتتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهـذا النمط من القَصص الأخلاقى كان كثير الذيوع فى القرن الثـانى والثالث والرابع، ومن أشهر من كتب فيـه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتّاب الدولة الطولونية، وسنعود إليه فى بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة فى كتب الأدب منسوبةً إلى ابن الأنبـارى تدل على أنه كان مغرما بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقى والوصفى والفكاهى، وهو منحى طريف كنا نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الوافية، ولكن فى ذلك القليل المبعثر هنا وهنـاك ما يكفى للاطمئنان الى أن ابن الأنبارى كانت له يد فيما نسب الى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ - التوابع والزوابع

سياحة شاعر فى وادى الشياطين

معنى التوابع والزوابع — متى ألف ابن شهيد رسالته — متى ألفت رسالة الغفران — التشابه بين موضوع الرسالتين — كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن — هل كان للكتاب والخطباء شياطين ؟ — الفكاهة فى رسالة التوابع — بغال الجن وحميرهم يتعاشقون و يتغزلون — بغلة أبى عيسى تتباكى مع ابن شهيد وتسأله عن حاله وعن إخوانه — أوزة من أهل العلم والأدب تناظر ابن شهيد — دقة ابن شهيد فى نقل آراء الكتاب — رأى ابن شهيد فى لغة معاصريه من أهل الأندلس — توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدهم — شكواه من زمانه — غرامه بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه — ملاحاة ابن شهيد لشيطان أنف الناقة — حرصه على إظهار فضله وتفوقه — إجازة الجن إياه وتقديمهم له — رأيه فى أن البيان نفحة سماوية لا صلة لها بالنحو والتصريف — ابن شهيد عند نفسه أشعر الناس وخاصة فى الرثاء .

---

١ — التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنىّ والجنية يكونان مع الانسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمى الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء فى القاموس المحيط .

٢ — والتوابع والزوابع اسم رسالة نفيسة — لم يبق منها إلا شذرات فى كتاب مخطوط هو الذخيرة — ألفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسى [١] ، ولم نجد لها صدى يذكر فى كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا اليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها فى سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء . وأقوى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء ، فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش المعرى من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩ [٢]

---

(١) انظر ترجمة ابن شهيد فى الجزء الثانى ص ٣٠٢ وانظر تحليل نثره ص ٣١٠ وراجع آراءه فى النقد الأدبى ص ٤٨ (٢) راجع بلاغة العرب فى الأندلس ص ٤٨

٣ — وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد، ولكنا رأينا فى الرسالة نفسها مايدل على أنه وضعها وهو كهل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وانتهى الى الوزارة)[1] وألقى إليه على لسان أوزة جِنّية هذا السؤال :

"ما أبقت الأيام منك؟"[1] .

وفى هذا السؤال إشارة الى أنه كان ودع نضارة الشباب .

ولكن لا ينبغى أن تخدعنا هذه التعابير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب، فقد حدّثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له : "قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يملّ من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟" وأنه أجاب "جاران دارهما صقب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، وألقت به فى سر قسطه العصا، انتضى على لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين ... الخ"[2] .

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين . والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان وجدّدت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧[3]

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوابع والزوابع) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧ هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران.

وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد، ولكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٥٢ (٢) الذخيرة ج ١ ص ١٣٨ (٣) فى الذخيرة تفاصيل مزعجة لما وقع بين المستعين و بين هشام بن سليمان، وصور شنيعة لما كان يجرى فى الأندلس من اشتعال الفتنة واغتلاء العصبية لذلك العهد . أنظر ص ١٧ — ٢٤ ج ١

رسالة ابن القارح، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله : ”وكيف أشكو من قاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة“[١] . فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فاذا أضفنا الى هذا الرقم — ٧٠ — وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ ؛ واذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفا وسبعين، وللنيف دلالته، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤[٢]

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة، وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ — والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين : فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شىء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية، وابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية، ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريبا : فهو عند ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا، وهو عند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة : أى الفردوس

---

(١) رسائل البلغاء ص ١١٢

(٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها كتبت سنة ٤٢٤ إذ يقول المعرى : ”ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان“ راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب كامل كيلانى .

والجحيم . فالممثلون عند ابن شهيد جنٌّ يسخرون الناس، وعند أبى العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين، وكان لكل إنسان فى عرفهم ملك وشيطان .

٥ — وجّه ابن شهيد رسالته الى أبى بكر بن حزم فبين فى فاتحتها أنه كان فى حداثته يحن الى الآداب ويصبو الى تأليف الكلام، فأبتاع الدواوين وجلس الى الأساتيذ فنبض فيه عرق الفهم ودرّ له شريان العلم وأنه كان له فى أوائل صبوته هوى آشتد له كلفه ثم لحقه ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كان يهواه مدّة ذلك الملال فجزع وأخذ فى رثائه فقال :

تولى الحِمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن آنتهى الى الاعتذار من الملل الذى كان فقال :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

ثم أُرتج عليه فاذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد آتكأ على رمحه وصاح به : "أعجزٌ يافتى الإنس؟" .

فأجاب : "لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الانسان" فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته وقال: "وبأبى من أنت؟" قال: "زهير بن نمير من أشجع الجن، تصوّرت لك رغبة فى آصطفائك" .

فقال آبن شهيد : "أهلا بك أيها الوجه الوضاح! صادفت قلبا اليك مقلوبا ، وهوى نحوك مجنوبا"[1] وهنا ينطلق ابن شهيد فيقص علينا أنهما تحادثا وتذاكرا أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع وأنه سأل صاحبه زهير بن نمير أن يحتال له فى لقاء من اتفق من الشياطين، فيمضى زهير ليستأذن شيخ الجن ويعود وقد أذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم ويسيران كالطير يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو، حتى يلمحا

(١) ص ١٢٥ و ١٢٦

أرضا لا كأرضنا ، ويشارفا جوا لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطـر الزهر . وهناك يقول الجنى مخاطبا ابن شهيد :

"حللت أرض الجن ، أباعامر؟ فبمن تريد أن تبدأ" .

فيجيب ابن شهيد :

"الخطباء أولى بالتقديم ، ولكنى الى الشعراء أشوق" .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والكتّاب شياطين ، كما كان للشعراء شياطين ، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للكتّاب والخطباء ، وقد حدّثنا ابن شهيد أنه صادف فى أرض الجن شيطان الجاحظ ، وشيطان بديع الزمان ، وشيطان عبد الحميـد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد[1] ؟

٦ — رسالة التوابع نفيسة جدا ومؤلفها خفيف الظل الى حدّ بعيد ، وقد وقعت له فيها فكاهـات تبعث الأنس الى النفس ، من ذلك ما قصـه علينا من أنه أشرف بأرض الجن " على قرارةٍ عيناء ، تفترّ عن بركة ماء ، وفيها عانة من حمير الجن وبغالهـا قد أصابها أولق[2] : فهى تصطك بالحوافر ، وتنفخ من المنـاخر ، وقد اشتد ضراطها ، وعلا شحيجها ونهاقها" .

فلما بصرت بهم أجفلت اليهم وهى تقول :

" جاءكم على رجليـه " .

فارتاع ابن شهيد وتبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تهيأ للحكم .

قال ابن شهيد : فلمـا لحقتْ بنـا بدأتنى بالتفدية ، وحيتنى بالسكينة . فقلت : ما الخطب ، حمى حماك أيتهـا العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شعران لبغل وحمـار من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حَكَمًا . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت الىّ بغلة شهباء عليها

---

(١) فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٥٩ مايفيد أنه كان للكهان شياطين ، وكان فيهم الكتّاب والخطباء .

(٢) الأولق : الجنون .

جلها و برقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة — فقالت : الشعر لبغل من بغالنا وهو :

على كل صبّ من هواه دليلُ ... سقامٌ على جِدّ الهوى ونحولُ
وما زال هـذا الحب داء مبرحا ... اذا ما آعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما مَلاحظ طرفها ... فسحرٌ وأما خدها فأسيل
تعبتُ بما حُمِّلت من ثقل حبها ... وانى لَبغلٌ للثقال حمول
وما نلت منها نائلا غير أننى ... اذا هى بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويتُ ... وراثت إراداتى فلست أريثُ
كلفت بإلفى منذ عشرين حجة ... يجول هواها فى الحشا ويعيث
وغيّر منها قلبها لى نميمةٌ ... نماها أحمّ الخصيتين خبيث
وما نلت منها محرما غير أننى ... اذا هى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : فآستضحك زهير وتماسكتُ وقلت للمنشدة : ما هويث ؟ قالت : هو يت بلغة الحمير ! قلت والله إن للروث لرائحة كريهة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعرين ! فقالت : فهمت عنك، وأشارت الى العانة أن ركبنا مغلوب . وآنصرفت قانعة راضية [1] .

٧ — وتتفرع عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

"وقالت لى البغلة : أما تعرفنى، أبا عامر ! قلت : لو كان ثَم علامة ! فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا ، وقد أخذنا فى ذكر أيامنا فقالت :

(١) راجع ص ١٥١ و ١٥٢

ما أبقت الأيام منـك ؟ قلت : ما ترين ! قالت شبّ عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبـــة ؟

قلت : شب الغلمـان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ الإمارة، وآنتهى إلى الوزارة . فتنفست الصّـعداء وقالت : سقاهم الله سَبَل العهـد ، وإن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود ! بحرمة الأدب إلا أقرأتهم سلامى! فقلت : كما تأمرين.

٨ — وهناك فكاهة من مبتكرات ابن شهيـد تدل على فهمه لعـالم الطير كما دلت الفكاهات المـاضـية على فهمه لعالم الحيـوان ، ذلك أنه يحـدّثنا عن أوزة كانت فى البركة بالقرب منهم :

” أوزة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة، كأنمـا ذُرّ عليها الكافور، أو لبست غِلالة من دمقس الحرير، ... فى ظهرها صفاء، تثنى سالفتها وتكسر حدقتها ، وتلولب قَمحدُوتهـا ، فترى الحسن مستعارا منها، والشكل مأخوذا عنها “ .

وقد صاحت تلك الأوزة بالبغلة :

” لقد حكمتم بالهوى، ورضيتم من صاحبكم بغير الرضى “ .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هذه الأوزة؟ فيجيبه : ”هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة، وتسمى أم عفيف، وهى ذات حظ من الأدب فآستعدّ لها “ .

فيقول لها ابن شهيد : ” أيتها الأوزة الجميلة، العريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتدال منكبيك ، وآستقامة جناحيك، وطول جيدك ، وصـغر رأسك، تقابلين الضيف بمثل هـذا الكلام وتلقين الطائر الغريب بشبه هـذا المقال ، وأنا الذى همت بالأوزّ صبابة، وآحتملت فى الكتّاب بهـا غض كل مقالة ، وأنا الذى استرجعتها للوطن المألوف ، وحببتها إلى كل غِطريف، فاتخذتها السادة بأرضنا، وآستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيْتها بدلا من العصافير، ومتكلمات الزرازير، ونسيتُ لذة الحمام، ونقار الديوك، ونطاح الكبّاش “ .

عنـد ذلك داخلهـا العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد أعترتها خفـة شديدة فى مائهـا ، فترة سابحـة ، ومرّة طائرة ، تغطس هنا وتخـرج هنـاك ، وهـذا الفعـل معروف فى الأوز عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صـدرها وقالت لأبن شهيد :

”أيها الغاز المغرور! كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تُحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟ “ ثم يلاحيها وتلاحيه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب الى أن يسألهـا : يا أم عفيف ! بالذى جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء، أيهما أفضل؟ الأدب أم العقـل؟ فتجيب : بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ؟

فتجيب : لا !

فيقول : فتطلّبى عقل التجربة إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة[1] !

٩ — وأبن شهيد فى رسالته التوابع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التى كان يحرص عليها من يُنسبون اليهم . من ذلك أنه حين أتصل بأبى عينية عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

” إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا نثر[2]“ . وهذا هو مذهب الجاحظ الذى كان يؤثر الكلام المرسـل على المسجوع ويميـل فى نثره الى المقابلة والأزدواج .

١٠ — وقد ساقت هذه المناسبة ابن شهيد الى أن يعلن رأيه فى لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

” ليس هـذا — أعزك الله ! — منى جهلا بأفن[3] السجع ، وما فى المماثلة والمقابلة من فضل،ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام،ودهيت بغباوة أهل الزمان،وبالحرى أن أحدثهم

(١) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) فى الأصل ”بأفق“ وهو تحريف ، والأفن معناه العيب ، وهى لفظة يستعملها ابن شهيد . راجع ص ١٣٨ من الذخيرة .

بالازدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لهم حركته ، لكان أرفع لى وأولج فى قلوبهم[١] " .

فيدهش الجنى ويقول :

" أهذا على تلك المناظر، وكبير تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس ؟ " .

فيجيب ابن شهيد : " نعم ! — انما يجنى الشجر، وليس له ثمر ولا عتر" فيقول الجنى : كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى اليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، انما هى لكنة يؤدون بها المعانى تأدية المجوسى والنبطى " .

فيصيح الجنى : إنا لله ! ذهبت العرب كلامها، إرمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم، ويطير لك ذكرا فيهم، وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم كريه المجىء اليهم[٢] !

١١ — وفى تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلًى بحقد معاصريه وحسدهم وإسرافهم فى الكيد له والغض من شأنه، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة فى وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

"إن لسجعك موضعا من القلب، ومكانا من النفس، وقد أعرته من طبعك، وحلاوة لفظك، وطلاوة سوقك، ما أزال أفنه، ورفع غبنه، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يملُّ من الطعن عليك والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك" ؟

" وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره، وثالث امتطى ظهر النوى، فألقت به فى سرقسطه : حيث ينتضى عليه لسانه عند المستعين، وتساعده على إفكه زرافة من الحاسدين" وأنه أنشد فى أولئك الأعداء :

وبلّغت أقواما تجيش صدورهم علىّ وإنى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت مُعجزا وغاصوا على سرى فأعياهمو أمرى[٣]

(١) ص ١٣٥ (٢) ص ١٣٥ ص ١٣٥ و ١٣٦ (٣) راجع ص ١٣٨

١٢ — ولا يكتفى ابن شهيد باعلان حزنه لتحامل معاصريه، بل يضيف الى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن — وقد آستجادوا شعره — بهذه الكلمة الموجعة :

" ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك! "[1] .

١٣ — وآبن شهيد مغرم بمعارضة كتّاب المشرق وشعرائه، حريص على التفوق عليهم، فقد حدّثنا أنه قابل بأرض الجن "زبدة الحقب" شيطان بديع الزمان فقال له : اقترح عليّ وصف جارية فوصفها، فقال له الجنى : أحسنت! فقال له ابن شهيد : أسمعنى وصفك للماء. فقال الجنى : ذلك من العقم "يريد أنه معنًى لا تمكن معارضته" ثم آنطلق يقول : "أزرق كعين السِّنور، صاف كقضيب البلور، انتُخِب من الفرات، وآستعمل بعد البيات، فكان كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة"[2] .

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

"أُنظرْ يا سيدى كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح، ينصبّ من إنائه، إنصباب الكوكب الدرىّ من سمائه، العين كانونه، والقمر عفرينه، كأنه خيط من غزل فلَق، أو مخصرة ضربت من ورق، يرفع عنك فتروى، ويصدع به قلبك فتحيا"[3] .

عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرتْ له عن عين تدهدى اليها فاجتمعت عليه وغاب وهو خجل خزيان !

١٤ — ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوق على كتّاب المشرق، بل مضى يحدّثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وآنتصر عليه بحيث علتْ أنف الناقة كآبة، وآختلط كلامه، وبدت منه ساعتئذ بوادٍ فى خطابه رحمه لها من حضر، وأشفق عليه منها من نظر، فشمر له عن ساعدِ فتًى من الجن كان الى جنب أنف الناقة وقال :

" وهل يسوء قريحتك، أو ينقص من بديهتك، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له، فانه على علاته زىّ علم، وزنبيل فهم، وكنف رواية ؟ " .

(١) ص ١٣٠ (٢) مأخوذ من المقامة المضيرية . (٣) ص ١٣٩ و ١٤٠

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبى إسحاق ابن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد : رفقا على أخيك بغرب لسانك ! وهل كان يضر أنف الناقة وينقص من علمه، ويفلّ شفر فهمه، أن يصبر لى على زلة تمرّ به فى شعر أو خطبة : فلا يهتف بها بين تلاميذه ويجعلها طرمذة من طراميذه !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة .

فيقول ابن شهيد : إنها المرة بعد المرة[1] !

ثم يحدثنا وهو مزهوٌ مفتون أن أساطين الجن حاروا فى أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم خطيب ، وأنهم انصرفوا والأبصار اليه ناظرة، والأعناق نحوه مائلة .

ومثل ابن شهيد فى عبقريته يعذر فى مثل هذا الفُتُون !

١٥ — ويتصل بحرص ابن شهيد على إظهار تفوّقه وفضله ما نراه فى غير موطن من التوابع من النص على أن زعماء الجن أجازوه ، وبلغ الأمر بأحدهم أن فتن ببيت من شعره فقام يردّده ويرقص، قال ابن شهيد :

ثم أفاق وقال : "والله هذا شىء لم نلهمه نحن، ثم استدنانى فدنوت منه فقبل بين عينى وقال : اذهب فانك مُجازٌ[2] على بظر أم الكاره ! " .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإنس ، يضاف اليهم من ناوأه من زعماء الجن .

١٦ — وفى رسالة التوابع إشارة لطيفة الى رأى ابن شهيد فى البيان وهو يعتقد أن البيان نفحة سماوية لا صلة بينها وبين معرفة النحو والتصريف ، فليس يكفى أن يختلف الانسان الى الأساتذة يتلق عنهم، وليس يغنى أن يراجع الكتب والدواوين ، وانما يجب أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البليغ[3] .

(١) راجع ١٤١ و ١٤٢ (٢) ص ١٣٣ (٣) تجد آراء ابن شهيد فى النقد الأدبى مبسوطة بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٤٨ — ٥٨

وفى هذا يحدّثنا آبن شهيد أنه آصطدم فى وادى الجن بشيطان أنف النـاقة وأنه آستطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحنى كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجنى :

"دع عنك هذا، أنا أبو البيان" .

فقال ابن شهيد لاهًا لله ! إنما أنت كمغن وسط لايحسن فيطرب، ولا يسىء فيلحَى .

قال الجنى :

"لقد علمنيه المؤدبون" .

فقال آبن شهيد .

"ليس هو من شأنهم، إنمـا هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿الرحمن علم القـرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ . ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، حتى يكون نفسك من أنفاسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه"[1] .

ومعنى هـذه الفقرات أن البيان شىء آخر غير الكلام المفيـد، فمن النـاس من تقرأ له فلا تحمـده ولا تذمه، وشر الكتاب من يمرون على القـراء فلا يكون لهم قادح ولا مادح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فيما رآه ابن شهيد إلا أنه قدّم له شواهد فى وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر البيان[2] .

١٧ — فى رسالة التوابع إشارات كثيرة تدل على رأى آبن شهيد فى شعره، وهو عنـد نفسه أشعر النـاس وخاصة فى باب الرثاء، فان الجن حين يطارحونه الشعر يسألونه عن مراثيه، والى القارئ نموذجا مما آختاره من شعره فى الرثاء :

أفى كل عام مصرعٌ لعظـيم ... أصاب المنـايا حادثى وقـديمى

فكيف لقـائى الحـادثات اذا سطت ... وقـد فلّ سـيفى منهمو وعزيمى

(١) ص ١٣٩ (٢) راجع أوصافه للثعلب والبرغوث فى الذخيرة ص ١٣٩ ج ١ ويتيمة الدهر ص ٣٩١ ج ١

وكيف آهتدائى فى الخطوب اذا دجت وقــد فقدت عيناى ضــوء نجومى

مضى السلف الوضّاح إلا بقيــةً كغرة مسودّ القميص بهــيم

أما وأبى الأيام لولا آعتــداؤها لظاهرتُ فى ساداتها بقــروم

وقارعت من يبغى قــراعىَ منهمو بأحــلام بطش أو بطيش حــلوم

أنا السيف لم يتعب له كف ضارب صروم اذا صادفت كف صريم

ســعيت بأحرار الرجال فخــاننى رجال ولم أنجــد بجد عظــيم

وضيعنى الأمــلاك[1] بدءا وعودة فضــعت بدار منهــمو وحريم[2]

(١) الأملاك : الملوك . (٢) فى يتيمة الدهر طائفة صالحة من شــعر ابن شهيد تجدها فى الصفحات ٣٨٢ — ٣٨٩ من الجزء الأوّل .

٨ – الانسان والحيوان أمام محكمة الجن

١ — تلك رسالة كتبها جندىّ مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هـذا رجل متفوق فى علم الحيوان ، ورسالته عن محاكمة الانسان أمام محكمة الجن لبطشـه بالحيوان تجرى مجرى القَصَص الطريف . ولكن هـذا القَصَص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدئ ويعيـد فى الكلام عن خواص الكائنات الحيـة التى آستبدّ بهـا الانسان ، وينطلق فيسرد طبائعها جنسا جنسا ، ثم يمضى فيُنطقها بمـا أُودعت غرائزها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن فى الدرس والبحث حتى يمكّن القارئ من معارف جمة طريفة تشوق العقل والخيال .

٢ — وكاتب هذه الرسالة متأثر بكتاب كليلة ودمنة ، وآية ذلك أنه آختار كليلة رئيسا لوفد السباع[1] . ووصفه بأنه " كليلة أخو دمنة " وهنا أخطأ الكاتب خطأً فنيا ، فان الخرافة تحدثنا أن كليلة مات حزنا على دمنة بعد أن أُودع دمنةُ السجن زمنا رهن المحاكمة جزاءً بمـا كسبت يداه من الدس لشتربة الذى راح فريسـة لدسائسه ومكايده . وكان ذلك قبل الاسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الانسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الاسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ — وقصـة الخصومة بين الانسان والحيوان تتلخص فى أن بنى آدم كانوا فى بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش فى الأرض ، وكانوا يأوون فى رءوس الجبال والتلال ، وفى المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأشجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويستترون بأوراق الشـجر من الحرّ والبرد . ثم تحضروا فبنوا المدن

---

(١) ص ٢٠٦ ج ٢

والقرى والحصون. ثم سخروا من الأنعام البقر والغنم والجمال، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير، وقيدوها وألجموها وصرفوها فى مآربهم من الركوب والحمل والدراس، وأتعبوها فى آستخدامها، وكلفوها أكثر من طاقتها ، ومنعوها من التصرف فى مآربها ، بعد ما كانت مُخلّاة فى البرارى والآجام والغياض تذهب وتجىء حيث أرادت فى طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها . ونفرت منهم بقيتها من حمر الوحوش والغزلان والسباع والطيور بعد ما كانت مطمئنة فى أوطانها وأماكنها ، وهربت من ديار بنى آدم الى البرارى البعيدة ، والآجام والدّحال[1] ورءوس الجبال، وشمر بنو آدم فى طلبها بأنواع من الحيل والقنص والشباك والفخاخ، وآعتقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلعت الطاعة وعصت . ومضى الأمر على ذلك الى أن ظهر الاسلام وخضع له فريق من بنى الجان .

٤ — وآتفق أن ولى أمر المسلمين من الجن ملك يقال له "بيراست الحكيم" ولقبه "شاه مردان" وكانت دار مملكته مردان فى جزيرة يقال لها "صاغون"[2] فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الآستواء، وهى جزيرة طيبة الهواء والتربة ، فيها أنهار عذبة، وعيون جارية ، وهى كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار . وحدث أن طرحت العاصفة فى وقت من الزمان مركبا من سفن البحر الى ساحل تلك الجزيرة ، وكان فى المركب قوم من التجار والصناع وأهل العلم وأغنياء الناس، فخرجوا الى تلك الجزيرة وفُتنوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين، وصادفوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوامّ والحشرات فى أُلفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق . وآستطاب القوم المقام فى تلك الجزيرة وبنوا هنالك وسكنوا، ثم أخذوا يتعرّضون لما فيها من البهائم والأنعام ليسخروها فيركبوها ويحملوا عليها أثقالهم على المنوال الذى كانوا يفعلون فى بلدانهم ، فنفرت منهم وهربت ، وشمروا فى طلبها لآعتقادهم أنها عبيدٌ خرجت عن

(١) الدحال جمع دحل بالفتح ويضم ، وهو نقب ضيق فمه ، متسع أسفله حتى يمشى فيه . (٢) هكذا أثبتها الكاتب . والفرنسيون ينطقونها سيجون Saïgon وسألت أحد الصينيين فأخبرنى أنهم ينطقونها "سيكون" .

طاعتهم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم فى آستعبادها جمعت زعماءها وخطباءها وذهبت الى بيراست الحكيم ملك الجن وشكت اليه ما لقيت من جور بنى آدم ، فبعث ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب الى هناك ، وكانوا نحوا من سبعين رجلا من بلدان شتى . و بذلك تبدأ قصة التحكيم[1] .

٥ — وأوّل ما ينبغى ملاحظته فى هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذى يظهر من فصل الى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس آستدل على حقهم فى تسخير الحيوان بهذه الآيات ﴿ والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا آستويتم عليه ﴾ .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يجيبوا على هذه الآيات قام البغل فقال :

" ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنسى من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ، انما هى آيات تذكار بإنعام الله عليهم و إحسانه فقال؟ ﴿ سخرها لكم ﴾ . كما قال : ﴿ سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح ﴾ . أفترى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها[2] ؟ " .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والهوامّ فى المحاكمة فبدا له أن أكثرها صم بكم عمىٌ بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وأن أكثرها عراة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة .

وهنا يحدثنا المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرأفة ورقّ قلبه فدمعت عيناه من الحزن !

(١) راجع ص ١٧٣ — ١٧٦ ج ٢

(٢) ص ١٧٧

٦ — وفى الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذٌ بفلسفة اليونان، وآنظر هذه الكلمة فهى تذكِّر بنظرية المثال التى شرحها أفلاطون :

" ثم آعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهياكل والصفات التى تراها فى عالم الأجسام وجواهر الأجرام هى مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصور التى فى عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه الى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان الى هذه الصور والأشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التى فى عالم الأرواح محركات وهذه متحركات ، والتى دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك ناطقات معقولات وروحانيات غير مرئيات باقيات[1]" .

٧ — وفى الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها ضروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها فى القرن الرابع ، فالهندى لذلك العهد كان "طويل اللحية ، موفور الشعر، متوشحا بازار أحمر على وسطه[2]" والعبرانى من أهل الشام كان " يرتدى برداء أصفر وبيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم[3]" والسريانى من آل المسيح كان "يلبس ثيابا من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور[4]" والقرشى كان "يلبس ثوبين : رداء وإزارا، شبه المحرِم[5]" واليونانى "كانت على رأسه مشدّة[6]" ولم يعين المؤلف ثياب الفارسى وان كان وصفه بحسن الهندام[7]، وكذلك وصف مندوب العراق[8] .

٧ — أنطق المؤلف زعماء الوفود بمحامد أممهم، ثم أنطق صاحب العزيمة من وزراء الجنّ بمساوى تلك الأمم . فمندوب الهند يفاخر بأن الله بعث فى بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة، فيقول الجنى وهو يحاوره : " لو أتممت

---

(١) ص ٢٣٢ (٢) ص ٣٣٦ (٣) ص ٣٣٧ (٤) ص ٣٣٨ (٥) ص ٣٣٩
(٦) ص ٣٤٠ (٧) ص ٣٤٢ (٨) ص ٣٣٤

الخطبة وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبــادة الأصنام والقرود وكثرة أولاد الزنا وآسوداد الوجــــوه ! " .[١]

والعبرانى يفاخر بأن الله آصطفى إسرائيل ومن ذريتــه موسى بن عمران الذى فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكا وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين . فيقاطعه الجنى : "نسيت ولم تقل : وجعل منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ! " .[٢]

و يفاخر السريانى بأن الله آتخذ من العذراء البتول جســد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيده بروح القدس، وأظهر على يده العجائب، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئــة » .[٣]

فيضيف الجنى : "قل أيضا : فما رعيناها حق رعايتها وكفرنا وقلنا ثالث ثلاثة، وعبدنا الصلبان، وأكلنا لحم الخنزير فى القربان، وقلنا على الله الزور والبهتان ؟ " .

و يتكلم القرشى فيذكر أن الله خص أمته بخير الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن وصوم شهر رمضان . فيقــول له الجنى : " قل أيضا : إنا رجعنا بعــد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيّرين، طلبا للدنيا بالدين" .

وفى هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

و يخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكنا وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهارا وأشجارا وثمــارا، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهــم نوح و إدريس و إبراهيم ،ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالَم القديم . فيقول الجنى:"ومن عندكم خرج الطوفان، ومنــكم كان نمروذ الجبار ، وبخت نصر محرف التــوراة وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيــــل" .[٤]

---

(١) ص ٣٣٧ (٢) ص ٣٣٨ (٣) ص ٣٣٩ (٤) ص ٣٣٦

ويتقدّم منـدوب اليونان فيفاخر بأن الله خص بلادهم بكثرة البقـول ، وخص قومه برجحان العقول، ودقة التميز، وجودة الفهم، وكثرة العلوم والصنائع والطب والهندسة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك ، ومعـرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصـد والطّلسمات، وعلم الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات .

وهنا ينهض الجنى فيقول :

" من أين لكم هـذه العلوم والحكمة التى ذكرتها وآفتخرت بها؟ لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيـل أيام بطليموس، وبعضها من أيام مسـيطوس، فنقلتموها إلى بلادكم ، ونسبتموها إلى أنفسكم[(١)] " .

وفى هذه النقطة يحاول المؤلف أن يثبت أن العلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض، وهو بهذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التى كان أشياعها يتزدون إذ ذاك فى الأقطار الاسلامية . وإنه ليذكر أن ملك الجن نظر إلى اليونانى وسأله : ماذا تقول؟ وأن اليونانى أجاب :

" صدق الحكيم فيما قال؛ فاذا أخذنا عنهم فان علومنا وعلوم سائر الأمم بعضُها من بعض، ولو لم يكن كذلك فمن أين للفرس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصـد ، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند ؟ ومن أين كان لبنى إسرائيـل علم الحيل والسحر والعـزائم ونصب الطلسمات وآستخراج المقادير ، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملكته فى بلاد فلسطين[(١)] "؟

٩ — وقد أجاد المؤلف إنطاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تعيّن ما لقومه من الأذواق فى العلوم والفنون، ومن أظرف ما جاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

" الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كان قبل الهيولى ذات الصورة والأبعاد! الحمد لله الذى أفاض من جوده العقل الفعّال! الحمد لله الذى أنتج من نوره العقل فى جوهر

(١) ص ٢٤٢

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهيولى والكيان ! الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات، الموكل بدورانها النفوس والأرواح، والملائكة ذات الصور والأشباح " .

١٠ — وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس حتى القرن الرابع ، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه : "ومنا من يقرأ القرآن ويلحنه ولا يعرف معناه ويؤمن بمحمد ويصدقه وينصره[١]" .

١١ — وعرض المؤلف لأمة يأجوج ومأجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما "أمتان صورتهما آدمية ، ونفوسهما سبعية ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك والنهب والغارات بعضها على بعض[٢]" .

وهو شىء من التفصيل لما أجمله القرآن فى سورة الكهف ، وإن لم يحدد موقع هذه الأمة من التاريخ .

١٢ — ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكل بعضها بعضا ، ومن فساد شىء يكون صلاح شىء آخر ، فحيوانات البحر تفزع من التنين وتهابه ، وهو لا يفزع إلا من دابة صغيرة تلسعه ، فاذا لسعته دب سمها فى جسمه فمات واجتمعت عليه الحيوانات البحرية تأكله فيكون لها عيشا رغدا أياما ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك حكم الجوارح من الطير : فالعصافير والقنابير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ، والبواشق والشواهين تصطاد العصافير والقنابير . وهكذا سيرة بنى آدم : فانهم يأكلون لحوم الجدى والحملان والغنم والبقر والطير، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب[٣] !

١٣ — وتحدث الكاتب عن النقل بالعربات ، وحديثه هنا طريف ، لأن العربة موجودة من قديم الأزمان ، ولكنا نجد أثرها قليلا فى المدنية الاسلامية ، بحيث يظن أن

(١) ص ٢٤٤ (٢) راجع ص ٢٤٨ (٣) راجع ص ٢٤٨

أن المسلمين الأولين لم ينتفعوا كثيرا بهـذه الأداة فى حمل الأثقال ، وقـد وردت فى كلام الكاتب كأنهـا أعجوبة، وفى ذلك دلالة على أنهـا كانت قليلة الاستعمال، فقد قرنهـا بالحيلة فى الغوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصعود إلى رءوس الجبال لإنزال النسور والعقبان ، فقال : " وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها فى صدور الثيران وأكتافها ، ثم يحملون عليهـا الأحمال الثقال وينقلونهـا من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق، ويقطعون البرارى والقفار والمفاوز[1] " .

١٤ — ويحدثنـا الكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهـم يجادل زعماء الانسان،ثم اختاروا أحد الحكماء من بنات آوى،فتلطف ابن آوى فى الاعتذار وقال: "وكيف أصنع مع كثرة أعدائى هناك من أبناء جنسنا؟" فقال الأسد : "من هم؟ " فقال : "الكلاب؟ " فسأل الأسد : كيف يصير الكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبنى آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد استأمنتْ الى بنى آدم وصارت معينة لهم علينـا معشر السباع ؟ فيسأل الأسد عن علة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فينطق الذئب بالأسباب التى جمعت بين الانسان والكلب فيقول :

" إنمـا دعا الكلاب الى مجاورة بنى آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما وجدت عنـدهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما فى طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل، وما فى جبلّتها من الأخلاق المذمومة الموجودة فى بنى آدم، مما السباع عنه بمعزل: وذلك أن الكلاب تأكل اللحمان ميتا وجيفا ومذبوحا، قديدا ومطبوخا ومشويا ، ومالحا وطريا، وجيدا ورديئا، وثمارا وبقولا وخبزا، ولبناً وحليبا، وحامضا وجبنا وسمنا ودسما، ودبسا وشيرجا، وناطفا وعسلا، وسويقا وكامخا . وما شاكلها من أصناف مأكولات بنى آدم التى أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها " .

ويضيف الخطيب الى هذا التعليـل الطريف للتشابه بين الكلاب والناس فى التوافق والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الكلاب لا تترك أحدا من السباع يدخل

(١) ص ٢٢١

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها فى شىء مما هى فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبى الحصين قرية بالليل ليسرق منها دجاجة أو ديكا أو سنّورا، أو يجتز جيفة مطروحة، أو كسرة مرمية، أو ثمرة متغيرة، فتحمل عليه الكلاب وتطرده وتخرجه من القرية.

ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلح فى فرض المشابهة بين الانسان والكلب، فيذكر أن الكلب اذا رأى فى يد أحد من بنى آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفا أو كسرة أو تمرة أو لقمة طمع فيها وتبعه، وأخذ يبصبص بذنبه، ويحرك رأسه، ويحدّ النظر الى حدقته حتى يستحى أحدهم فيرمى بها اليه! وعندئذ يعدو اليها بسرعة، ويأخذها فى عجلة، مخافة أن يسبقه اليها غيره! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب ! — :

”وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة فى الإنس والكلاب، فمجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعت الكلاب الى أن فارقت أبناء جنسها من السباع ، وآستأنست الى الإنس، وصارت معينتهم على أبناء جنسها من السباع[1] “ .

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزمانا طوالا ، وهى خلق الجن، وأصل العداوة بينها و بين الإنس. فقد تخوّف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين الانسان والحيوان، فان الانس أمم قوية، ومن المحتمل أن يثوروا على الجن فتقوم بينهم حروب يخسر فيها الغالب والمغلوب .

وقد تأنق الكاتب فى عرض أدوار الخصومة بين الانس والجن والظروف التى كان يقع فيها صلح أو قتال . والذى تجب الاشارة اليه هنا أن إخوان الصفا يعتقدون بما يسمى ”القران“ وهو عندهم تحوّل حظوظ الأنواع من حال الى حال : فقد خشى أحد خطباء الجن من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنس فى الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان، وأن يجد الإنس من ذرابة ألسنتهم وجودة عباراتهم ما يقضى بأن تظل البهائم أسيرة فى أيديهم يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

(١) ص ٢٠٧ ج ٢

" تصير البهائم فى الأسر والعبودية الى أن ينقضى دور القِران ويستأنف نشوء آخر ويأتى الله لها بالفرج والخلاص، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون ، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تُبَّع، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان ، وكما نجى آل عمران من عذاب أردشير[1] " .

و "القران" هذا أمل جميل، ولو تأخر الزمن بالمؤلف لرجونا أن يقول :

"وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز !".

١٦ — ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان ، ولكنه آستطرد فشرح كثيرا من الظواهر الاجتماعيــة ، وتحدّث عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء ، وأفاض فى ذكر الأسباب التى قوضت العروش وحوّلت الأعزة الى أذلة صاغرين، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا لملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل[2] .

ويطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية، فليرجع القارئ الى أصل الرسالة إن شاء[3] .

١٧ — وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكمة التى فصَّل أخبارها الكاتب فى خمسين ومائة صفحة، وهو سؤال لا بدّ أن يخطر بالبال .

ونجيب بأن المحاكمة لم تنته الى شيء : لأن زعماء الحيوان فكروا فى الوصول الى الحرّية عن طريق المفاوضات، ولو آستمعوا لنصيحة الأسد حين صمم على أن يصدع القوّة بالقوّة، ويفلّ الحديد بالحديد، لما آحتاجوا الى محكمة الجن فى جزيرة صاغون !

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

(١) ص ١٩٨ ج ٢ (٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل، أما ملك النحل فوصفه بالاشفاق على رعيته والرحمة لهم والتحنن عليهم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف علل المؤلف كثرة الملوك عند الانس : فقد نفذ الى صميم الحياة عند مختلف الشعوب، وفهم كيف تختلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم . (٣) لم يكن من همنا أن نحلل الرسالة التى عرضنا لها فى هذا الفصل تحليلًا وافيا، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب فى عرض المسائل العلمية عن طريق القصص، وهو أسلوب له قيمة فنية ، وله أثر فى تشويق الجمهور الى تعقب الدقائق فى مثل علم الحيوان . ولنشر هنا الى أن أسلوب هذه الرسالة خال من التكلف وهو فى جملته يمتاز بالوضوح والصفاء .

(*)

٩ – أخبار التوحيدى

١ – يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتّاب الأخبار والأقاصيص أشدّ الاختلاف: فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنَون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحى التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دوّن المناظرة بين أبى سعيد السيرافى[1] ومتى بن يونس[2] فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوة عجيبة فى التوحيدى، وهى مَثَل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت[3] .

ولكن لا بدّ أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصرّح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية، ويقول على لسان السيرافى فى محاورة متى :

” أنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تفى بها، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها،وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل عن السريانية، فما تقول فى معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية؟ ![4] “ .

٢ – ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محصولهم الفلسفى غامضا : لأنهم اضطروا الى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إبهام وغموض . وقد واجهتُ هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص ١٢٣ — ١٤٤ ج ٢

(١) توفى السيرافى فى بغداد سنة ٣٦٨ وكان من كبار النحاة . (٢) متى بن يونس باحث من رجال القرن الرابع كان مشغوفا بنشر علوم اليونان . (٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ — ١٢٤

(٤) ص ١٠٨ ج ٣

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالى فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية ، وكان آتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا آتصال نقل ومحاكاة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالى : لأنهما آبتدآ من نقطة مفهومة : هى النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، وآستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة فى البيئات الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ — ومن أهم ما أبدع التوحيدى حديث السقيفة ، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية (١) :

"سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلة ببغداد بدار آبن جيشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرَّف . وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متنفَّس ، وفى كل نار مقتبَس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كلٌّ فنا ، وقال قولا ، وعرض بشىء . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى على وجواب علىّ له ومبايعته اياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا ، والله ! فقال : هى والله من درر الحقائق المصونة ، ومخبآت الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف فى الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحلم ، وفصاحة وفقاهة ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ! فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبى وأوجب ذماما عليك" الخ .

٤ — وحديث السقيفة حديث ممتع ، والذى يهمنا قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبى الحديد فى التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة فى إعطاء ما نحن بصدده من إنشاء

(١) ورد حديث السقيفة فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ص ٥٩٢ ج ٢ وأثبته القلقشندى فى صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١ وبين النصين آختلاف قليل .

القصص التاريخى صبغة واقعية، ويتلخص نقد ابن أبى الحديد فى أن حديث السقيفة هذا شبيه بكلام التوحيدى ومذهبه فى الخطابة والبلاغة، وأن خطب عمر وأبى بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدَثين الظاهرة فى ذلك الحديث، وأن الذى يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه، ويدل عليه أنه أسنده الى القاضى أبى حامد المروذى وهذه عادته فى كتابه (البصائر) يسند الى أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارها لأن ينسب اليه، ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية. ولقد كان الرضى يلتقط من كلام علىّ اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه، فأين كان الرضىّ من هذا الحديث؟ وكان الباقلانى شديدا على الشيعة عظيم العصبية على علىّ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هِجِّيراه ودأبه، ثم قال: „ والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق فى علم البيان ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ[1] ".

٥ — وخلاصة الحادث الذى وضع من أجله هذا الحديث أن أبا بكر لما آستقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغهُ عن علىّ تلكؤ وشماس[2] فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة وتتفرق ذات البين، فدعا اليه أبا عبيدة فى خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب، وأوصاه بأن يتلطف فى دعوة علىّ الى مبايعة أبى بكر وإعلان الرضا عن خلافته، فلما همّ أبو عبيدة بالآنصراف لمعالجة الأمر الذى نُدِب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلق بها ابن أبى طالب، فلما وصل اليه بثه ما تلقاه من أبى بكر وعمر: فرقّ قلب علىّ وآعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول. ثم عاد أبو عبيدة فبلغ عمر نجاح مسعاه. وفى اليوم التالى ذهب علىّ الى

(١) ص ٥٩٧ ج ٢ شرح نهج البلاغة. (٢) التلكؤ: الإبطاء والاعتلال. والشماس: النفور.

المسجد فاخترق الجماعة و بايع أبا بكر ، ثم آستأذن للقيام وتبعه عمر مكرما له مستأثرا لما عنده .

تلك خلاصة القصة. ولكن أهمية الحديث ترجع الى ما فيه من الصور الفنية التى تأنق التوحيدى فى صوغها كل التأنق . وآنظر ما وصف به أبو بكر بوادر الشر المخوف الذى يهدّد كيان المسلمين لو طال الشقاق (١) :

" امض الى علىّ وآخفض له جناحك ، وآغضض عنده صوتك ، وآعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانُه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانُه . وقل له : البحر مَغرقة ، والبر مَفرقه ، والجو أكلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قدّاحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة . وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه ، نافخ خصييه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، و يدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور ، و يدلى بالغرور ، و يمنّى أهل الشرور ... ولابد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك ، و يدوى به قلبك ، و يلتوى عليه رأيك ، و يتخاوص دونه طرفك ، و يسرى فيه ظعنك ، و يترادّ معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمةٌ بعد إفصاح ؟ أتلبيسٌ بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ ... إنك والله جدّ عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، و بخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة لله عز وجل ، ونصرة لدينه ، فى زمان أنت فيه فى كِنّ الصبا ، وخِدر الغرارة ، وعنفوان الشبيبة ، غافل عما يشيب و يريب ، لا تعى ما يراد و يشاد ،

(١) خدع جماعة من رجال وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحاورة صحيحة النسب فاختاروا منها قطعة نسبوها الى أبى بكر فى كتاب المحفوظات للمدارس الثانوية .

ولا تحصل ما يساق ويقاد، سـوى ما أنت جار عليه الى غايتك التى اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل . ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تزيل الرواسى، وتقاسى أهوالا تشيب النواصى، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صعابها، ونشرج عيابها، ونحكم آساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالحسـد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفاه تشحذ بالمكر، والأرض تميـد بالخوف، لا ننتظر عند المساء صبـاحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع فى نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبلغ مرادا إلا بعد الا بعد الإياس من الحياة عنده" الخ.

وهناك صفحة فى غاية من الجودة كتبت على لسان عمر، رضى الله عنه، أوصى أبا عبيدة أن يواجه بها عليا كرم الله وجهه، وصفحة أخرى خاطب بها عمر عليا حين تلاقيا بعد البيعة، وهذه وتلك من آيات النثر الفنى .

والحديث طويل . ولا حاجة الى الافاضة فى تحليله فليرجع اليه القارئ إن شاء .

وهذا النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدى، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والذوق والإحساس [1] .

---

(١) ضاق المجال عن تحليل المناظرات التى دونها التوحيـدى ، و يكفى أن يعرف القارئ ان تدوين المناظرات كان من أهم ما يمتاز به القرن الرابع ، ونحن نرشد الى هذا العنصر من النثر الفنى ليتعقبه من شاء، فقـد يطول القول ان مضينا ندرس كل ما اهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان .

١٠ – قصص الببغاء [1]

١ — أما الببغاء فكاتب شاعر، كان فى ريعان شبابه متصلا بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل و بغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء . وظل ينعم تارة و يشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

وليس لدينا من النصوص ما يكفى لبيـان الاتجاهات الفنية التى كانت تغلب على الببغاء فى القَصَص. ولكن يظهر أنه كان معروفا بهذا الفن، حتى آستطاع الصابى أن يخاطبه بقوله :

لخوشيت ياقس الطيـــور فصـاحةً [2] اذا أنشد المنظوم أو درس القصص

٢ — وقد بقى لنـا من قصصه حكاية ذكر الثعالبى أنه لم يسـمع أظرف منها فى فنها، ولا ألطف ولا أعذب ولا أخفّ [3] . ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ فى الأدب العربى أظرف من تلك الحكاية ، وهى تمثل الحرية التى كان يمرح فى ظلالها رجال الأدب فى ذلك الحين . ولغة الببغـاء فى تلك القصـة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف ، وهو لا يستعمل السجع الا حيث يقضى السياق بالتأنق والتنميق ، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ اليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال، أو نزعة من نزعات الوجدان . ولو سلك الأدباء مسلك الببغاء فى ذلك القَصَص الغرامى لسلمت اللغة العربية من الجفاف الذى غلب عليها فى النثر ووقف به موقف الجمود . والشـعر من هـذه الناحية أسلس وأرق ، فقد كان للشعر ما يشـبه التقاليد المرسومة التى تبيح التحدّث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب . ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر فى البلاغة العربيـة ، فانا نرى للشعر المكان الأول فى الأندية والمحـافل

(١) راجع ترجمة أبى الفرج الببغا وتحليل رسائله فى الجزء الثانى ص ٢٢٦ — ٢٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة الدهر . (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . ونراه كذلك أول ما تتوجه اليـه عناية الناقدين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها الى القلوب ، لآهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم فى عالم الجـدّ وعالم المجون ، ولكن النثر لمـا قُصِر قديما على الشئون الجدية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يحبّس على فئة قليلة هى الجمهور المحدود جمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع فى أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التى يموت أصحابهـا ان لم تغزُ فى وقت واحد ساكنى القصور والأكواخ . ومن أجل هـذا كانت الأقاصيص فى النثر من أهم ما يمتـاز به الأدب فى القرن الرابع ، ففى كتابات بديع الزمان والتوحيـدى والتنوخى والببغا والأزدى نماذج فنية فيهـا فتن للعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لا تقل أثرا فى أنفس قارئيها وسامعيها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج . تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرها وقد سار عنها فى بعض وقائعه . وكان الخطر شديدا على من أراد اللحـاق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤديا إلى النهب وطول الآعتقال ، وآضطررت إلى إعمال الحيلة فى التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ،وكان سنى فى ذلك الوقت عشرين سنة ،وكان آنقطاعى منهم إلى أبى بكر بن على بن صـالح الرزبادى لتقدمه فى الرياسـة ومكانه من الفضـل والصناعة ، فأحسن تقبلى وبالغ فى الإحسان بى وحصلت تحت الضرورة فى المقـام فتوفرت على قصـد البقـاع الحسنة والمتنزهات المطرفة تسليا وتعللا ، فلمـا كان فى بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع فى الجلالة وحسن المنظر . وآستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدّمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا فى شأننا وقد كنت آخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع ،وسجاحة الخُلق ، حسبما جرى به الرسم فى غشيان الأعمـار وطرق الديرة من التظرّف بعشرة أهلها والأنس بسكانها ، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة إلى أن فض اللهو ختامه ،ولوح السكر لصحبي أعلامه ،وحانت

منى نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابى متوثبا ، ولنظرى إليه مترقبا . فلما أخذته عينى أكب يزعجنى بخفىّ الغمز ، ووحى الإيماء ، فآستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت عجلا وآستحضرته ، فأخرج الىّ رقعة مختومة وقال لى : قد لزمك فرض الأمان فيما تقتضيه هذه الرقعة ، وسقط زمام كاتبها فى سترها بك عنى . ففضضتها فإذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوضحه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاى بين حزم يحث على الآنقباض عنك ، وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك . إلى أن آستنزلتنى الرغبةُ فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خبرة ، ورفعت بينى وبينك سجف الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر الأنسة وآنتهزت فى التوصل إلى مودتك فائت الفرصة . والمستماحُ منك جعلنى الله فداك زورةٌ أرتجع بها ما آغتصبتنيه الأيام من المسرة مهنأة بالانفراد إلا من غلامك الذى هو مادة مسرتك ، وما ذاك عن خلقٍ يضيق بطارق ، ولكن لأخذى بالاحتياط على حالى . فإن صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولا ولديك نَفاقا فمُنْيةٌ غفل الدهر عنها أو فارق مذهبه فيما أهداه الىّ منها . وإن جرى على رسمه فى المضايقة فيما أوثره وأهواه ، وأترقبه من قربك وأتمناه ، فذمام المروءة يلزمك ردّ هذه الرقعة وسترها وتناسيها وآطراح ذكرها .

وإذا بأبيات تتلو الخطاب وهى :

يا عامر العمر بالفتوة والقصـ ـف وحث الكؤوس والطرب
هل لك فى صاحب تناسب فى الـ ـغـربة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى قربك مستنصرا على النوب
فان تقبلت ما أتاك به لم تشن الظن فيه بالكذب
وإن أبى الزهد دون رغبتنا فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد علىّ ما حيّرنى ، وآستردّ ما كان الشراب حازه من تمييزى ، وحصل لى فى الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطا وترسلا ونظما ، فشاهدته .

بالفراسة من ألفاظه ، وحمدت أخلاقه قبل الآختبار من رقعته، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فاليه اذا آجتمعتما . وأما السبيل الى لقائه فمتسهل إن شئت . قلت : دلّني . قال : تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك منصرفا، و إذا حصلت بباب الدير عدلتُ بك الى باب خفيّ تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها ليتأكد أنسه بى وسكونه إلىّ، وعرفه أن التوفر على إعمال الحيلة فى المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد أولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت الى أصحابى بغير النشاط الذى نهضت به فأنكروا ذلك ، فاعتذرت اليهم بشيء عرض لى وآستدعيت ما أركبه ، وتقدّمت الى من كان معى ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجل السكر والآنصراف، وخرجت من باب الدير ومعى صبى كنت آنس به وبخدمته، وتقدمت الى الشاكرىّ برد الدابة وستر خبرى ومباكرتى . وتلقانى الراهب وعدل بى الى طريق فى مضيق وأدخلنى إلى الدير من باب غامض وصار بى إلى باب قلاية(١) متميز عما يجاوره من الأبواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة، فابتدرَنا منه غلامٌ كأن البدر ركّب على أزراره، مهفهفُ الكشح مخطفُه، معتدلُ القوام أهيفُه، تخال الشمس برقعت غرته ، والليل ناسب أصداغه وطرته، فى غلالة تنم على ما تستره ، وتجفو مع رقتها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فبهر عقلى ، وآستوقف نظرى ، ثم أجفل كالظبى المذعور ، وتلوته والراهب إلى صحن القَلّاية فاذا أنا ببيت فضىّ الحيطان، رخامىّ الأركان، يضم طارقة خيش مفروشة بحصير مستعمل، فوثب الينا منه فتًى مقتبل الشبيبة ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، متزمن اللباس بزى غلامه ، فلقينى حافيا يعثر بسراويله ، وآعتنقنى ثم قال : انما آستخدمت هذا الغلام فى تلقيك ياسيدى لأجعل ما لعلك آستحسنته من وجهه مصانعا عما تردُ عليه من مشاهدتى، فاستحسنت آختصاره الطريق الى بسطى وآرتجاله النادرة على نفسه ، حرصا فى تأنيسى ،

---

(١) القلاية : بناء كالدير .

وأفاض فى شكرى على المسارعة الى أمره ، وأنا أواصل فى خلال سكناته المبالغةَ فى الاعتداد به . ثم قال : يا سيدى أنت مكدود بمن كان معك ، والاستمتاع بمحادثتك لا يتم إلا بالتوصل الى راحتك — وقد كان الأمر على ما ذكر — فاستلقيت يسيرا ، ثم نهضت فخُدِمتُ فى حالتى النوم واليقظة الخدمة التى ألفتها فى دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء . وأحضرنا خادم له ، لم أر أحسن منه وجها ، طبقا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : الأكل منى ياسيدى للحاجة ، ومنك للإلحة والمساعدة ، فنلنا شيئا . وأقبل الليل فطلع القمر ففتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجنانىّ والنسيم العطرىّ ، وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ، ثم اقتعدنا غارب اللذة ، وجرينا فى ميدان المفاوضة ، فلم يزل يناهبنى نوادر الأخبار وملح الأشعار ، ونخلط ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بألطفه ، الى أن توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له : يامترف إن مولاك ما آدّخرعنا السرور بحضوره ، وما يجب أن ندّخر ممكنا فى مسرته ، فامتقع وجه الغلام حياء وخفرا ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم ما يريد ، ومضى فعاد يحمل طنبورا وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى فى خدمتك؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلنى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى وسالبى ثوب نسكى
نزّه يقين الهوى فيـ ـك عن تعرض شك
لولاك ماكنت أبكى الى الصباح وأبكى

فنظر الىّ الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له ، فكدت والله أطير طربا وفرحا بملاحة خَلْقه ، وجودة ضربه ، وعذوبة ألفاظه ، وتكامل حسنه ، فاستدعيت كبيرا فأحضرنا الخادم عدّة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه ، وشرب بمثل ما شربت ، ثم قال لى : أنا والله ياسيدى أحب ترفيهك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بدّ أن تشى ليلتنا بشىء يكون لها طرازا ، ولذكرها معلما ، فجذبت الدواة وكتبت ارتجالا وقد أخذ الشراب منى :

وليلةٍ أوسعتني حسنا ولهوا وأنسا
ما زلت ألثم بدرًا بها وأشرب شمسا
إذ أطلع الدير سعدا لم يبقِ مذ بان نحسا
فصار للروح مني روحا وللنفس نفسا

فطرب على قولى (ألثم بدرا وأشرب شمسا) وجذب غلامه فقبله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدى من التوقير وإنما آعتمدت تصديقك فيما ذكرته ، فبحياتى إلا فعلت مثل ذلك بغلامك ، فآتبعت إيثاره خوفا من آحتشامه ، وأخذ الأبيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب إجازة لها :

ولم أكن لغريمي والله أبذل فلسا
لو آرتضى لى خصمى بدير مرّان حبسا

فقلت إذًا والله ما كان أحد يؤدّى حقا ولا باطلا ! وداعبته فى هذا المعنى بما حضر ، وعرفت فى الجملة أنه مستتر من دَين قد ركبه وقال لى : قد خرج لك أكثر الحديث فان عذرت وإلا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها ، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره ، فقلت له ياسيدى كلٌّ مالا يتعرّف بك نكرة ، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار ، ونابت الخبرة عن الآستخبار ، وجعل يشرب ويحب علىّ من غير إكراه ولاحث ولااستبطاء الى أن رأيت الشراب قد دبّ فيه ، وأكب على مجاذبة غلامه ، والفطنة تثنيه فى الوقت بعد الوقت ، فأظهرت السكر وحاولت النوم ، وجاء الغلام ببردعة ففرشها لى بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد أمرى بنفسه ، فقلت له إن لى مذهبا فى تقريب غلامى منى ، وآعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال فى غلامه ، فتبسم وقال لى بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لى بك . وأظهرت النوم وعاد يجاذب غلامه بأعذب لفظ ، وأحلى معاتبة ، ويخلط ذلك بمواعيد تدل على سعة وآنبساط يد ، وغلامه تارة يقفل يده ، وتارة فمه ، وغلبتنى عيناى الى أن أيقظنى هواء السحر فانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس ، فأردت توديعه ، وحاذرت آنتباهه وآنزعاجه ،

فخرجت ولقيني الخادم يريد إيقاظه وتعريفه آنصرافى ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامى قد بكّر بما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت منصرفا وعاملا على العود اليه ، والتوفر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهما أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، وآعترضتنى أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتنى من معاودة لقائه[١] . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وآشتد تأسفى على ما سُلبته من فراق الفتى ، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبرة يؤدياننى الى الطمع فى لقائه الى أن عاد سيف الدولة الى دمشق وأنا فى جملته فما بدأت بشىء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الىّ مرعوبا وهو لا يعرف السبب فلما رآنى آستطار فرحا وأقسم لا يخاطبنى إلا بعد النزول والمقام عنده يومى ذلك ، ففعلت فلما جلسنا للحادثة قال : مالى لا أراك تسأل عن صديقك ! قلت والله مالى فكر ينصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ما حرمته منه ، ولا سررت بعودى الى هذه البلدة إلا من أجله ، ولذلك بدأت بقصدك فاذكر لى خبره ، فقال لى : أما الآن فنعم ! هذا فتى من المادرائيين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياعا بمال كثير ، فخاش[٢] به ضمانه لقعود السعر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما آشتد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزى تاجر فكان آستتاره عند بعض إخوانه ممن أخدمه فأنى عنده يوما إذ ظهر لى وقال لصديقه إنى أريد الانتقال الى هذا الراهب إن كان علىّ مأمونا فذكر له صديقه مذهبى ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأنس بى وأنا لا أعرفه ، غير أن صديق قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفاتج[٣] وعليهما ثياب رثة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حل الفطر ، وجاء العيد !

(١) أسقطنا من هذا الموضع قصيدة رائية نظم بها البيتا ما سلف من حوادث هذه القصة . فليراجعها القارئ فى ص ١٨٠ ج ١ من يتيمة الدهر .

(٢) خاش : من الخوش وهو النقص ، وقد يكون الأصل "خاس بضمانه" أى غدر .

(٣) السفاتج سندات مالية .

و وثب إليـه فاعتنقه وجعل يقبل عينيه و يبكى، و وقف على السفاتج فأنفذها مع درج رقعـة منه الى صديقه .

فلما كان بعـد يومين حمل إليـه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه فى هذه الضيعة فابتـاع آلة وفرشا، ولم يزل مكبّا على ما رأيت الى أن ورد عليـه بالبغال والآلات الحسنة، وكتب أهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم إياه الحال فى بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به، والتوقيعُ بحطيطة المـال عنه مقترن بالكتب ، فلما عمل على المسـير قال لغلامه سلِّم جميـع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه فى مصالح الدير الى أن نواصل تفقده من مستقرنا. وسار وماله حسرةٌ ولا أسفٌ إلا عليك يقطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك . وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يخل بتفقدى ولا يغبُّ برى .

فتعجلت بعض السلوة بمـا عرفت من حقيقة خبره. وأتممت يومى عنـد الراهب وكان آخر العهد به .

— ——

١١ — أحمد بن يوسف المصرى

١ — فى أوائل سنة ١٩١٥ أرشدنا الأستاذ حسنين مخلوف الى قراءة كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن يوسف المصرى، فاقتنيته وقرأته، ولكنى وجدته كتابا عاديًا لا روح فيه. ثم عدت إليه فى هذه الأيام، صيف سنة ١٩٣٠، وأنا فى باريس، فدهشت لبعد ما بين الإحساسين: شعورى بتفاهة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعورى بنفاسته سنة ١٩٣٠، ورجعت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف السر فى هذا البعد الهائل بين تقديرين مختلفين أشد الاختلاف نحو كتاب واحد، فانتهيت الى أن الكتاب هو هو بالطبع لم يتغير لا فى وضعه ولا فى أسلوبه، ولكنى أنا الذى تغيرت، ففى سنة ١٩١٥ كنت من المعجبين المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس الى نفسى، وأحبهم الىّ، وأبعدهم تأثيرا فى تكوين مشاعرى الفنية والأدبية، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الخوارزمى والصاحب بن عباد وابن زيدون ومن اليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فنا خالصا يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل، والوزن والقافية، لأن أكثر النثر المصنوع مقفًّى موزون، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم المأثورة فى الأوصاف والتشبيهات، فاطمأنت نفسى الى أن النثر الجيد هو النثر الذى يعنِّى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير، وأن الكاتب البليغ هو الصَّنَع الفنان الذى ترى جهده وصنعه وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحذق ودقة النظم ومتانة التراكيب. من أجل ذلك رأيت فى كتاب المكافأة يوم ذاك أثرا ينقصه الفن ويبدو هامدًا لا حسّ فيه ولا روح.

٢ — ثم شاء الله أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى، وأن أُقبل بنوع خاص على ماكتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتّاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تهيج الحواس، هناك جمال النفوس الصافية، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل، وتسكب على الوجدان مايوقظه ويحييه من نمير العطف والحنان. وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج، وأن ما يسمى بالمحسّنات البديعية ليس كل شىء فى صناعة الكتّابة، فقد يشق الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع . وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوة الطبع وعبقرية الخيال، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والعنت فى تخير الألفاظ ورصف التراكيب، ومَثَله مَثَل المناظر الطبيعية، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلوينا دقيقا يزيغ البصر ويثير الحس، ثم لا يحسب الإنسان أن فى هذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة، لأنه يظنها هكذا خلقت، ولا يدرى أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء . وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التى تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعة، وذلك خطأ مبين، فكل شاعر يصنع قصيدته، وكل كاتب يصنع رسالته، وكل خطيب يصنع خطبته، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع، أما الثانى فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الإتقان والإجادة، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء .

٣ — غير أنه ينبغى أن نقيد أن هناك جمهورين من القرّاء: جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والتزيين والتهويل مَثَلهم مَثَل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف

الثياب المخططة المبهرجة وهى ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهدا كبيرا، ولكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والإبداع . وهناك الجمهور الثانى جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التى لا يجيدها إلا الأفذاذ القلائل من فحول الكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذى يُشقى الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبى والحاسة الفنية،لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة، وكيف تؤدى الجملة ماوضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف. والكاتب البليغ حقا هو الذى يضع الألفاظ على قدود المعانى وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق بحيث لا يود القارئ المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومَثل هذا الكاتب مَثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضارا أو غير مفيد . ومَثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مَثل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسج ، وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليقٌ بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق ، فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق . وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن الى أن جمهوره معدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء، فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن الى مساماة اللؤلؤ المكنون الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف، وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم، وأقصتهم عن الجماهير، فعاشوا فى أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المكافأة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجمالية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندى الذى ظفر بنسخة منه من أحد باعة الكتب بنابلس وقد أهداه الى أستاذنا

البحاثة أحمد زكى باشا، وهو يقع فى ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليـه بعض تعليقات وفيه أغلاط كثيرة يمكن آستدراكها لو طبع مرة ثانية. أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصرى ، وكان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن. وكان من جلة الكتّاب بمصر ، قال ياقوت: ولا أدرى كيف كان آنتقاله اليها عن بغداد. مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ هـ وله من التصانيف : سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبى الجيش، وأخبار غلمان بنى طولون ، وكتاب المكافأة، وكتاب أخبار الأطباء . الخ . وكان حسن المجالسة، جيد الكتابة، حسن الشعر، قد خرج من شعره أجزاء . حدّثنا عن نفسه قال :

"كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقا لى، ومائلا إلىّ. فلما آعتزم على الرجوع الى العراق سألنى أن أكتب له شيئا من شعرى فكتبت له مقدار خمسين ورقة. وكان يستحسنه و يعجب به ، فصار الى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل محمد بن سليمان مصر وقد ردّ البريد بها الى أبى عبيدالله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله اياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف، كاتبا كان لأحمد ابن وصيف ولابن الجصاص بعـده، فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا . فقال لهم : ليس هذا الرجل الذى طلبت ،فأحضرت، فلما رآنى آستشرف الىّ وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت : ذكرك الله و إياه بكل صالحة! نعم، وكان خلّا لى . فقال : هل أنشدك من شعره:

ظللنا بها نستنزل الدن صفوهُ ... فيـــنزل أقباسا بغـــير لهيبِ

فقلت : لا ياسيدى ! ولكنى أنشدته إياه من شعرى، فضحك وقال. والله لقد آشتقت الى الدخول الى مصر من أجلك [1] " .

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذى كان ينقل الى مصر سكانَ العراق .

٥ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ، نعرف منه اتجاه العقول وسيرة النـاس فى مصر فى أواخر القرن الثالث والنصف الأوّل من القرن الرابع . والمصريون

(١) المكافأة ص ٤٤ و ٤٥

لذلك العهد، كما وصفهم صاحب المكافأة، كانوا يقاسون ألوانا من الظلم والاضطهاد. وكانوا فى أنفسهم مزيجا من العرف والنكر، والخير والشر، والغـدر والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصـدّقون، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق . وهـذه الحال تذكّر بما كنت أسمع فى طفولتى من أخبار المناسر التى كانت تبيِّت الناس فتنزل عليهم فى هدآت الليل وهم يديرون السواقى فى أطرف الحقول . واللص المصرى فى كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصرى الذى كانت أخباره متعة السامرين الى عهد قريب، فهو رجل فاتك جرىء نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة يفى بالعهد ولا ينقض الميثاق . واللصوص فى مصر كانت لهم تقاليد تشـبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهليـة . فالصعاليك كانوا فتيانا ذوى بأس شـديد يسوءهم أن تقسم الأرزاق بين النـاس قسمة جائرة، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يجدون ولا يشتهون، و بين الفقراء الذين يشتهون ولا يجدون، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم، و يغيرون على ما يملك الأغنياء البخلاء، من إبل وشاء . وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صـعاليك، كأنه كان يلمح مافى طباع المصريين الناهبين من معنى الثورة على توزيع الأملاك . ولننظر كيف يقول :

”حدّثنى محمد بن صالح الغورى قال : كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى، فافترقت فى معاملات فى الصعيد وخرجت الى من عاملته بجمعتها، وكان مقـدارها خمس مائه دينار، وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة الجمع، فلمـا كان منتصف طريقنا وافَى جمـعٌ من الصعاليك فسلب النـاس جميعا ودهشت، فرأيت منهم شابا حسن الصورة فقلت له : وآلله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالفسطاط ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال امض لشأنك . وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى، وآنصرفوا عنا، ولم أزد أن سوّغت واحدا منهم جميع ما كان معى، ودخلنا الى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم الى ما تخلّف له وبقيت ليس معى درهم أنفقه . و إنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد

وقف بى، فقال لى : هاهنا منزل محمد الغورى؟ قلت أنا هو . ولا وآلله ما آهتديت الى الرجل الذى أعطيته المـال لأنه كان عندى أوّل مال ذاهب ، فقال لى : عنّيتنى! وأخرج الكيس فدفعه الىّ، فردّت علىّ جدّتى وتطعمت الحياة[(١)]" .

وتنتهى القصة بأن الغورى دعا اللص الى المبيت عنده، وأنه مضى فى الصباح الى بعض القوّاد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف، وأن القـائد قال له : الطف لى فيه، فو الله لأنوهنّ باسمـه ، ولأكافئنه عنك، قال : "فرجعت اليـه فأخبرته، فو الله ما آرتاع ولا آضطرب، ومضى معى، فأحسن تلقيه ، وخلع عليه، وصيره سيارة لعمله ، وضم اليه عدّة وافرة" .

وللقارئ أن يعيِّن المعانى النفسـية فى الفقرة الأخيرة ، خصوصا عبارة "فرجعت اليـه فأخبرته فو الله ما آرتاع ولا آضطرب ومضى معى" فانها تدل على شهامة ذلك اللص، وإيمانه بقوّة شخصيته، وجدارته بالتقدّم الى من يدعوه من كبار القوّاد .

٦ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحق الدرس والنقد، لأن هذا الكاتب كان فنانا يضع اللفظة فى الموضـع الذى لا يليق بهـا غيره ولا تستقر فى مكان سـواه . وهو كاتب مقتصد لا يسجع ، ولا يوازن بين الكلمات، ولا يزاوج بين الجمل، كأكثر معاصريه . ولكن هـذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب إلى غرضه فى عبارات موجزة خالية من شوائب الإسهاب والإطناب ، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخّاذ يغلب عليـه الفن الجميل . ومن العجيب أن هـذا الرجل أملك الناس لنفسه وأكثرهم سلطانا على قلمه ، فهو يتحدّث عن أبيـه، ويتحدّث عن وقائعه الشخصية، بنفس الأسلوب والروح الذى يتحدّث به عن قوم آخرين . وكان فى مقدوره — لو كان ممن يأخذهم الزهو والعُجْب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لمـا وقع له ولأبيـه من حوادث آنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم العنصر وسماحة النفس . ولكنه ظل فى جميـع ما أودعه كتاب المكافأة رجـلا عبقريا مالكا لزمام قلمه وكابحا لجمـاح هواه، فلا تراه يستطيل ولا يتزيد حين يتكلم عمـا أسدى من

(١) (المكافأة ص ٩٩ و ١٠٠) .

المعروف إلى بعض من عاصره من سلائل الخلفاء والوزراء . وله مع قصده وإيجازه عبارات بارعة تمضى كأروع ما يكون فى التعريض والتلميح ، وإليك قوله فى بعض قصصه يحدث عن واقعة آنتصر فيها الخلق النبيل :

"ونزل فى حارتنا غلام أمرد تأخذه العين، وكنت أسلم عليه إذا آجتزت به كما أفعل هذا بغيره من جيرتى. فانصرفت يوما إلى منزلى فوجدته قائما على بابه، فدفع إلىّ رقعة يذكر فيها أنه عباسىّ من ولد المأمون ويسألنى برّه، ودخل من كان معى بدخولى، فقضيت شغلى بالجماعة حتى آنصرفوا، ووضعت المائدة بينى وبين العباسى . فأكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فىّ شيئا قذره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنانير ، وآعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه ، وآنصرف وقد رأيت تجيلى فى حماليق عينيه[1]" .

ففى هذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضا لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارئ أن يتأمل قوله : " أمرد تأخذه العين" فانى أستجيد هذا التعبير وأفضله على قول الثعالبى فى ثمار القلوب "أمرد تأكله العين" الذى أخذه أحد الشعراء فقال:

ولقد شربتك بالمنى ولقد أكلتك بالضمير

وجملة : "فأكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فىّ شيئا قذّره" من الجمل العجيبة التى تؤدّى فى قصد وإيجاز ماتؤدّيه الكنايات البارعة التى تصل بالكاتب إلى غرضه من دون أن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : "وآنصرف وقد رأيت تجيلى فى حماليق عينيه" من العبارات الرائعة القوية التى لاتقع لغير الكتّاب الموفّقين .

٧ — وفى القصة التى رواها عن أحمد بن أيمن تعابير جيدة، وذلك أن آبن أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه آبنين له فى نهاية من النظافة، فقال للتاجر: استجدت الأم فحسن نسلك . فقال التاجر: ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحب إلىّ منها . ولتلك الأم خبر عجيب خلاصته أن أباها كان عضلها[2] وتعرض لعداوة خطابها، لسر خفىّ هو أن آبنته كانت

---

(١) ص ٢١ ج ٢٢ . (٢) عضلها : منعها من الزواج .

دميمة محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زفت أن تطلق ليومها ، فلما تقدّم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

" ياسيدى! إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتى، وأرجو أن يكون معى منها أكثر مما قصّر بى فى حسن الصــــورة " .

ثم وثبت فجاءت بمــال فى كيس وقالت :

"ياسيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغك تزويج الثلاث وابتياع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط" .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

" إنهــا ملكت قلبى ملكا لم تصــل إليه حسنة بحسـنها ، فقلت لهــا جزاءُ ما قدمتيــه ما تسمعيه منى : والله لا أصبت من غيرك أبدا! ولأجعلنك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تدبيرا فيما نتولاه بمنزلى، فتبينت وقوع الخيرة فى ذلك، ولحقتــنى السنّ : فصارت حاجتى الى الصواب أكثر منهــا الى الجمــاع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها،وحسن فعلها، فرزقنى منها هذين الآبنين الرائعين لك، ونحن منقطعون الى جوده فينا، وإحسانه إلينا[1] " .

والقارئ حين يتأمل هذه العبارات يجدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر فى النفس ، وأية دقة، أم أية بلاغة فاتت هــذا الكاتب فى مثــل قوله : " استجدت الأم لحسن نســلك " أو قوله : " إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس، وأفضى به إليك، ورآك أهلا

(١) ص ٤٩ — ٥١

استره عليه، فلا تخفر ظنه فيك " أو قوله : " ولحقتنى السنّ: فصارت حاجتى إلى الصواب أكثر منها الى الجماع " .

هذه العبارات هى أنسب وأدق ما يتخير للحديث عن مثل هذه الشئون التى تمس الحياة الزوجية ، وهى حياة تبنى على أساس الصدق والعدل والحب الخالص من شوائب النزق والرعونة والشهوات . فمن البلاغة أن يعبّر عنها فى قصد و إيجاز بعيدين من طنطنة الإسهاب .

٨ — ومن التعابير المختارة قوله فى أحمد بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس بمصر :

" وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط[١] " .

وقوله على لسان محمد بن موسى : " إن قدرة الحر تذهب بحفيظته، وقد فزعنا إليك فى أنفسنا التى هى أنفس أعلاقنا، وما ننكر أنا قد أسأنا، والاعتراف يهدم الاقتراف[٢] " .

وقوله فى وصف حصار إقريطش: " واشتد الحصار ، ونزع السعر ، وتحلّق المأكول، وشاع الجهد، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعاً[٣] " .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

" فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى ، و إذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا، إستحياء من أن أقول لها : هبى لى . ودخل شهر رمضان، فلما مضى نصفه اشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيد، فصرت الى أختى فقلت لها : أقرضينى دينارا أعمل به للصبيان حلوى فى العيد ، فقالت : يا أختى تغيظينى بقولك " أقرضينى " و إذا أقرضتك من أين تعطينى : أمن غلة دورك، أو بستانك؟ لو قلت : هبى لى، كان أحسن . فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى، هذا والله من المنى، والمنى بضائع النوكى . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى[٤] " .

(١) ص ١١٠ (٢) ص ١١١ (٣) ص ١١٣ (٤) ص ١١٦ .

وهى عبارات ساذجة ولكنها تؤدى ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ — وبجانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض، من ذلك قوله فى مقدّمة المكافأة :

” وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه فيما تحدوه على برك،وتحثه لما أغفل من أمرك، على نص مكارم من سلف، وترى أنه يهش الى مساجلتهم، فلا يبلغ فى هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه، ولا يوجد فى الراغب فضيلة تحثه على شفيع قصده، ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه ، الى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام“ .

فان الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق فى لجة من الإبهام .

وتوجد فى الكتاب عبارات كثيرة يغلب عليها الضعف، وهذا مقتل خطر لأكثر الكتّاب الذين لا يصنعون أساليبهم فى تأنق وحذق ، فان الكتاب الذين يغلب عليهم الاستسلام لسجيتهم ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوة يقعون غالبا فى مهاوى الركاكة والإسفاف. ومهما قيل فى تفضيل الطبع وإيثار ما توحى به النفس فى غير كلفة ولا عناء، فانه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج الى تهذيب وترتيب، وأحواض الزهر المنسقة المهندمة التى يعنَى بها الجنّانون[1] فى الحدائق والبساتين أفتن وأروع من الزهر المبدّد الذى تلق به الطبيعة هنا وهناك وفقا لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ — وهنا نقطة مهمة لابد من درسها بعناية: ذلك أن مورخى الأدب متفقون على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت فى أدبه ألفاظ وتعابير وأخيلة مصرية. ولكنى رأيت أحمد بن يوسف سبقه الى ذلك بأجيال، والى القارئ البيان .

---

(١) الجنان: البستانىّ، وهى كلمة طريفة، صغناها من كلمة «الجنة» ثم رأينا أحد المتقدمين سبقنا اليها حين قال :

جنان يا جنان إجن من البستان الياسمين
واترك الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين

ثم رأينا أن «الجنان» هى كذلك بمعنى البستانى فى اللغة العبرية، من «الجان» وهى فى العبرية كالجنة فى العربية .

(ا) المصريون، حتى المثقفون منهم ثقافة عالية، يقولون « ست » فى مكان «سيدة» وهى كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف فى لغته الفصيحة مجاراة للغة الحديث[١] .

(ب) والذين يعيشون فى الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذى ينادى فى الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة، ويذكرون كيف يختم نداءه بهذه العبارة «والذى يخالف يستاهل مايجرى عليه» وكلمة «يستاهل» عربية فصيحة مخففة عن «يستأهل» بمعنى يستحق، وفى مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف : "فقال أبو العباس : سيعلم ما يجرى منى عليه"[٢] .

(ج) القاعدة العامة فى النحو أن الفعل يفرد مع الفاعل المثنى والجمع، فتقول : حضر الأفضلان، وحضر الأفضلون، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا فى لغة ضعيفة يسميها النحاه لغة « أكلونى البراغيث » والعياذ بالله ! ولكن المصريين فى لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل فى الإفراد والجمع فيقولون مثلا : حضروا الغائبون. وكذلك نجد آبن يوسف يجارى أحيانا لغة الحديث فيقول : "فلما مضى نصفه اشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيد"[٣] .

(د) اللغة الفصيحة تطلق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق التاء للدلالة على التأنيث، وفى القرآن الكريم ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ ولا يقال «زوجة» إلا فى كتب المواريث، ويذكرون أن الامام الشافعى كان يكره أن يقول «زوجة» فكان يقول « المرأة » إذا آقتضى الحال ذلك . ولكن المصريين فى لغتهم يقولون زوج وزوجة مجاراة للقاعدة العامة التى تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث . وكذلك نجد آبن يوسف يقول : "ولو كان الذى يطلب من الزوجة حسن صورتها ، الخ"[٤] .

(ه) ويقول أحمد بن يوسف : " فلما غسل يده دفعت اليه ثلاثة دنانير وآعتذرت اليه من تقصيرى فى حقه"[٥] وعبارة « قصر فى حقه » لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين فى لغة الحديث .

---

(١) أنظر ص ١١٧ و «لغة الحديث» نريد بها لغة التخاطب ويقابلها فى الفرنسية La langue parlée .

(٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنت أحيانا «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفا عن حسناء، ولكنى رأيت ابن يوسف يقول "ملكت قلبي ملكا لم تصل اليه حسنة بحسنها" ومن ذلك عرفنا أن كلمة «حسنة» كانت تجرى إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة فى اللغة الفصيحة، وأكثر ما تستعمل فى المذكر، ولكن قلما يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون فتى حسن الوجه، ويندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص.

(ز) المصريون يشبعون تاء الخطاب فى مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» ويحذفون النون من «تفعلين» وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «بجزاء ما قدمتيه ما تسمعيه منى»[1] بدلا من «جزاء ما قدمته ما تسمعينه منى» ويقول «يا أختى تغيظينى»[2] بدلا من «تغيظيننى» وهو نوع من التخفيف فى لغة الحديث أدخله الكاتب فى اللغة الفصيحة.

(ح) المصريون يسمون السفينة «مركبا» وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول: "ركبت مركبا أريد الفسطاط من تنيس وحملت فيه تجارة لى ما كنت أملك غيرها". وكلمة مركب فى لغته مذكرة، وهى كذلك عند أكثر البحارة فى النيل، وإن كنت أرى بعض أهل الريف يجرونها مجرى المؤنث خصوصا أهالى سنتريس.

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جدا الذى توضع فيه الأمتعة «تليسا» بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة. وهذه اللفظة موجودة فى كتاب المكافأة حيث يقول المؤلف: «ثم دعا بتليس من شعر ... الخ»[3].

(ى) كلمة نفر فى اللغة الفصيحة تستعمل غالبا بمعنى الجمع، ففى القرآن الكريم ﴿استمع اليه نفر من الجن﴾. أى جماعة منهم، وفيه أيضا: ﴿وأعز نفرا﴾ بمعنى القوم والقبيل. ولكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص، فيقولون خمسة أنفار مثلا، وكذلك نجد ابن يوسف يقول: "فتخفرت بأربعة نفر من القيسية"[4] يريد أربعة أشخاص.

---

(١) ص ٥٢ (٢) ص ١١١ (٣) ص ٨٢ (٤) ص ٢٠

(ك) والمصريون يقـولون لمن يغلق الباب من الداخل " أغلقـه من عنده " وكذلك يقول ابن يوسف : "دخلت البيت وأغلقته من عندى"[1] .

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد خمارويه بن طولون : " فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى"[2] . وعبـارة " وقف أمره" عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية فى الريف حين يقولون "وقف الحـال" بمعنى ضاق الأمر واشتد الكرب . وتقابلها فى اللغـة السورية عبارة "مشى الحـال" ومنها الأغنية المشهورة " ماشى الحال، ماشى الحال" .

١١ — وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو يمنية أو مغربية ليس إلا ترديدا لأخيلة عربية صحيحة وردت جملتها فى الشعر البليغ والنثر الفصيح، ولكن غلب بعضها هنا وساد بعضها هناك، بحيث صح أن يقال هـذه عبارة مصرية ، وتلك عبارة سورية، الخ .

وليس من المنطق فى شىء أن نسـد آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرقة فى الأقطار العربية، فان اللغـة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات، ومثلها مثل النهر الكبير يحتاج، مع فيض منابعـه الأصلية، الى المدد المستمر الذى يصل إليه من روافده الصغيرة . وقد يوجد فى اللهجات العامية نوع من الحرية والطلاقة والمرونة فى بعض التعابير، فمن الأوفق أن يتسرب شىء من تلك السهولة الى اللغـة الفصيحة لتعود ألين وأسلس ، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهيم والتبيين .

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع فى الأكثر الى قبولها من ذوى الطباع السليمة، والأذواق المهذبة، ففى مقدور الكتاب أصحاب النفوذ فى تكوين الملكات الفنية ، والأذواق الأدبيـة ، أن يضيفوا الى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة فى لغـة الحديث، حتى تصبح تلك الكلمات بعـد حين جزأ من الثروة اللغوية التى نرجو أن نستغنى

(١) ص ١٢٢ (٢) ص ١١٦

بها عن الأستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أقدر وأصرح من لغة القدماء والمحدَثين الذين وقفوا عند حدود مارسمت المعاجم والقواميس.

* * *

١٢ — ولكن لأى غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية فى نبل النفس، وقوة العقيدة، وطهارة الوجدان . كان مؤمنا أصدق الايمان بعدل الله و رحمته ، وكان يثق ثقة مطلقة بأن المرء مجزىّ بعمله ، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشرارهم طوائف كثيرة مختلفة أرته أنواعا من الجزاء على أعماله الصالحة ، فمنهم الوفىّ الشكور، ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت فى نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكاندين الذين نسدى إليهم الخير والاحسان ثم نلقى منهم عاديات الغدر والعقوق . ونكاد نلمس فى كلماته جمرات الغيظ كلما مرّ ذكر الناقضين للعهد والناسين للعروف، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يزهّدنى فى كل غير صنعتهُ الى الناس ما جربت من قلة الشكرِ

وله فى مقدّمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

” إن أشدّ على الممتحَن من محنته ، عدوله فى سعيه عن مصلحته ، وتجنبه الصواب فى بغيته “ .

وقوله :

” ولم يؤتَ الجود من مأتًى هو أغمض من مغادرة حسن المكافأة ، ولو أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب فى منع القاصد، وحيرة الطالب، ولو كانت توجد مع كل فعل آستحقها لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم ولجروا على السَّنن المأثور عنهم “ .

١٣ — وقد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام : الأوّل المكافأة على الحسن ، والثانى المكافأة على القبيح، والثالث حسن العقبى. وقد وضع فى القسم الأوّل إحدى وثلاثين حكاية،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدى المنصور، وكان من رجال هشام بن عبـد الملك ، فكان المنصور يسائله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجبه ، فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره، فأحفظ[1] ذلك حاشية المنصور، فقال له الربيع : "كم تترحم على عدو أمير المؤمنين ؟" فقال الرجل للربيع :

" مجلس أمير المؤمنين، أيده الله، أحق المجالس بشكر المحسن، ومجازاة المجمل، ولهشام فى عنقى قلادة لا ينزعها إلا غاسلى " .

فقال له المنصور: وما هذه القلادة؟ قال : قلدنى فى حياته،وأغنانى عن غيره بعد وفاته.

فقال له المنصـور : (أحسنت ، بارك الله عليك، وبحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو العوارف) .

ثم أدخله فى خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثّـل بعض الفلاسفة الحسنَ المكافأة بالحسام الصـقيل الذى يحدث له وقوع الشمس عليه آنبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة المظلمة، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع فى القسم الثانى إحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شـيخ كان يعرفه فى أيام خمارويه، حلو النادرة، مليح الألفاظ، يعرف بالدفانى، وكان معاشـه من التوصل بكتب الولاة الى معامليهم،فحدّثه أنه خرج بكتب الى الشرقية فالتقى مع رجل فى زى بعض المـانوية من الأطباء، فدعاه المتطبب الى مؤاكلتـه وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخر بين يديه . ثم أخذ كوزا معه ومضى يسعى به، فشرهت نفس الدفانى الى الرغيف الذى كان بين يدى المتطبب فأبدله برغيفـه ، وجاء المتطبب بالمـاء وابتدأ الأكل ، فـا آبتلع المتطبب لقمة حتى شخص بصره وتمدّد، الى آخر القصة[2] .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

---

(١) أحفظ : أغضب . (٢) انظر ص ٨٨ و ٨٩

" وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح، ما رجونا أن يكون ذلك عونا للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلّب العارفة فى الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سَورة الانتقام فى القبيح، وقد قالوا : الخير بالخير، والبادى أخير، والشر بالشر، والبادى أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله، بطرف من أخبار من ابتُلى فصبر، فكان ثمرة صبره حسن العقبى . لأن النفس اذا لم تعَنْ عند الشدائد بما يجدّد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها، وقد علم الانسان أن سفور الحالة عن ضدّها حتم لا بد منه، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشدّ ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تعالَج بالدواء اشتدّت العلة، وازدادت المحنة، والتفكر فى أخبار هذا الباب مما يشجع النفس، ويبعثها على ملازمة الصبر، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن فى مواتاة الإحسان عند نهاية الامتحان، والله ولى التوفيق [1] " .

وقد وضع فى القسم الثالث تسع عشرة حكاية، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان اذ قال :

" كان لى مجلس فى ديوان الانشاء قليل الجدوى علىّ ، وحالى حال لاتنهض بما يحتاج اليه المقتصد، وقد لزمتنى يمين لا كفارة لها فى ترك النبيذ . فكان جماعة الكتّاب يجلسون ما جلس الوزير، وهو يومئذ الفضل بن الربيع، فاذا انصرف الى منزله انصرفوا الى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع، وأقيم وحدى فى الديوان الى أن يغلق، فبكرت اليه فى يوم من الأيام، وجاءت مطرة تطرّب الوزير فيها الى الشرب، لتشاغل الرشيد فى دعوة لزبيدة ، فلم يبق فى ديوان الإنشاء غيرى . فانى لجالس حتى دخل الىّ خادم من خاصة الرشيد، فأخذ بيدى وأدخلنى الى الرشيد، فلما مثلت بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فبينته وأعربته . فقال : أجب عنه بين يدىّ . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه علىّ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير "ألف دينار" فجاء بها . فقال : ادفعها اليه، وقل للفضل : " يصرف اليه ديوان الإنشاء فهو أحق به ممن غادره " ثم قال لى : " خذ هذا

(١) انظر ص ٨٩ و ٩٠

المـال ، وسأنظر لك فى الوقت بعـد الوقت ما يزيد فى آصطناعى لك ، فلا يفسـد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك، وآستزدنى أزدك [(١)] " .

١٤ — ومؤلف المكافأة يعتقد أن المحن والشدائد من أجمل مايهب الله لعباده الذين يعدّهم لعزائم الأمور، ويتمثل فى خاتمة كتابه بقول بزرجمهر: "الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله " وكلمة أفلاطون : " الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش، والترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش" وقوله : "حافظ على كل صديق أهدته اليك الشدائد، وآلهُ عن كل صديق أهدته اليك النعمة " وقوله أيضا : " الترفه كالليل لا نتأمل فيه ما تصدره ونتناوله والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك " وقول أردشير : " الشدّة كحل ترى به ما لا تراه بالنعمة " .

١٥ — قلت إن أحمد بن يوسف المصرى كان قوىّ العقيدة، وأضيف الى ذلك أن قوة عقيدته لم تكن لأنه قرأ فى بعض الكتب أن الله موجود، أو لأنه سمع من هداة القسيسين والأحبار أو العلمـاء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنـين رءوف رحيم . لا ، لا ، فذلك إيمان المقلدين، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون . ولكن إيمان بعدل الله ورحمته آنبعث من نفس راضتها الحوادث على الاطمئنان الحق الى وجود الله وحنان رفقه، وقسوة جبروته . وآية ذلك أن الأقاصيص التى أودعها كتاب المكافأة أكثرها ممـا شاهده فى عصره، فبعضها وقع له بالذات، وبعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيمانا قويا خالصا بعيـدا كل البعد عن الإيمان الرسمى الذى يحرص عليـه من يعيشون باسم الدين فى أقطار الشرق والغـرب، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلات رسمية أبرارٌ ومتقون .

فان كان القارئ فى شوق الى لمحة من ذلك الإيمان القوى، إيمان الرجل الذى عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمـد بن يوسف فى خاتمة كتابه "وملاك مصلحة الأمر فى الشـدّة

(١) انظر ص ١٢٥ و ١٢٦ من المكافأة .

شيئان : أصغرهما قوة قلب صاحبها على ما ينــوبه ، وأعظمهما حسن تفويضه الى مالكه ورازقه، واذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مثوبة،أو يمحص عنه كبيرة ، وهو مع هــذا من الله فى أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فاذا آشتدّ فكره تلقــاء الخليقة كثرت رذائله، وزاد تصنعه ، وبرم بمقامه فيما قصر عن تأميــله ، وآستطال من المحن ما عسى أن ينقضى فى يومه ، وخاف من المكروه ما لعــله أن يخطئه . وإنما تصدق المناجاة بين الرجل وبين ربه لعلمه بما فى السرائر، وتأييــده البصائر، ولله تعالى رَوح يأتى عند اليأس منه يصيب به من يشاء من خلقه . واليه الرغبة فى تقريب الفرج، وتسهيل الأمر، والرجوع الى أفضل ما تطاول اليه السؤال، وهو حسبي ونعم الوكيل" .

* * *

١٦ — وبعد فقد كان كتاب المكافأة عميق الأثر فى نفسى،وكان قبسا من الهداية أدفع به ظلمات الغواية فى باريس . فهل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب هو أيضا مكافأة لمؤلفه رحمه الله، وأن جهده فى وضعه وتنسيقه لم يضع، وأن حرصه على بث الفضيلة والتنفير من الرذيلة لم يضع، وأن إيمــانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيهات أن يضيع عند الله شىء، هيهات، هيهات !

كان أحمــد بن يوسف مصريا، وأنا كذلك مصرى . لقــد لقى فى مصر بعض الظلم، وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن الى كثير من الناس، فيفى له من يفى، ويغدر به من يغدر، وأنا فى حدود طاقتى أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن اليهم أشــنع ألوان الجحود، وأتلفت الى أصدقائى الأوفياء أعدّهم فأقول: واحد، اثنان، ثلاثة، ثم أغمض عينى من لذعة الكمد الوجيع .

ولكن يبقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفــد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض، يبقى لىَ الله الذى يعاملنى بأجمل وأفضل ممــا أستحق، يبقى لىَ الله الذى تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصافحه يمناى، وتكاد تصافحه يمناى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب !

"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب" .

١٢ – عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا نعرف عنه أكثر مما جاء فى مجموعة التحفة البهية من أنه كان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب الغدر والوفاء، رأينا أن نثبتها هنا بنصها وان كنا لا نستبعد أن يكون دخل عليها شيء من التحوير، وأهميتها ترجع الى تصويرها لبعض الحوادث فى القصور المصرية فى عهد ضاع أكثر ما وضع عنه من الروايات والأقاصيص ...

حدّث عبد الله بن عبد الكريم قال :

" كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه و رباه وسماه أحمد وشُهر باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه و يعلمه حتى تهذب وتمرّس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش خمارويه به فأخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرّفه فى شيء إنه لا يخوننى، فعاهده، ثم حكّمه فى أمواله، وقدّمه فى أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام ، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح، ومساعيه متسمة بالنجح، فركن إليه ، واعتمد فى أسباب بيوته عليه، فقال له يوما : يا أحمد ، امض الى الحجرة الفلانية، ففى المجلس بحيث أجلس سبحة جوهر فجئنى بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رأياه خرج الفتى فجاءت الجارية الى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير، وقد أحسن الىّ، وأخذ العهد علىّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الأمير وسلم اليه السبحة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير، فقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيّره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية

وقدّمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، وآشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنـده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ؛ وكان أوّلا مشـغوفا بتلك الجارية الجائرة ، الخائنة الغادرة ، العاتية القاهرة ، الفاسقة الفاجرة ، فلما أعرض عنها آشتغالا بالجديدة المجيـدة ، المسعدة السعيدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، الرشيقة المرشوقة ، العارفة المعروفة ؛ وصرفت لبهجة محاسـنها وآدابهـا وجهـه عن ملاعبـة أترابها ، وشغلته بعذوبة رضابها عن آرتشاف ضرب[1] أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، لا تخاف من وليه ولا نصـيره ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك الى أحمـد اليتيم ، وآطلاعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد آرتدت من الكآبة بجلباب مكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : ان أحمد اليتيم قد راودني عن نفسي ، فلما سمع الأمير ذلك آستشاط غيظا وغضبا ، وهمّ في الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأنى في فعله ، وآستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املأ هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الانسان وآحمل رأسه في الطبق ، وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمـد اليتيم واقف بين يديه ، آمن في سربه لم يخطر بخاطـره شيء ولا هجس في قلبه ، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمـد ! خذ هذا الطبق وآمض به الى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكا ، فأخذه ومضى ، وآجتاز في طريقه بالمغنين وبقية النـدماء الخواص ، فقاموا اليـه وسألوه الجلوس معهـم فقال : أنا ماض في حاجة للأمير أمرني باحضارها في هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وآدخل بها الى الأمير ، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هـذا مسكا ، فمضى ذلك الفراش الى الخـادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله في الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم

(١) الضرب بالتحريك : العسل .

وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هــذا ؟ فقص عليــه خبره وقعوده مع المغنين وبقية النــدماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذه الطبق والرسالة مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أفتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب ما جرى عليه[1] ؟ فقال : أيها الأمير، ان الذى تم عليه بمـا آرتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجـارية من أوله الى آخره لمـا أنفذه لاحضار السبحة الجوهر ، فدعا الأمير بتلك الجـارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمـد فأعطاه إياها وأمره بقتلها، ففعل، وآزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلتــه لديه، وضاعف إحسانه اليه، وجعل أزِمّة جميع ما تعلق به بيديه[2]" .

وقد مُهِّد لهذه القصة بعبارة مسجوعة، وعقِّب عليها بالفقرة الآتية :

" فانظر إلى آثار الوفاء كيف يحمى من المعاطب ، وينجى من قبضة التلف بعــد إمضاء القواضب، ويفضى بصاحبه الى آرتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لمـا وفى لمولاه بعهده، وهو بشر مثله وليس فى الحقيقة بعبــده، وآطلع الله عزوجل على صدق نيتــه وقصده، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنــده . فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا فى طاعته بعقده، فكيف لا يفيض عليه من ألطافه ومواهب بره ورفده، ويفتح له من أنواع رحمتــه وأقسام نعمته ما لا ممســك له من بعــده . ويقال انه ليس شىء أوفى من القمرية اذا مات ذَكرها لم تقرب آخر بعده، ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت . والله أعلم[3]" .

(١) لا تنس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من التحفة البهية (٣) ص ١٩٢

١٣ – المحسن التنوخى

أرشدنا الى هـذا الكاتب المسيو ماسينيون " صـديق الجميع" كما كتب إلينا فى وصفه المستشرق الهولندى الجليل الدكتور سنوك .

١ – والتنوخى هذا هو المحسن بن على بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٢٩، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدّة، وكتاب نشوار المحاضرة، أحد عشر مجلدا، كل مجلد له فاتحة بخطبة ، وهو كتاب جيـد ألفه التنوخى فى عشرين سنة أوّلهـا سنة ٣٦ وآشترط أن لا يضمنه شيئا نقله من كتاب .

قال المستر مارجوليوث فى خاتمة نشوار المحاضرة – وقد آبتدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ منه سنة ١٩٢١ — :

" النشوار كلمة فارسـية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المجترة ، وقد آستعملها التنوخى بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب» (١) « حسن النشـوار راوية الأخبـار» (٢) وأما ما ذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ما جرى فيـه ذكره من التواريخ ، فان المؤلف ذكر خبرا سمعه فى سـنة ٣٤٩ (٣) ثم أكثر من ذكر حوادث سـنة ٣٦٠ (٤) ثم ذكر حادثا حدث سـنة ٣٦١ (٥) وأما ما اشـترط من الاقتصار على ما لم يدوّن فى كتاب فكثيرا ما أخل بشرطه . وقـد نبهنا فى مواضع على ورود الحكايات فى (الفرج بعد الشدّة) للؤلف وغيره من الكتب . وأما مازعم من اشتمال الكتاب على ١١ جزءا فيؤكده ما يوجد فى بعض الكتب من حكايات منقولة عن النشوار غير موجودة فى جزئنا . من ذلك ما أورده السـيوطى فى المزهر (٦) وياقوت الرومى فى إرشاد الأريب (٧) والغزولى فى مطالع البدور (٨). وأما نحن فلم نعثر منه إلا على الجزء الأوّل فى نسخة

(١) ص ٦٢ س ١٦ (٢) ص ٨٦ س ١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦ و ٢٣٥
(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى . (٧) ج ٦ ص ٦٠ و ١٩٠
(٨) ج ١ ص ٩٤

عددها ٣٤٨٢ من الخطوط العربيــة المحفوظة فى خزانة الكتب الوطنية فى باريس، قد ذكر النــاسخ أنه فرغ من نسخها فى سنة ٧٣٠ وليس فيها مايدل على أنها أول جزء من أجزاء عدّة، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهى كاملة الشــكل كثيرة الأغلاط لا سيما فى الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم نر داعيا الى تخليدها " .

٢ — هذه كلمة المستر مارجوليوث فى التعليق على ماذكر ياقوت . ونلاحظ أنه فاته حين تكلم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه الى ما نقــله خطأ عن ياقوت حيث دوّن أن كتاب نشوار المحاضرة صنف فى عشرين سنة أولهــا ســنة ٣٦٠، وهو قد ذكر أن التنوخى ولد ســنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتدأ جمع أصول ذلك الكتاب فى السابعة من عمره، وهو خطأ مبين وسنصححه بعد قليل .

٣ — وحدّثنا المستر مارجوليوث أنه حذف حكايات لم ير داعيا الى تخليدها، وكنا نودّ لو نُشر الكتاب كاملا لم يحذف منه شىء، فان التحكم فى أغراض المؤلفين من الأغلاط الشنيعة التى ينبغى أن يتنزه عنها أمثال المستر مارجوليوث، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع فى طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمعجم الأدباء ، فقد أذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبى العلاء المعرى اكتفاء بنشرها فى مجموعة أخرى من مجموعات أكسفورد . فكأنه لا يفكر إلا فى قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الأعتراف بفضل هذا الباحث فى نشر الآثار القديمة، فاليه يرجع الفضل فى إحياء كثير من المراجع المهمة فى الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف الى ماكتبه عن نشوار المحاضرة ماأخبرنا به المسيو ماسينيون[١] من أن مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشــق أخذت تنشر فى أعدادها الأخيرة بقايا قيِّمة مــن أصــول ذلك الكتاب .

---

(١) فى يوليه سنة ١٩٣٠

٤ — وأهمية كتاب نشوار المحاضرة تعرف من مقدمته ، فان المؤلف يحدثنا أنه اتصل بكثير من الناس ممن عرفوا أحاديث الملل، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم ومعايبهم ، وفضائلهم ومثالبهم، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء، والسادة والبخلاء ، وذوى الكبر والخيلاء، والأشراف والظرفاء، والمحادثين والندماء، والسفهاء والحلماء، والمحدثين والفقهاء، والفلاسفة والحكماء، وأهل الآراء والأهواء، والمتأدبين والأدباء، والمترسلين والفصحاء، والرجاز والخطباء، والعروضيين والشعراء، والنسابين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود والقضاة، والأمناء والولاة، والمتصرفين والكفاة، والفرسان والأمجاد، والشجعان والأنجاد ، والجند والقوّاد، وأصحاب القنص والاصطياد ، والجواسيس والمتخبرين، والسعاة والغمازين، والورّاقين والمعلمين، والحسّاب والمحررين، والعمال وأصحاب الدواوين، والأكرة والفلاحين، والمتكلمين على الطرق، والواعظين والقصاص، وأهل الصوامع والخلوات ، والنساك والصالحين، والعباد والمتبتلين، والصوفية والمتواجدين، والأئمة والمؤذنين، والقرّاء والملحنين، وأهل النقص والمقصّرين ، والأغبياء والمتخافين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصبية والسكاكين، وقطاع الطرق والمتلصصين، وأهل الخسارة والعيارين، ولعّاب النرد والشطرنجيين، والملاّح والمتطايبين، وأهل النادرة والمضحكين، والطفيلية والمستطرحين، والأكلة والمؤاكلين، والشُّراب والمعاقرين، والمغنيات والمغنين ، والرقاصين والمخنثين ، وأهل الهزل والمتخالعين ، والبله والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والملحدة والمتنبئين ، والأطباء والمنجمين، والكحالين والفصادين ، والآسية والمجبرين، والشحاذين والمجتدين ، والمجدودين والمحدودين والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتغربين، والسُّباح والغوّاصين، وسُلّاك البحار والمفازات، وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء، والتجار والأغنياء ، والفواضل من النساء ، حرائرهن والإماء، وخواص الأحجار والحيوانات، والأدوية والعلاجات، والأحاديث المفردات ، وطريف المنامات، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل الخير والشر، والنفع والضر، وسكان المدر والوبر، والبدو والحضر، شرقا وغربا، وبعدا وقربا .

ثم يقول :

وكان القوم الذين آستكثرت منهم، وأخذت ذلك عنهم، يحكونه فى أثنـاء مذاكراتهم، وفى عرض مجاراتهم... نفيا للمساكتة، واجترارا للثافنة[1]، وصلة للمجالسة، وفتحا للمؤانسة، وسيرا لأحاديث الدنيا ماضيها و باقيها ، وتواصفا لسـَير أهلها وما جرى فيها ، وتمثيلا بين ما شهدوه منها ،وسمعوه عنها،وعانوه من تقلبها، وقاسوه من تصرفها، وأخبروا به من عجائبها، و يوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضـيه المحادثة، وتبعثه المفاوضـة، فأحفظ عليهـم ذلك فى الحال ... وأستفيده فى أحوال . فلمـا تطاولت السـنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذى إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه ، و وجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتى من الفضل، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبل ... بل هى مضادة لمـا تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدّمين وضرائبهم وطبائعهم ومذاهبهم، حتى أن من بقى من هؤلاء الشـيوخ اذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت ، خاصة ما كان منه متعلقا بالكرم ، ودالّا على حسن الشيم، ومتضمنا ذكر وفور النعم، وكبر الهمم، وسـعة الأنفس، وغضارة الزمان ، ومكارم الأخلاق، كذبوا به ودفعوه، وجعلوه فى أقسام الباطل وآستبعدوه ، ضعفا عن إتيان مثله ،وآستعظاما منهم لصغير ما وصلوا اليه، بالاضافة الى كبير ما احتوى أولئك عليه، وقصورا عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والخصال، أو تتسـع صدورهم لفعـل ما يقارب تلك المكارم والأفعال . هـذا مع أن فى زمانهـم من العلمـاء المحتسبين فى التعليم ، والأدباء المنتصبين للتأديب والتفهيم ، وأهل الفضل والبراعة، فى كل علم وأدب وجدّ وهزل وصناعة من يتقدّم بجودة الخاطر ، وحسن الباطن والظاهر ، وشدّة الحذق فيما يتعاطاه ، والتبريز فيما يعانيه و يتولاه، كثيرا ممن تقدّمه فى الزمان ، وسبقه بالمولد فى ذلك الأوان، و يقتصر منهـم على الإكرام دون الأموال ، وقضاء الحـاجة دون المغارم والأثقال ، فمـا يرفعون به راسا ،

(١) المثافنة : المحاورة .

ولا ينظرون اليـه إلا آختلاسا ، لفساد هـذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متنقلة ، والسنن دارسة متبدّلة ، والرغبة فى العلم معدومة ، والهمم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

٥ — وهـذه الفقرات التى آقتبسناها من مقدّمة نشوار المحاضرة تصل بنـا الى النتائج الآتيـــة :

الأولى — يظهـر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويعى كل مايسمع ، ويقيد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمحادثات ، حتى آستطاع أن يكون نسيج وحده فى هذا النوع من التأليف .

الثانيــة — يظهر أن المؤلف كان خصبا فى لغته وإنشائه الى حدّ بعيــد ، والذى يقرأ مقدّمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغــة ومترادفاتها تنثال عليه آنثيالا ، وإنه ليـذكّر بالجاحظ فى هذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شيء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول بطائفة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطرّ القارئ الى تأمل ما تقدّم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التى قد لا تتم أحيانا إلا بعد عدّة ســطور ، وربمـا غلب عليه الإسفاف فى بعض التعابير حين يتعمد السجع ، كقوله فى الكلمة التى آقتبسناها آنفا :

"والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع" .

الثالثــة — لم يكن التنوخى من المؤلفـين الذين يفردون المتقدّمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقـدّم لم يترك شـيئا للتأخر ، ولكنه يقرّر أن فى معاصريه من فاقوا الأوّلين ، ويقول : " فقد خرج فى أعمـارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العـلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان معتاصا على المـاضين ، وممتنعا على كثير من المتقدّمين[1] " .

(١) ص ٨

الرابعـة — لم يكن المؤلف راضيا عن الحكام والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من المتخلفين فى طباعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالفساد، ويرى طباع أهله متغيرة، ورغبتهم فى العلم معدومة، وهممهم مفقودة، ويقول :

"فنحن حاصلون فيما رُوى من الخبر أنه لا يزداد الزمان إلا صعوبة ، ولا الناس إلا شدّة، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وما أحسن ما أنشدنى أبو الطيب المتنبى لنفسه من قصيدة فى وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم"[1]

ويقول فى مكان آخر من المقدمة :

"ولهذه الحال ما انطمست المحاسن فى هذه الدول، وردّت أخبار هؤلاء الملوك ، وخلت التواريخ من عجائب ما يجرى فى هـذا الوقت : لأن ذوى الفضل لا يفنون أعمارهم بتشييد مفاخر غيرهم وإنفاق نتائج خواطرهم ، مع بعـدهم من الفائدة ، وخلوهم عن العائدة ، وأكثر الملوك وذوى الأحوال، والرؤساء وأرباب الأموال، لا يجودون عليهم فيجيد هؤلاء لهم نسج الأشـعار والخطب، وحوك الرسائل والكتب ، التى تبقى فيها المـآثر، ما بقى الدهر الغابر، فقد بخل هؤلاء، وغفل هؤلاء، ورضى كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يجده، والنقص فيما يعتمده"[2] .

٦ — وواضح من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يمدوه بالمـال ويعينوه على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن اعتماد شـعراء اللغة العربية وأدبائهـا على رعاية الملوك والأمراء والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التى انفرد بهـا العرب فى العصور القديمة ، بل كان سُـنّة شائعة فى الشرق والغرب . ويكفى أن يذكر المرء مثلا بلاط فرانسوا الأوّل أو لويس الرابع عشر أو فريدريك الثـانى ليعرف أن شـعراء أوروبا وأدباءها كانوا يعيشون فى رعاية ملوكهم ،

(١) ص ٧ (٢) ص ٨

ويعتمدون على معونات وزرائهم . وقد انقطعت هذه العادة أو كادت من الشرق والغرب، وانقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتّاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب انقطاع هذه العادة الى تغير الطباع وفساد الزمان، كما فعل التنوخى ، فان عصرنا غير عصره، وإنما أنسبها الى أن الشعراء والكتّاب والمؤلفين قد أخذت خلائقهم تستقيم، وشرعوا يفهمون أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملحقا بحواشى الملوك والأمراء . يضاف الى ذلك أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللأديب المتفوق، والشاعر المبدع، والكاتب البليغ، ميادين أخرى للشعر والإنشاء والتأليف هى أجدى وأنفع وأقرب الى الثروة والغنى والجاه من تلك الصلات الوضيعة التى كانت تخفض رءوس أصحابها أمام سدّات الملوك .

* * *

٧ — أشرنا من قبل الى أن ياقوت ذكر أن التنوخى ابتدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦ وبينا كيف غاب عن المستر مارجو ليوث أن يمحو هذا الخطأ المبين، ونعود فنذكر أن المستر مارجوليوث حين غفل عن خطأ ياقوت أخذ يؤيده ويبنى عليه أن المؤلف ذكر خبرا سمعه سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١

وهذا كله خطأ من حيث الوضع : فان ورود حوادث وقعت بعد سنة ٣٦ فى صلب الكتّاب لا يدل على أنه ألف فى ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع فى وضع كتابه بعد التاريخ الذى ذكره ياقوت وحاول تأييده مارجو ليوث بنحو خمس وعشرين سنة، ولننظر ماذا يقول المؤلف نفسه :

"واتفق أيضا أنى حضرت المجالس بمدينة السلام فى سنة ستين وثلثمائة بعد غيبتى عنها سنين فوجدتها مُحيلة ممن كانت به عامرة ، وبمذاكرته آهلةً ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياخ، وجرت المذاكرة فوجدت ما كان فى حفظى من تلك المخاطبات قديما قد قلّ، وما جرى من الأفواه فى معناها قد اختل، حتى صار من يحكى كثيرا مما سمعناه يخلطه بما يحيله ويفسده، ورأيت كل حكاية مما أُنسيته لو كان باقيا فى حفظى لصلح لفن من المذاكرة، ونوع

من نشوار المحاضرة، فأثبتُّ ما بقى علىّ مما كنت أحفظه قديما، واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس، وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدَثين، أو مجيد من الكتّاب والمتأدبين، أو كلام منثور لرجل من أهل العصر، أو رسالة، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر، ممن لم يكن فى الأيدى شعره ولا نثره، ولا تكرر نسخ ديوانه، ولا تردّدت معانى إحسانه، وما فيه من مثل طرىّ أو حكمة جديدة، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد بقّى من القرائح والألباب، فى ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديما أو مثله، ولكن تقبُّلُ أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره، وزُهدُ هؤلاء الأَئمة فى هذا الأدب غمره وستره" .

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع فى جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ و إيراده لبعض حوادث سنة ٣٤٩ لايدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصّل مارجو ليوث تأييدا لكلام ياقوت[1] .

٨ — أما طريقة التنوخى فى التأليف فتتضح من قوله :

" وأوردت ما كتبته مما كان فى حفظى سالفا ، مختلطا بما سمعته آنفا ، من غير أن أجعله أبوابا مبوبة ، ولا أصنفه أنواعا مرتبة ، لأن فيها أخبارا تصلح أن يذاكَر بكل واحد منها فى عدة أماكن، وأكثرها مما لو شغلت نفسى فيه بالنظم والتأليف، والترتيب والتصنيف، لبرد وآستثقل ، وكان اذا وقف قارئه على خبر من أوّل كل باب فيه، علم أن مثله باقيه، فقلّ لقراءة جميعه آرتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسطه وآنبساطه، ولكان ذلك أيضا يفسد بما فى أثنائه من الفضول، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول ... بل لعل كثيرا مما فيها لا نظير له ولا شكل ، وهو وحده جنس وأصل ، وآختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل[2]" .

(١) الواقع أن ياقوت لم يخطئ حتى يتابعه مارجو ليوث على الخطأ ، فقد جاء فى ياقوت أن التنوخى ابتدأ نشوار المحاضرة سنة «٣٦٠» فكتبها مارجو ليوث «٣٦» وانبنى على ذلك توهمه أن التنوخى ابتدأ كتابه سنة «٣٣٦» .

(٢) ص ٢٩ و ١٠

ولعل القارئ يتنبه هنا أيضا الى صنعة هذا الكاتب فى إنشائه فهى تمضى به أحيانا الى التهافت والإسفاف . لا سيما اذا لاحظ قوله : "واختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل" فقد أراد أن يجانس و يوازن بين الآذان والأذان فمضى به ذلك الى الغموض، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : "أخف من الأذان" إذ ليس من سلامة الذوق أن يدّعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة "الله أكبر، الله أكبر" وهى هى الكلمة الباقية على الزمان . وتلك هفوة تذكّر بهفوة المتنبى إذ قال :

يترشفن من فمى قطراتٍ هن فيه أحلى من التوحيدِ

والمؤلف ، فى الجملة ، يسلك مسلك الاستطراد فينتقل بالقارئ من قصة الى قصة ، ومن حديث الى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدموه وعاصروه وخلفوه ، وهو منهج له قيمته فى تشويق القارئ ونقله من حال الى حال ، بين الجد والهزل ، والحلو والمر ، والقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يحدثنا أنه أراد أن يقدم لقرائه "من آداب النفس، ولطافة الذهن والحس، ما يغنيه عن مباشرة الأحوال، وتلقن مثله من أفواه الرجال، ويحنكه فى العلم بالمعاش والمعاد، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد، وما يفضى اليه أواخر الأمور، ويساس به كافة الجمهور، ويجتنبه من المكاره حتى لا يتوغل فى أمثالها ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها، ولا يحتاج معها الى إنفاق عمره فى التجارب، وانتظار ما تكشفه له السنون من العواقب[(١)]" .

فهو إذن مقتنع باستفادة القارئ من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافقه على ذلك مع تحفظ ، إذ كنا نعتقد أن المرء لا يتفهم جيدا مرامى الحوادث الماضية إلا اذا اتصلت بحوادثه الحاضرة ، ونرى أن الرجل الخالى الذهن من المشاكل العقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية يقرأ ما يقع له من تجارب الأولين بذهن خامد، وعقل مشكول، ولب معقول . أما الرجل الذى اصطدم بحوادث دهره ، ومشاكل عصره ، فانه يقرأ أحاديث من سبقوه

(١) ص ٩

بعقل يقظ، وفكر متنبه، وقلب حساس ، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه ، ويحدّثه عن قلبه، ويراجع معه مشاكل وجدانه، ومصاعب إحساسه، ومن هنا نشأ ما نراه من آختلاف التقدير للأثر الفنىّ الواحد : فكم قصيدة وكم رسالة وكم قصة يبكى لها هذا ويسخر منها ذاك ، والغرض هو هو لم يتغير لا فى وضعه ولا فى مرماه، وانما تختلف النفوس والقلوب والعقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف : فهنا قلبٌ هادئ وهناك قلبٌ متردّد وهنالك قلبٌ مضطرب . ودليل ذلك أيضا أنك قد تقرأ الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تهيج وجدانك ، ثم تعود الى ما قرأته مرة ثانية فى أحوال مخالفة ، وظروف مغايرة ، فترى ذلك الأثر الفنى الذى لم يرعك فى اللحظة الأولى قد راعك وبهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت اليه للمرة الثانية . ودليل آخر هو صلاحية النفس فى الشباب لآثار فنية وأدبية لا توافقها فى حال الكهولة، فللشباب آداب، وللكهولة آداب، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفنى تقدر بصلاحيته لجميع النفوس، وقدرته على التأثير فى جميع القراء من شباب وكهول ، ورجال ونساء . ولا يقْدِر حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه ، ودرس مشاكل عقله ووجدانه وقلبه ، وتأمل كيف يكون سكون النفس وآضطرابها ، وكيف يكون شغل القلب وفراغه، وعرف أن الغرائز الانسانية أهول وأخطر وأفزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على آختلاف النوازع وفى جميع الأجيال .

* * *

١٠ — أشرنا من قبل الى أسلوب التنوخى وصنعته فى الإنشاء ، ونحب أن نعود اليه بشيء من التفصيل .

يعدُّ التنوخى من كبار الكتّاب فى زمانه، وقد آستجابت له اللغة وطاوعه البيان، وحسبُ القارئ أن يعرف أنه آنفرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما آشتمل عليه كتابه من مختلف الأقاصيص والأسمار والفكاهات . وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب الى كل ما سمعه فيدوِّنه فى عبارات فصيحة محبوكة الأطراف، لا قلق فيها ولا آضطراب . على أنه قد أعطانا نماذج من نثره المصنوع الذى عملت فيه الروية ، وصاغه التدبر، وأملاه الفن على قلمه البليغ،

وفى تلك النماذج القليلة تظهر صنعة التنوخى جيدة باهرة ، تشهد له بالحذق وطول الباع ، والى القارئ كتابه الى بعض الرؤساء :

" لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ، وتوفاك اذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلّغك فى الأولى أملك ، وسدّد فيها مضطرَبك ، وأحسن فى الأخرى منقلَبك ، إنه سميع مجيب ، جواد قريب[1] " .

وفى ظنى أن هذا الكتاب أغنى مايكون عن الشرح والتعليق ، وللقارىء أن يتأمل قوله : " لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته " فان هذه الجملة تدلنا على فهم الكاتب لنفوس الكرام ، فانه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ، لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لئام الناس . وانظر بعد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق الى الحياة والموت . فانه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا   دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا   فاذا أفنيتنا فكن

فتلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها ولا خلود .

واذا مضينا نتعرف الى التعابير الجميلة فى كتاب التنوخى وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته فى قوله :

" ونعوذ بالله من الإدبار ، وتغير النعم ، وإيحاشها بقلة الشكر[1] " .

وللقارئ أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فانه تصوير جميل ، آنس الله نعمنا بما يلهمنا من واجب الشكران .

---

(١) ص ٩٧

وآنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيسا آتهره على البكور اليه :

" ما العجب منــك . العجب منى حين ربطت أملى بك ، وأسهرت عينى توقعا للفجر فى البكور اليك ، وأسهرت عيالى وغلمانى ، وتحملت التجشم اليك ، وأنزلت بك حاجتى ، حتى تتلقانى بمثل هذا (١) " .

وعند التنوخى ألفاظ متخيَّرة قلّ آستعمالها اليوم ، مع أنهـا دقيقة الدلالة على معانيها ، من ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

" قمت البارحة فى الظلمة الى الخلاء فمـا زلت أتلحّظ المقعدة حتى وقعت عليها ! (٢) "

فان كلمة " أتلحظ " أدق من كلمة " أتلمس " التى كثر آستعمالها اليوم .

وقوله على لسان بعض الخلفاء فى العزم على إنقاذ رجل طالت عطلته ، وخمل ذكره :

" إذا أقبلنا عليه وندبناه لهذا الأمر العظيم تجدّد ذكره ، وتطرّى أمره (٣) " .

فان كلمة " تطرّى " تعطى صــورة جديدة ، فكأن الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ، وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع المـاء بالعود .

وعند التنوخى مرونة فى التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وآنظر قوله :

" فباكرت اسماعيل فحين رآنى قال : هذا وجه غير الوجه الأمسىّ (٤) " .

يريد : هــذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة الى الأمس قليلة فى الكلام ، مع أنها أدل على معناها من الإضافة وأصرح فى الأداء .

وآنظر قوله على لسان صــديق ينصح صديقه وقد عرض عليــه الوالى أن يتقلد القضاء فرفض :

" اتق الله فى نفســك ! ... إنك تعود الى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلمـا شوهد وُجد لا يصلح فرُدّ (٥) " .

---

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ١٨ (٣) ص ٢١٣ (٤) ص ١٢٦ (٥) ص ١٢٦

فقد جمعت الجملة الأخيرة صورا عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز، والايجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مَرِن يعرف كيف يقود القلم ويسوس الكلام .

ومن مظاهر المرونة قوله :

" فلما رآنى أبو جعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : الى عندى ياسيدى الى عندى[1]".

ومعروف أن « عنـد » تنصب على الظرفيـة ولا تجر إلا بمن . نحو : من عنـد الله ، بجرها بالى سيرٌ الى الحرية فى التعبير .

١١ — فاذا خلَّينا مرونته وتصرفه فى الكلام جانبا ومضينا نستقصى ما أثبته من التعابير العاميــة وقع لدينا من ذلك شيء كثير . ويجدر بنـا فى هذا المقام أن نؤكد ما قلناه فى دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصرى : ونحن نرى أن إدخال بعض التعابير العامية الدقيقة فى اللغة الفصيحة يزيدها ثروة ، والنـاس لا يلجأون الى العاميــة إلا حين يرونهـا أقرب الى تصوير أغراضهم فى بعض الأحيان . والعامية هى عنصر من اللغة الفصيحة دخل فى حكم المبتذَل بكثرة الاستعمال ، والكاتب المجيد يستطيع أن يلقى عليها مسـحة من الطرافة والجدّة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى فى هذه الدراسة أصول التعابير الجارية على ألسنة الناس، فان أكثرها كان فصيحا، فلما كثر تداوله أضيف ظلمـا الى لغة العوام وتحاماه كبار الكتّاب .

(ا) من ذلك كلمة «الصورة» بمعنى الحالة ، نجدها على ألسنة التجار والفلاحين فنعدّها عامية، ولكنها فى كلام التنوخى كانت فصيحة، وانظر قوله :

" فدخلنا اليها فحين رأته أكرمته، وبشت به،وسألته عن خبره فصدقها عن الصورة[2]" .

(ب) والعامة يقولون : «فاتشه» اذا اختبره ليعرف ماعنده من سر أوكفاية، ويقولون « كسبه » بتشـديد السـين اذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان فى قول التنـــوخى :

" فلزمه وفاتشه فوجده كاتبا فاستخدمه وكسَّبه مالا عظيما[3]" .

---

(١) ص ٢٧١ (٢) ص ١٩١ (٣) ص ٥ ٣

(ج) ونحن نتهيب أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن القاموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه، والعامة يقولون بدون تحرج «شالوا الطعام» بمعنى رفعوه . فلننظر كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون فى قول التنوخى :

" ما تسمح نفسى بطريق التشعيب على هذا الحب، شيلوه[1] " .

وقوله :

" وقام أبو جعفر، وقمنا، وشيلت المائدة[2] " .

وقوله : " فشالنى الجيران الى منزلى[3] " .

(د) والعامة يقولون : " اخرج برا " أى الى الخارج، وقد ورد هذا التعبير فى قول التنوخى :

" فاخرج الى برا حتى أصعد أكلمك من فوق[4] " .

(هـ) وفى الأقاليم المصرية تكثر كلمة "روزنة" وهى الفتحة فى السقف أو فى الحائط، وأكثر الكتاب يتحامون هذه اللفظة ظنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة فى كلام التنوخى إذ يقول :

" فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة فى الدار الى الشارع[5] " .

(و) وكلمة " بطال " كثيرة الوقوع فى لغة التخاطب، ولكن قلما يستعملها الكتاب . وكانت قديما مستعملة فى اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخى فقال على لسان أحمد بن محمد المدائنى يحاور بعض الصوفية :

" أخبرنى اذا كنت شيخا فى معناك، حلسا فى ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرزك على سبيل العلم، وكنت تحت الارادة، هل يضر أوصافك شىء من تعطفك بحبل القدرة، يا بطال![6] " .

---

(١) ص ١٤١ (٢) ص ٢٣٢ (٣) ص ١٥٢ (٤) ص ٩١

(٥) ص ٩١ (٦) ص ٥٤

(ز) والعامة يستعملون كلمة "أذية" بمعنى إيذاء، وقد وقعت فى كلام التنوخى إذ قال:
" فأردت أذية آبن الحارث [١] " .

(ح) وكلمة " صبية " بمعنى فتاة كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة، وقد هجرت اليوم ، وقد جاء فى كلام التنوخى على لسان عريب :
"ر وهاتين الصبيتين الشعر [٢] " .

(ط) وعوام مصر يقولون " جرف الأموال " بمعنى آنتهبها ، وهى كذلك فى نشوار المحاضرة فى قصة وقعت فى مصر [٣] .

(ى) والعوام يستخفون حذف نون الرفع فى " يفعلون " و " تفعلين " والتنوخى يجرى ذلك فى اللغة الفصيحة فيقول :
" فبعثت فى جمعها والرسل تكدنى بالآستعجال، والقهارمة يستبطئونى [٤] " .

(ك) وكلمة "ست" بمعنى سيدة، كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة، وكان ظنى أنها لم تستعمل إلا فى مصر، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكنى رأيتها قد آستعملت كذلك فى بغداد، واليك الشواهد الآتية :
"فقلت لها يا ستى إنى قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا [٥] " .
" كنت مملوكا روميا فمات مولاى فعتقنى فحصلت لنفسى رزقا برسم الرجالة وتزوجت بستى زوجة مولاى، وقد علم الله أنى لا أتزوجها إلا لصيانتها، لا لغير ذلك [٦] " .
" فقال لها يوما : بالله يا ستى غنى [٧] " .

والمسيو مرسيه يرجح أن كلمة "ستى" مخففة عن "سيدتى" لا أنها منقولة عن "ست" المصرية بدليل آستعمالها فى بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون آنتقلت الى بغداد عن طريق المصريين .

---

(١) ص ١٣٩ (٢) ص ١٣٢ (٣) انظر ص ٢٦٢ (٤) ص ١٤٣
(٥) ص ١٣٢ (٦) ص ٢٤٦ (٧) ص ٥٥

(ل) والعوام يقولون : " ما علينا من فلان " وهى فى الأصل عبارة فصيحة، وآنظر قول التنوخى :

"فدخل عليه غلمانه فقالوا : يا سيدنا ! الوزير مجتاز فى شارعنا . فقال : ما علينا منه ![1]".

(م) والعامة يقولون أحيانا : " هاتم " فى مكان " هاتوا " وقد وقعت فى كلام التنوخى على لسان المعتضد :

"هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال[2]" — "هاتم فلانا الطبيب[3]" .

وفى موطن آخر : "هاتم فلانا الكاتب[4]" .

وما نريد أن نسرف فى الآستقصاء، وفيما أسلفناه ما يكفى للإبانة عن مرونة التنوخى وقدرته على التصرف فى فنون الكلام ، وفى هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التعابير، وكيف آمتزج العامى بالفصيح .

* * *

١٢ — بقى علينا أن نشير الى بعض ما آشتمل عليه نشوار المحاضرة من طرائف الأخبار، وهو كما قدمنا يرجع الى عدة ألوان، منها الحلو والمر، والجد والهزل. فمن خير ما فيه من الجد ما كتب المؤلف خاصا بالحسن بن على بن زيد المنجم اذ قال بعد كلام :

"فكنت اذا جئته — وهو إذ ذاك على غاية الجلالة وأنا فى حد الأحداث — اختصنى، وكان يعجبه أن يقرظ فى وجهه، فأفاض قوم فى مدحه، وذكر عمارته للوقوف والسقايات، وإدارة الماء فى ذنابة المسرقان[5] وتفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت معهم[6] فى ذلك فقال لى هو : يا بنى ! أرباب هذه الدولة اذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم انما يفعل هذا رياء، وما أفعله إلا لله تعالى، وان كان رياء فهو حسن أيضا، فلم لا يراوءن بمثل هذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضا، كان الناس قديما اذا حسدوا رجلا

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المسرقان : نهر بخوزستان ، والذنابة بالضم وتكسر طرف الوادى . (٦) على الصواب : ذهبت معهم فى ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، واذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاهوه ،واذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قيل إنهم أكرم منه[1]...فالآن لما ضعفت الطباع ، وصغرت النفوس ، وعجزوا عن أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه فى المعنى الذى حسدوه عليه ، عدلوا الى تنقص المبرز[2] ، فان كان فقيرا سعوا على فقره ، وان كان عالما خطّئوه ، وان كان جوادا قالوا هذا متاجر بجوده و بخّلوه ، واذا كان فعّالا للخير قالوا هذا مراء"[3] .

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطبائع الناس ، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة و بُعد الصيت يذكر أنه يعمل ما يعمل ابتغاء مرضاة الله . والواقع أن الموفّقين لعمل الخير قلما يسلمون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يحب أن يذكر إحسانه بالجميل ، مهما أخلص لله ، وعلى الجماهير أن تفهم ذلك ، وأن لا تضن على المحسنين بمظاهر التبجيل ، فانه لا شيء أقتل لنوازع الخير فى نفوس الكرماء من نكران الصنيع ، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يزهّدنى فى كل خير صنعتهُ الى الناس ما جربت من قلة الشكرِ

ونرى المنجم بعد ذلك يعود الى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شيء من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون فى ميادين العلم والسخاء والمال . فقد كان الحسد من البواعث على الجد والتحصيل ، ثم خبت ناره ، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ — ومن طرائف الأقاصيص الجدّية ما نقله مرويا عن وهب بن منبه أنه كان فى عهد بنى إسرائيل خمار يسافر بخمر له ، ومعه قرد ، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، و يبيعه بسعر الخمر ، والقرد يشير اليه أن لا تفعل ، فيضربه ، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع الى بلده ركب البحر وقرده معه ، وخُرِّج فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر ، فلما سار فى البحر

(١) حتى قيل : كذا فى الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) علها شنعوا . (٣) ص ١٣ و ١٤

استخرج القــرد الكيس من موضعه ، ورقى الدقل وهو معه حتى صار فى أعلاه ، و رمى الى المركب بدرهم والى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ، فمــا كان بحصة الخمــر رمى به الى المركب بجمعه صاحبــه ، وما كان بحصة المــاء رمى به الى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل (١) .

ونشير أوّلا الى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ، و إن لم يشر المؤلف الى ذلك ، فان من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الاسرائيليات كانت دوّنت قبــل القرن الرابع .

ومغزى هــذه الأقصوصة واضح : فان واضــعها يريد أن يقرر فى الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لا تخفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القرود ، فى وقت لم يكن فيــه من يرى أن القرد أصل الانسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة فى وضعها وفى الخيــال الذى صبّت فيه ، ولا سيما اذا لاحظنا ان عند القرد جوانب مضيئة فى ذهنه ، وأن له من الشمائل الانسانيــة نصيبا غير قليل ، وفى الأقصوصــة تسجيل لطرائق اليهود فى جمع المــال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

١٤ — ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أخا بابك الخرمى المــازيار قال له لمــا أُدخلا على المعتصم . يا بابك ! انك قــد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبرا لم يصبره أحد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صارا بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما وأرجلهما بحضرته ، فبدىء ببابك فقطعت يمناه ، فلما جرى دمه مســح به وجهه كله حتى لم يبق من حلية وجهه وصورة سحنته شىء ، فقــال المتعصم : ســلوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقــال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعتى وفى نفســك قتلى ، ولا شك أنك لا تكويها وتدع دمى ينزف الى أن تضرب عنقى ، فخشيت أن يخرج الدم منى فتبقى فى وجهى صفرة يقــدّر لأجلها من حضر

(١) ص ١٠٠

أنى قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم،فغطيت وجهى بما مسحته عليه من الدم حتى لا تبين الصفرة .

فقال المعتصم : لولا أن أفعاله لا توجب العفو عنه لكان حقيقا بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بامضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه النِّفط وضرب بالنار، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تأوه .(١)

وأمثال هذه الأخبار تفسر لنا السر فى عنف الثورات التى كانت تهدد الحكومات الاسلامية، فقد كانت هناك مطامع ، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف،وفى أخبار تلك النفوس الطاغية ما يفسر لنا أيضا كيف كانت الحكومات الاسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين ، فانه لا يفُلُّ الحديد إلا الحديد ، ولكل عراقٍ حجاج !

١٥ — وفى نشوار المحاضرة أخبار كثيرة عن أريحية الوزراء وسخائهم، من ذلك ما نقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضى أبا عمر يقول :

عرض إسماعيل القاضى وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا فى حوائج الناس فوقّع فيها، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطوّل الوزير أعزه الله بهذا . فوقَّع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن يجيب إلى هذا . فوقّع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك . فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس ، فقال له عبيد الله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن وإن جاز وان سهل؟ من قال لك إنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعلُ شىء على وجه الأرض من من الأمور فقد كذبك، هات رقاعك كلها فى موضع واحد . قال : فأخرجها اسماعيل من كمه وطرحها بحضرته فوقع فيها . وكانت مع ما وقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة .(٢)

---

(١) ص ٧٥ (٢) ص ٤٦

وفى مثل هــذا الخبر إن صحت تفاصيله ما يبين كيف تضعضعت الحكومات الاسلامية وتداعت فى زمن قليل، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والحمد المصنوع .

ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التى كان يمضيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع الى الاستجداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضـاء حوائج الناس ، وفى نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما فى مكاتب الوزراء[1] .

١٦ — وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام يفسر لنا غوامض التاريخ الإسلامى، فقد أكثر المؤرخون القول فى نكبة البرامكة مثلا وردوها الى أصول أكثرها صحيح، ولكن أكبر الأسباب فيما أفترض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يجهله بعض الناس و يعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينـه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالهم ووزرائهم حين يغضبون عليهم ، وكانت مصادرة أموال الحكام المغضوب عليهم لا تجـد من يتفزع لها من الجمهور الذى كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروءة ينفر من المناصب العمومية ، وخاصــة منصب القضاء . وأهل العصر الحـاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيرا من جشـع الحكام والوزراء، وكشفت عورات كثير من المنافقين الذين يدّعون نقاء الأيدى والسرائر، والله بمـا يضمرون عليم !.

١٧ — ومن طريف ما فى نشوار المحاضرة حديث القاضى أبى يوسف مع زوجته حين كان فقيرا، فقد نقل أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة لتعلم العلم على فقر شديد، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعـود الى منزل مختل، وأمر قلّ، فطال ذلك، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاته يوما بيوم، فلما طال ذلك عليها خرج الى المجلس وأقام فيه يومه ، وعاد ليلا فطلب ما يأكل، فجاءته بغضّارة مغطاة، فكشفها فاذا فيها دفاتر، فقال : ما هذا ؟ قالت : هــذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع، فكل منه ليلا ! فبكى وبات جائعا، وتأخر من غد عن المجلس

(١) أنظر ص ٤٣ و ٤٥ و ٤٦

حتى احتال ما أكلوه، فلما جاء الى أبى حنيفة سأله عن تأخره فصدقه، فقال : ألا عرّفتنى فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تغتمّ، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور. قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد واختصصت به قُدِّمتْ بحضرته يوما جامة لوزينج بفستق، فحين أكلت منهـا بكيت وذكرت أبا حنيفة، فسألنى الرشـيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أظرف ما يتأسى به طلبة العلم الذين يرجون أن يغنيهم الله بعد فقر، و يرفعهم بعد خمول .

وقد ذكر التنوخى السبب الذى اتصل به أبو يوسف بالرشيد(١)، فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء فى فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات . وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبى يوســف ومن الرشيد، ولكن أين نحن من أولئك الناس ! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعانى الحلال والحرام، و يلتمسون لضمائرهم وسائل الهدوء فى ظلال التأويلات . أما أهـل العصر الحاضر فقد انصرفوا عن اسـتفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضمائر والقـلوب ، وصار أكثر الناس لا يبالى ماحرمت الشرائع وما حللت من مختلف الشـئون، وعاد الأمر كله الى القوانين الوضـعية، بحيث لا خطر على الجانى إلا أن يؤخذ ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ — ويظهر من نشـوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشبيب، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

”كنا ليلة بحضرة القاسم بن عبيد الله وهو وزير فغنت جاريته بدعة :

أدلّ فأكرم به من مدلّ ومن ظالم لدمى مستحلّ

اذا ما تعـــزز قابلتـــهُ بذل وذلك جهد المقـلّ

---

(١) ص ١٢٤ و ١٢٥

فأدّت فيه صنعة حسنة، فطرب القاسم عليه طربا شديدا، وآستحسن الصنعة والشعر، وأفرط فى وصف الشعر، فقالت بدعة : يا مولاى ! إن لهذا الشعر خبرا أحسن منه . قال : ما هو ؟ قالت : هو لأبى حازم القاضى ! قال : فعجبنا من ذلك مع شدّة تقشف أبى حازم وورعه وتقبضه . فقال لى الوزير : بالله يا أبا إسحاق بكّر الى أبى حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل بزىّ القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بيننا شىء أقوله على خلوة . فقال : قل، فليس هذا ممن أكتم ، فقصصت عليه الخبر، وسألته عن الشعر والسبب، فبتسم وقال : هذا شىء كان فى الحداثة قلته فى والدة هذا (وأومأ الى القاضى الجالس فاذا هو آبنه) وكنت اليها مائلا ، وكانت لى مملوكة ولقلبى مالكة، فأما الآن فلا عهد لى بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعرا منذ دهر طويل، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى وخجل حتى آرفضّ عرقا . وعدْت الى القاسم فأخبرته فضحك من خجل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبو حازم[1] !

والفكرة فى ذاتها مقبولة، فان العشق والتشبيب من ألوان المرح التى قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تهتاج كثيرا من قضاة المسلمين ، وكتب الأدب مملوءةٌ بأخبارهم فى هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبى حازم لم يكن مصدره أنه قاض لا يصح أن يتغزل، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالتقى والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب اليه حب أو تشبيب . أما خجل الابن فمصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ — وفى نشوار المحاضرة أخبار تدل على أن الغناء لم يكن من العمل المقبول ، بحيث كان القيان يحتجْن الى التوبة إن كتب الله لهن التوفيق . وفى ذلك يقول المؤلف :

” أخبرنى من أثق به أن ابراهيم بن المدبر قال : كنت أتعشق عريب دهرا طويلا ، وأنفق عليها مالا جليلا، فلما قصدنى الزمان، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هى

(١) ص ٥٠ و ٥١

أيضا قد أسنّت وتابت من الغنـاء وزمنت، فكنت جالسا يوما اذ جاء بوابى وقال : طيـار عريب بالباب ، وهى فيه تستأذن . فعجبت من ذلك وآرتاح قلبى اليها، فقمت حتى نزلت بالشط فاذا هى جالسة فى طيارها، فقلت : يا ستى ! كيف كان هذا؟ قالت : اشتقت اليك، وطال العهد ، فأحببت أن أجدده وأشرب عندك اليوم ! قلت : فآصعدى . قالت : حتى تجىء محفتى، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة، فأجلستُ فيها وأصعدتها الخدم ، وتحـدّثنا ساعة، ثم قدم الطعام فأكلنا، وأحضر النبيـذ فشربتُ وسقيتها فشربتْ، وأمرتْ جواريها بالغناء ، وكان معها منهن عدّة محسنات طياب حذّاق، فتغنين أحسن غناء وأطيبه، فطربت وسررت، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعرا، وأنا مولع فى أكثر الأوقات بترديده و إنشاده، وهو :

إن كان ليلك نوما لا آنقضاء لهُ ... فانَّ جفنِىَ لا تثنى لتغميض

كأن جنبىَ فى الظلماء تقرضــهُ ... على الحشية أطراف المقاريض

أستودع الله من لا أستطيع لهُ ... شكوى المحبـة إلا بالمعاريض

فقلت لهـا : ياستى ! إنى قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيهـا لحنا . فقالت : ياأبا إسحاق! مع التوبة ؟ قلت لهـا : فآحتالى فى ذلك " الى آخر الحديث[1] .

والواقع أن الغناء كان موضع خلاف عنـد علمـاء المسلمين ، ولهم فى إباحتـه وتحريمه أقاويل نجد صـداها عند الغزالى مثلا فى كتاب الإحياء . وكره الغناء والتحرز من مصاحبـة المغنين والمغنيات قد تغلغل فى كثير من البيئات الإسلامية، وكان فى فقهاء الإسلام من يقول بتكسير آلات الموسيقا والطرب، وقد شرحت ذلك ونقدته فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) ويكفى أن أشـير هنا الى أن ثورة الوهابيين على الموسيقا وآلاتها ليس إلا بعثا لمـا كان يراه كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة ، وإنمـا تُتطوّر وتُتحوّل من وضع الى وضع وَفقًـا لتطوّر الظروف وتحوّل الأذواق .

(١) أنظر ص ١٣١ — ١٣٣

١٤ – حكاية أبى القاسم البغدادى

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدى محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جدا فى المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول الى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا فى المقدمة الألمانية التى صدّر بها طبعته لهذه الحكاية الى أن الأزدى كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان فى سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : "ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، فى الجانبين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا اذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ... الخ"[1] .

وفى مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبى محمد اليعقوبى وأبى الحسن بن سكرة[2] ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم الى سنة ٣٩١ وثالثهم الى سنة ٣٨٥ فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبى القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدى إلا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . فهى ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطّرد فيه القول من فن الى فن فى دعابة وظرف . و(أبو القاسم

---

(١) ص ٨٧ (من حكاية أبى القاسم البغدادى) . (٢) ص ٨٨

البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان : فانا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متزدا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون[1] .

ولنعط الكلمة للمؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

"... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى والشعر القديم العربى، ثم الشوارد التى اقترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنوادر التى اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم، وكأنها قد نظمتهم فى صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل، ولعلى صرت فى ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ فى فصل من كلامه :

(١) ولنلاحظ أن شخصية أبى القاسم وشخصية أبى الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدورها على طريق التكنية لون من التفخيم أو التمليح ، والكنية ظاهرة عربية ، ولايشترط فيها أبوة فقد يكنى الصبى أحيانا وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به ، وتكنية الصغير تفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتكنية الكبير تعظيم له عن التسمية باسمه ، وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس (راجع نقد النثر ص ٤٢ و٤٣) .

وفى معجم الأدباء لياقوت — ص ١٨٨ ج ٥ — فى أخبار الكسائى كلام صريح فى الافتخار بالكنية وعيب التكنية فى مجالس الخلفاء ، لما فى ذلك من مظاهر الزهو والخيلاء .

وقد عرضنا للتكنية بكلام مفصل فى الجزء الثانى ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

"وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للغربى والخراسانى والأهوازى والسندى والزنجى ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طُرفة فى كلام كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد، كما أنك تجده يحاكى الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه لاتكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم، وحصر جميع طرف حكايات العميان فى أعمى واحد . ولقد كان فلان[1] يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك لحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التى تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد، فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان انما قيل له العالَم الصغير سليل العالَم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة، ويحكى بفمه كل صوت،ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان" .

وإذ قدّمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله الى آخره، أو ليلة كذلك، وانما يمكن آستيفاؤها وآستغراقها فى مثل هذه المدّة، فمن نشط لسماعها ولم يعدّ تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه،ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيّرنى بها، لا سيما مع آنتهائه منها الى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها، وحلاوتها فى قصر متنها، وحرارتها فى حسن منطقها) كلفت له من البسط جهده المتعب علىّ وغيره الممتع له[2] . ثم إن لى قدمة شوط أستعيره وأستغيره من شعر أبى عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

(١) هو فى البيان والتبيين (أبو دبوبة الزنجى) ص ٣٩ ج ١

(٢) فى هذه العبارة ركاكة وغموض .

يا سيدى، دعوةَ مَن شعرهُ يجرى على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة فى بغداد لعهده، وسياق الحكاية صريح فى أنه قصد الى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف فى منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته الى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة فى عرض الملح والفكاهات، وأن السخف قد يكون وسيلة الى طريف الألفاظ فى بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية، أعنى أنها لم تدوّن فى المعاجم. وأبو المطهر يقصد اليها قصدا : فهو رجل مثقف العقل يجرى فى درس اللغة على منهاج . من ذلك ما أنطق به المحدِّث :

— يا أبا القاسم، تعرف شيئا من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق! يا سوادى؟ لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن ينزع القوس! أنا والله أسبح من الضفدع ومن التنين ! أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتراور والشكابى والطاووس والعقربى والمقرفض والموزون والكامل والطويل والمقيد . كان أستاذى فى جميعها ابن الطوا والزنابيرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا فى القواميس ، ولا نجد فى أهل زماننا من يعرف ما لها من مداول . وقد تكون أسماء العوم فى أندية الرياضة المصرية مما يمت الى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل يُنطق المحدِّث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم، أريد أن أعرف شيئا من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقـــول :

— يحتاج أن نعـرف ألوان المراكب من السفن والسـميريات ، والمراكب العماليات ، والزبازب ، والكندوريات ، والبالوع ، والطبطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والخيطيات ، والشلملى ، والجعفريات [1] .

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان Colin عين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفـاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فآنظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان اذ يجد السالك محـال كريهة الأسماء مثل : «موضع المجذومين» و « درب الصُّم » و «درب العُمْى» ويقول : «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن لا يحصى عددا من الحذاق المعجزين [2] ؟ » .

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد اليها رغبة فى الدعابة ، من ذلك قوله فى وصف منـافق :

«ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من اليمين فيفاوضة ويتسمع من أحاديثه ويستهش لها ويقول :

ياسيدنا ، ذا والله ليس كلام البشر ، انما هو سحر يولِّه القلوب والأسماع ، كلام والله كبَرد الشراب ، وبُرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قِطَع الزهر ، وعُقَد السحر ، ما هو إلا كالبشرى بالولد الكريم ، الى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافى الزجاجة ، حلو المساغ ، يعاَق به المريض ، ويجبَر به المهيض ، يقود سامعه الى السجود ، ويجرى مجرى المـاء

---

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ .   (٢) ص ٢٤

فى العود، قد آتسع له بحمد الله مَشرَع الإطناب، وآنفرج عنه مسلك الإسهاب، فهو ينثر الدر على الدر .

فيقول الذى على يساره : فى أى شىء أنتم ؟ فيغمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول :

ياسيدنا ! أنا فى محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، فى كلام أثقل من الجندل، وأمرّ من الحنظل ، هذيان المحموم، وسوداء المهموم ، لمثله يتسلى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه . كلام والله يصدى الخاطر ، إن لم يُعشِ الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونته، وتحير الأوهام من وعورته، لامساغ له فى الأسماع، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت الى اليمين فينشده صاحبه الذى يليه شعرا فيقول :

أعيذه بالله ! ما أصفى نظره، وأنق درره، وأغزر بحره، وأحكم نحته ونجره[(١)] ... لو جُعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكاثرا، وتجلى فيها مفاخرا . شعر والله يختلط بأجزاء النفس، الآذانُ والله تصير أصدافا لهذا الدر .

ويلتفت عنه ثانيا الى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة، الثقيل الأستعارة ، وتلك الإشارة الفاترة! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة. ليس إلا إقواء وإيطاء وأخطاء. لو شعر، أعزه الله، بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثا ويأخذ فى تقريظه ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق، المجد لسان أوصافه، والشرف نسب أسلافه، ما ورث المحاسن عن كلالة، ولا ظفر بها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها فى الماء، وفرعها فى السماء ، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده، ولا يمتنع بارده، لو أن البحر قدره، والسحاب مده، والجبال ذهبه، لقصرت عما يهبه، وفى العلم البحر المد لسبعة أبحر، كأنما يومٌ بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب، وأغصانها علم، وثمرتها

(١) فى الأصل (نحره) بالحاء المهملة .

عقل، هذا بحمد الله مع خُلق كنسيم الأنوار، على صفحات الأشجار، فى نفحات الأسحار، خلائق فى ذكاء الخلوق[١]، وشمائل فى صفاء الشَّمول، أذكى من حركات الريح بين الريحان، جِد كعلو[٢] الجَد، وهزل كحديقة الورد، سبحة ناسك، وتفاحة فاتك، وعشرة يكاد ماؤها يقطر، وصحوها من الغضارة يمطر. ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيون، متبرقع والله ببديع الجمال، متعوذ من عين الكمال، متخلل مخائل الأمثال. أحلى والله من الوبل، على المحل، الخَلق وضئ، والخُلق رضئ، والفضل مضئ[٣]. محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير، بل فى جنة وحرير.

ويلتفت الى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث :

ذا والله سخنة عين، عصارة لؤم، فى فؤاد خبث، كالكمأة لا أصل لها ثابت، ولا فرع نابت، لو قُذف والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه. لا يبضّ حجره، ولا يثمر شجره، حجة لا تروى، وزند لا يورى، قالب جهل مستور بثوب، يعثر فى عنان جهله، ويتساقط فى ذيول خُرقه، صخرة خلقاء لا تستجيب للرتق، وحية صماء لا تتسمع الى الرقى، كأنى اذا ناظرته أسفر منه عَودا، وأهز طودا، ثقيل الطلعة، بغيض التفصيل والجملة. يحكى ثقل الحديث المعاد، ويمشى على العيون والأكباد، هو والله فى العين قذاة، وبين النعل والأخمص حصاة. كأن وجهه على الحقيقة هول. المطلع النحس يطلع من جبهته، والخل يقطر من وجنته. وجه يشق على العين، وكلام لا يسوغ فى الأذن، ما كنت أدرى والله أيحدِّث أم يحدِث، مدخل أكله أمذر[٤] من مخرج ثفله، لا يفرق والله بين محساه ومفساه ... الخ[٥] ».

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم. وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين. والصورة عادية من حيث السياق : فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا الوضع البسيط وهو التلون والتقلب، والظهور بوجهين، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين.

---

(١) الخلوق بفتح الخاء الطيب. (٢) فى الأصل (غلو) بالغين المعجمة. (٣) مضئ، وخفف للسجع.
(٤) أمذر : أخبث، وبيضة مذرة : فاسدة (٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥

وليس لأبى المطهر يدٌ فى تلوين هذه الصور : فهى جملة من المحامد والمقابح جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا فى النص الفرنسى الى أنه آقتبسها من كتب الثعالبى ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبى هو الذى آعتمد على أبى المطهر فى نظم هذه الصورة الفنية .

٥ — ومن هذا الباب ما كتبه فى وصف الثقيل :

«يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ! يا يوم الأربعاء فى آخر صفر ، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر ! ياخراجا بلا غلة ، ياسفرا مقرونا بعلة ! يا أخلق من طيلسان ابن حرب ، يا أشأم على نفسه من ضرطة وهب ! ياأبغض من قدح اللبلاب فى كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس فى وجه الغريم البغيض ! ياأنتن من الكنيف فى سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف ! يا وجه المستخرج فى يوم السبت ، ياإفطار الصائم على الخبز البحت ! يا أبرد من الشمال فى كانون ، وأوسخ من فراش الجرب المبطون ! يا أقذر من ذباب على جعس[1] رطب ، وأحقر من قملة فى أذن كلب ! يا أقذر من جفنة الدباغين ، وأنتن من ريح القصابين ! يا أبلد من حضيض الحمام ، وأنتن من حانوت الحجام ! يا أقذر من طين السماكين ! يا أوحش من شخص الظالم فى عين المظلوم ، وأ كره من صوت البوم اذا صك سمع المحموم ! ياأبرح من غم الدَّين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر فى كانون الآخر ، على أكاف بأس ، وبرد قارس ! يا أذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد ! يا أثقل من طفيلى يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغداء والعشاء ، ألوان الصيف فى الشتاء ، مجشما للساقى ، قاطعا على المغنى ، يواثب ويدنى[2] . يا أشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء المنقلب والإياب ! ياأشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع الى المغنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر الى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

---

(١) الجعس : الرجيع . (٢) فى رسائل الخوارزمى : «يزنى» .

وحسد القرباء ، وملازمة الغرماء[1] ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء، وملابسة السفهاء ، ومساءلة البخلاء، ومعاداة الشعراء[2] » .

وقد شرنا فى النص الفرنسى الى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمى ، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقيل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المطهر كان شابا ماجنا فى سنة ٣٠٦ فمن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد انتصاف القرن الرابع[3] .

وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبى المطهر ورسالة الخوارزمى فوجدناهما تتوافقان فى ألفاظ وتختلفان فى ألفاظ . وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

"يا أنتن من الكنيف، فى سحر الصيف"

والخوارزمى يقول :

"يا كنيف السجن فى الصيف"

وهى عبارة أقذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمىّ طويلة جدا، ولكن هيهات أن يصل الى ما وصل اليه أبو المطهر من الإفحاش والإقذاع فانه نثر أهاجيه فى كتابه نثر الشوك . وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد، ونعيذ القارئ أن يدهش من ذلك، فان الحضارات تقتضى فنونا من المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات. وعيوب أصحاب الحرف والصناعات، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لا تُعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنوانا على قوة الحضارة فى بغداد .

---

(١) فى الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠ .

(٣) وقد ورد وصف الثقيل على هذا النحو أيضا فى نثر بديع الزمان (أنظر المقامة الدينارية ص ٧٩ ، ٨٠ طبع استامبول) .

وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة فى جفنة الدباغين، وريح القصابين، وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه فى وصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان، ففى الفن الأول يقول :

"وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر، فما ظنك بخرعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحة، والفطنة مع الصباحة ... قد أطرّ الفتاء[1] شاربها، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم ألفاظها ، وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها ، وآغتص بالبرنى مخلخلها، وآطرد ماء النعيم بين رياض وجنتها، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها، وتورد من صبغ الحياء خدها، وآهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها، وآرتجت من الشحم روادفها، وتشربت أنوار الحسن سوالفها، ثم أعيدت ساخطة على محبها، وقد قطب التيه جبينها، وشمخت النخوة بعرنينها، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانه والخضوع، وبل أكمامه بسوارب الدموع، أقرت متبسمة عن شتيت الدر، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحر . ثم أقبلت نرجستاها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى، فترى والله حباب الدموع، أونحر الخجل، ونفسا تموت فتحييها بزاد من القبل، وتجشمت بعد ذلك زيارة فى ملاءة من الظلام، ووافته وهو سادر فى ساعة الأحلام، وقد سرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجو منها بريا الراح العتيق، وآنثنت متمايلة وقد بل البهر غلائلها، وفتّر الأين[2] مفاصلها، وأرعد الوجد فرائصها، وغمز المشى أخماصها، وجعلت تمتن عليه بإلمامها، وتدعى فضل غرامها، وتناسمه من

(١) الفتاء : طراءة السن ، قال الشاعر :

اذا عاش الفتى سبعين عاما * فقد ذهب البشاشة والفتاء

وفى الأصل (الغناء) وهو تحريف . (٢) الأين : التعب .

أحاديثها بما هو أقر لعينه، وأشهى الى نفسه، من طول بقائها، و بلاغ نعائها، تدوى بألحاظها، وتداوى بألفاظها، تردى بمقلتها، وتحيي بقبلتها[١]... الخ

وفى الفن الثـانى يقول :

”كم تشغلنى يا أبله، وتسألنى عن الأباطيل، وتقطع كلامى بما لا يفيدك؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاما نظيفا غنج الحركات، حلو الشمائل، خنث الأعطاف، بابلىّ الطرف، يمشي بخصر دقيق، وردف ثقيل، غنت عليه المناطق، ودل على حسن صنعة الخالق، خده جلّنار[٢]، وعيناه نرجس، وشاربه زمرّد، وشفتاه مرجان أو عقيق، وثغره در وريقه رحيق كأنه دينار منقوش، أو جرعة عسل ... لو جذب عضو منـه آنفطر، أرقّ من نسيم الهواء، وألذ من المـاء بعد الظمأ، كأنه طاقة ريحان، أو غصن بان، أو قضيب خيزران، أو طاقة آس ريان، كأن جبينه هـلال، وكأن حاجبه خط بقلم، كأن عينيه عينا جؤذر، وكأن أنفه حدّ سيف، وكأن وجنته الخمر، أو لون الراح، أو حمـرة التفاح. أحسن من نَور زهر الربيع البـاكر على الغصن الروىّ. أحسن من الروض الممطور. كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنىّ ... كأن شاربه زئبر الخـز الأخضر، وعذاره طراز المسك الأذفر، على الورد الأحمـر، اذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق، عن الدر الأنيق ... كأن فمه حلقة خاتم، وكأن ثغره البرد، أو أقحوان تحت غمامة. كأن فاه الخمر، نبت فيه الدر، كان عنقه إبريق فضة ... كأنما لبس بدنه قشور الدر، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية، وساقه بَردية، وقدمه لسان حية. كأن وجهه الشمس، وكأنه دارة القمـر، وكأنه المشترى، وكأنه الزهرة، وكأنه الدرّة، وكأنه الغمامـة. أطهر من المـاء الزلال، وألذ من معانقة الخيال، وأزهر من النـار، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج، ... كالظبي الغرير، والقمر المنـير، والغصن النضير، والمهاة على الغدير... الخ[٣]“.

---

(١) (ص ٧٦، ٧٧).
(٢) الجلنار : زهر الرمان، وهو فارسى معرب.
(٣) ص ٦٥ و٦٦

وهذه الصورة أيضا منقولة عن معاصريه من كتّاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين . فهى أوصاف حشرت حشرا ، ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين ما نقله وما ٱبتدعه . وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ٱبن عرس :

" كان اذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا وٱستفتحوا ، فانى ولدكم ، بل عبدكم ، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف مرّة ، ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصا ، ومن مات لى مت عليــه . لِمَ أبخــل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولِمَ أتعسر عليكم ؟ وانمــا خلقت لكم ! ولِمَ أتطاول عليكم ؟ وأنا غدًا مضطر اليكم ، اذا بقل وجهى ، وتدلى سبالى ، وتولى جمالى ، وتكمش خدى ، وتعوّج قدّى . حاجتى والله اليكم غدا أشد من حاجتكم الىّ اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ..." الخ .[1]

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكايته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير الى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها " أرق من دين أبى نواس "[2] !

وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصهباء :

عتقت فى الدن حتى * هى فى رقــة دينى

٨ — وقــد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بهــا غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان اذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، وٱستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لطمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

---

(١) ص ٥٨ .

(٢) وجاء فى ١٣٢ «نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ» نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و «متابعة الأبطال ، تترك الشيوخ كالأطفال» والأبطال ، محرفة والصواب (الأرطال) و « يأخذ من ثقلهم ، و يضحك من عقلهم » و (ثقلهم) محرفة ، والصواب (نقلهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجرى لسماع غناء ؟

فيقـــول :

— هذه صورة اذا آستولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لاتملك ، وغاية لاتدرك : لأنه قلّ ما يخلو الانسان من صبوة ، أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى متمنًّى ، أوخوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال . فالناس كأنهم على جديلة واحدة فى هـذه الحـال .[1]

٩ — وقـد عرض لفكاهات البغداديين ونوادرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر فكاهات ماجنة لا تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولا بأس من ايراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : ان كنت تريد جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وان كنت تريد جارية للتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك .[2]

وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسـيدى ، مع ثلاثة أخر ![3] أى اذا كان على الجنازة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهـم ، وأوصاف سابغة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهى اللهو والمجون . وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لأكثر المعانى الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طـرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخـلاعة إلا ألم به . وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ما روى من الشعر المـاجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج اليه النفس فى ساعات الملال .

١٠ — وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسـنة عوام المصريين ، كقول شاعر فى وصف ثقيل :

(١) ص ٧٨ و ٧٩ . (٢) ص ٧٥ . (٣) ص ٧٦ .

يا كل شيء وَحِش مهـولِ　　　يارأس خـنزير ووجه غولِ[١]

والشاهد فى (شيء وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأو باشهم　　　من بين صفعان الى ضارط[٢]

والشاهد فى (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبى القاسم :

" ياسفل العالم ! اذا أسكرتمونى فمن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره " .

وقول شاعر :

ويكِ سِـــتى كلمينى　　　قبل أن أُبصَر مُنْـله[٣]

وعوام المصريين يقولون : " فلان عليــه حتة لسان " يعنون أن له لسانا طويلا ، أى ثرثارا . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته فى مثل هذا الكتاب .

١١ — وجملة القول ان كتاب أبى المطهر الأزدى سخيف، ولكنه مع سخفه ظريف، والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ سخيفٌ ولكن　　　يأتى بسخفٍ مليح

وهناك قصــيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصــيدة الساسانية[٤] وهى فى الشــعر كحكاية أبى القاسم فى النثر كلتاهما تصف أخلاق الأوباش وتحكى ألفاظهم . ومراجعةُ هذين الأثرين مفيدةٌ لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية . وبكل مدينــة أحياء ماجنة تنفرد بألفاظ وتعابير تمثل ما فيهــا من شــواذ الأخلاق، وفى القــاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البــلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

(١) ص ١١٩　　(٢) ص ١٢٤　　(٣) ص ١٢٦

(٤) تجد هذه القصيدة مشروحة فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

(١)

الفهرس المفصل

نقد النثر الفنى

صفحة

عناية النقاد بالشعر وانصرافهم عن النثر... ١٧
كيف شُغل النقاد بنثر القرآن ١٧
طائفة من الكتب الخاصة بالنثر ونقده... ١٧، ١٨
الموازنة بين الشعراء والكتاب... ... ... ١٨
مظاهر إيثار الشعر على النثر فى البيئات العربيــة ١٩
المفاضلة بين الشعر والنثر... ... ... ١٩
نقــد رأى الثعالبى ... ... ١٩، ٢٠
رأى ابن المعذل فى حياة الشعراء... ... ٢٠
وصــية أبى تمــام للبحترى ودلالتها على أحوال الشعراء النفسية ٢١
رسالة الشاعر الى العالم... ... ... ٢١
نقد رأى ابن رشيق ... ... ٢١، ٢٢
أثر النزعة الشخصية فى أحكام النقاد ... ٢٢، ٢٣
نقد رأى أبى هلال العسكرى... ... ... ٢٣، ٢٤

صفحة

الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان ٢٣
الموضوعات هى التى تحدد الصياغة الفنية ٢٥
نقد رأى المسيو مرسيه فى فهم خطاب معــاوية ٢٥
الجمــع بين الشــعر والنثر وفقا لموجبات المعانى والأغراض ٢٥
كلمة حاسمة فيما يصلح للشعر وما يصلح للنــثر... ... ... ٢٦
غلبة الشعر على كتاب القرن الرابع ٢٦
نمــاذج من شعر الصاحب وابن العميد وبديع الزمان ٢٧
نقد رأى القلقشندى... ... ... ٢٧، ٢٨
خلاصة القول فى الشعر والنثر... ... ... ٢٩
دواعى الشعر لا تزال تزخر بها الحياة ... ٢٩
الغرض من تأليف هذا الكتاب ٣٠

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب ، ولكن الغرض إرشاد القارئ الى أهم الموضوعات التى عرض لها المؤلف بالنقد والتحليل .

البـاب الأوّل

تطـــور النـــثر من عصر النبوّة الى القرن الرابع

١ — النثر الجاهلى

	صفحة
هـل كان للعرب نثر فنى فى عصور الجاهليـــة ؟	٣٣
نقد رأى الأستاذ خليل مطران	٣٣
نقـد رأى المسيو مرسيه والدكتور طه حسين	٣٣
خطب أهـل الجاهلية	٣٤
كان للجاهليين نثر فنى ولكنه ضاع ...	٣٤
نقد حديث خنافر الحميرى	٣٥
خطبة قس بن ساعدة موضوعة	٣٥،٣٦
خطب وفود العرب عند كسرى موضوعة	٣٦
هل كان كسرى يتكلم العربيـــة ؟ وهل كان عند النعمان ديوان إنشاء ؟ ...	٣٦،٣٧
المحاورات المنسوبة الى أهل الجاهلية...	٣٧
ما حفظ من الشعر أكثر جدا مما حفظ من النـثر	٣٧
ضياع خطب الاسلاميين أنفسهم لقلة التـدوين	٣٧
القرآن من شواهد البلاغة الجاهليـــة ...	٣٨
خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه فى دعواهم أن ابن المقفع أوّل كاتب فى اللغـة العربيـــة	٣٨
خطأ من ظن أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر	٣٨
أين نضع القرآن من عهود النثر فى اللغة العربيـــة ؟	٣٩
سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفـاظ	٣٩
عرض القـرآن لمـا كان فى عصره من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية	٤٠
ليس القرآن مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون وان اشتمل على سور قصيرة مسجوعة للدعاء والابتهـال	٤٠
خلو القرآن من الشعر الموزون	٤١
نظام الآيات يخالف نظام النثر المرسـل ونظام السجع	٤١
القرآن يسوق القصص وقد يكرر القصة الواحـــدة	٤١
تبتدئ بعض السور بألفاظ غير مفهومة اختلف فى تأويلها المفسرون	٤١
رأى المسيو بلانشو فى فواتح السور القرآنية	٤١
نُظم القرآن نظما غنائيا وكان ترتيله ملحوظا فى أوضاعه النثرية	٤٢
القرآن لا يلتزم السجع	٤٢
الابتداء بالبسملة	٤٢
الأسلوب يختلف بين السور المكية والمدنية	٤٢
تصوير القرآن لمـا كان يعرف الجاهليون من الحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية	٤٢

صفحة

كان للعرب نثر فنى قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان... ... ... ٤٣

٢ — نشأة النثر الفنى

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وصل الى العرب من الفرس ويرى الدكتور طه أنه وصل اليهم من اليونان، وهـذه مدرسة قديمة ترجع الى رينان ٤٤

تأثر العرب بالفرس فى حياتهم الأدبية ... ٤٥

القرآن يفيض بالصنعة والزخرف ٤٥

من الواجب أن يجعل ميـدان النضال عصر النبوّة لا العصر العباسى ٤٥

كيف يتعذر فى الوقت الحـاضر درس القرآن دراسة تحليلية ٤٥

القرآن أثر عربى صرف لم يتأثر بالفرس ولا باليونان ٤٦

الزخرف طابع أصيل فى اللغة العربية ... ٤٧

هـل كانت اللغـة الأدبية التى سبقت الاسلام تخالف كثيراً لغة القرآن ... ٤٧

نشأة العلوم العربية ٤٧

كان البـديع موجودا وتطور على ألسنة الشـعراء ٤٨

لم يكن العرب أميين بالدرجة التى يصوّرهم بها أكثر الباحثين ٤٨

كان الجاهليون يعرفون النقد الأدبى ... ٤٨

كان الاسـلام تاجا لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية ٤٨، ٤٩

صفحة

الحياة الأدبية والاجتماعيـة لعهد النبى لم تصوّر بصورتها الحقيقية الى الآن ... ٤٩

كيف ضاعت آثار الوثنيين والنصارى واليهـــود ... ... ٤٩، ٥٠

كيف ضاعت آثار حزب المعارضة لعهد الرســـول ٥٠

ضياع أكثر آثار النبى وأصحابه ٥٠

كان للعرب فى عصر النبوّة أدب يمثـل طور التحوّل والانتقال ٥٠

كان للعـرب أدب يقرب فى أسـلوبه وروحه من أسلوب القرآن وروحه ٥١

تسمية العصر الذى سبق القرآن «بالجاهلى» تسمية دينيـة فقط، وإلا فهو عهد معرفة ونور ٥١

كيف استمسك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدّوه وحده المرجع فى ضبط أساليب اللغة العربيـة ... ٥١

كيف كان الأدب الجاهلى يصنع ويباع فى الأسواق ٥١

الجاهليون فى رأينا هم سكان الحواضر، وكانت لهم آداب وعلوم وفنون... ... ٥١

الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ٥٢

فى المكاتب الشرقية والغربية آثار جاهلية لم تدرس الى اليوم ٥٣

كيف وأد المسلمون بعض آيات الأدب الجاهـلى ... ... ٥٣، ٥٤

تشاؤم الخلفاء من رواية طائفة من الأدب الجاهـــلى ٥٤

صفحة

شاهد من الأدب المصرى الحديث الذى
تناساه الناس عامدين ٥٤
ليس أبو الأسود أول من وضع النحو
كما يعتقد الأزهريون، وليس النحو
أثرا من آتصال العرب بالسريان والروم
كما يظن المستشرقون... ... ... ٥٥
رأى آبن فارس فى قدم العروض ... ... ٥٥، ٥٦
رأيه فى معرفة القدماء بأصول التصريف ٥٦
ليس آبن المعتز أول من وضع علم البديع ٥٦

٣ — النثر الفنى فى العصر الاسلامى

كيف أيقظ الاسلام العرب وأحيا أدبهم ٥٧
الخلاف بين المهاجرين والأنصار وقيام
الأحزاب السياسية أثرا فى النهضة النثرية ٥٧
عمق النثر بفضل آتصال العرب بالأمم
الأجنبيـــة ٥٧
حرص أمراء العرب على تربيـة أبنائهم
تربية بدوية ٥٨
كيف كان النبى وأصحابه يبتدئون الرسائل ٥٨
أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربية ومناقشة
رأى المسيو مرسيه فى دعوى تجنب
العرب محاكاة القرآن ٥٨
الايجاز والإطناب ومراعاة ظـروف
الخطاب ... ... ٥٨، ٥٩
لم يكن الكتّاب والخطباء جميعا موفّقين
الى ترك الفضول... ... ... ٥٩
رأى آبن قتيبة فى الايجاز والاطناب ... ٥٩
كتّاب يزيد بن الوليد ٦٠

صفحة

نقد رأى الأستاذ أحمد الزيات ٦٠
عبد الحميد بن يحيى أول من نقل تقاليد
الفرس الى الكتابة العربية ٦٠
هل كانت شخصية عبـد الحميد بن يحيى
خرافيـــة؟ ٦٠
السجع لم يلتزم فى النثر الاسلامى ٦١
جهد واصل بن عطاء ودلالتـه على
إجادتهم للنثر ٦١
اهتمام الكتّاب ببسط المعانى وتأكيدها ٦١
رسـالة الحسن البصرى الى عمر بن
عبد العزيز ٦١
مشاورة المهدى لأهل بيته ٦٢
نقد أسلوب الجاحظ ٦٢
الخيال فى كلام الخطباء والكتّاب... ... ٦٣

٤ — أطوار السجع

خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ٦٤
السجع من مميزات البلاغة الفطرية ... ٦٤
شواهد من السجع فى اللغة الفرنسية ... ٦٥
شواهد من السجع فى أسماء الشهور عند
الفرنسيين والمصريين... ... ... ٦٥
السجع من خصائص اللغة القرآنية ... ٦٥
تشابه صور الترتيـل عند المسلمين
والنصارى واليهود ٦٦
أمثـلة من سجع القرآن ... ... ٦٦، ٦٧
السجع فى الأحاديث النبوية ... ... ٦٧، ٦٨
السجع فى خطب الخلفاء... ... ... ٦٨

	صفحة
نقد رأى المسيو ديمومبين فى نهج البلاغة	٦٩
رسالة على لسان عمر يخاطب بها أبا عبيدة	٦٩
السجع فى خطب خلفاء بنى أمية	٧٠
السجع فى لغة الزهاد والنساك فى العصر الأموى	٧٠
نقـد ما رأى المسيو مرسـيه من كراهة معاوية للسجع	٧١
ابن المقفع كان يسجع، وكذلك عبد الحميد	٧١
شاهدان من نثر عبد الحميد	٧٢
شاهد من الكلام الموزون عند ابن المقفع	٧٢
ميل الأذواق العربية الى إيثار السجع...	٧٣،٧٢
ما وضع من الأحاديث على ألسـنة الأعراب	٧٣
التزام السجع فى وصايا الآباء للأبناء ...	٧٤
وصية عبد الله بن شداد وعلقمة بن لبيد	٧٤
زعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع	٧٤
العجاج فى حضرة عبد الملك بن مروان	٧٤
صعصعة بن صوحان فى حضرة معاوية ابن أبى سفيان	٧٦،٧٥
كان السجع من وسائل العفاة والمجتدين	٧٧
بديع الزمان اقتبس طريقة السائلين ...	٧٨
أعرابى يلاحى أحد الفتيان	٧٩
أعرابى وقف على قوم فمنعوه...	٧٩
رأى الرقاشى فى إيثار السجع...	٨٠
خطأ صاحب (الريحان والريعان) فى الخلط بين الخطب والموزون	٨٠
رسالة كلثوم بن عمرو العتابى	٨١
ظهور السجع فى الكتابة والتأليف ...	٨١
كتاب فى ذم أحمد بن الخصيب	٨١
كلمة ابن المعتز فى مدح مدينة سر من رأى وذم مدينة بغداد...	٨٢
شواهد من كلامه المسجوع	٨٣،٨٢
السجع فى عناوين فصول كتاب الزهرة	٨٣
السجع فى عناوين الكتب	٨٤
السجع فى بعض كتب ابن المقفع ...	٨٤
السجع فى عناوين كتاب الموشى	٨٥
شاهد من سجع الوشاء فى كتابه	٨٥
أسجاع على فصوص الخواتم	٨٦،٨٥
السجع فى الغزل والوصف والهجاء ...	٨٦
السجع فى كلام الجـاحظ	٨٧،٨٦
ما هو المزدوج	٨٧
دفاع الجاحظ عن السجع	٨٨
الحقائق المستخلصة من كلام الجاحظ...	٨٩
رأى الخفاجى فى السجع	٩٠،٨٩
القرآن أنزل بلغة العـرب وعلى عرفهم وعادتهـم	٩١
شاهد مسجوع من كلام قطرى بن الفجاءة وآخر لخطيب من آل صوحان	٩١
كان الكلام يوضـع على ألسـنة الرواة مسـجوعا	٩٢
دفاع أبى هلال العسكرى عن السجع...	٩٣،٩٢
رأى الحريرى فى الإتبـاع، وشىء من شواهده فى اللغة العامية عند المصريين	٩٣

	صفحة
السجع فى الشـعر وهو الترصيع	٩٤
دفاع ابن الأثير عن السجع	٩٥
السجع من أسرار الإعجاز فى القرآن ...	٩٦
القرآن لا يكاد شيء يخرج منه عن السجع والموازنة...	٩٦
هل كان عصر الجاحظ بريئا من السجع؟	٩٦
شواهد من سجع الجاحظ	٩٧
رأى قدامة بن جعفر فى السجع	٩٧
رأيه فى سجع أهل القرن الرابع...	٩٨
السجع فى بعض ما ترجم المتقدّمون من الفارسية واليونانية والعبرية	٩٩
درس السجع ضرورى فى بناء هذا الكتاب	١٠٠
السجع يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان...	١٠٠
السجع فى العصر الحاضر...	١٠١
رأى ابن أبى الحـديد ورأى شـــوقى فى السجع	١٠١

البـــاب الثـــانى

خصائص النـــثر فى القرن الرابـــع

١ — خصائص نثرية

هل فى القرن الرابع خصائص نثرية ...	١٠٥
إيثار البديع	١٠٥
التزام السجع فى جميع الرسائل حتى المطوّلة	١٠٦
تضمين الرسائل أطايب الشـعر ومختار الأمثال	١٠٦
الكتابة فى الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف	١٠٧
رسالة بديع الزمان فى ذم أحد القضاة ...	١٠٧
رسالته الى شاب عاد يستميل فؤاده بعد أن عُزِل وضاع صـباه	١٠٩
عدم التقيد بصيغة خاصة فى بداية الكتب	١١٠
شواهد مختلفة	١١١
خصائص النثر فى القرن الرابع ليست إلا فنونا تطوّرت على الزمان	١١٢

٢ — السجع والازدواج

طرائق الكتّاب فى إيثار السجع والازدواج	١١٣
الطائفة التى تلتزم السجع	١١٣، ١١٤
شواهد من سجع الصاحب وابن العميد...	١١٤، ١١٥
التوحيـدى يمزج بين السجع والمزاوجة	٢١٥
شاهـد مطوّل من نثره فى وصف نكبة أبى الفتح بن العميد	١١٦—١٢١
تحليل بعض فقرات هذه الرسالة الطويلة	١٢١
أسلوب الشريف الرضى...	١٢١
أسلوب أحمد بن عبد ربه	١٢٢
حرية النثر عند ابن مسـكويه وإخوان الصـــفاء	١٢٢
موازنة بيـن أســلوب التوحيـدى وابن مسكويه	١٢٣
شاهد من نثر ابن مسكويه	١٣٤

	صفحة
شاهد من نثر إخوان الصفا في وصف الرسول	١٢٤
نقد هذا الشاهد	١٢٥
ابن حزم والفارابي والاشارة الى الفرق بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية...	١٢٥

٣ — تصوير الحياة العقلية

قوة حزب الشيعة ورسالة الخوارزمي في مناصرتهم...	١٢٦
تفسير أمثال هذه الرسالة لغوامض التاريخ	١٢٧
اختلاف الفرس والعرب	١٢٧، ١٢٨
تصوير الكتاب لنعيم العقل والحواس...	١٢٨
رأى الثعالبي وابن قتيبة في الأدب المكشوف	١٢٩
خصومات الكتاب	١٢٩
رسالة بديع الزمان الى أبي نصر بن المرزبان	١٣٠
الخصومة بين الهمذاني والخوارزمي ...	١٣٠
خصومة التوحيدي لابن عباد وابن العميد	١٣١

٤ — الفكاهات

الفكاهة فن قديم ازدهر في القرن الرابع	١٣٢
تحليل المقامة الشامية...	١٣٢
تحليل المقامة المضيرية	١٣٣–١٣٩
وصف حمل هزيل لأبي الخطاب الصابي	١٣٩، ١٤٠، ١٤١
أبو إسحاق الصابي يعزى عن ثور أبيض	١٤١، ١٤٢
عهد التطفل للصابي...	١٤٢، ١٤٦

٥ — التسيب

	صفحة
النسيب فن قديم وجدت منه شواهد في القرآن	١٤٧
القصص الغرامي في عصر بني أمية وبني العباسي	١٤٧، ١٤٨
أقصوصة غرامية	١٤٨
وصف المخطوبات	١٤٩
وصف الهوى والنساء	١٤٩، ١٥٠
رسالة تشبيب حدث بها مخارق المغني...	١٥١
وصف أبي العتاهية لمخارق	١٥١
كلمات غزلية لعلي بن عبيدة الريحاني...	١٥٢
رسالة تشبيب كتبها إسحاق بن إبراهيم الموصلي	١٥٢
كتاب غلام من ولد أنوشروان الى رفيق له بالديوان	١٥٣
جواب ذلك الرفيق	١٥٤
كتاب شوق أرسله الجاحظ الى ابن المدبر	١٥٥
كتاب حب أرسلته معشوقة لابن المعتز، وجواب ابن المعتز على ذلك الخطاب	١٥٦
كتاب شوق لابن العميد...	١٥٧
خطاب وجد لقابوس بن وشمكير ...	١٥٧
فقرات في محاسن النساء والغلمان	١٥٨–١٦٠
خطاب المذكر أسهل من خطاب المؤنث في توجيه الضمائر والإشارات	١٦٠
غزل المذكر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية	١٦١

صفحة

ردّ الفعل لهـذه النزعة عند كتّاب العصر الحـاضر ١٦١

موقفنا موقف المؤرّخ للظواهر الأدبية ١٧٢

٦ – الاخوانيـات

قدم هـذا الفن فى اللغة العربية ١٦٣

فقرات من الاخوانيات ١٦٣–١٦٦

انتهاب كتّاب القرن الرابع لمعانى المتقدمين ٢٦٦

الاخوانيات عند التوحيدى ١٦٦–١٦٩

الاخوانيات عند بديع الزمان ٧٦٩–٧٧٠

الاخوانيات عند العتبى ١٧٠

٧ – الوصـــف

موضوعات الوصف عنـد كتّاب القرن الرابـع ١٧١

فقرات مختلفة فى الأوصاف ١٧٢

إغارة توفيق البكرى على كتّاب القرن الرابع ١٧٣

إغارة كتّاب القـرن الرابع على معانى من سبقهم من الكتّاب والشعراء ١٧٤

نظرية الفن للفن ١٧٧

فهم المعاصرين لفن القرن الرابع ١٧٥

صور فنية على ألسنة أرباب الصناعات... ١٧٥–١٧٨

وصف البلاغة ١٧٨

قيمة الزخرف عند كتّاب القرن الرابع ... ١٧٩

صفحة

٨ – المبتذل والطريف

ماهو المبتذل وما هو الطريف ؟ ١٨٠

رأى المسيو ديموميين... ... ... ١٨٠

توجد المبتذلات فى جميع اللغات ١٨٠

نماذج من المبتذلات (الكليشيهات) ... ١٨١

تعابير تبتـذل لسبب غير كثرة الاستعمال ١٨٢

انتقال المبتذلات من عصر الى عصر... ١٨٣

تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط... ... ١٨٣

أنواع المبتـذلات ١٨٤

فى اللغة العربية تعابير تفيض قوّة وحياة ولكن آنصرف عنها الكتّاب ١٨٥

تعـابير توجبها الضرورة اللغوية وتحييها الصور الفنية... ... ... ١٨٦

«الكليشيه» لا يوجد فى اللغة العربية إلا قليـــلا... ... ... ١٨٧

نماذج من التعابير الحية ١٨٨–١٩١

كلام سعيد بن حميد وتوفيق البكرى ... ١٩١

إحياء الصور القديمة يزيد اللغه قوّة ... ١٩٢

رأى أبى العلاء فى حلاوة القرآن ١٩٢

البلاغة كالموسيقا يزيدها التكرار قربا من النفس ١٩٢

عناية كتّاب القرن الرابع بخلق أنصار من الخـواص ١٩٣

البـاب الثـالث

كتاب الأخبـار والأقاصيص

صفحة

١ — المقـامات

القصص فى البيئات العربية ١٩٧
هـل كان بديع الزمان هو المنشئ الأول لفن المقـامات ١٩٨
رأى الحريرى ١٧٧
ابن دريد هو مبتكر هذا الفن ... ... ١٩٨، ١٩٩
أحاديث ابن دريد ٢٠٠
ما هى المقامات فى كلام ابن المدبر ... ٢٠١
طريقة ابن دريد وطريقة بديع الزمان... ٣٠١
مقامات ابن نباتة السعدى ٢٠٢
مقامات الحريرى ٢٠٢
فن بديع الزمان وفن الحريرى فى المقامات ٢٠٢
شيوع هذا الفن فى الأقطار العربية ... ٢٠٢-٢٠٣
انتقال هـذا الفن الى الفارسية والعبرية والسريانية ٢٠٣
فن المقامة غير فن القصة ٢٠٤
أهمية ابتداع بديع الزمان ٢٠٥

٢ — مقامات بديع الزمان

كانت مقاماته خمسين ولم تكن أربعمائة ٢٠٦
شـواهد من المقامات ٢٠٦
وقوف بديع الزمان عند شخصية واحدة... ٢٠٩
شـغفه برسم السوءات ٢٠٩
الوصف فى مقامات بديع الزمان ٢١١-٢١٦

صفحة

ألغاز شعرية ٢١٦-٢١٩
القدماء والمحدثون من الشعراء ... .. ٢١٩، ٢٢٠
رأى بديع الزمان فى آراء المعتزلة ٢٢١
المجون فى بغداد ٢٢٢
فكاهة الحمام ٢٢٣
نصائح بديع الزمان ٢٢٤
أخلاق بديع الزمان فى مقاماته ... ... ٢٢٥، ٢٢٦
أهمية المقامات ٢٢٦

٣ — أحاديث ابن دريد

حياة ابن دريد وشاعريته ٢٢٧
حياته فى بيته ونظرته الى المحاسن المعنوية ٢٢٨
خفة روحه وحلاوة نكتته ٢٢٩
جرأته فى بيته ودرسـه ٢٢٩
أحاديثه القصصية ٢٣٠
ظرفه فى تصوير حج أبى نواس ٢٣١
اهتمامه بتصوير الشمائل العربية ... ... ٢٣١، ٢٣٢
تصويره لشجعان العرب وأجوادهم ... ٢٣٢
وصفه لأعيان الجاهلية ٢٣٢
حديث المرأة التى عاشت بجوار قبور أهلها ٢٣٣

٤ — روايات الأغانى

حياة الأصـفهانى ٢٣٤
أثر أخلاقه الشخصية فى أعماله الأدبية... ٢٣٤

صفحة

تعقبه لهفوات الشعراء ٢٣٥
منهج كتاب الأغانى ٢٣٥
نموذج من أخبار ابن أبى ربيعة ٢٣٦
اهتمام الأصفهانى بالجوانب الطريفة من الأخبـار ٢٣٧
قصص ابن أبى ربيعة ٢٣٧–٢٤٠
نقد الأصفهانى لبعض الأخبار ٢٤١
أخبار ابن أبى ربيعة وضعت تفسـيرا لشـــعره ٢٤١
لم يخـترع الأصفهانى كل أحاديث عمر ٢٤٢
أقاصـيص من حيـاة الأصفهانى الشخصية ٢٤٣–٢٤٥

٥ — أخبـار ابن دريد

من هو عبد الرحمن بن أخى الأصمعى ... ٢٤٦
اختلاق ابن دريد ٢٤٧
بعض النواحى العقلية من ابن دريد ... ٢٤٧
قصة لقمان بن عاد ٢٤٨
حكايات ابن خالويه ٢٤٩
روح العصر... ... ... ٢٤٩
أبو عمر الزاهد وتلفيقاته ٢٤٩
تحليل أخبار ابن دريد ٢٥٠
وصف الزوج المنشود ٢٥٠
الأخبار التعليمية ٢٥١
قصة الفتى العاشق ٢٥١
تعليل الكلمة التى قالها عَبيد بن الأبرص وهو محتضَر ٢٥٢

صفحة

ما نقله ابن دريد عن السجستانى ... ٢٥٢
حديث عامر بن الظرب العدوانى وحممة ابن رافع الدوسى ٢٥٢
هل كان الجاهليون يفكرون فى البلاغة ؟ ٢٥٣

٦ — حكايات ابن الأنبارى

هل كان ابن الأنبارى يضع القصص ؟ ٢٥٤
قصة السفيه الذى كان يجمع بين الرجال والنساء فى مكة وعرفات... ... ... ٢٥٤
لغة ابن الأنبارى ٢٥٥
قصة سوار... ... ... ٢٥٥

٧ — التوابع والزوابع

معنى التوابع والزوابع ٢٥٨
رأى الدكتور أحمد ضيف ٢٥٨
متى كتبت رسالة التوابع... ... ... ٢٥٩
التشابه بين رسالة التوابع و رسالة الغفران ٢٦٠
مطلع الرسالة والاتصال بزهير بن نمير الجنى ٢٦١
هل كان للخطباء والكتّاب شياطين؟ ... ١٦٢
شعر البغال والحمير فى عالم الجن ٢٦٢
حكم ابن شهيد بين بغل وحمار ٢٦٣
بغلة أبى عيسى ٢٦٤
فهم ابن شهيد لعالم الطير... ... ... ٢٦٤
وصف الأوزة ٢٦٤
ملاحاة الأوزة لابن شهيد ٢٦٥
مذهب الجاحظ فى الكتابة ٢٦٥
رأى ابن شهيد فى أهل الأندلس ٢٦٥–٢٦٦

صفحة

كان آبن شهيد مبتلًى بحقد معاصريه ... ٢٦٦
غرام آبن شهيد بمعارضة كتاب المشرق ٢٦٧
اصطدامه بشيطان أنف الناقة ٢٦٧
زهو آبن شهيد ٢٦٨
رأيه فى البيان ٢٦٨
رأيه فى شعره ٢٦٩

٨ — الانسان والحيوان أمام محكمة الجن

تأثر كاتب الرسالة بكتاب كليلة ودمنة ... ٢٧١
قصة الخصومة بين الانسان والحيوان... ٢٧١
وصف جزيرة صاغون ٢٧٢
روح الفكاهة فى الرسالة ٢٧٣
تأثر الكاتب بنظرية المثال ٢٧٤
أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ٢٧٤
زعماء الوفود يصفون أممهم وينقدهم وزير الجن ٢٧٤–٢٧٦
تعابير تعيِّن أذواق الشعوب ٢٧٦
اللغة العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس ٢٧٧
الطبيعة يأكل بعضها بعضا ٢٧٧
النقل بالعربات... ... ... ٢٧٧
التشابه بين الكلب والانسان ٢٧٨–٢٧٩
أصل العداوة بين الإنس والجن ٢٧٩
دور القران... ... ... ٢٨٠
السبب فى كثرة الملوك عنـد الانس ... ٢٨٠
نتيجة المحاكمة بين الانس والجن... ... ٢٨٠

صفحة

٩ — أخبار التوحيدى

ما هو عمل التوحيدى فى الأقاصيص... ٢٨١
نقل فلسفة اليونان عن اللغـة السريانية ٢٨١
محصول العرب من الوجهة الفلسفية ... ٢٨١
واضع حديث السقيفة ٢٨٢
خلاصة هـذا الحديث ٢٨٣
بوادر الشر الذى كان يهدد كيان المسلمين ٢٨٤

١٠ — قصص الببغا

طرف من حياته ٢٨٦
القصص الغرامى عند العرب... ... .. ٢٨٦
قصة طريفة فيها قليل من المجون ... ...٢٨٦، ٢٩٣

١١ — أحمد بن يوسف المصرى

رأى مؤلف هذا الكتاب فى أسرار البلاغة ٢٩٤، ٢٩٦
كتاب المكافأة ٢٩٧
اللصوص الشرفاء ٢٩٨
أسلوب أحمد بن يوسف ٢٩٩
نموذج من دقة الاشارة ٣٠٠
قصـة الفتاة الدميمـة التى تزوجت من رجل كريم ... ... ٣٠٠، ٣٠١
تعابير جيدة... ... ... ٣٠٢
بعض المآخذ فى أسلوب آبن يوسف... ٣٠٣
تعابير مصرية ... ...٣٠٤، ٣٠٦
السر فى فصاحة الكلمات ٣٠٦
الغرض الذى وضع لأجله كتاب المكافأة ٣٠٧
أقسام الكتاب ٣٠٨

صفحة

المحن والشدائد من أجمل ما يهب الله ... ٣١٠
قوة العقيدة... ... ... ٣١٠
فضـل كتاب المكافأة على مؤلف هـذا
الكتاب... ... ... ٤١١

١٢ – عبد الله بن عبد الكريم

شخصيتـه ٣١٢
قصة وقعت فى قصر ابن طولون ٣١٢–٣١٤

١٣ – المحسن التنوخى

نشوار المحاضرة ٣١٥
موضوع هذا الكتاب وما حذف منه ... ٣١٦
أهمية هذا الكتاب ٣١٧
قوة الحس ودقة الملاحظة وخصب اللغة
عند التنوخى... ... ... ٣١٩
المتقدمون لم يتفردوا بالابداع ٣١٩
ثورة التنوخى على أمراء عصره ٣٢٠
الوقت الذى وضع فيه كتاب النشوار ... ٣٢١
طريقة التنوخى فى التأليف ٣٢٢
نقل آداب الناس ٣٢٣
درس النفوس ٣٢٤
لغـة المؤلف ٣٢٤
خطاب من نثر المؤلف ٣٢٥
تعابير جميلة... ... ... ٣٢٦
كلمات حية ٣٢٧–٣٣٠
نقد طباع الناس ٣٣١
قرد يفهم فكرة الخير والشر ٣٣١
بابك الخرمى وقوة النفس ٣٣٢
أريحية الوزراء ٣٣٣
شيوع الرشوة عند الحكام الأقدمين ... ٣٣٤

صفحة

القاضى أبو يوسف وعنف زوجته ... ٣٣٤
أبو يوسف عند الرشيد ٣٣٥
تشبيب القضاة ٣٣٥
صلة ابن المدبر بعريب ٣٣٦
بين عريب وابراهيم بن المدبر ٣٣٧
الغناء عند المسلمين ٣٣٧

١٤ – حكاية أبى القاسم البغدادى

حياة أبى المطهر الأزدى... ... ... ٣٣٨
الغرض من هذه القصة ... ... ٣٣٨،٣٣٩
شخصية أبى القاسم البغـدادى وشخصية
أبى الفتح الاسكندرى ٣٣٩
منهج أبى المطهر فى قصته ٣٣٩
حكاية شمائل العميان والحيوانات ... ٣٤٠
وصف المجون فى بغداد ٣٤١
ألفاظ السباحة والملاحين ٤٤١
أسماء الشوارع فى أصبهان ٣٤٢
صورة فنية فى وصف منافق ٣٤٢–٣٤٥
وصف الثقيل ٣٤٥
موازنة قصيرة بين رسالة أبى المطهر
ورسالة الخوارزمى ٣٤٦
وصف جمال النساء ٣٤٧
وصف جمال الغلمان ٣٤٨
وصف غلام ماجن ٣٤٩
تعليل المجون ٣٤٩
فكاهات البغداديين ٣٥٠
تعابير بغدادية تحيا فى مصر ٣٥١
رائية الخزرجى فى ألفاظ المـاجنين من
أوباش بغداد ٣٥١

تصـــحيحات (١)

صفحة	سطر	الخطـــأ	الصـــواب
٧٧	٦	الفَـــول	القَـــول
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمّك خيره
٨٣	١٧	من اغنفر	من اغتفر
٨٤	١	خطـــيرة	حظـــيرة
٩٧	١٩	عبـــوب	عيـــوب
١٠١	٢٣	ولن يصيرها	ولن يضيرها
١٢٠	١٢	كتابه	كاتبـــه
١٣٩	٦	يقـــلق	يعـــلق
١٥٦	٧	أتى	انى
٢١٣	٢١	كوته	كرته
٣٠٧	١٣	فى كل غير	فى كل خير

(١) صحح هذا الكتاب بعناية شديدة . ولكن ذلك لم يصل به الى العصمة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلاط . وان كنا على ثقة من أن القارئ الفطن لن يغيب عنه المعنى لكلمة ينقصها إعجام أو يشوبها تحريف .

وقد نظرنا فى الجزء الثانى فلم نجد فيه إلا أغلاطا يسيرة جدا يدركها القارئ بدون توقيف ، فلم نر موجبا لاثباتها هناك .

كَمُلَ طبع الجزء الأوّل من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
بمطبعة دارالكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوّال سنة ١٣٥٢
(أوّل فبراير سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

الأخلاق عند الغزالى

قُدِّم هــذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيّد جدّا » ولقب دكتور فى الآداب .

يقع هذا الكتاب فى ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخيــة التى تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدّمة بديعــة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمى . وهــذا الكتاب ضرورى جدا لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق، وعلى العصر الذى عاش فيــه الغزالى،والمصادر التى آستقى منها آراءه الفلسفية،والفرق بين الخير والشر، والكفر والإيمان، والشك واليقين ، والجبر والآختيار ، وما الى ذلك من المباحث الهامة التى حار فى فهمها الباحثون، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفى هذا الكتاب باب ممتع فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدَثين، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت، وبسكال، وهوبس، وبوتلير، وكارليــل، وسبينوزا، وجسندى، ومالبرانش . . وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر فى الغزالى : كالدكتور منصور فهمى، والشيخ على عبــد الرازق، ومحمد بك جاد المولى، والأستاذ عبده خير الدين، والشيخ عبد العزيز شاويش، والكونت دى جالارزا، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ حسين والى، والشيخ عبد الباقى سرور، والشيخ يوسف الدجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .

مؤلفات زكى مبارك

١ — الأخلاق عند الغزالى .

٢ — La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

٣ — البدائع .

٤ — شرح الرسالة العذراء Étude sur La Lettre Vierge

٥ — حب ابن أبى ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .

٦ — ديوان زكى مبارك .

٧ — الموازنة بين الشعراء .

٨ — مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .

٩ — ذكريات باريس .

١٠ — تحقيق نسب «كتاب الأم» .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦١/١٩٣٢/٣٠٠٠)



تأليف



دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرّف جدًا]

الجزء الثانى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبـــع :

١ ـــ سرائر الروح الحزين .

٢ ـــ أكواب الشهد والعلقم .

٣ ـــ أسمـار وأحاديث .

---

(1)
فهـــــرس

البـاب الرابع

كتاب النقـد الأدبى

صفحة

أبو الحسن الجرجانى 7
نقد كتاب الوساطة 17
ابن فارس 27
نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية 37
النقد الأدبى عند ابن شهيد 48
أبو بكر الباقلانى ونقـد آرائه فى إعجاز القرآن 59
أبو القاسم الآمدى 82
بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى 89
أبو أحمد العسكرى 94
أبو هلال العسكرى 96
نقد كتاب الصناعتين 103
أبو على الحاتمى 111
أبو عبد الله المرزبانى 120

البـاب الخـامس

كتاب الآراء والمذاهب

أبو حيان التوحيدى 133
أبو على بن مسكويه 145
الأخلاق عند ابن مسكويه 152
ابن نباتة الخطيب 159
أبو محمد بن حزم وآراؤه فى الحب 166
أبو منصور الثعالبى 179

البـاب السـادس

كتاب الرسائل والعهـــود

صفحة

أبو الفضل بن العميد 193
نثر ابن العميد 202
أبو حفص بن برد 211
أبو المغيرة بن حزم 218
أبو الفرج البيغا 226
نثر أبى الفرج البيغا 233
الصاحب بن عباد 243
أبو بكر الخوارزمى 259
قابوس بن وشمكير 277
أبو إسحاق الصابى 290
رسائل الصابى 296
أبو عامر بن شهيد 302
نثر ابن شهيد 310
أبو الفضل الميكالى 319
بديع الزمان... 325
نثر بديع الزمان 351
عبد العزيز بن يوسف 357
الفهرس المفصل 363
فهرس الأعلام 373
المـــراجـــع 391

(1) انظر (الفهرس المفصل) فى آخر الجزء

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

---

١ – أبو الحسن الجرجانى

١ — إن للرجل الذى نتحدّث عنه فى هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفى فى تقدير فضله أن نشير الى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجانى صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الاعجاز" [1] . وسيرى القارئ فى درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هـذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية ، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل ، حىّ الإحساس ، حر الوجدان يلقى الى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزَء بها الآداب العربية لو توقر هـذا الرجل وترهب وألقى بنفسه فى تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أصمّ هـذا القاضى مشاعره ، وأمات ذوقه ، ودفن إحساسه ، وأغمض عينيه عما فى هذا العالم من فنون السحر ، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أوّل صفات القاضى فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له فى حياته ما يخضع له من مطامع العقل ، وأمانىّ النفس ، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لايحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر ، وهفوات العقول ؟

٢ — ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز فى مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت فى معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول فى ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبى على الفارسى ، وكذلك قال السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدّثين . وكانت لعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذى لا يستحيل صِبغه ، والذى كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون، والجوز والرمان، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرازير ، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر، وفيها يقول ابن خريم، أو الأقيشر اليربوعى — تردّد فى ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانيـــة لم يطف بهـا	حنيف ولم ينغر بهـا ساعةً قِــدرُ
ولم يشهـــد القَس المهيــنم نارها	طروقا ولم يحضر على طبخها حَــبر
أتانى بهـا يحيى وقـــد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جَنَح النسر
فقلت اصطبحها أو لغيرىَ فاسقها	فـما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها فى العصور التى مضت	فكيف التصابى بعد ما كَلأَ[1] العمر
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتى حياءٌ ولا ســتر
فدعه ولا تنفس عليـــه الذى أتى	وإن جرَّ أســباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون: من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة[2] .

ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من الفواكه ولشهرتها بالخمر تأثيرا فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفى ظلال هــذه المدينــة المفتَّنة فى تنسيق المزارع والمصــانع نشأ أبو الحسن الذى برع من تقدّمه من الكاتبين فى أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر ممـا يتلقاه به فى سائر البلاد .

قال : وقد استعفيته يوما من فرط تحفِّيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده ... وأمدّه من فعلك الحســنِ

---

(١) كلأ العمر : انتهى الى آخره وأقصاه .

(٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت فى الأمالى . أنظر ص ٧٥ ج ١ طبع بولاق .

فالعـــز مطلوب وملتَمسٌ　　　وأعزه ما نِيل فى الوطنِ

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل　　　ألا ليت قومى يعلمون صنيعى .

قال : والأصـــل فيه قوله تعـالى : ﴿ يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾[1] . ورغبة الرجل فى أن يكرم فى وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء فى مختلف الاجيال .

قال الثعالبى : "وكان فى صباه خلَف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العراق والشـام وغيرها وٱقتبس من أنواع العلوم والاداب ما صار به فى العلوم عَلَما، وفى الكمال عالمَـا . ثم عرَّج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشـتد ٱختصاصه به ، وحل منه محلا بعيـدا فى رفعته ... وتقـلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال فى حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله"[2] . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت[3] .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شىء . وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتابا فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف ٱستطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه الا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبى بأنه (تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الانتقادات)[4] وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبى حفظ لنا منه فصلين ٱثنين يمكن أن نعرف منهما منحى هذا الرجل فى دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء .　(٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة　(٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين فى الفصل الأوّل أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارَب ولايَن ، وفى أى وقت جاهَر وكاشف — ويبين فى الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك، وأوضح معارف الحق. ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهـذا الاتجاه يدل على أن هـذا الرجل كان يستخدم التاريخ فى نشر الدعوة الاسلامية . وآستخدام التاريخ فى الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلا ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم فى كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعتزت الأمم بما قد يصوَّر به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطرة على التاريخ .

أماتأليفه فى الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه" وسنعود اليه. وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هى عدّتنا فى تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ — كانت نفس القاضى على بن عبـد العزيز الجرجانى نفسا غاليـة : فلقـد ترك لنا فى شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة، التى حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة،وصونا للعرض من الدنس،وإبعادا للروءة عن مواطن الآبتذال.وسيرى القارئ حين نقدّم له صورة تلك النفس الغالية، الغالية،ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية فى سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينتقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين؟ لقد عزّت نفس قاضى القضاة وأسرفت فى التصوّن، إن كان فى التصوّن إسراف، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرِّيب والظنون حتى زينت له العـزلة والآنفراد . وشعره فى هـذا المعنى مثـال من

الأمثـلة العليا التى يعتز بمحاكاتهـا كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لى فيـــك انقباضٌ وانمـا رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ومن أكرمتـه عزة النفس أكرِما
وما زلت منحازا بعـرضىَ جانبـا من الذم أعتـدّ الصيـانة مغنما
اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكنّ نفس الحــرّ تحتمـل الظما
وما كل برق لاح لى يســتفزنى ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلمـا بدا طمع صـــيرته لىَ سُــلما
ولم أبتــذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشــقى به غرسـا وأجنيه ذلة إذن فاتّباع الجهــل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهــم ولو عظموه فى النفــوس لعُظـما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا مُحيّاه بالأطماع حــتى تجهمـا

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهرُ فأما اصطبارى فهو ممتنــعٌ وعرُ
كأنى ألاقى كـل يوم ينـوبنى بذنب وما ذنبى ســوى أننى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى أضـيق به ذرعا فعندى له الصـبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقـر
وبينى وبين المـال بابان حرّما علىّ الغنى : نفسى الأبيـة والدهر
إذا قيـل هـذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر
إذا قدّموا بالخـير قدمت دونهـــم بنفس فقـــير كل أخلاقه وفـــر

فى هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التى قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان . وأشرف ما وصف به ذلك القـاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرَض عليـه عرضا فيأباها إيثاره للصون وحرصه على الحلال . يتمثل هذا فى قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقـــوله :

إذا قيـل هـذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر

وقـــوله :

و بينى و بين المال بابان حرّما علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر

و يرحم الله من يعانى ثورة النفس، وقسوة الزمان !

٦ — وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجانى قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يثور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتـذر من انقباضه عن أخو يه ، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعـل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلق به فى ظلمات هذا الوجود، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهمُ عهدى ودُم لى و إن دام البعـاد على الودّ

ولى خُلُقٌ لا أستطيع فراقـه يفوّتنى حـظى و يمنعنى رشـدى

نفور عن الإخوان من غير ريبـة يعـدّ جفاءً والوفاء لهم وَكدى

غذيت به طفلا فان رمت هجره تأبّى وأغرتنى به ألفـة المهـد

كما ألفتْ كفاكما البذل والنـدى فأعياكما أن تمنعا كف مستجدى

على أننى أقضى الحقـوق بنيتى وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى

و يخدمهـم قلـبى وودّى ومنطق وأبلغ فى رعيِ الذمام لهم جهـدى

فإن أنتما لم تقبـلا لىَ عذرة وألزمتمانى فيـه أكثر من وجدى

فقولا لطبعى أن يزول فانه يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ — كان القاضى أبو الحسن الجرجانى من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال . وشعره فى وصف الملاحة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله — فى الخدّ المورّد والطرف الكحيل — :

أُنثر على خدّىَ من وردك ... أو دع فمى يقطفه من خدّك
ارحم قضيب البان وآرفق به ... قد خفت أن ينقدّ من قدّك
وقل لعينيك بنفسى هما ... يخففان السقم عن عبدك

وقوله — فى مغازلة النديم — :

أفدى الذى قال وفى كفه ... مثلُ الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنتى ... قلت فمى باللثم يجنيه

وقوله — فى فتنة الألحاظ — :

من ذا الغزال الفاتن الطرف ... الكامل البهجة والظرف
ما بال عينيه وألحاظه ... دائبة تعمل فى حتفى
واهًا لذاك الورد فى خدّه ... لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدى ... ما يشتكى قلبىَ من طرفى

وقوله — فى آختلاس التقبيل — :

وغنج عينيك وما أودعت ... أجفانها قلب شج وامق
ما خلق الرحمن تفاحتىْ ... خدّيك إلا لفم العاشق
لكننى أُمنَع منها فما ... حظىَ إلا خلسة السارق

وقوله — فى القسم بجنود الجمال — :

لا وجفون يغضها الخَذَلُ ... عن وجنات تذيبها القُبَلُ
ومهجة للهوى معرضة ... تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان ... أخر ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التى آخترناها من شعره فى الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله فى هذه المعانى أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعى بأن لا تنشر فى مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنّى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَن عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحيٍ ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالدنف الهائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفى تصيُّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عينى تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سَقَمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرىَّ دمك
أعرتَه صِبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدّ مِبضعه فآلحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيم المستهامُ
قل لأحبابه فِداكم فؤاد ليس يسلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضحك الرياض غمامُ
ربّ عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

فى ليـال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحــلام
وكأن الأوقات فيهـا كؤوس دائرات وأنسهن مـــدام
زمن مســعدٌ و إلفٌ وَصولٌ ومـــنًى تســتلذها الأوهـام
كل أنس ولذة وســرور قبـــل لقيا كمو عـــلىّ حرام

وقد أطلق الشاعر خياله فى هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال فى خيال . أليس يذكر أن عيشه الغض كان :

فى ليال كأنهنّ أمانٍ من زمان كأنه أحــلامُ

ولكن من ذا الذى ينكر جمـال هذا الخيال؟ أو من ذا الذى لا يروقه نوم جفون الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله فى الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعـــةٌ تلك الليالى كعهـــدها الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبــة أقــوام لبست لفقدهــم ثياب حداد يســتجدّ خليعـــها
إذا لاح لى من نحو بغــداد بارق تجافت جنوبى وآستُطير هجوعهـا
و إن أخلفتهــا الغـاديات رعودها تكلف تصـــديق الغمام دموعها
ســـقى جانبىْ بغــداد كل غمـامة يحاكى دمــوع المســتهام هموعهـا
معاهــد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُداوَى صريعــها
بها تسكن النفس النّفور ويغتــدى بآنس من قلب المقــيم نزيعها
يحن إليهـا كل قلب كأنمـا تشـاد بحبات القـــلوب ربوعها
فكل ليـالى عيشها زمن الصبا وكل فصـــول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حــكمها مســتكرها فأطيعهـا

راجع هــذا الشعر أيها القارئ وقلّب النظر فى ثنايا ذلك الروح الحزين . فســترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظمأ الى معاهد

تلك الظباء التى تحالفت لحاظها أن لا يداوَى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكَى فى ظلالها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق فى هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظبـاء :

بهـا تسكن النفس النفور ويغتدى ... بآنس من قلب المقـيم نزيعها
يحن إليهـا كل قلب كأنمـا ... تشاد بحبات القلوب ربوعها (١)

والعجيب فى هـذا الشعر أن تُصـوِّر نفس المحب فى غربتـه ونواه وهى تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق؟ أهذا ممـا يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظـاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشـوة الاصـطباح بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هـذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان العهـــود !

رويدكمُ لا تسبقوا بقطيعـــتى ... صروف الليالى إن فى الدهر كافيا
أفى الحق أنى قـد قضيت ديونكم ... وأن ديـــونى باقياتٌ كما هيا
فوا أســـفى حتـام أرعى مضيِّعا ... وآمن خـــوّانا وأذكـر ناســـيا
وما زال أحبـابى يسيئون عشرتى ... ويجفـونى حـتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجانى يجده القارىء فى أخباره باليتيمة — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ — «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب فى النقد لأبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى . يقع فى ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا فى سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخراهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ — ذكر الثعالبى أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة فى إظهار مساوى المتنبي عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه (١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب فى المتنبي فئتين : فئة تطنب فى تقريظه وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل، وفئة تجتهد فى إخفاء فضائله و إظهار معايبه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه، وأنه رأى من البر بالآداب — وهى أرحام لأبنائها — أن يقول كلمة الحق فى الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول فى الحرص على الأواصر الأدبية : « وما مَن حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتهن فى إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عِظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البرّ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا، ولا أقبح وسمًا من عقوق من ناسبك الى أكرم آبائك، وشاركك فى أفخر أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومتّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك الى الفخر (٢) » .

---

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ يتيمة . (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول فى ذلك :

" وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت [1] " .

وأخوة الأدب هذه عُرفتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلىّ ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب [2] ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ — وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدّمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجرير وأبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبى فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرّته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجبه الأنس بالاستطراد عند المتقدّمين .

(١) الوساطة ص ١٠   (٢) ص ١٧٠ — ١٧٣ (ط) أولى .

ونريد فى هـذا الفصل أن ندرس مع القـارئ بعض النظريات الأساسـية لصاحب الوساطة وأن نتبين معـه ما فيها من القوّة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون فى هذه المراجعة فائدة لمن تعنيهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجانى، أو كاد، بالشك فى سلامة الشعر الجاهلى من الضعف واللحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطة . وكان من النحاة من يعنّى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد فى شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجانى يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما فى لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهليـة جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومسترذلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن سـتر عليهم ونفى الظّنة عنهم . فذهبت الخواطر فى الذّبّ عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام » [(١)] .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب [(٢)] إثمـا من الله ولا واغـل [(٣)]

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة فى قوله :

لهـا متنتان خظاتا [(٤)] كما أكب على ساعديه النمـر

وتسكين الفعل بغير عامل فى قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضهـا أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

---

(١) الوساطة ص ١٢ — ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم اذا اكتسبه كأنه شىء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل فى الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخظاة : المكتنزة من كل شىء .

وقول الأسدى :

كنا نرقعها وقـد مزقت … واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا … وابنا نزار فأنتم بيضة البلدِ

وحذف النون فى قول طرفة : … قـد رفع الفخ فماذا تحـذرى

ورفع ما يجب نصبه فى قول الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع … من المـال إلا مسحتا أو مجلَّفُ

وخفض ما يجب رفعه فى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا من عرانين[1] وبله … كبير أناس فى بجاد[2] مزمل[3]

وقد أطال الجرجانى فى سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبيت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجانى من تعسف المنالحين عن شعراء الجاهلية ومَن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغنى هذه الاشارة . وانما نذكر ما قالوه فى توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع … من المـال إلا مسحتا أو مجلَّف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المـال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرنين وهو الأنف . وعرانين الوبل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملتف فى ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصىّ

نصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصى حملا على المعنى[1]. وكذلك قول الآخر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصينٍ عبيطات السدائف والخمر

برفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هى، الى آخر مايتأول النحاة ! !

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا فى أنهم نصبوا الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثانى وَفقا للمعنى؟ أكان الهذلى والفرزدق يحسبان حساب النحاة فى مثل ذلك التأويل ؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كَلَفا بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجانى . أو هو لحن صريح : فاننا نرتاب فى سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولَّدون وأن من الخطأ إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ[2] ... وهذا المذهب فى استقراء أغلاط القدماء خير من التورط فى النفح عنهم بما لا يغنى ولا يفيد . فقد كان الفرّاء يذكر أن من العرب من يقول فى " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا فى تلفتنا يوم الفراق الى جيراننا صور

وأننى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أدنو فانظور[3]

وهذا لحن لا ينبغى أن يتمحل له الصواب . فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله من قبيلة مهجورة تسيغ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجانى عن تأثير المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن للبادية أثرا فى خشونة الشعر وقوّة أسره وصلابة مَعجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع المفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلى والأموى كان يجرى على قواعد من النحو لم تأخذ صبغة نهائية فى التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك فى العصر العباسى، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطا بالقياس إلى لغتهم، وإنما هى أغلاط بالاضافة إلى اللغة التى حدّد قواعدها النحويون .

(٣) أنظر الصاحبى ص ١٢

وعذوبته وسلامتــه من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شــعر عدىّ وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدىّ الحاضرة و بعده عن جلافة البــدو وخشونة الأعراب[1]. وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر فى تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخَّل اليشكرى وهو جاهلى صقلته الحضارة ودمَّثه الترف فى قصور الملوك، ولننظر كيف يقول فى أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقــد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطيرِ

الكاعب الحســناء تر فل فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتهــا فتــدافعت مشى القطاة الى الغــدير

ولثمــتها فتنفســت كتنفس الظــبى الغــرير

فــدنت وقالت مامنـ ـخل ما بجسمك من حرور

ما شف جسمى غير حبـ ـك فاهدئى عنى وسيرى

وأحــبهــا وتحبــنى ويحب ناقتهــا بعــيرى

٧ — وأظرف ماتنبه اليه الجرجانى إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثرا فى رقة الشعر فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

” وأنت تجــد ذلك فى أهــل عصرك ، وأبنــاء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهــم كز الألفــاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى أنك ربمــا وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته وفى جرَسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك “[2] .

ولك أيها القــارئ أن تبحث عن ذلك أيضا فى أهــل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعانى أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس ! !

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان أو شعر أبى تمــام وشعر أبى نواس . وقد يكون الفرق بين شــعر الشباب وشــعر الكهول

(١) ص ٢١ (٢) ص ٢١ وساطة .

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فتى بما لم يستطعه وهو كهل . وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته : هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجانى أمثلة لذلك اكتفاء بوضوح الفكرة، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الجيرة الغادين من بطن وَجرة غزال كحيل المقلتين ربيبُ
فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ولكن من تنأين عنه غريب

وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فانما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجانى على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقىّ وانحط عن البدوىّ الوحشى. وهو لايوصى باجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم الألفاظ على رُتَب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر، ولا المديح كالوعيد، ولا الهجاء كالاستبطاء، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالتصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام: فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنّيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس[1] » .

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة .

فأما القــذف والإفحاش فهو ســباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المهذب الذى قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنــة، وأُلهم الفصــل بين الردئ والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح[1] » .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجانى مسبوقا فى هذه الآراء. فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف فى هذه الافكار تصرف المــالكين أن عقــله أُشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدّته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم...وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر[2] ووصية أبى تمام للبحترى[3] فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجانى فى سياسة النفس وتقويم البيان.

ولكنه ســيرى كذلك أن الجرجانى أنهضُ بحجته ، وأملكُ لرأيه ، وأقــرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه فى هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجانى أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب فى الديانة، كقوله :

يترشــفن من فمى رشــفات ... هن فيــه أحلى من التوحيــد

وقــوله :

وأبهـــر آيات التهـامىّ أنــه ... أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبى نواس فى مثــل قوله فى انتهاب اللذات والشك فى عذاب الاخــرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتى ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظُّر آجل ظنى به رجمٌ من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعرى واضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر"(1) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرىّ وجرجان : لنعرف الى أى حدّ كانت النزعة الفنية مسيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب. غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير. فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأحبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وانما الشاعرية روح يتمرّد به الشاعر فيهز نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبغى أو تقبيح الغىّ والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجنّ :

لما نظرت إلىّ عن حدق المها وبسمت عن متفتح النُّوّار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدّى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

---

(1) الوساطة ص ٥٧ و ٥٨

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة[1] ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى

ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة ... وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، و يروقك شكه و يقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، و يتحدّث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقة و إحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتّاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، و يفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتفتنّ يده الصَّنَاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون ! ! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تُصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئا لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها و بيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طلبا للمزيد . فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

---

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ – ابن فارس

١ – لم تعين كتب التراجم السنة التى ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذى ولد فيه . وقد نسبه ابن الأنبارى الى المكان الذى مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى [(١)] . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء [(٢)] : « واختلفوا فى وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثنى والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضرى مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :

بلاد بها شُدّت علىّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرىّ فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ – ذكر السيوطى فى بغية الوعاة [(٣)] أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلىّ بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه [(٤)] " وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالاشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل فجاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحا وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث اليعملات على وجاها [(٥)]

ولا يغررك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) اليعملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار تحزن من بكاها
فانك واجـد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفـة فى بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسـبة الى الصاحب . وحتى مدح الصـاحبُ ابنَ فارس بقوله « شـيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيـه من التصحيف »[١] ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ اليـه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب «رد الحجر من حيث جاءك» ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة[٢] . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت فى معجم الأدباء[٣] يعرض أحيانا بابن فارس فيذكر أنه رأى «بعض الجهال يصحف ويقول» . وأما حاله مع بديع الزمان الهمذانى فكانت فيما يظهر غاية فى صفاء الوداد. نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد اليه منـه فى ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنـا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التى سُجِّـل غدرها فى قصائد الشعراء، وصحائف الأنبياء. ولننظر كيف يقول «نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون[٤]، وإن ظنت الظنون، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قـد تقادم . وارتبكت الأضداد، واختلط الميـلاد . والشيخ الإمام يقول « فسـد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدّة المروانية وفى أخبارها لاتكسع الشول بأغبارها[٥]؟ أم السنين الحربية[٦] .

(١) طبقـات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢
(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن ، والكسع هو ترك بقية من اللبن فى أخلاف الناقة . المعنى : لا تغزر لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدرى من الناتج) كما فى بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

والرمح يركز فى الكلى (١) والسيف يغمد فى الطُّلى (٢)
ومبيت حِجر فى الفلا والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلىٌّ يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات فى نأنأة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلَف كجلد الأجربِ

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نحبها إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس، وإنما اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذه والعطف عليه فقال :

«ولعمرى لئن كان كرم العهد كتابا يرد، وجوابا يصدر، إنه لقريب المنال، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه، شفيق على بقائه، منتسب إلى ولائه، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علّمنيها منارا . ولو عرفت لكتابى موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته به ولرددت اليه سُؤر كاسه، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا رُدّت

(١) الكلى جمع كلية وكلوة بالضم . (٢) الطلى بالضم الأعناق جمع طلية أو طلاوة .

الينا) وله أيده الله العتبى، والمودة فى القربى، والمرباع، وما ناله البـاع . وما ضمه الجلد، وضمنه المشط . وليست رضاى ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال[1] :

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن‌فارس لعرفنا شيئا من‌صور نفسه،وألوان قلبه: فان لأزمات القلب،وبجعات النفس، دلالة كبيرة على المناحى التى يجنح اليها الكتاب والشعراء والباحثون[2] .

٥ — كان ابن فارس وسطا فى شعره ونثره : فلم يكن يُسفّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره فى جملة بيِّن واضح مقبول . يعجبنى منه قوله — فى تقريع رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقـرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيـه يؤلف فيلحن . فاذا نبها قالا (ما ندرى ما الاعراب وإنمـا نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعى بالرتبة العليا فى القياس . فقلت له : ماحقيقة القياس ومامعناه؟ من أى شيء هو؟ فقال (ليس علىّ هذا وإنما علىّ إقامة الدليل على صحته) .

«فقل الآن فى رجل يروم إقامه الدليل على صحة شيء لا يعرف معنـاه ولا يدرى ما هو ونعوذ بالله من سوء الاختيار !» .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرمى اليه من التهكم اللاذع بالفقهاء والمحدّثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعانى

---

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع . (٢) الذى فى رسائل بديع الزمان أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليـه من ابن فارس فى ذم الزمان . وفى نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر فى مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفى هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفى الأحشاء نار تضرم
وما لىَ لا أُصفى الدعاء لبلدة ... أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذى أحسنته غير أننى ... مَدين وما فى جوف بيتىَ درهم (١)

وقوله فى كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير ... تقضّى حاجة وتفوت حاج
نديمى هرتى وأنيس نفسى ... دفاتر لى ومعشوقى السراج (٢)

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحمقى لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفى هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة ... وأن حظىَ منها فلس إفلاس
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى ... لها ومن أجلها الحمقى من الناس (٣)

وقد يستجاد قوله فى التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعهُ ... وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خُبر مجرب ... ولم أر خيرا منه عدت اليه (٣)

ومن ظريف الاشارة الى ضعف حجج النحاة قوله فى فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة ... تركية تمى لتركى
ترنو بطرف فاتر فاتن ... أضعف من حجة نحوى (٥)

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من اليتيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢
(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذى يعنينا هو (الصاحبى) الذى قدّمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع فى ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية فى سنة ١٩١٠ طبعا جيدا نقلا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطى من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة فى إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف فى سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيـد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطى "وكانت مقابلتى إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التى كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته فى آن واحد ولله الحمد" .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث فى تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدّمين تاريخ آثار هذا اللغوى الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبى فى سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف فى أى سنة من سنى حياته العلمية وضع رسالته فى الرّد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جدا بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو فى "الصاحبى" رجل حذِر هيوب يحسب مسايرة العقل جريمة ، و يعدّ التفكير من جملة الذنوب . ولكنه فى رسالته الى ابن سـعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس فى كتاب " الصاحبى "كلها جمود وكلها ذهول . وقـد يصحو أحيانا فيرمى بالقول السديد . وحسب القارئ فى الدلالة على إغراق كتاب الصاحبى فى «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . و يقول فى وصفه "علم العروض الذى يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسبون أنفسهم الى التى يقال لها الفلسفة"[٢] .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله فى رينـان "ذلك الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" .

(١) ص ٤ (٢) ص ٣٧

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التى يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه "الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون فى العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات فى النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول فى ذلك "وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو"(١)، ثم يقول "وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وآدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن" ثم يقول فى وصف العروض "ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التى لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه"(٢) .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدّمين فى العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا فى درس حقائق الأشياء ؟

٩ — نترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التى تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله فى فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدّمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد فى عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا كتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

---

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٣

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد " ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هـذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفـه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك ولعله لو فعـل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهـل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورخيه ، كثيرا ممـا فات الأُوَل . فما ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدّم؟ ولم تأخذ بقول من قال "ما ترك الأوّل للآخر شيئا" وتدع قول الآخر "كم ترك الأول للآخر" وهـل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منهـا رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأوّل حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهـــم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعـد أبي تمام مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليـه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهـل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ! !

ولو آقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلّت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شِعبا من شعاب البلاغة ولمجت الأسماع كل مردّد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) والى متى "صفحنا عن بنى ذهل" — الى أن قال "وهلا حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما تمجه خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" (١) .

١٠ — تلك هى الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهى كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع اليها من يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

جُّ مثلى زيارة الخمار	واقتنائى العَقار شرب العُقار
ووقارى اذا توقر ذو الشيـ	ـبة وسط الندىّ ترك الوقارَ
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناهٍ ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فاتن سحّار (٢)

---

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبى نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را	ح بسكر وان غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارنى فى الدجى فنم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتـك ماشبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت لحل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ فى نقد آرائه فى فقه اللغة العربيـة والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ – نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية

١ — الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما فى القاموس المحيط . وفى أساس البلاغة (قال أعرابى لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفى الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين) وفقهت فلانا كذا وأفقهته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لجرير بن عبدالله كنت سيدا فى الجاهلية وفقيها فى الاسلام . قال الزمخشرى وتقول فلان بين الفراهة : فى أبواب الفقاهة . وفحل فقيه عالم بذوات الضبع[1] وذوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة فى التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة " فقه اللغة " لم يكد يتفق القدماء على إفرادها بمدلول خاص . وانما نجدها فى تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لا على وجه التعيين . والثعالبى يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) انما سمى بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذى أهداه اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة اتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدى فى محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . واذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحتين — شهوة الناقة الى الفحل .

من حيث تصنيف الكتب العلميــة ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينــه فى المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدّسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية " .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوجى» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسـية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينيـة مثلا أن يقف عنـد معرفة اللغات الايرانية بل عليــه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة " فقــه اللغة " التى اختيرت لترجـمـة كتاب الثعالبى لم يَرْم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال " هذا الكتاب الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها " وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قــد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البـلاغة وما اصطُلح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجـد من يُعنى بتدوين أصـوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وانما ظل كما ابتــدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصـيل

و يعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم مايؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر و إهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبى أن " الارتكاض " حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلدل" حركة الشىء المتدلى — و"الترجرج": حركة الكفل السمين والفالوذج الرقيق . و"النسيم": حركة الريح فى لين وضعف . و"الذَّماء": حركة القتيل . و"النودان"(١) حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلا وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهونشوان و إن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحدّ الذى يوجب الحدّ فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران باتّ وسكران ما يبتّ(٢) . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبى شيئا عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أو فى نثر . و إذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبى أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبى فى "فقه اللغة" وابن سيده فى "المخصص" وابن الأجدابى فى " كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . و إنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

---

(١) ص ٢٧٥ (٢) ص ٤٠٢

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد فى مادة الإنشاء بجمع ما تبدد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك كجذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع (١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى فى "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شُغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل فى أصول النحو ما عمله الذين سبقوه فى أصول الفقه (٢) . وهذا وذاك سعىٌ إلى غاية واحدة هى إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبى وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب، والبحث عن المصادر الأولى التى مهدت لهم السبيل إلى التعمق فى بعض الأبواب، وتعقب الآثار الأدبية التى تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — فى كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربى وأوّل من كتب به وهو ينقل فى سذاجة أن أوّل من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلثمائة سنة . كتبه فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربى . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من عَلَق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول «فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تُعلم صحته إلا من خبر صحيح » (١) .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم " هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة " ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وآنتشر من ذلك ماشاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ماشاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت، فان تعمّل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده" (٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لاتجمع بين ساكنين ولا تبتدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطّأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأوّل" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا الرأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

---

(١) الصاحبى ص ٧ و ٨ (٢) ص ٦

٥ — وقد عُنى ابن فارس وهــو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أُبىّ بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و"لاتبديل للخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتبــاع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلىّ من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران»[1] ولست أجترئ على ذلك وقرأ ﴿فأصَّدّق وأكون﴾ فزاد واوا فى الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان علَى ابن فارس أن يكشف عن مغزى هــذا التغيير فى رسم المصحف وأن يبين إلى أى حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير فى الكف عن التعمق فى درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفى بالاشارة إلى هذا البحث الخطير[2] .

٦ — المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا فى الاسلام : فالنحو من وضع أبى الأسود الدؤلى . والعروض من وضــع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجانى . الى آخر ما يهجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قــد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتـــك أظعان لليــلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشــبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون[3] .

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلى والأموى ، ولغات العالم كله تعترف بمـا يسمى "النحو التاريخى" ونحن فى حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير الى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدى الناس ثم جدّدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدَّد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولابن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خِلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أوعِدونى وعللوا   بى الأرض والأقوام قردان موظبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شنّ بارد   ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأَفوَه :

عنكمو فى الأرض إنا مذحج   ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأحمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسّر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبــد لآل أبى ربيعة مسبع

قال ابن فارس : فقوله "مسبع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و" ياهيء مالك" و "ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و "ويهك" و "إنيه" ولاقول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون " خائبكما وخائبكم " . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضـعه فكثير كقولهم "حى" و "حى هلا" "وبعين ما أرينك" فى موضع العجل . و (هج) و (هجا) و"دع" و "دعا" و " لعا " للعاثر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهــر مطية حرج تمى مِلْ عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال " لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع " قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عنــد القوم ما كرهما النبى . وكقولهم فى الزجر " أخر" و " أخرى " و " دها " و (هلا) و (هاب) و " ارحبى" و " عد" و "عاج" و "ياعط" و " يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئى ولا الهيء امتداحيكا

وكذلك "إجد" و "وأجدم" و "حدج" .

قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا .[1]

(١) ص ٣٤ — ٣٧

تأمل أيها القارئ فى هذه التعابير المجهولة وآذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هـذه التعابير متأصلة فى لغـة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بدّ من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف فى عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجافاه الاستعمال . وقد نجد من كتّاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب فى طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقـد تنبه ابن فارس الى التعابير التى لا يمكن الوصـول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذى لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و (الزمان) و (الدهر) و (الأوان) فانك لا تدرى اذا قال الحالف «والله لا كلمته حينا أو زمانا أو دهرا» الى أى حدّ يتصل الإعراض وكذلك «بضع سنين» مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشىء منه على حدّ معلوم ومن هـذا الباب على رأيه قولهم فى الغنى والفقر وفى الشريف والكريم واللئيم اذا قال «هـذا لأغنياء أهلى» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كرامهم» أو «لئـامهم» وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومى» لم يمكن تحديد السفه .(1)

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب فى حجره عليه؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلموهن بمـا علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل .(2)

٩ — وقـد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنهـا انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾ .

(١) ص ٣٦ (٢) ص ٣٧

ثم أعقب هـذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قـد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا .

”وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسـية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ [1] “ .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهده من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان ! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شىء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللحية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره ان سأل الرشـيد الأصمعى عن شـعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصمعى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما “ وكان من آثاره أيضا أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثرا من عبث الرواة ولعبهـم بالجماهير . ويرى أنهـا ترجع الى السياحات العديدة التى كان

(١) ص ١٢

يرمى بهـا الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق فى أحشاء البـادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمـادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا فى أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربيـة من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون اننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التى نزل بها القرآن؟ أفتستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفـل ابن فارس عن تأثير الاقليم فى اللغة العربيـة فظن التعابير التى انفرد بها العرب — لمـا نتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربى أن يعبر عن قولهم (رحب العطن ، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق الجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعىّ بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هـذه التعابير ليست إلا تمثيلا لمـا يراه العرب فى باديتهـم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفـرس والروم تعابير كهـذه أخذت مما تقع عليـه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يسـتطيع العرب أن يسيغوها لأنها وقعت على غير ما يألفون .

٥ – النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين فى قرطبة — مذهب الجاحظ فى تعليم البيان — كيف تكون ملاحة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافى والأوزان بالمعانى — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سياسة نفسية من المتكلم للمخاطب — أثر الطبع فى البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل فى جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحمق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع"[1] الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب ، فلنذكر الآن أن هذا الرأى كان من المسائل التى شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها و يعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن فى درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص ، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه فى ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه فى الأندلس وناصبوه الخصومة والعِداء . وقد اجتهد فى أن يخفى علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب و يصبغ أحكامه بصبغة التعميم ، ويبعد عن أذهاننا مايريده من التخصيص ، ولكنه غُلِب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه و إسرافهم فى ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لندرك أن أقواله مُشربة بالضغن والحقد وأنه لا ينبغى أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وآشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية ، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها ، و إن كنا نعرف أنها لا تكفى وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

---

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع فى باب « الأخبار والأقاصيص » من الجزء الأول .

٢ — يحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين فى قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يختون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدبّ لها فى نور البيان، سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليمانى من الرقص على الايقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالحمار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لحمار أن يغنى :

ما بال أنجم هـذا الليل حائرة — أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبنصر فيبلبل بنشيده، ويولول فى ضربه، وكذلك حال المتعلمين فى قرطبة على رأى ابن شهيد [1].

٣ — وفى موطن آخر نراه يندد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

"ومما علم من خلق هذه العصابة اذا لحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، تراهم الينا مبصبصين، وعن الأخذ فى شىء من تلك المعانى واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ" [2].

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات فى تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

"إنا اذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى الشهر، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم" وقد أمكنت هـذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه فى كتاب البيان والتبيين الذى ألفه الجاحظ وهو فى رأيه كتاب لم يكشف فيه "عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج" ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتـداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته، وضن بما عنده غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم" لأنه عرف «أن النفع كثير والشاكر قليل" ولذلك كان كتابه فى البيان موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على مارآه فى كتاب البيان، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن، ومن كلام الى كلام، جريا على طريقته فى تسطير كل مايمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . ومانكاد نتصوّر أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب، وإنما نتمثـله رجلا يكتب لنفسه قبـل كل شيء، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفيهم أن يدوّنوا ما يسـمعونه أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك فى البيان ، كلا، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوى الذى يساعد على أداء المعنى، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فان البلاغة فى الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لايراد به التركيب الخالى من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية، وإنما هو التركيب الذى يستوفى الدقائق المعنوية التى يهتم بتقييدها علماء المعانى . أما فصاحة الغريب فهى عند ابن شهيد وضـع اللفظة الغريبة فى موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمـة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه فى هذا الباب :

« جلس إلىّ يوسف الاسرائيـلى وكان أفهم تلميذ مرّ بى وأنا أوصى رجلا عزيزا علىّ من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام . فاذا جاور النسيب النسـيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفـة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إى والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست ، قوانين من الكلام مَن طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إنى يوم بانوا فلم أمت　　خـفاتا على آثارهم لصـبورُ

غداة التقينا إذ رميت بنظـرة　　ونحن على مـتن الطريق نسـير

ففاضت دموع العين حتى كأنها　　لناظرها غصـن يراح مَطـيرُ

فقال : إى والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضـعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسمت شيئا من نسيم الفهم فاْغد علىّ بشىء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودى سا كتا يعى ما أقول فغدا ذلك القرطبى فأنشدنى :

حلفت برب مـكة والجبال　　لقـد وزنت كروبى بالجبال

فى أبيات تشبهه وجاء اليهودى فأنشدنى :

أيمـم ركبانهـم منعجا　　وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمرّ إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن ، فقال لى ذلك القرطبى : شعر اليهودى أحسن من شـعرى ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هـذا . ولم يزل يتدرّب باختلافه إلىّ حتى ندى تُربه ، وطلع عشـبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقـه [1] . ورآنى أستعمل وحشى الكلام

(١) ضاع عبقه : انتشرت رائحته .

فى موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فآستعمل شيئا منه وعرضه علىّ . فقلت : استره ! فقال : تبخل علىّ به ! وعرضه على ابن الإفليلى فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه فى موضعه وهو أدرب منك[1] » .

وهذا كلام جيد، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدّثنا الصاحب فى مقدّمة كتابه عن مساوى المتنبى أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[2] » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافى والأوزان بالمعانى، فليس كل وزن بصالح لكل معنى، لأن بعض القوافى والأوزان أرق أو أضخم من بعض، كما أن بعض الألفاظ والمعانى ألطف أو أجزل من بعض، وفطنة الشاعر والكاتب هى التى تؤلف بين المعنى وبين لَبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان.

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطَبين، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب، فهى ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطَبين، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس فى جميع الأحوال، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذى يرمى إليه عند الخطاب. ويقول فى ذلك:

«وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط[3] العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين، فاذا قارفت أسماعهم، ومازجت أفهامهم، در حلبهم، وانحلت عقدهم، وجل شحض

---

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدّمة كشف مساوى المتنبى .

(٣) الخبط : السؤال، من خبط الشجرة شدّها ثم نفض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس فى عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بهـا كمه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسدّ بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العـامة فبذلت ما عندها له و بادرت برفدها اليه[1] » .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين فى الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها فى بلاغةٍ جميع الطبقات .

والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبى عامر حين طُلب منـه كشف السر الذى حرك العامة فجادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول فى الجواب :

"وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذى يريد منا تعليمه هو البيان و بين فكره و بينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان[2]" .

٨ — وابن شهيد يرى أنه ليس فى مقدور كل بليغ أن يصـل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقريظ ، وإذ ذاك " يحتاج الى أثقب ما يكون من الذهن وأوسـع ما يكون من الحيلة . إلا أن هـذه العصابة لا يمكن لذى النباهـة تحريكها ولا بد لهـا من طبقة يكون لها فى العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عو يصا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب[3]" .

وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيـان الكتّاب والخطباء

---

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٠ (٣) ص ١٢٠

والشعراء، و بمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبث ولؤم جوانبُ من الضعف ينفذ اليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها وتفصيلها ، فان المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجو جوّ بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفَّق كيف يحوّل المسائل الظاهرة الى مشا كل عقلية و روحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جواء من البحث والتفكير و يقفهم موقف الحيرة والتردّد بين الخير والشر والبر والعقوق . فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبِدْع الطريف، ولكن البليغ هو من يحوِّل الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود . وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكامن الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقحون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان .

وجملة القول فى هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشدّ خطرًا على أعدائهم من الجيوش والأساطيل،وكذلك البليغ يكون فى أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المعاندين ممن يخاطبهم أو يراسلهم أو يحاورهم فى جدّ أو فى هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما فى الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام ، وصبّ ذلك كله فى رفق أو عنف فى أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدوّ أو صديق . وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن فى أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفى أسمى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهاجم

ونفتك ، ونسيما يتأرج حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام فى ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطَبين فهو العىّ الذى استعاذ منه الخطباء، والإفحام الذى تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظنّ أن البلاغة ليست إلا سواد المداد فى بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفتـه أن يقرّر أنّ سر البـلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يُطلع صور الكلام والمعانى فى أجمـل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصـل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى التمـام والكمال وحسن الرونق .

” فمن كانت نفسه هى المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتنعش النفوس، فاذا فتشت لحسنها أصـلا لم تجده، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن، كقول امرئ القيس :

تنورتهـا من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهـذه الديباجة إذا تطالبت لهـا أصلا من غريب معنى لم تجـده، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى[1]“ .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر، أو بيت من الشـعر، بدون أن يكون لمـا أعجبنا به معنى غريب، وإنمـا سر إعجابنا يرجع الى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسموّ الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبوس لا قِوام له بغير المعنى، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ”يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ[2]“ .

(١) ص ١١٧ (٢) ص ١٥٦

ويقرر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعانى" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحدّ، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"[1].

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى فى بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وهى مع ذلك خِلو من غرائب المعانى؟ فلنعرف الآن أن السر فى إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهنالك أفراد غَناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك نُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب. وهذا هو سر ذيوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فِطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدّى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله فى المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة[2]، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعيذ بالله أن لا يشوّه خلقة قلوبنا وجرم أكبادنا"[3].

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك فى أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى فى صورته. والصور المقبولة تبعث فى أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة فى شىء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء: فهم فى الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحدوة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ — وابن شهيد وفىّ لمبدئه فى ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطّأ أبا القاسم الافليلى فى تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدّم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا فى الكتابة و جميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن إفراط جحوظ عينيه قعد به : لأنه لابدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسه، وأنف ذكى لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة، سليم آلات الحواس، نقى الثوب، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة، مكحل الأظفور، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص فى أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا فى شرطه جمع أدوات الكتابة فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول : أوّل أدوات الكتابة العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالما غير عاقل، وجدليا غير حصيف، وفقيها غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة، ناهضا فى ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، فى صفة غراميل البغال، وغير الكلام فى الجرذان، وبنات وردان، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا“[1]

وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك، و بمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قصّر بابن شهيد نفسه ثقل سمعه، وكما تخلف صاحبه الأفليلى لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

(١) ص ١٢٣ و ١٢٤

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بيننا فى تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب فى أن العلم أيضا شهوة، وكان الجاحظ مفتونا أشدّ الفتنة بدرس علم الحيوان، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات. فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال. إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتّاب السياسيون: يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ فى ميدان العلم، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال. ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ – أبو بكر الباقلانى (١)

١ – لم يصل الينا من آثار أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفى بقاء هــذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضيـاع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلانى غير كتابه فى إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه فى موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس فى عصره يرتابون فى إعجاز القرآن وكان فى ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التى كان يذيعها الملحدون فى الحواضر الاسلاميــة . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التى أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله فى جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشـتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ فى سـبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشـد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين . وقد قل

---

(١) ولد الباقلانى فى البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سـنة ٤٠٣ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظـر الى جبـل تمشى الرجال به	وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسـلام مغتمدا	وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

والباقلانى : نسـبة الى الباقلى بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره: فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر. وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ[1]».

وليس فى هذه الفقرة شيء جديد فان شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التى يجدها المطلع فى أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين. ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيغ والالحاد والفسوق. فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك فى نفس المؤلف، وفى هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين فى إعجاز القرآن.

٢ — ونحب فى بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا فى درس كتاب الباقلانى عن الإعجاز. ونقرر — فى صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد. وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم فى وزن الكلام البليغ. فكتاب الباقلانى فى نظرنا صورة للحياة الأدبية فى أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع. وليس حجة فى تقدير القرآن. لأن وزنه أخف من أن يفصل فى تلك المسألة الدقيقة: مسألة الكلام المعجز الذى يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان. وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه: وهو جمع المحاولات الأدبية التى حاولها خصوم القرآن، ففى تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة فى أنفس من يعنون بتاريخ الآداب، ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب. فان ذلك فى جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون.

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلانى أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه[2]) — ففى

(١) ص ٩ و ١٠ (٢) ص ١٠

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغى أن تقيد أنها وقعت فى القرن الرابع . ولو أن الباقلانى بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حدّ كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبى ، ولكن ما صنعه الباقلانى نفسه فى نقد امرئ القيس والبحترى يحدّد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهى المعلقة فنقدها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب فى جودة شعر امرئ القيس ولا يشك فى براعته وفصاحته وما أبدع فى طرق الشعر من أمور اتُّبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدثه والتلميح الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى يصادَف فى قوله والوجوه التى ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلانى معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهى على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ، ويتلون تلوّن الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارَن بالقرآن الذى يصفه بأنه "قول يجرى فى سبله على نظام ، وفى وصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفاته على باب ، وفى بهجته ورونقة على طريق مختلفة مؤتلفة ، ومؤتلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن" .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلانى ومعاصريه رأوا أنه فى الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وان لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساويها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابَل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهـذا النحو من النقد يعـدّ من المحاولات البارعة فى الأدب العربى . ولا عيب فيـه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لهـا بالفضل . والباقلانى كان يعمد الى القصائد التى يعرف فيها الضعف ليصل دائمـا الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن فى قول البحترى :

ما الحسن عندك ياسعاد بمحسن   فيما أتاه ولا الجمـال بمجمـل

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من   جعل الجمـال عليك وقفا أجمـلى

مع أن الذى يفهم الشـعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن ببيت البحترى إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلانى يأخذ فى نقد بيت البحترى فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشـعراء : وفيه شىء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وفى تهييم قلبه . وضد هـذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب .

٥ — هذا كلام الباقلانى . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحترى على الاطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيـدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حَكَم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟

إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مسـتعدا للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوى القصـيدة ويطمس محاسـنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو فى مقابل ذلك يجـدّ فى البحث عن محاسن السورة القرآنيـة وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفســه التفكير فى وضـع ألفاظها أو معانيهـا أو أغراضها أو أسلوبهـا موضع النقد . وهذا كاف فى تجريح ما همّوا به قديمـا من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين فى إعجاز القرآن .

وهى إعجاز غير القرآن من كلام الله كالتوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلانى بأنه لا شيء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى اليه كما وقع التحدى إلى القرآن [(١)] .

ومعنى ذلك أن الباقلانى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين اليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلانى أن يوجه اليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها التوراة والانجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى الى حد الاعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان [(١)] .

فان سأل القارئ : أكان الباقلانى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب [(١)] .

٧ — وهنا يتطوع الباقلانى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

---

(١) ص ٣٤

«ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشىء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية (١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

« انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب (٢)» .

والفكرة فى ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هـذه المترادفات من الثروات الضائعة التى لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذى اتفقوا على سموّه لم يعتمد على المترادفات فى كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية فى غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية فجاء أخيرا وطعن لغتنا طعنة دامية فى تقرير مطوّل قدمه الى وزير المعارف فى باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « مائعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات (٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف فى هذا الموضوع لأنه فى تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التى كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهى أساس لغتنا العربية وانما هى كلمات «تصيّدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا فى المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلانى وابن فارس ان ما كان غُرة فى زمانهم أصبح فى زماننا من أعراض الأمراض ؟

---

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبى ص ١٢

(٣) كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير فى أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التمحل من جانب البلاقلانى ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ماقد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع مايمكن ويتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية » .

٩ — وهذه التهم التى كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدّمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا فى أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق فى الانجليزية والفرنسية والألمانيه مثلا « وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام الباقلانى له دلالته ومعناه : فهو صريح فى اعتزاز القدماء باللغة العربية، وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحدّثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب فى مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان[1] .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومى » كانت له مضارّ ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسى واليونانى ظنا منهم أن فى شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لايتأتى وقوعه فى غير اللغة العربية التى حسبوها تفردت بالتصرف فى الاستعارات والإشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا فى هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وانما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية فى القلوب والعقول .

ونؤمن بأن فى اللغات ضروبا من التصرف فى القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبى شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شبابنا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يغيض .

ووقف المجددون فى الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحترى والمتنبى، ولاهم فى طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة بيرون وجوت ولامرتين.

١١ — وقد جاء فى كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العــرب ؟

فما هى حجة الباقلانى؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعًا فى أن يأتى أصحابه بما عنده قرأ عليه النبى سورة ﴿ حم . السجدة ﴾ من أولها حتى انتهى الى قوله : ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلانى " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه[1] " .

ذلك ماقرره الباقلانى . ومانحسب أحدا يرتاب فى أن هذا محض اختلاق : فانه لايعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقُصاص .

ويقول الباقلانى فى موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا

(١) إعجاز القرآن ص ٣٠ و ٣١

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمى وعربى﴾، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى ردّه إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وانه إذا تحدّاهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم[1] ".

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التى نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما ئتى صفحة فللباقلانى عذره حين غاب عنه هنا ما أثبته هناك.

فخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خشع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا فى ردّه بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا فى هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر فى الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية. وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل فى ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربى .

وقد تكون جملة وضعت فى ألفاظ أعجمية ورتبت فى وضعها على الأسلوب العربى . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية. ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لانه عربى اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلانى من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آى القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما منّ به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربى مبين .

---

(١) ص ٢١٨

١٣ — بقى نوع آخر من وجوه التفاضل فى الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما فى المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . و إنما يجب أن يكون مع صدقه طريفا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهمو قوما إذا ركبوا شدّوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كتلة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هـذا البيت يمكن رجع طرافتـه الى كلمة " أبدى ناجذيه " وكلمة " طاروا " وهاتان ليستا كلمتين و إنمـا هما المعنى تجسم فى لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قـومى وان كانوا ذوى عدد ليسـوا من الشر فى شئ و إن هانا

فقوة هـذا البيت ترجع الى قوله " وان كانوا ذوى عدد " وقوله — " وان هانا " وفيهما أيضا يتجسم المعنى فى قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم فى قوله :

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع النـاس إنسانا

١٤ — وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصـل به الى أسمى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعـلى يشكو فقره وما وضع القدر فى رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلنى الدهر على حكمه من شامخ عالٍ الى خفض
وغالنى الدهر بوفـر الغـنى فليس لى مال سـوى عرضى
أبكانىَ الدهر ويا ربمـا أضحكنى الدهر بمـا يرضى
لولا بنيات كزغب القطـا رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسعٌ فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهـم لا متنعت عينى عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجـاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسِّنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن فجمع بين السجع والترسل فى نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه فجاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد[١] .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامى لم يكن جديدا عند العرب وانما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التى كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما فى القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه و إفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذى يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

"لو قال هـذا وسكت لكان أشعر الناس" .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

"أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب" .

وهذا كلام دقيق جدّا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدّث عن ذات نفسه وعن ضميره و روحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح اذا شبّب . وذلك أجزل اذا تحمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية فى الأمم التى نعرفها لرأيناها ترجع الى المعانى والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع فى فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

(١) راجع ص ٦٣ و ٦٤

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفى مصر والشرق العربى كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبى القديم بين محمدعبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التى وقعت بين على يوسف وعبد العزيز جاويش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدّا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة. وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطى كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموه ادّعوا أنهم يحاربون فى شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال فى أن الألفاظ والأساليب تتلوّن وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها. وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعانى لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معانٍ وديعة يلهَم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبى فمرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع فى أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أفبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التى تفصح عما يطيف بها من معان وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوّة المعنى وقوّة الروح. فان قيل : ولِمَ تعذر عليهم أن يأتوا بشىء من مثله؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

فى هـذه المسألة حين قال ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وآدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

فلنتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب. وهل كان فى مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ماوصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذى صدقت كلمتهم فيه قبل نبوّته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعانى : لأن المعانى فى رأيهم يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام وان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل فى جملة المستهجن الملفوظ[(١)] .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة فى جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعانى والأغراض . ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف فى تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجىء أوّلا ويجىء الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلانى "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبينا، لأن الأسلوب فى رأينا هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

(١) راجع الصناعتين ص ٤٢

وروحه وفكرته ومرماه، وليس فى مقدور أحد من المتفوقين فى علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربى مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب فى هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة فى هذه الآيات الى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعانى والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيهات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشىء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن . وقد راجعت صديقا اديبا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لنتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تقل فى قوتها عن كلمة ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شاءه ﴿ ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونه فى اللفظ ؟ أترونه فى الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد فى أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا فى الروح العالى : حيث يخاطب الله الآثمين وقد ألقى بهم فى نار الجحيم .

٢٠ — نترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله فى يدى !

تأملوا عبارة "لله فى يدى" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

" دابى هذا كتاب معنىّ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه، وأرجو أن لايضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام " .

أفترون هنا جديدا فى لفظ أو فى أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تحصر فى المعنى لو تنظرون.

وكتب أحد الأمراء يوصى بعض قوّاد الجيش :

" وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذرا من احتيال عدوّك عليك " .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه فى شيء غير المعنى ؟

وكتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى :

"عُدْ مرضى المسلمين ، وآشهد جنائزهم ، و باشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا " .

وهى نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله " فانمـا أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حمـــلا " .

أفترون الجمال هنا، جمال البلاغة، فى شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السـمع والبصر

إن صـــدر هذا البيت عادىّ لاطريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السـمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيــه وحده جمال البيت؟ ألا ترون أن لفظة "شهوات" لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذَرِيح :

الى الله أشكو فقد لُبنى كما شـكا الى الله بعـــد الوالدين يتيمُ

وهذا من الكلام الجيــد : فهل كانت جودته فى غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرءوم، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغى ... يمينى ولو عزت علىّ يمينى

لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سلينى

سلينىَ مالى يا بثين فانما ... يبيَّن عند المال كل ضنين

فما لك لما خبَّر الناس أننى ... أسأت بظهر الغيب لم تسلينى

فأُبلىَ عذرا أو أجيئَ بشاهد ... من الناس عدل أنهم ظلمونى

لحا الله من لاينفع الود عنده ... ومن حبله ان مُدّ غير متين

ومن هو ذو لونين ليس بدائم ... على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هـذا الشعر فى رقته وعذوبتـه . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظـاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هى صفات للعانى تمثل فى أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو اننا عدنا الى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يُعد الشاعر سارقا للعنى و إن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يجئ حديثها ... بخير وقد أعيا كليبا قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يجى صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وهذا ليس بشىء فى جانب المعانى التى تؤخذ من المدح الى الهجاء ومن النسيب الى الرثاء وهى كثيرة جدا ، ومع ذلك تنبه النقاد الى أنها سرقة ، وتنبه الشعراء الى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة[1] " .

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون فى الصياغة الفنية ، ولكننى أومن قبل كل شىء بالمعنى

(١) الموشح ص ١٤١

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال فى أيدى الرجل: فالسيف هو السيف فى يد البطل وفى يد الجبان، ولكنه فى يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه فى يد الجبان أقل غَناء من العصا فى يد الوليد. والخيل هى الخيل، ولكن الجواد لايكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوته فارس مغوار، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شىء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هى المرأة، ولكنها بين يدى الرجل الغزل أنضر منها فى حضرة الرجل البليد ! والكتّاب المجيـدون الذين أجمع الناس على احترامهـم تتفاوت أيامهم تفاوتا شديدا: فهم فى بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان، وهم فى أيام أخر يُسفّون ويتهافتون . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغا فى جميع أحواله، وهـذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعانى الجيدة بطائعة للكاتب فى كل لحظة، ولا الروح القوى بمواتيه فى كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب فى اللفظ والأسلوب ؟ أيفهمون الان أن القرآن يمثـل النثر العربى فى العصر الذى نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلانى قوله بنفى السجع من القرآن، وهو يتابع فى هـذا أبا الحسن الأشعرى وأصحابه، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى الفصاحة والبيان . ومن أقوى مايستدلون به على وجود السجع فى القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضـل من هارون، ومع ذلك قيـل فى موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع، ولمـا كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيـل "موسى وهارون"[1] .

---

(١) ص ٥٩

والواقع أن السجع موجود فى القرآن فى مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل[(١)] ﴾ .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[(٢)] ﴾.

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كوّرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عُطِّلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سُجِّرت، وإذا النفوس زوّجت، وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنّس، الجوارِ الكنّس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين[(٣)] ﴾ .

ولا أطيل فى سرد الآيات المسجوعة، ففى السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هى حجة الباقلانى على نفى السجع من القرآن لنقدر وزنه للحجج والبينات، وهو يقول :

" لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات، وليس كذلك الشعر[(٤)] " .

---

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكوير . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود فى القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده فى القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز فى رأيه يحصر فى الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، و إلا ساوينا بينه و بين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف اتفق للباقلانى وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب فى لعب وضلال فى ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة فى التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير فى الجاهلية . والسجع فى القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم فى أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلانى ، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرّض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام فى أودية الخيال . والشعر مع هذا فى أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التى أطال فى شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب فى أساليبهم كما ظن الباقلانى وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلانى لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع فى فهم السجع فيقول :

" والذى يقدرون أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ،وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدّى المعنى المقصود فيه و بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحح المعنى[1] " .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعا إلا اذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلانى بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن اذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا المعنى ، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلانى إذ يقول :

" لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضىّ ولا محمود[2] " .

---

(١) ص ٦٠ و ٦١ (٢) ص ٦١

ووجه الخطأ هنا أن الباقلانى يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته و بلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم فى التزيين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع فى القرآن لم يفرضوا التزامه فى جميع الأحوال ولا وقعوا فى مثل ما وقع فيه الباقلانى من الخطأ حين نفاه على الاطلاق[1] .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» فى الجزء الأول .

٧ - أبو القاسم الآمدى

١ — لم يصل الينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة — ولا ندرى متى — وأنه انتقل الى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السّراج، وأنه عاد الى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد وأبى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضى أبى جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة الى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ[١] .

٢ — وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه فى الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلا على أن حياته العقلية قُصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التى أشار اليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى . وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر . وكتاب معانى شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطّأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت[٢] .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبى تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل الى شيء كثير من المعارف الأدبية التى كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ،ولأمكننا أن نعرف

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ — ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وَفقا لاختلاف الأحوال أو توافُق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات — كما قال ياقوت — ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الرُّواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان ... ممن يجاريه أو يدانى
دعنىَ من نائل جزيل ... يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحا ... ولا أخًا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا ... من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمتام :

لا تنظرن الى تعتعه اذا ... رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها ... تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه ... حتى تقطع أنفس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيـ ... ـث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميـ ... ـل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فويق القفا ... وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك ... فردت بقول كئيب حزين
دهانىَ أنْ لست فى قالبى ... وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثوا بمزاح معى … وإن فعلوا ذلك بى قطعونى
فقلت لها مرّ من تعرفين … من المنكرين لهذى الشؤون
ومن كان يشهق إما رآك … ويخرج من جوفه كالرنين
ومن كان يصفع فى الله لا … يمل ويشتدّ فى غير لين
ويسلح ملأك كيل التمام … إما على صحة أو جنون
ففارقها ذلك الانزعاج … وعادت إلى حالها فى السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدّمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة نعجب لها اليوم أشدّ العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرّر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها فى المعرفة بتلك الأشياء: لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحة سبيبه، واستدارة كفله ، وبريق شعره، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به. ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه، وصقاله، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه، وكثرة صوره، وبديع نقوشه، واختلاط ألوانه، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما اشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه فى مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التى لا يدركها إلا أرباب الصناعة[١] .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع اليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين فى الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق و إنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحدا، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفا[٢] .

٧ — وهذه النظرية البعيدة فى تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سُبق اليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء فى هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلى : "قال لى المعتصم أخبرنى عن معرفة النغم و بينها لى — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤدّيها الصفة" .

قال: "وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال: من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشى من الشعر وتقول هو ردىء والناس يستحسنونه فقال :

" إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد "[٢] .

ولكن كيف السبيل الى كسب الذوق الأدبى أو الحاسة الفنية ؟

(١) الموازنة ص ٢٠٦ (٢) الموازنة ص ٢٠٧

هنا يجيب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر فى الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابسة له والانقطاع اليه، والانكباب عليه، والجد فيه، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه .

٨ — والآمدى مع هذا يقرر بأنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبى بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلا لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسائله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلا الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومَن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك فى ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابسة لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهدا لها كلها فى لحظة واحدة، عالما بكل علة، محيطا بكل حجة .

”وبعد فلعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تتصفحها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأنا لا نراك تبتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقا بك أن تسلِّم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال“ (١).

٩ — والامدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشىّ المعانى والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

---

(١) ص ٢٠٧ و ٢٠٨

للأعراب "لأن الأعرابى لايقول إلا على قريحته، ولايعتصم إلا بخاطره، ولايستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذى يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلما ويأخذه تلقنا فمن شأنه أن يتجنب المذموم، ولا يتبع من تقدّمه إلا فيما استُحسِن منهم واستُجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشدّ العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالابداع جميع فنونه، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدّة التعمل . ولكل شىء حدّ إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفرطا . وما وقع الافراط فى شىء إلا شانه، وأعاد الى الفساد صحته، والى القبح حسنه وبهاءه » .

وخلاصة هذا الرأى أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال، وهذا أحلى فى النفوس، وأشهى الى الأسماع، وأحق بالاستجادة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ماروى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هى أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين فى الصقل والتجميل .

فاننا نرى للأعراب حرية فى الحذف والايصال لا نجد لها ظلا عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية فى الحذف والايصال هى أخص سمات اللغات الحية . وفى اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة فى كتاب الموازنة أن الامدى يريد بالذات مسألة التعمل والتكلف والإغراب بايثار وحشىّ المعانى والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضا أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوىّ لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمِّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجر فمات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضَّل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة[1] . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدّمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عِيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء[2] " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبائع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أُثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادّة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

---

(١) راجع ص ١٣ (٢) ص ١٤

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى

اخترع الآمدى مناظرة طريفـة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبى تمـام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لانَ النثر وعذُب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث [(١)] :

صاحب أبى تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبى تمام ، وعن أبى تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائى الأكبر والطـائى الأصـــغر .

صـاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه، ولا تتلمذ له ،ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج اليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عنـد أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفيقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبـل أبو تمام على محمـد بن يوسف فقال : أيهـا الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبى سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه، ويصف معانيه، ويذكر محاسنه، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة. فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره، وفاخر كلامه، قبل أن يعرف أبا تمـام، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع اليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره . وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا كثيِّر قد أخذ من جميل واستق من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحترى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحترى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسفّ أفضل ممن يسقط ويُسفّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرِىَ عن مثلها البحترى .

صاحب البحترى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق اليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسّنن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدّمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أوّل من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، واستكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونَفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، و إذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال، وثلثه مسروق، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرِّد ما علمناه دوّن له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبلا كان يشنأ[1] أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور، فلا يُقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

---

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحترى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانية . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامَح فى سهوه ويتجاوَز له عن خطأه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفّى إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أُخذ عليهم من المتقدّمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمـام فلا تكاد تخلو له قصـيدة واحدة من عدّة أبيات يكون فيها مفسدا أو مُحيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيرا آستعارة قبيحة أو مخطئا للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسـوء العبـارة والتعقيـد حتى لا يفهـم ولا يوجد له مخــرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تنكرون على أبى تمـام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطَى فى تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وآطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبى تمام موصوفا ومذكورا لندرته ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحترى كجيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيـد صاحبه .

٨ – أبو هلال العسكرى

١ — فى الأدب العربى رجلان باسم العسكرى يشتبهان كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكرى . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه "الأعلام"[١] فأرّخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغنى منها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجى زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد[٢] .

والعسكرى نسبة الى عسكر مُكرم، وهى مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذى تنسب اليه مكرم الباهلى وهو أوّل من اختطها، كما يقول ابن خلكان[٣] .

٢ — وكان أبو أحمد العسكرى من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يودّ الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج الى كشفها بنفسى، فأذن له فى ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكرى فلم يزره . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتمو ضعفنا فلم نقدر على الوخَدانِ[٤]

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطو، كالوخد والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم ... وكم منزل بكر لنا وعوان

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم ... بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هـذه الأبيات شيئا من النثر فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثـنى عزيمتى ... تعـوّذ أعضـائى من الرجفان

فضمّنت بيت ابن الشريد كأنما ... تعمــد تشبيهى به وعنـانى

"أهمّ بأمر الحـزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان"

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : «والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لمـا كتبت اليه على هذا الروىّ » .

وقد رأى أبو أحمد أن هـذا لا يقنع الصاحب وانه لا بدّ من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول اليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبى تمـام :

مالى أرى القبـــة الفيحاء مقفــلة ... دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها

كأنهـا جنـة الفردوس معرضـــة ... وليس لى عمـــل زاكٍ فأدخلهـا

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمـد فلك السابقة الأولى ! فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت! فقال الصاحب: يا أبا أحمد! تغرب فى كل شىء حتى فى المثـل السائر ! فقال : تفاءلت عن السـقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبى أحمد العسكرى سنة ٣٨٢ (١)

وانمـا كتبنا هذه الكلمة عن أبى أحمـد لأنه كان أستاذ أبى هلال، ولنرشد القارئ الى أن أبا هلال حين يقول فى الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فانه لا يريد رجلا سواه . ومن

---

(١) وفيات ج ١ ص ٢٣٥ وقيل سنة ٣٨٧ ياقوت ج ٣ ص ١٣٤

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبى أحمد العسكرى من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة فى أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتاب[١] .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم فى اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبىّ النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكرى كان قدوة له فى ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر فى زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر فى الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل[٢]، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليل على أن الأنام قرودُ
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عنى رثاثة كسوتى ... هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم[٣] ... وحالىَ فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا ... وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى ... فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم[٤]

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبل بالصاحب بن عباد ، وليس فى كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

---

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : النوى .
(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنى رأيت فى كتاب الصناعتين ما يدل على أن صـلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول اشادته بأدب الصاحب ، والثـانى تحامله على المتنبى ، وكان ابن عباد يكره المتنبى كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهـر فى استشهاده بكلامه ، كقوله فى باب السـجع والازدواج : " ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشـوق فأجرى جياده غرا وقرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضـل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقـد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفســه ، وينجز وعد الثقة فى فك حبسه[1] " .

ونرى أبا هلال فى مكان آخر يقول : "روى لنا أن عمر بن أبى ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تشط غــدا دار جيراننـا *

فقـال ابن عباس :

* وللــدار بعـد غد أبعد *

فقال عمـر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم فى قبيـلة واحدة وفى أرض واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقنى وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم[2] .

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٧٣

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبى هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى قد يهبها الله للناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول : " وهكذا يفعل الكتّاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : فإن حنثت فيما حلفت ، فلا خطوتَ لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت الى مقام فخر، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التى لو سمعها عامر بن الظرب لقال هى الغموس[1]، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا فى آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك ، توقع الظمآن للماء الزلال ، والصوّام لهلال شوّال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه فى تجشيم مولاى الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف[2] » .

٥ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدّث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إنى لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : " فهذا كلام عاقل يضع الشىء فى موضعه ، ويستعمله فى إبانه، ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لايجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل[3]

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التى تغمس صاحبها فى النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفى باب الكناية والتعريض يقول : «ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إنى على شغفى بما فى خمرها ... لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ» .

و« بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته فى الكشف عن مساوى المتنبى[1] .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم ... دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه[2] » .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهمّ الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبتك من نسل الجديل وشدقم ... كومٌ عقائلُ من عقائل كوم[3]»

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبى هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم فحلان كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبةٌ من التعمية . فاذا كان المعنى سَبيا[1]، ورصف الكلام رديا، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وان اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها[2] .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتّاب المتفوقون .

وانظر أيضا قوله :

" البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة، ولا على لسان دون لسان، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده، وتكون الأمَة بليغة ولا تكون ربتها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها، وقد يحسنها الصبى والمرأة[3] " .

---

(١) السبي، هنا، معناه الجيد، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهى فى رأيهـم ليست وقفا على أمة دون أمة، ولكنهم يشـعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ، ولا يمكن أن يطالَب الرجل بغـير ذلك، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصداقة الروحية لأسرار الكتّاب والشـعراء . وفى رأيى أن البلاغة كالموسيقا لا تُفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع، فهناك ألحان شرقيـة بديعـة لا يدرك جمالهـا إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغـربيون لسـخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غـربية دقيقـة لا يقدّرها إلا الغربيون، ولو سمعها الشرقيون لسدّوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجام !

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر ، ويضع شعره فى طبقة أشعار المفلقين، فينشـده فى الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبى تمـام والبحترى، أو النابغة وامرئ القيس، ومن إليهم من القدماء والمحدَثين، وهـذا يدل على اعتداده بقيمته الفنيـة ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين، فنستحسن قوله — وقد أنشده فى باب المطابقة — :

قل لمن أدنيـه جهدى ... وهو يقصـينىَ جهده

ولمن ترضـاه مـولا ... ك ولا يرضاك عبـده

أمليـحٌ بمليـح الشـ ... ـكل أن يخلف وعده

أم جميـلٌ بجميـل الـ ... ـوجه أن ينقض عهده

ما الذى صـدك عـنى ... ليت ما صـدك صـده (1)

ونستجيد قوله فى تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشـتاء خلّص روحى ... من حرور تشوى الوجوه وتكوى

برد المـاء والهـواء كأن قد ... سرق الـبرد من جوانح خِلْو

(١) ص ٢٤٧ من الصناعتين .

ريحه تلمس الصـــدور فتشـفى وغمـاماته تصـــوب فـتروى

لست أنسى منه دمائة دجن ثم من بعـــده نضـارة صحو

وجنـو با يبشـــر الأرض بالقطـ ـركما بشـــر العليـــل بـــبرو

وغيوما مطـــرزات الحـــواشي بوميض من البروق وخفـو

كلمـا أرخت السماء عُـــراها جمع القطـــر بين ســـفل وعلو

وهى تعطيك حين هبت شمـالا برد ماء فيهـا ورقـــة جـــو

وليـال أطلن مـــدة درسى مثلمـا قد مددن فى عمـر لهوى (١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ – كتاب الصناعتين

١ – أجمل أثر لأبى هلال العسكرى هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة، وتمييز الكلام جيده من رديئه، والإيجاز والإطناب، وحسن الأخذ وقبحه، والتشبيه والسجع والازدواج، والبديع وفنونه، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هى أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهى فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدمين : فعلوم اللغة العربية فى عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار باعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء (١) . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة فى ذلك الفن كانت لعهده قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو فى رأيه كتاب جم المنافع لما اشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه : فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير (٢) .

٢ – كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإنا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : «ولم يسبقنى الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد، وإنما اقتصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة اليه من إيضاح غامضها، وإنارة مظلمها،

(١) ص ٣ من مقدمة الصناعتين . (٢) ص ٥

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها،وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك، وتأتمّ بما شرحتــه منه، وتستدل به على ما ألفيته من جنسه اذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف فى البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله[1] " .

ونراه يقول بعـد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت فى هذا البـاب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف فى سرق الشـعر فمثل بين قول المبتدئ وقول التـالى و بين فضـل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، و إنمـا كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فانى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد[2] .

٣ — وأول ما يلاحَظ فى كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، و إنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجمل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد ينـدر أن نجدها فى كتاب سواه، واليك هـذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هراسة فى وصية ابنه :

" يا بنى! إن من النـاس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودّة وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم[3]" .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبـل أن يكون كتاب نقـد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميـل كان يريد به القـدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العـامة، ومن أمثلة

(١) ص ٣٩ (٢) ص ١٧٩ (٣) ص ٢٤٠

استطراده أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير فى القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال : كونه! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن النـاس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابى : كيف حالك؟ فقال : ماحال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مأمنه . وأن النبى عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... ليصحنى فاذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وانما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقريب من ذلك قول محمد بن على : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غَصَص ، وشربة ليس معها شَرق؟ فتأمل أمرك . فكأنك قد صرت الحبيب(١) المفقود أو الخيال المخترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع فى نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب فى الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء اذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئا من مختار شعره فى هذا المعنى(٢) .

(١) فى الأصل «الجيب» وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

٥ — ومما يؤاخَذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتّاب والشعراء فى كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له "أما بعد فان المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر"[1] وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فان حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لايخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى،والرجاء لما فى يديه لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذى نهى الله عنه هو التبذير الذى يعاقب عليه، والاقتصاد الذى أمر به هو الإسراف الذى يغضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[2] ! »

٦ — ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وانما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين فى اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطوّرات المعانى والألفاظ والأساليب .

٧ — وسر البلاغة عند أبى هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن فى ايراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه[3]" ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعانى فقط، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام . ودليل آخر عنده أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا — والفاتر شر من البارد — كان مستهجنا ملفوظا، ومذموما مردودا[4] .

(١) ص ٣١ (٢) ص ٢٨١ (٣) ص ٤٢ (٤) أنظر ص ٤٢ و٤٣

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جُعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقا ثمينا .

وقد عرض فى باب التتميم إلى قول الخنساء :

وان صخرا لتأتمّ الهداة به كأنه علَم فى رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدفَن منه الصالحات وان يُسِئْ يكن ما أساء النار فى رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجته فى معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ”وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة [١]“

٨ — وحسن اللفظ عند أبى هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه [٢] . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه و إصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور فى حسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه [٣] . وهو يفضل الكلام السهل ، و يراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب [٤] .

وهذا حق : فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق ، وليس فى مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعا بما يفهمون فى لغة سهلة تجرى الى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قُواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعانى الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكو رب ما حلّ بى من صدّ هذا التائه المعجبِ

إن قال لم يفعل و إن سِيل لم يبذل و إن عوتب لم يُعتب

صبٌّ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

---

(١) ص ٣١٠ (٢) ص ٤٤ (٣) ص ٣٩ (٤) ص ٤٤

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى	نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى من هواك وجدا قد استهـ	ـلك نومى ومضجعا قد أقضا
لجفونى فى عبرة ليس ترقا	وفؤادى فى لوعة ما تقضّى
بأبى شادنٌ تعلق قلبي	بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب	يتثنى تثنىَ الغصن غضا
واعتذارى إليه حين تجافى	لىَ عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقبيـ	ـلا ولثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفتَ القلب فانصرفا	ولم ترع الذى سلفا
وبنتَ فلم أذب كمدا	عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا	س ممن ملّه خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود[1] .

والكلام الجزل يجىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولاتستعمله فى محاوراتها[2] . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ماتفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لاتقدر عليه .

والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوّة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

"وأنا من لايحاجّك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

(١) ص ٤٧ (٢) ص ٤٧

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غِرة الحداثة، وردتنى اليـك الحنكة، وباعدتنى منك الثقة بالأيام ، وأدنتنى اليـك الضرورة . فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدّد النعمة بأطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت"[1] .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبى للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :

" أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستحلسنا الحذر[2]، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء" فعفا عنه[3] .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص فى مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة[4] . وهنا ينـاقض رأيه الأول، فضـلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شـبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفى رأيى أنه يجب أن يُفرَق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليـه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت فى الشعر، وعلى وحدة الفاصـلة فى النثر، مع أنه يجب التفكير فى وحدة الغرض الذى سـيق من أجله الكلام،وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع،وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان[5] .

وهناك أبواب فى كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل،وان لم تكن فى جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففى باب الالتفات شواهـد بديعة مسـندة الى الأصمعى إذ قال : أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى   بعود بَشامة؟ سُـقِيَ البَشامُ

---

(١) ص ٤٩ (٢) استحلسنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويبسط فى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقـــوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى   لا زلت فى عَلَل[1] وأيك ناضـــر[2]

وفى باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شىء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها   اليك؟ وكلا ليس منك قليل[3]

وفى تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أسمعت بورود كتاب،أم ظفرت برجوع شباب،ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممطور؟ وكلام منثور، أم وشى منشــور؟ ولم أدر ما أبصرت فى أثنائه : أأبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمآن، أم غوث سيق الى لهفان[4]»

وقـد يُلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا فى نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حَجَر فى قوله :

ولست بخابئ أبدا طعاما   حذار غد،لكل غد طعامُ

لـما تكرر فيه من لفظ غد[5] .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب فى كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير، وانما يكفى أن نقول إن كتابه يضع القارئ فى حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتابٌ جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) العلل ، بالتحريك ، الشرب بعد الشرب تباعا .   (٢) ص ٣١٠   (٣) ص ٣١٣
(٤) ص ٣١٤   (٥) ص ٤١

١٠ – أبو على الحاتمى

١ – أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من الشخصيات القوية التى غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت اليه من آثارهم صُبابات كافية تميط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذى ينظر حواليه فتتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ فى هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمى تشعره بأن من المخجل أن يُنسى مثل هذا الرجل فى عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكرى المجيد .

٢ – ألف أبو على الحاتمى عدة كتب فى اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، والموضحة فى مساوى المتنبى ، والهلباجة فى صناعة الشعر ، وسر الصناعة فى الشعر أيضا، والحالى والعاطل فى الشعر كذلك، وكتاب المجاز فى الشعر أيضا[(١)] . وهذا الإلحاح فى الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه فى هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجع، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة فى أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق فى دلالته على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية فى مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت فى " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمى لوحدة القصيد إذ يقول :

---

(١) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٢

"مَثَل القصيدة مَثَل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه، وتعفى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدّمين، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدَثون لتوقد خواطرهم، ولطف أفكارهم، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم، وكأنه مذهب سهلوا حَزْنه، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده، إلا أن طبعه السليم، وصراطه فى الشعر المستقيم، نضا بتاره، وأوقد بالبقاع ناره. فمن أحسن تخلص شاعر الى معتَمده قول النابغة الذبيانى :

فكفكفت عنى عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهلٌّ ودامعُ

على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقد حال همّ دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره، ولا يتميز منه شىء عن شىء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدَثين الذين واصلوا تفتيش المعانى، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمر الآداب، وفتحوا زهر الكلام، لكان معجزا عجبا، فكيف بجاهل بدوى إنما يغترف من قليب قلبه، ويستمدّ عفو هاجسه" (١) .

(١) ج ٣ ص ١٧ و ١٨

أليس فى هذه الفقرات دليل على أن الحاتمى كان بعيد الغور فى نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هـذه الى أدق ما وصل اليه النقاد فى العصر الحديث ؟ وأى تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ؟ يضـاف الى ذلك جرأته فى رمى الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنمـا عددنا ذلك جرأة لأن الرأى الغالب فى تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة فى الشعر ورمى من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمى لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قليب قلبه و يستمدّ عفو هاجسه فيأتى بالمعجز الذى يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ — ولكن هـذه البراعة التى يمثلها ما بقى للحاتمى من الشـذرات القليـلة لم ترتفع به كثيرا فى الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن خمول الحـاتمى يرجع الى انصراف الناس عنه لصَلَفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعـد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدّثنا ياقوت أنه كان مبغّضا الى أهـل العلم فهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة[1] . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمى فى العُجب ودعواه التفرد بالحذق واللوذعية والذكاء . والحذلقة من أخطر ما يُرزأ به العلماء والأدباء وهى تجلب الى أصحابها من ألوان العـداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العـلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم فى أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحذلقة الحاتمى وهو يقول عن نفسه فى مقدّمة كتاب وضعه فى سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سـنة تميل بى سـنة الصبا وتنقاد بى أريحية الشباب بهـذا العلم ، وكان كلفا به عَلِقا علاقة المغرم

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠١ (٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٣

بأهله ، منقبا عن أسراره . ووُزِنتُ فى مجلسه تكرمة و إدناء وتسوية فى الرتبة — ولم تسفر خداى عن عذاريهما — بأبى على الفارسى وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز فى علوم العربية تصرفا فى أنواعه ، وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبى الطيب اللغوى وكان كما قيل حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدحت فى مصنفاتهم ، وعُددت فى الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايماء عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غرير الغرارة ، تميد بى أسرار السرور ، ويسرى علىّ رخاء الاقبال ، وأختال فى ملاءة العز فى بُلَهْنِية من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمى كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرفا فى الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يجحد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد اصطدم كبرياء الحاتمى بكبرياء المتنبى ، وكانا متعاصرين يضمر كلاهما لصاحبه أقتم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولاسيما اذا اصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع فى خصومة الحاتمى للمتنبى : فقد كان الحاتمى صديقا أو تبعا للوزير المهلبى ، وكان المهلبى يبغض المتنبى بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمى وانتظر قدوم المتنبى الى بغداد ليناظره ويؤلب العامة عليه ويزهدهم فى شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمى رسالتين فى نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى فى المجلس الذى تلاقيا فيــه لأول مرة، وهى رسالة مغرضــة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمى حين يذكر أنه ضايق المتنبي، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل مِعول يؤثر فى كل بناء، والناقد يستطيع كل شىء متى آستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير فى الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأمجد الأعمال، ويأتى على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب .

ولنترك الحاتمى يتحدّث قليلا لنرى خُيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينــة السلام التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه ، وصــعَّر خده، ونأى بجانبــه، وكان لا يلق أحدا إلا نافضا مذرويه(١)، رافلا فى التيــه فى برديه، يخيّل اليه أن العلم مقصور عليــه، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره، وروض لم يرع نُوّاره سواه ، فدل بذلك مُديدة ... حتى تخيل أنه القريع الذى لا يقارع، والتريع الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغَلَب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهــل الأدب بمدينة السلام فطأطأ كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلبي أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صــناعته ويساويه فى منزلته، نهدت حينئذ متتبعا عواره، ومتعقبا آثاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أسراره، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه ... الخ» (٢) .

والرسالة تقع فى أربع عشرة صــفحة كلها مقارعة ونضــال، وهى تمثل طريقــة الحاتمى فى الكتابة ومذهبه فى النقــد ، وفيها فقرات قوية ، كقوله يجيب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الألية، بلا واحد، أوهو المذرى، ومن الرأس ناحيتاه، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفض مذرويه باغيا متهددا (قاموس) .

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

فى تثاقل وفتور : " أنا بخير ، لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى فى المسير الى مثلك" [١] ونقدات الحاتمى فى هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبى بالسرقات الشعرية وسوء التعبير فى طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين النـاقدين . وقد ختمت هـذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبى ومعز الدولة بهزيمة المتنبى ، وهى كذلك دليـل ما وصفنا به الحاتمى من الإسراف فى التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانيـة فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمى ، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبى الى أصولها من كلام أرسطاليس ، وقد وضع لهـا مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بهـا أنه فى نقـده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافـع عن المتنبى " حين اتُّهـم بسرقة ما فى شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية" [٢] لأن ذلك إن كان وقع من المتنبى "عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق فى درس العلوم ، وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقـد زاد على الفلاسـفة بالإيجاز والبلاغة " [٣] وهو فى الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحـاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبى باللطف مالم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسطاليس ثم يعقبها بشعر المتنبى ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبى فضيحة شـنعاء . وفى الحق أن هـذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمى ، لأن حِكم المتنبى تبدو فطرية لأول وهلة ، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنـه من كلام أرسطاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبى :

فان قليل الحب بالعقل صالح   وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمـة من الحكمة التى أُخذ عنهـا فى قول أرسطاليس " يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة" [٣] .

(١) ص ٥٠٦ (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجموعة التحفة البهية) . (٣) ص ١٤٦

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفضح تنافره حين يُنظر الى أصله فى قول أرسطاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأطماع شديد الامتناع"[(١)] .

وقول المتنبي :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

أقل عمقا من قول أرسطاليس :

" من لم يردك لنفسه فهو النائى عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه وإن تباعدت عنه"[(٢)] .

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبهُ   فربما صحت الأجسام بالعلل

أقل وضوحا من قول أرسطاليس :

"وقد يفسد العضو لصلاح أعضاء كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها"[(٢)]

وقول المتنبي :

وما التيه طِبي فيهمو غير أننى   بغيض الىّ الجاهلُ المتعاقلُ

أقل تعليلًا من قول أرسطاليس :

"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس"[(٣)] .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقرُ

منقول من قول أرسطاليس :

" من أفنى مدته فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم"[(٤)] .

(١) ص ١٤٥   (٢) ص ١٤٧   (٣) ص ١٤٨   (٤) ص ١٥٠

والرسالة الحاتمية تقع فى خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبى، وهى كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقى المتنبى من خصومه المسرفين .

٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمى أصاب فى كل ما رمى به المتنبى من سرقة معانى أرسطاليس ، فقد يتفق الرجلان أحيانا فى المعنى وينفرد المتنبى بجمال الصورة .

فقول المتنبى :

إذا آعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمـــر به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسطاليس :

"من آستمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها"[١] .

وقول المتنبى :

إنعم ولَذّ فللأمور أواخرٌ أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسطاليس :

"كل ما له أوّل تدعو الضرورة إلى أن له آخرا"[٢] .

وقول المتنبى :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه

أفعل فى النفس من قول أرسطاليس :

"كرهُ ما لا بد من كونه عجزٌ فى صحة العقل"[٣] .

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمى وقوفه عند أرسطاليس، كأن المتنبى لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن ارسطاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد ، حتى آستطاع الحاتمى أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبى، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل ، فقد نظر المتنبى إلى قول أرسطاليس : "ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم" .

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٥٥ (٣) ص ١٥٨

ثم أداره فى نفسه وما زال به حتى أغرقه فى لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبنّ مَضيما حسن بزته   وهل يروق دفينا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمى أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب فى ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله فى أول المراجعة "قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمى كتب رسالته الثانية وقد اكتهل وغلب عليه الوقار وفارقه النزق الذى ساد فى رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله فى مقدّمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فان أحق ما احتكمت اليه نفوس أولى النظر، وانقادت اليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العدل ، فانه سنخ[1] العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى " .

١٠ — هذا وكان الحاتمى متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذى يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمنَّ   ما تعديته ولو بالمنونِ

أشتهى أن أحلَّ فى كل جسم   فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قِصرا   كعارض البرق فى أفق الدجى برقا

قد كاد يعثر أولاه بآخره   وكاد يسبق منه فجره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليل أقمنا فيه نُعمل كأسنا   إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكرُ

ونجم الثريا فى السماء كأنه   على حلة زرقاء جيبٌ مدنَّر

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فليرجع اليها القارئ هناك[2] .

(١) السنخ، بالكسر، الأصل .   (٢) ج ٣ ص ١٢

١١ - أبو عبد الله المرزبانى

١ — المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان — كما ذكر ابن النديم[١] — وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد[٢] .

ولد فى بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا نُتف يسيرة ،وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته فى ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تململه حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين؟ ! » يعنى قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ — وكان فى حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف فى أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة فى تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية فى الأقطار الاسلامية . وقد أُخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح فى رواية الحديث .

وكان فى جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدّمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب فى تحامل بعض المغرضين عليه كأبى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعوه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلجام[1] . ولو بقيت كتب المرزبانى كلها أوجلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقـل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل . غير أننا نجـد ابن النديم مفتونا به أشـد الفتون . وابن النـديم حجة فى تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدّثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشـعراء المشهورين والمكثرين من شـعراء المحدثين . وقد أثبت فى هذا الكتاب مختار أشعارهم وبيّن أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شُهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليـه وما جانس هذه الأحوال . ويشـتمل الفصل الثانى على ما رُوى من نعوت الشـعراء وعيوبهم فى أجسامهـم وصورهم كالسودان ، والعور ، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصـارى ومن جرى مجراهم . ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهليـة تكبرا وفى الاسلام تدينا، ومن ترك المديح ترفعا، والهجاء تكرما، والغزل تعففا، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسّيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه "الرياض" ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيـه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشـتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشـعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه فى الفهرست[2] ، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية .

(١) ياقوت ج ٣ ص ١٠٣ (٢) أنظر ص ١٩٠ — ١٩٣

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيبا قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتابا، وللمحدثين كتابا، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة فى أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء ومادخل فى جملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد والزهاد والحجابة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذى ساق فيه طرفا مما قيل فى الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار . وكتابه فى نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ .

ومن المدهش أنه ألف كتابا فى أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتا لكل من تحدّث عنهم من الشعراء . فمن الذى يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرنا وكان المرزبانى لم يجتز منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتابا سماه " تلقيح العقول " فى أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدبين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك[1] .

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذى نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف فى مقدمته أنه اهتم بذكر ما أُنكر على الشعراء فى أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصره ومَن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها . وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التى نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عِيب على الشعراء قديمهم ومحدثيهم فى أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم فى أنفسهم وأجسامهم

(١) الفهرست ص ١٩١

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معايبهم التى استقصاها فى كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معانى الشعر التى أتى بكثير منها فى كتابه الذى تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائليه ومنشديه والبيان عن منحوله ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض[1] .

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار . وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أُخذ على الشعراء . وأكثر ما أثبته لا نجـده اليوم فى غير كتابه . وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك . فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها فى شتى المطالعات . ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قال النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجدها منظمة على نحو ما تجدها فى هـذا الكتاب . على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيُعرَف رأيه ومذهبه فى النقـد كقوله مثلا فى نقد قول الطائى :

وقد سـدّ مندوحة القاصعا ء منهـم وأمسك بالنافقـاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه . وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاوَر بأمثالها ولا تتبع أشكالها . فكأنها تشكو الغربة فى كلامهم"[2] .

ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله اذا اطّرد فى كلام متأبد غريب . أما فى الكلام السلس فاستعماله غير مقبول . وهو يوافق بعض الموافقـة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى . والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس فى اختيـار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألفون .

(١) راجع مقدمة الموشح . (٢) الموشح ص ٣١١

٦ — ولا يخلو المرزبانى — على فضله — من تحامل : فقد رأيته يغض من قيمة مختارات أبى تمام إذ يقول :

"وللطائى سرقات كثيرة أحسن فى بعضها وأخطأ فى بعضها . ولما نظرت فى الكتاب الذى ألفه فى اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدة يرجع اليها فى وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتخفى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر فى سرقاته حتى يزيد فى إضاءة المعنى ، أو يأتى بأجزل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ماقصده نظر مستغن عنه لافقير اليه"(١) .

ففى هذه الفقرة تجنّ شديد على أبى تمام وإزراء بإحسانه فى تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذى مر ببال المرزبانى مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التى لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التى يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التى سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدرى كيف يصح هذا من المرزبانى إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبى تمام . وقد كان أبو تمام ابتُلى فى حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به فى هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقا وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح فى خلقها إثما ولاجناية ، حتى صح للمرزبانى على نزاهته أن يتهمه بسوء النية فى تأليف المختارات مع أن فى الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلا فى مجموعة أدبية وهما باب المراثى وباب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزبانى أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحيانا يضيف اليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

(١) ص ٣١٢

"دخلت على أبى تمام الطائى وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرها . فعلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتراك أعلم بهذا منى ؟ إنما مَثَل هذا مَثَل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدّم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره و يرى مكانه ولا يشتهى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا فى أشعار الناس[1] " .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . " قال مثقال الشاعر : قلت لأبى تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردىء ! فقال : مَثل هذا مَثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت " وفى التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزبانى بأن يقول . " وهذه حجة ضعيفة جدا[1] " .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشىء فى النقد والمقابلة كما فعل فى نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فقد بين أن أفضل منه قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال " فأحسن فى قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدّة كلفهم لقلة المساعد وفقد الحبيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لا بدّ أن يؤدّى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه[2] " .

وللمرزبانى ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارىء المتصفح ويستجيدها المتأمل كقوله فى التعقيب على قول أبى العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

(١) ص ٣٢١ (٢) ص ٣٢ و ٣٣

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزبانى أن العبارة غير مرضية : لأنا لم نر أحدا أكل شهدا بسم . وأجود من هذا البيت لفظا وأصح معنى قول ابن الرومى :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى ... من البيض إلا حيث واشٍ يكيدها

مع الواصل الواشى وهل تجتنى يد ... جنى النحل إلا حيث نحلٌ يذودها(١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهى تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرنى عن قولك :

كأن بنى نبهان يوم وفاته ... نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ماتكون إلا اذا لم يكن معها قمر(٢) .

٨ — وقد اشار المرزبانى فى غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على امرئ القيس فى قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا فى البيت الثانى . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقى البيت . على أن فى هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبيانى فى اعتذاره الى النعمان :

(١) ص ٢٦١ (٢) ص ٣٠٧

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذبُ

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج الى سواه[1] .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فان الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشدّ الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقا الشعرية ننقل له قطعة لابى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما لمت على الحب فذرنى وما
ألقى فانى لست أدرى بما بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبى غزال بسهام فما أخطا بها قلبى، ولكنما
سهماه عينان له كلما أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب ، لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تُحكم فى قدرها الأذواق .

(١) أنظر ص ٣٣ و ٢٦١

٩ — وفى الموشح عبارات نقديه تكاد تبلغ الغاية فى دقة الوصف وليتأمل القارئ ما نقله المؤلف فى تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوى :

" أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط [1] ".

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد فى استهجانه قول بعضهم فى النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق ... بعود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن فى الإزراء بمثل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق فى كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالتها على ما وُهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيب قول بعض المولَّدين :

عادنى ممرضى فلم ير منّى ... فوق فرش السقام شيئا يراهُ

قال لى أين أنت قلت التمسنى ... فبكى حين لم تجدنى يداهُ

ولسنا نستطيب هذا لصحة معناه وإنما نستطيبه للصورة التى قدّمها الشاعر فى وصف آثار النحول .

١٠ — والمرزبانى يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر فى ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وان اجتهد فى إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدّثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

(١) ص ٢٤٣

سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعاظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أوّلا مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

”ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انسترعنه وحسبنا الله ونعم الوكيل[1] “ .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه الهفوات تتكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلعل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لاتجانب الجادّة السوية إلا وهى ثائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يجىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انسترعنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

(١) راجع ص ٣٣٦

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التى تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزبانى طائفة من الطُّرف والفكاهات كانت تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزبانى فى إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .

والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد[1] .

(١) من أظرف ما نقل المرزبانى من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء فى ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعى يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى الى أشعارهم : قال : فأخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ! »

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

---

١ - أبو حيان التوحيدى

١ — لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين : الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتبا مجيدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطيقا خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسر فى عبقرية البحترى مثلا يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السر فى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السر فى تفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتّاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعدا يزمجر كلما مر ببأله خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ — لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم ترددوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤ [١] وفى هذا مايرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر من ذلك الكتاب .

نشأ فى عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض فى حياة التوحيدى قيمة فى فهم جَدّه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا فى دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتّاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء، فلأذكر أن تلك الثورة شبت فى مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائه حينا، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ماينقع غلته، ويطفىء صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أتُّون متسعِّر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا فى كتابه (مثالب الوزيرين)[1] أنه لما قدم على الصاحب قدّم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لايقبل أن يعصَى له أمر، أو يراجَع فى قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدّث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فانى فارقته سنة ٣٧٠ “ .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥

"وماذنبي إن ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأنى خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى" (١) .

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولا ما علىّ يدٌ لأجنبىّ ولا فضلٌ لذى رحم
الحمد لله شكرا قد قنعت فلا أشكو لئيما ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيّق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبد الأنام إذا كا ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

" اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك، ونُبتَلى بحمد من أعطى، وذم من منع ، وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء" (٢) .

وهذا نص فى أنه كان مشغولا برزقه ، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء ، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلبا للمال ، فدرجت نفسه على الحرص والطمع ، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين ، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك ، ومن هنا قلّت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضغن والجحود .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدى يقدّم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجامح فى أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنـار ، حتى لا يكون بينه و بين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب فى ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدّثنا فى تلك الرسالة بما يؤيد ماذهبنا اليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال فى وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله» .

وفى تلك الرسالة فقرات مُرة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهـم ، وقوة الادراك . ولقـد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

"فجوابى لك : أن عِيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقـد اضطررت بينهم بَعـد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عنـد الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقـلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدّة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب مافعلته وأتيته بمـا قدّمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويتـه ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل " .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحـة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تثـور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وما هى

متانة الخلق، ومامعنى الكرامة، ومامدلول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشــواك : أشواك الملق والمداهنــة والرياء ، فمشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لخزيات الضعة والهوان والصــغار ممــا يضرم فى نفسه ثورة الحقــد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أســباب الخسة والدناءة والإســـفاف .

٧ — وفى تلك المعركة الداميــة التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتّاب أهجى وأفحش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص، قبِل فى جمع المــال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترف مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه مايملك أصحاب التيجان ويُقبــل بنفس حازمة غنية على استدوار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليــــل على أن الأنام قـــرود

ولا خير فى قـــوم يذل كرامهـــم ... ويعظم فيهـــم نذلهم ويســـود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بمالا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه. ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مِسكويه شىء : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المــال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعــد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إنى أسألك عن شىء واحد فاَصدق فانه لا مَدَبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهــذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيــله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المــال ؟ أوكنت تقول : ما أحسنَ ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقته فاَعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدّعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فآفطن لأمرك ، وآطلع على سرك وشرك[1]" .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق ، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب .

⁂

٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه الينا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعا متقنا معنيا به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا ، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فاذا حاولوا

(١) ياقوت ص ٤٠٦ ج ٥

الاجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والالحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدى فى إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

"ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لاعمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلّون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون[1] ؟

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدّث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وانك لترثى له وتبكى لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

" وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم " وأقول : " اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء "[2] والخوارزمى

---

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هـذا الذى يعجب به التوحيدى و يتحدّث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدّمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الاهاب، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هـذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فاقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويتـه، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منهـا بنقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبـة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهمّ النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمســه رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيــدى . وليس يهمنا فى هـذا المقام ما اشتمل عليـه من الفقرات الجميلة ، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنا بنوع خاص ماصر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسمات .

١١ — والصور التى يقدّمها التوحيدى تمرّ غالبا على أنها أحاديث . فهو يصوّر خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنىّ اللغة قوىّ الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يندّ منهـا شىء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

" وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولىّ أو خليط . كما لايخلو أيضا من عدو أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزل أو مضل أو مغل[1] " .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعانى النفسية والوجدانية التى تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور فى الصداقة والحب . من ذلك قوله فى التفرقة بين الصداقة والعلاقة : "الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى الى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة . فأما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى مافقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط[2] " .

ونقل فى موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمىّ يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغاة الصديق أعبث بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق[3] .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعزز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ؛ ويتزع الى الوالدة لشفقتها ودعائها الذى لايعرج الى الله مثله ؛ ويشتاق الى أخته للصيانة لها والتروح اليها ؛ والى ابن عمه للانتصار به ،

---

(١) الصداقة والصديق ص ٧٣ (٢) ص ٤٠ (٣) ص ٧٩

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم ، و يصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض، وفى المجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوقى الى كل من نعتّه لك، لأنى أباثّه بما أجل أبى عنه، وأجبأ من أمى فيه، وأطويه عن أختى خجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يفقأ ما بينى و بينه . فأما العشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الىّ دون الصديق الذى حريمى له مباح، وسارحى عنده مُراح، أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت، وأجد فائتى عنده اذا دنوت، اذا عززت له ذل لى ، واذا ذللت له عز بى، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودّة، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب (١) .

وقد عرض التوحيدى للصداقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدى حين قال :

”قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات . وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى وبينه، أوكأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدّثته برؤيا فيحدّثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“ .

(١) ص ٦٢

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه فى شىء، أو يجد عليك فى شىء؟ فقال : وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة . وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا فى ذلك مقنع، واليه مفزع، وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندّت عن صدرى الى لفظى، وذاك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه ، والفرع الذى تشبثنا به . والله ما يسرنى بصداقة حُمْر النَّعم. واذا كنت أعشق الحياة لانى بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الىّ روحها، وخلط بى طِيبها وحلاوتها"[1] .

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثـل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدّثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندَّت عن صدرى الى لفظى" .

هيهات هيهات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون .

* * *

١٤ — وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يتستر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا . وبين مدبِّر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقـل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصديق .

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هى الخلود والديمومة" [(١)] .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الاسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتّاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير مايرمون اليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان [(٢)] .

---

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات .

(٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هـذا الكتاب . ولكنا رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها قليل . على أننا لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الانسان والحيوان أمام محكمة الجن » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع والازدواج) .

٢ – أبو على بن مسكويه

١ – لما أصلْ الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مِسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فان الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ – اتصل ابن مِسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنئ عميد الملك باتفاق الأضحى والمِهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائقٌ خُيِّرتْ فى كل صالحة	فلو دعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورُدّ علىّ العمر من كثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى	و إن أساء إلىّ الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكَلَّ غربىَ واستأنست بالنوب
اذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نانخا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدى، فقد غمزه فى كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغبى بين أنبياء"[1] واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثية بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب : قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى مملوك الهمة فى طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه . هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق . ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد . ولقد تجرع على هذا الصابَ والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة فى نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ .

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف فى الأخلاق . ولننظر كيف يقول فى كتاب الوزيرين .

"جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء : قال لى مرة : أما ترى الى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ! أسألك عن شىء واحد، فاصدق فإنه لا مدبّ للكذب بينى وبينك : لو غالط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أوكنت تقول : ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه ! فان كان

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٨٩

الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك واطلع على سرك وشرك"[1].

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق، ومتانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتُلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء، وألفوا التزلف والتودّد الى أقطاب الجاه والمال. والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفّق مطمئن العيش كابن مسكويه. ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرّد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لايجد غير هذا الثناء الهزيل إذ يقول :

"وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ"[2].

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدَّحا يتملقه لئام الشعراء والكتّاب، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذانى رسالة عتاب تكلف فيها الودّ والإخلاص، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان، لا يعترف لأحد بفضل، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمتزبه من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه. وتكاد رسائله وقصائده تُقصَر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧   (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حينا، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بىَ عندكم فلا تمهليـــه أن تقولى له مهــلا
كما لو وشى واش بعزة عنـــدنا لقلنا تزحزح لا قــريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لهـا على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولهـا، وأستجيز معقولهـا . بلى قد كان بينى و بينه عتاب لا ينزع كنفه ، ولا يجذب أنفه، وحديث لا يتعدّى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعربدة كعربدة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء جحظة، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا، وتأبط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحان من جعلنى فى حيز العــذر أشيم بارقته ، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنىّ عليــه ، والمستخَف به، لكن من بُلى من الأعداء كما بليت، ورمى من الحسدة بمـا رميت، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليــه من المكاره ما وصفت ، إعتذر مظلوما، وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضن بعشرة غريب إذا بدر، وبعيــد إذا حضر، ولصان مجلســه عمن لا يصونه عمـا رقى إليه . فهبنى قلت ما حُكى له ، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستفز، وجبلا لا يهز، وشوا إليه بما أرّثوا به نارهم . ورد علىّ ماقالوه فمـا لبثت أن قلت :

فان يك حربٌ بين قومى وقومها فانى لهـا فى كل نائبــة ســلمُ

فليعــلم الشــيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى جمرة ، وأن فى أولاد الزنا عنـدنا كثرة ، وقصاراهم نار يشبونها، أو عقرب يدبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بمـا

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت فى الاعتذار شاذروانا، ودخلت فى الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاى إن عدت ولم ترض لى	أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وانتعل ناظرى	وصِدْ بكفى حُمَة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خُلَّب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيِّب
أن أجتن الغلظة من سيدى	فالشوك عند الثمر الطيب (١)

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :

" أما البلاغات التى أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما مجالا (٢) " .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وان كانت عبارة ياقوت صريحة فى أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية واطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ فى آثاره ظلالا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسطاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه فى وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان فى عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف فى دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التى كان يكتفى بها الصوفية

(١) ياقوت ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ (٢) ص ٩٣

والناسكون والزاهـدون، بل ساير العقل وصاحبَـه وأنس به واطمأن إليه، ثم اتخـذه أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين،وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفســه من الخلق المنقول: فهـو لا يفعل الخـير لأنه أُمر به ولا يجتنب الشر لأنه نُهىَ عنـه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وَفقا لمـا اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق.

وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربَّه وهو يومئذ آمن فى سربه، معافى فى جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة : عاهـده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفتـه أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمـله الشره على ما يضر جسمه أو يهتـك مروءته ؛ وعلامة شجاعتـه أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لايفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أوّلا نفسه ويهذبها ويحصـل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصـدق على الكذب فى الأقوال، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفســه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها،وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقـة بالنـاس بترك الاسترسال، ومحبـة الجميـل لأنه جميل لا لغـير ذلك، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستـشار فيــه العقل . وحفظ الحال التى تحصـل

فى شىء شىء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال اليه [١] .

---

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ – الأخلاق عند ابن مسكويه

١ – الخلق – كما عرّفه ابن مسكويه – حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء فى أصل الخلق، فبين أن منهم من ظنوا "أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع إلا بالتأديب[1]" وأن منهم آخرين "ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم[2]" وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه "ليس شىء من الأخلاق طبيعيا للانسان" وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الأراء، ومزيته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار،فيقول مثلا "وهذا الرأى هو الذى نختاره لأنا نشاهده عيانا"وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

(١) تهذيب الأخلاق ص ٣٧ (٢) ص ٣٨

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخيّر والشرير" [١] .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكدرت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردىء والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة فجاءتها فلسفة اليونان بزوابع وأعاصير أطارت ما كان استقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموا من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومَثَلهم فى ذلك مَثَل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكتاب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤١

ومن معاصرينا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهى القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لايكتب فى الأخلاق للناس أجمعين، وإنما يتوجه بآرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان. وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أوّلا وقبل كل شىء باثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ،لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها فى التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية فى جذبهم إلى جمال الأخلاق، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ،وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا ليأسهم من خلود النفس الانسانية ،وقولهم مع سائر الدهريين ”إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين“.

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه فى جميع الأحوال، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدّمات حقت النتائج . فلنختبر ماصنع فى بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه فى إثبات ما يريد، وهو يذكر ” أنا لما وجدنا فى الانسان شيئا مّا يضاد أفعال الأجسام بحدّه وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هى من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكمنا بأن هذا الشىء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فانه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص[1]“ .

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف فى تقديره اثنان ، فلم يبق موضعا للنزاع إلا النفس وهى عنده تضاد الأجسام فى الحدود والخواص .

" وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق[1] — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة .

مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى و بطلانها البتة . فان بقى فيه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول" .

هذا هو الجسم، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات "على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا، ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور " .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

(١) ص ٤ و٥

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم فى وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما ادعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهدَ ناس أن النفس تتبع الجسم فى الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخمول، وان الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة فى وجوه متباينة تبعا لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين فى تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مَدين إلى من يصادق ويخاصم فى تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودّات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الاسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضى أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحوّل والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت فى حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان فى كشف ذلك السر الذى لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فاذا تركنا الجوانب النظرية فى أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه فى شرح الجوانب العملية رأيناه فى أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التى تقول "الانسان مدنى بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الانسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطير وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفيا بنفسه غير محتاج فى بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت علته فى جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاما . أما الخلقة فلأنه مكتس بما يوافقه من وبر وصوف وشعر وريش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاقط حب

فمنقار، و إن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، و إن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه و يتجنب ما يضره ، و ينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، و يعد مصالحه كلها من القوت ولكنّ بغير تعليم ولا تدبير، بل بالالهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته فى حياته التى قدّرت له . فأما الانسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشىء من مصالحه إلا بالمعاناة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدّة كثيرة و جماعة وافرة ،و إذ كان هذا على هذا وكان سبيل الانسان فى حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التى تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدّن سواء كان ذلك فى الناس و برا ومدرا أو على رأس جبل[1] ".

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى الترهد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس فى ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ،فهو يطلب معاونتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون " و إن كان لا يشعر بذلك[2] " .

وهذه دقة فى فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان فى الواقع مدين إلى إخوانه فى الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذى نقرأ فى ضوئه ، ونظام البيت الذى نأوى إليه ، والكتاب الذى نهتدى بهديه ، والشرائع التى نعيش فى حماها ؛ كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

(١) راجع ص ٦٣ من الفوز الأصغر . (٢) راجع ص ٦٤

منهـا القريب ومنها البعيـد، وتلك الجهود تظلنا ونحن أجنّة فى بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية، ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذى عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو فى هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتّاب والمفكرين، ولكنه بسط القول فى الصـداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب المـاء إلى الأشجـار الظِّماء ، وهو فى ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرّب الذى صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشـعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقـد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألُّف العـدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة فى غاية الدقة : فطالمـا ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن فى الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ – ابن نباتة الخطيب

١ – اشتهر بابن نُباتة فى الأدب العربى ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذى ولد فى ميافارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤، والثانى محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه فى آخر إجازته للصلاح الصفدى وهى مذكورة فى خزانة الأدب (٦٨٦ – ٧٦٨)[١] والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ – وابن نُباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفّق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته[٢] . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة[٣] وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر فى عدّة مواطن فى كتابه[٤]، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ – ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ – ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى فى الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوفا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ،فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول فى المنام، وقد صحت له هذه الأمنية. نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر ميافارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و١٦٢ و٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأومأ إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرة ، ولم يعدّوا فى الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدّدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يومَ يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومأت عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل فى فمى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لاتدل على شيء أكثر من شغل الرأى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدّثه إلا بما يحب هو أن يتحدّث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجّه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفله فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهيه مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت مَن بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

الخطيب ابن نباتة فى المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضحى لك أمنان
والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جانى

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صوّر له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لى بقولى :

تكثّر ما استطعت من الخطايا فانك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت فى كتاب الأخلاق عند الغزالى الى المنامات التى رآها أنصار الغزالى وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات، كما توه بذلك مترجموه، كلا! وانما أتخذها دليلا على ماوصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته، وهؤلاء الذين جُلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء[1] » .

٤ — هذا الجو الذى أحاط بابن نباتة، جوّ التقى والصلاح والزهد، أثر فى خطبه أبلغ تأثير، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جوّ آخر أثر فى خطبه وأعطاها صبغة قوية رهيبة، ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرة سيف الدولة .

(١) الأخلاق عند الغزالى ص ٣٤٧

٥ — ولكن ما هى قيمة ابن نباتة الذى حدثنا صاحب المثل السائر[١] أن خطبه كانت منشورة بين أيدى النـاس يغرمون بها و يكبون عليها ، وأنهـا كانت فى أنفسهـم تسـاوى مقامات الحريرى ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصـياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة، وسجعـه حسن مقبول . وربمـا كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء، فهو أسرع تأثيرا فى الجماهير التى لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حليـة البلاغة والبيان . وربمـا كان فى اختيار الواعظين للسـجع اتصال للتقاليد القـديمة التى عرفت عن الكهان، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون فى البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون فى البيئات الاسلامية، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائمـا عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوى السـجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لمـا لا يدركون من النزعات الانسانية الكامنة التى يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة، وذلك ممـا يهتم به الحريصون على التفوّق فى الصناعة اللفظية، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكمت فيهم طاعية التخليد، واستولت عليهم رفاهية التمهيد[٢] “ .

وهو فى هذه الكلمة قابل بين ”طاعية“ و”رفاهية“ و بين ”التخليد“ و”التمهيد“...وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا، وطال بهم العفاء فأخلقوا[٣] “ .

فقد قابل بين ” صال “ و” طال “ و بين ” القضاء “ و” العفاء “ و بين ” أطرقوا “ و” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فهـلم عباد الله الى محاسبة النفوس، قبـل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبـوس، يوم غض الرءوس، وفض الطروس[٤] “ .

والموازنة فى هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

---

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطب النباتية . (٣) ص ٦١ (٤) ص ٦٢

ومما يجيده ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية فى سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له ابن الأثير العبارات الآتية :

" فيأيها الغفَلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدّقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " .

وقوله فى ذكر يوم القيامة :

" هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " . وقوله أيضا " هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب " .

وهذه التضمينات كثيرة جدّا فى خطبه ؛ وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يجنى فى هذا النوع[1] .

٧ — وبجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فنّ آخر لابن نباته هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد فى أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخيل البارع قوله يتحدّث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج فى عرفات :

" يحنون إلىّ حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون علىّ من فجاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خوّاضا لجج الرمضاء[2] " وأنا يعجبنى الخيال فى قوله " أنضاء على الأنضاء " يريد الحجاج الذين أنضاهم التقى والخوف على المطايا التى أنضاها السير والسرى . وقوله

(١) ص ٤٦٠ من المثل السائر . (٢) ص ١٢٧

" خواضا بلجج الرمضاء " فيــه أيضا خيال جميــل ، وان كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرمضاء، لأن أيام الج لا تكون دائما فى القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله فى بعض خطب الجهاد .

" قد دخلت علينا الفتنــة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب ، تتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب، ننظر الى المعــروف نظر الخزر الغضاب، ونسكن الى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب، وقد أظلنا من العــدو سحاب ممتدّة الأطناب، ودبت فى ديارنا منه عقارب الخراب " (١) ؛

وقوله فى خطبة أخرى : "ان للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال إلى الرجال، وطريقــه غمغمة الأبطال، ومفتاحه الثبات فى معــترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال (٢) " .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما فى حدود الأفكار السطحية، فيبدئ ويعيد فى ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيســتقبل أوّل السنة ويبين فضل يوم عاشوراء، ثم يخطب فى فضل رجب، ثم يودّعه ليستقبل شعبان، ثم يودّع شعبان ليســتقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التى تهــم العوام . وأهم خطبــه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضــا خطب يملؤها الصخب ويقل فيهــا الروح الملتهب والرأى الســديد . وهى دائمــا دون خطب علىّ بن أبى طالب التى كانــ يحفظها ابن نباتة ويتأثرها فى جميع مواقفــه الخطابيــة . ومن الصعب أن نجد فى خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق فى الفكر أو سموّ فى الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : " فقدّموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء (٣) "
وقوله : " واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابهــا ، وأطار الإقدام عُقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمــام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنــة أبوابها ،

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية (٢) ص ١٨٤ (٣) ص ١٨٣

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خُطابها ، وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهوّل باحتشاد عَبَدة صُلبانه ، وضمن لهم ما هو مخفر فى ضمانه ؛ وجاء الحق و بطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات والآفاق ، فأخمدوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ، وأضربوا ببيض الصفاح شبجه ، وأركبوا ببذل الأرواح لجه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه"(١) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف تساس العامة وكيف تغرس فى صدورها بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدّى الأغراض المرجوّة من مثله فى تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مَثَلا فى براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمقُ فى مخاطبتها عِيّ ، والتدلى فى إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

---

(١) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٥ - أبو محمد بن حزم (١)

١ — كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس فى عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التى تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية فى الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب فى زمانه واستهدف على عظمته للقيل والقال . وأوّل ما عرف ذلك كان فى دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" فى ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ پتروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا فى أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل. وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف فى "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا فى اللغات القديمة ولا فى اللغات الحديثة، لأن أوروبا فى القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جدا فى الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان فى ذلك العصر كاتب عربى يتناول حديث الحب والعشق والهيام فى تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات فى فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين، ومثالا يُحتذَى فى أدب النفس، وكرم الطبع، ومتانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب فى ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه فى الحب لما عرضنا لنثره الفنى فى هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ فى قرطبة . وتوفى سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وإن مكانا ضاق عنى لضيق * على أنه فيح مهامهه سهبُ

وإن رجالا ضيعونى لضيع * وإن زمانا لم أنل خصبه جدب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم : جولد يزهير ، ودوزى ، و بروكلمان، والدكتور سنوك هو جرنيه، والمسيو مرسيه . وتسابق المستشرقون الألمان والنمسو يون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون و يعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثا هاما جدا بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو فى باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعه مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل فى تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمتْ تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دى مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ — فى كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يحدثنا بأنه كانت له صبوات فى عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تلفحُ ودمع على الخدين يهمى و يسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففى القلب داء للغرام مبرح (١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأنس . ويقول فى ذلك :

” وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة . وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، و بعد ملازمة الشخص لى دهرا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوق : فما نسيت لى ودّا قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدّم لى ليغصّنى بالماء ، ويشرقنى

(١) طوق الحمامة ص ١٧

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئا قط بعد معرفتى به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائى له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت . لا أقول فى الأُلّاف والاخوان وحدهم . لكن فى كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقنى الإطراق مذ ذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادنى وولوع همّ ما ينفك يطرقنى . ولقد نغّص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . و إنى لقتيل الهموم فى عِداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفى ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة ولا وريتْ حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت لطول امتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة تتم سريعا عن قريب نفادها
ولكننى أرض عَزازٌ صليبة منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها فليست تبالى أن يجود عِهادها (١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله فى ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها فى شعر ولا نثر . وانظر كيف يقول :

" إنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الانسان وراءها مرمى فما وجدتنى إلا مستزيدا . ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولارهقتنى فترة . ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أُجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لُبانة من لُباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت تلددا (٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى . فقلت فى ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شُقَّ بمدية وأُدخلتِ فيه ثم أطبق فى صدرى

فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ما حييت فان أمت سكنت شغاف القلب فى ظلم القبر

وما فى الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العذال، وتوافقا فى الأخلاق، وتكافيا فى المحبة، وأتاح الله لهما رزقا دارًا، وعيشا قارًا، وزمانا هاديا. وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال"(1).

٤ — وكان ابن حزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يجد فى ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التى عرفها بنفسه أو نقلت اليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن الواقع لا عن الخيال . وقد تلقَّط كثيرا من محاسن العشاق ومساويهم ودوَّن فى كتابه أخبارا غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذى لا يستطيب قوله :

" وإنى لأعلم من نأت دار محبوبه زمنا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفى ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد

فلم يك إلا كرة الطرف قربكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى

كذا حائر فى الليل ضاقت وجوهه رأى البرق فى داج من الليل مسود

فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى"(2)

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين فى أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :

" وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبحلها فى الماء وبمحو أثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفى ذلك أقول :

---

(١) ص ٥٨، ٥٩ (٢) ص ٨١

عزيز علىّ اليـــوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للـــود قاطعُ
فآثرت أن يبق وداد ويمتحى مداد فان الفــرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيــه ميتة ربه ولم يدره اذ نمقتـــه الأصـابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمرى إن الكتاب للسان فى بعض الأحايين : إما لحصر فى الانسان وإما لحياء وإما لهيبة. نعم حتى أن لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليــه سرورا يعــدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشــق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق لايدع المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، دانى المزار، ويحكى أنها من وجوه اللذة . وأما سق الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبُه بسق الحبر بالريق. وفى ذلك أقول:

جوابٌ أتانى عن كتاب بعثتــهُ فسكّن مهتاجا وهيّج ساكــنا
سقيت بدمع العــين لمــا كتبته فعال محب ليس فى الود خائنا
فمــا زال ماء العين يمحو سطوره فياماء عينى قد محوت المحاســنا
غدا بدموعى أول الخــط بينــا وأضحى بدمعى آخر الخط بائنــا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع فى يده بسكين له فسال الدم واستمد مــنه وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصبغ اللك"(1) .

٥ — وفى هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التى كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين فى تلك العصور .

وفى اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب فى الأندلس كانوا ينظرون الى الحب فى القرن العاشر بنفس العين التى كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى الحب فى القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ واللك بالفتح نبات يصبغ به وبالضم ثفله أو عصارته .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وانما كانت معروفة عند العرب فى الشرق . ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الاسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربى بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذى ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام فى الحب لونا من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الانسانية التى لا تخلو من صبوات فى كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكروه قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها الى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق فى بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر: لأن الفتاة التى أحبها لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفى هذا يقول :

” ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يتهمون فى تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ولا تقصير فى حدسهم قد وصفوا أحبابا لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضَى فى الجمال فصارت هِجِّيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها فى الخلقة[1] ولا مالوا الى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حنينا منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون فى طىّ عقدهم بغيره . وانى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعض الوقص[2] فما

(١) فى الأصل (الخليقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية فى فمها فَوَه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصى الحظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا فى الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله[1] ".

ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل فى علم النفس وبمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة فى تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم فى طبيعة المرأة لنرى مافطرت عليه فى علاقاتها مع الرجال فقد شق الناس قبلنا فى فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ فى خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل فى صور مختلفة بعضها كريه وبعضها مقبول، وفقا لما تتلون به من غدر أو وفاء، وهى فى حاليها سم حلو المذاق ، فهى سر ما نلقى فى دنيانا من رشد وغى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل فى مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت فى الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

(١) ص ٢٥ و ٢٦

وإنى لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير فى تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير فى حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية فى الأذواق والأحاسيس، وأن الزمن باعدَ بين القدماء والمحدثين فى فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ماقال الأسلاف فى صدق واخلاص، نجد الطبيعة الانسانية هى هى لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر فى تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القدم" لونًا لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا فى شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

" لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن، وروينني كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط . ولم يكن وكدى واعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل[1] " .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء فى منازل الوزراء — كما هو الحال فى جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التى كان يتلقى فيها الدروس، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمنية المتمنى، وغاية فى حسن

(١) ص ٤٦ ، ٤٧

الخلق والخلق . وقد بجعتـه فيها الأقدار واخترمتها الليالى وسـنه دون العشرين وكانت هى دونه فى السن وفى بجيعته بها يقول :

”لقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى، ولاتفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبى لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده[1] “ .

٨ — تحدّث ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع والظروف . وأروع ما حدّثنا به القصة الآتية :

” أدركت بنت زكريا بن يحيى التيمى، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى ابن إسحاق فعاجلتـه المنايا وهما فى أغض عيشهما، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليـه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات . وجعلته آخر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده الى حين موتها[2] “ .

وهذه قصة تستثير الدمع، وفيها أبلغ معانى الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجعة قوله فى كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمـه الله وكان متزوجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر - وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالهـا وكريم خلالهـا . ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما للكلمة التى لا قدر لها : فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدّة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسّم، لايلهيها من الدنيا شىء، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها، وسلامته لها، الى أن توفى أخى رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

(١) ص ٨٥ (٢) ص ٦١

فى اليوم الذى أكل فيه هو تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوّى صبرى ويمسك رمق فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم اللحاق به[1] " .

٩ — والمرأة — كما عرفها ابن حزم — أكثر مواساة وإسعادا فى الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانه ما ليس عند الرجال . ويقول فى ذلك :

"وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا فى الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضا الى غيرهن .

وإنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشىء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان فى غير ملكها فعرفته الأمر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك . فقالت له : مالك؟ ومن ذا الذى عُصِم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سركما أحدا أبدا، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك أحد[2] » .

وهذه الفقرة تشعرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

(١) ص ١٠٩ (٢) ص ٤٥ ، ٤٦

١٠ — وقد فكر ابن حزم فى تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر فى تمكن طبع المواساة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معانى المواساة والإسعاد . ومن هنا يحدثنا ابن حزم أنه قرأ فى سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقى عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق الى الرجال[1] .

وهـذا الذى يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصـل فى فساد النساء . وهو كذلك الأصل فى فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لا تقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللائى ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما تتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهمنّ أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهى كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقـولة على الترق والطيش والاسراف فى الشهوات . ومِلاك الأمر فى هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ — ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء فى الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثَم مانع إلا وقـع فى شرك الشـيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

(١) أنظر : ص ٤٦

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم فى هذا المعنى فانه خير ما قرأت فى الأدب القديم والحديث :

"ولست أُبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هـذه الكلمة — أعنى الصلاح — غلطا بعيـدا . والصحيح فى حقيقة تفسـيرها أن الصالحة من النساء هى التى اذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هى التى اذا ضُبطت لم تنضبط ، واذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تُتوصل اليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة . ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنـة فى الرماد لا تحـرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنـار المشتعلة تحرق كل شيء[1] .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدرس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته فى البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكن يطلعنـه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبههن فى الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فان التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول فى ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقى الحجـزة[2] وإنى أقسم بالله أجـل الأقسام إنى ما حللت مئزرى على فـرج حرام قط ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى[3] » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجزة، بالضم، معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة. (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة فى الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمونه بالميل الى الإثم والفسوق . فجاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهبُ

وقد يهزّ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته فى درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا آستبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث الا الفاسقون . وكان آبن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل فى ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فان الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يتمثلون الحب إلا موصولا بالفسوق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحرّ مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فان الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسراره من يسومونه الهوان حين يطمعون فى الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى فى درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فانه أشرف وأنفس ما فى الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو آنصرف الباحثون إلى درس ما فى وجوههم من دمامة ، وما فى طباعهم من عِوَج ، وما فى عقولهم من آلتواء .

إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت فى مواجهته إلا أصحاء العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب فى عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال !

٦ – أبو منصور الثعالبى [1]

١ – كان عبد الملك بن محمد الثعالبى من أظهر الشخصيات فى عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه «كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت اليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب ، طلوع النجم فى الغياهب [2] » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذى يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبى فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدّر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبى سنة ٣٥٠ وتوفى سنة ٤٢٩ والثعالبى نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فرّاء قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك فى عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالى ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ – كان الثعالبى شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره فى الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله فى النسيب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتى ... وأمعنت نار شوقى فى تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقى ... قبلت عين رسولى إذ رآك بها

---

(١) كان مكان الثعالبى بين كتاب النقد الأدبى أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب .

(٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره فجيد، يغلب عليه السجع ، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض . وانظر قوله فى وصف عبيد الله الميكالى: «ومن أراد أن يسمع سر النظم،وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره عالى فكره، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها ... وآيم الله مامن يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالاً على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروزآباد ، إحدى قراه برستاق جوين ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية ، وعشرته العطرية ، وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية ، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة ، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وُعد المتقون . فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها. طُوى لها الديباج الخسروانى، ونُفى معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وحيا ، وخيرا عميا ، وارتياحا مقيما، وروحا وريحانا ونعيما[1] .

٣ — أهمية الثعالبى من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات القلوب، ونزوات الرؤس، وثورات العقول . وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاخفاق، وتمرس بأهوال الاقبال والادبار ، والغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال .

(١) (أنظر مقدمة فقه اللغة) .

وإنما هو كاتب شُغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربيــة في مختلف الممالك وعلى اختــلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والعبقريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى ليمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يمحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ — للثعالبي مؤلفــات كثيرة . منها كتاب الكنايات، وضــعه للكناية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بألفاظ مقبولة تؤدّى المعنى، وتحسّن القبيح، وتلطِّف الكثيف، فيحصــل بها المراد مع العــدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يُسبق بتأليف مثله . وهــذا إن صح كان دليلا على تفوقه في الابتكار .

ولكنى رأيت أحمد بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٢ يذكر في مقدّمة كتابه في الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يُسبق اليه، ولم يُزاحَم من قبل عليــه، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضا يدعى السبق ادّعاء، وأن المؤلفين من قبله قد نحوا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكنايات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما ادّعاه الجرجانى من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع، لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع اليه. وهو يمثل براعة العرب وافتنانهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يســتحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا تخيرنا أقل ما فيه روعة، إيثارا للتحفظ والوقار .

حكى الصــولى عن المكتفى في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فنمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هــذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقتى هذا وإنما ساقها اللفظ[1] .

(١) ودواء السهر كناية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى آمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟ (وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة[1] ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له يزيد بن منصور فى دار المهدى : ياشيخ ماصناعتك؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا   فقل لنا هل ثُقِب الدرّ

وله يقول أيضا :

قلبى على الجمرة ياابا العلا   فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه   وهل كلت الناظر الأحولا

ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا   وآزدد بزوجتك آرتياحا
قد رُضت طِرفك خاليا   فهل آستلنت له جماحا
وطرقت منغلقا فهل   سنّى الإله له آنفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصَّدف   وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت ليلا بلا حشمة   لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال الثعالبى : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام والشراب ويلم بأهله احتياطا على دينه وتعففا بالحلال عما عساه تتوق نفسه اليه من الحرام اذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى فصلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطانى لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ، ولطف كنايته، وهو :

(١) العذرة : البكارة .

"وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به الى آخر النهاية، وأن يعرض نفســه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئــلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينــه وبين ســـداده"(١).

٥ — ومن مؤلفات الثعالبي «كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب(٢)» وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة الى أشياء مختلفة يتمثل بها، ويكثر فى النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم غراب نوح، ونار ابراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزير، وكقولهم كنز النطف، وقوس حاجب، وقرطا مارية، وصحيفة المتلمس، وحديث خرافة، ومواعيــد عرقوب، وجزاء سنمار، ويوم عبيد، وعطر منشم، ونسر لقمان، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبي فيــه تمتاز عن لغتــه فى سائر كتبه بالخلو من السجع، والجرى على السجية السمحة بلا تعــثر ولا التواء . وقــد جمع الثعالبي فى كتابه هــذا أكثر ما عرف لعهده من الطُّرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص . وهو يصوّر علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . ولهذه الملاحظة قيمتها، فليس كل ما فى كتاب ثمــار القلوب حقائق ثابتــة، وانمــا هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التى قبلها معاصروه، وعدوها من العلم الصحيح .

فمن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ: الثعابين لاتكون إلا بمصر واليها حوّل الله تعالى عصا موسى عليــه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿فألقى موسى عصاه فاذا هى ثعبان مبين﴾، يعنى أنه حولهــا ثعبانا . والثعبان عجيب الشأن فى إهلاك بنى آدم، فليس له عدوّ إلا النمس وهى إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنهــا دويبة متحركة، فاذا رأت الثعبان دنت منــه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتبس فى بطنها ريحــا،

(١) أنظر ص ١١ و١٢ و١٣ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبوشادى سنة ١٣٢٦هـ .

وتزفر زفرة فتقدّ الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر كل هـذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وان كان فى فطرة الأهالى عداوة الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبى لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحذق فى عمل الطُّرف ، يقولون : أهل الدنيا ما عدانا عُمْى ، إلا أهـل بابل ، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى خرط التماثيـل ، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصوّرهم يصوّر الانسان ولا يغادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصـل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوّر صورة فى صورة[1] .

وهذا الذى يراه الثعالبى غريبا من أهـل الصين عادىّ لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعْنَى بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبى وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا ممـا يحاربه رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فان العرب تقول : عرق الخال لا ينام . يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فاذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فاحص سكان عشر دور من يمينـك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الابل

(١) ص ٤٣٢

والبقر والشـياه . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منهـا الرحم وهو القالب الذى يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب فى القالب. فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة فى القالب وفى قـرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يغتـذى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التى فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام فى جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطبـاء فى أن اللبن دم استحال عنـد خروجه ، فهى تغذوه بدمها مرتين ، وتزيد فى خلقه من أجزائها دفعتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشدّ من حب الرجال [(١)] .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم فى بعض تفاصيله ، ولكنه فى جملته يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء فى الجاهلية وفى صدر الاسلام بفضل الخال وعدّوه من جملة الآباء .

٧ — وفى ثمـار القلوب إشارة الى كتيِّب للثعالبى اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشىء يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبَّه به الحشو فى الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر فى كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محلم :

إنّ الثمـانين وبُلِّغتَهـا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

فقوله (وبلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملته .

قال الثعالبى : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبى الفضل بن العميد فقال لى : إمض الى أبى الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمـانين وبلغتها) ثانيا فى كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرت اليه وبلغته الرسالة فقال : سألنى عنه محمد بن على بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

---

(١) ص ٢٧٥

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدي بن زيد لابنه زيد بن عدي في حبس النعمان :

فلوكنت الأسير — ولا تكنه ! — اذن علمت معَدٌّ ما أقولُ

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير (و بلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحيى بن أكثم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لا له ، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاجزة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة. وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المرد الملاح[1] .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لا سيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التعابير التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والخوارزمي و بديع الزمان .

٨ — وفي ثمار القلوب تفسير روائي لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقي و بيته تلقاء وجهه فنظر فاذا برجل قد عانق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظر يمنة و يسرة فلم ير شيئا، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثاني قالت المرأة: هل لك في أن اكفيك السقي وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام في البيت، وانطلقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه . فقال : و يلك ! ما دهاك؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معانقا لها ؟ فقال : والله ما كان عندي امرأة! قالت : بل أنا نظرت اليها بعيني وأنا على الماء . فتحالفا. فلما أكثرت قال : إن تكوني صادقة فان ماءكم هذا ماء عناق[2] .

(١) (أنظر بقية الشواهد في ص ٤٨٩ و ٤٩٠) . (٢) ص ٤٤٧

وفى كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأقاصيص . وهى فكاهات اخترعها الكتّاب تفسيرا للأمثال التى جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوهما فى النـاس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبى "يتيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء. ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر فى تحريره والإضافة اليه عدّة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويمحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتأنق فى بناء داره التى هى عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويستجدها على أنحاء عدّة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال(١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثانى فى محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث فى محاسن أشعار أهـل الجبل وفارس وجرجان وطبرستـان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع فى محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصـة أهل نيسابور والغرباء الطارئين عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبى فى اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا فى أحوال قليلة ، ولكن سجعه على كل حال مقبول .

---

(١) ص ٤ من المقدمة .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فاذا بدا له أن يعلل ويحلل ويتقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله فى تفضيل شعراء الشام وما يقاربها على شعراء سائر البلدان .

"والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أياهم"[1] .

وفى بعض الأحيان يطيل فى ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبى والصاحب وأبى فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر فى نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف فى ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالبى فى اليتيمة مفتون بالاسراف فى إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو على الزوزنى الكاتب " يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس"[2] .

وأبو الفرج الببغا "ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت بل حب الغمام"[3] .

وأبو القاسم الاسكافى "لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله فى البراعة والصناعة"[4] .

وبديع الزمان " نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس"[5] .

وعبد الرحمن الشيرازى " روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب"[6] .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٣

١٢ — ومع أن الثعالبي يميل إلى الطنطنة فى التعريف بالكتّاب والشعراء فانه لا يلتزم هذه الخطة وانما يعود اليها فى الحين بعد الحين، ويغلب على ظنى أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدّة لتنميق الإنشاء، واذ ذاك لا يكون مشغولا بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وانما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف فى فنون الكلام، فتارة يقول فى ابن نباته السعدى " من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافى، وملكوا رق المعانى، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممتز النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقَر كالغنى بعد الفقر، و بدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب[1] " .

وحينا يقول فى محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، و يؤلف بين أشتات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفى أقسام الحسن، ونثر كنثر الورد، ونظم كنظم الدر[2] " .

وآنا يقول فى المتنبى " نادرة الفلك، و واسطة عقد الدهر، فى صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به، إذ هو الذى جذب بضبعه، و رفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه فى البدو والحضر، وكادت الليالى تنشده، والأيام تحفظه[3] " .

١٣ — ولنقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما فى نثره من الاستعارات والتشبيهات . وله عذره فى ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى ليمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق اليه من حيث لا يحتسب، وان كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب[4] .

---

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب .

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقتل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه فى أى عام مات من يحدّثنا عنه، وفى أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبى عنى بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبى كتاب " فقه اللغة " وهو كتاب جيد فى ثلاثين بابا رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة فى جملته من صنع الثعالبى، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوارزمى وأبى الحسن الجرجانى ، وابن الأعرابى . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التى نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا فى كتابه . وهو يذكر فى الفصول التى ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصح أكثرها أو قارب الصحة [1] . وقد يجد مؤلفا وُضع فى تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه مايراه أصلح لكتابه [2] . وفى الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية [3] .

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر فى موضوعه ، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حكّم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التى رمى الى تحديدها فى كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطوّرات المعانى والألفاظ والتعابير [4] .

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبى — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر فى نشر ما عُرف لعهده من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

---

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦ .

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

١ – أبو الفضل بن العميد

١ – أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية فى القرن الرابع، وأعرف الوزراء لعهده بسياسة الملك، وبناية المجد، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثانى" لتوسعه فى العلوم العقلية والنقلية، واطلاعه على ما دوّن الأقدمون فى الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثانى فى الكتابة، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ – وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبى الفضل بن العميد : فتحدث عنه الثعالبى[١] و ياقوت[٢] وابن خلكان[٣] بشىء من التفصيل، وعرض له التوحيدى فى غير موضع، ولكن أجمل ما قرأنا فى ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه فى كتاب (تجارب الأمم[٤]) بعد أن لازمه ليل نهار فى صحبة دامت سبع سنين .

٣ – كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره، وأحفظهم للغة والغريب، وأكثرهم توسعا فى النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار، وأنفذهم سهما فى الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والالهيات .

ولا يحسبنّ القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هـذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدًا، وكان يؤمن بأن المجـد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل فى الدرس والتحصيل وتدبير الأمور، ولم تشـغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلمـاء والاستفادة ممن عرفوا بسـعة العلم ودقة البحث، وإنهم ليذكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) يتيمة الدهر ص ٢ – ٢٥ ج ٣
(٢) فى مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .
(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ – ٤٦٦
(٤) ج ٢ ص ٢٧١ – ٢٨٢

للجاحظ على أبى بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده فى بعض الأيام وقد نزع نعـله فأخذه كلب فى الدار وأبعده عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره ، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقدّم اليه نعل نفسه؛ فعدّ ناس ذلك إسرافا من ابن العميد، فلما بلغته هذه المؤاخذة قال : كيف أُلام على تعظيم رجـل ما قرأت عليه بيتا من (الطبائع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصـيدة من أولهـا حتى ينتهى اليه . ولقد كنت وغيرى نتهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... أفما يستحق من هـذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة فى جنب هذه الفضيلة الكبيرة[١] ؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلا عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميـد وبره بالعلماء ، ولكنه من الجهة الأدبيـة دليـل على ميله إلى التعمق وشـغفه بالاستقصاء، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهـل الأدب والرواية ما يقع فى كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف .

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذى يقدّر بالمكيال، بل كانت فى غاية من الدقه ولطف الجوهر : فقد حدّثنا الصاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز نقـد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال : "وسمعته — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضـع الشعر ، ويُبتدأ النسج، لأن حـق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصـده، والمعنى الذى اعتمـده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراد[٢]" .

وهـذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسمُوٌّ بالنقد إلى أبعد ممـا كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعانى والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠ (٢) أنظر رسالة الصاحب عن المتنبى ص ٨

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنــده القوافى والأوزان باختلاف المعـانى والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنى وقفت عنده طويلا : فقد ذكر يوما أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادنى فى نقد الشعر ما لم يكن عندى : وذاك أنه جاءنى يوما باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل فى مرتضى الشعر فأعجب من إيراده لها واختياره إياها فسألته عنها بقال : لم يقل فى معناها غيرها فاخترتها لانفرادها فى بابها [(١)] .

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة فى تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سـعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك فى طباع الناس ، فكان "قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنــه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منــه ما لا يوجد عنــد غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحبس فيهـا ولا يتلعثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهــة نفســه ، إذا دخل إليــه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليــه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منــه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه [(٢)] " .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس فى صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعانى السلبية ، بل تعدّاه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب " فاذا حضر المعارك وباشر الحروب فانما هو أسد فى الشجاعة لا يصطلى بناره ، ولا يدخل فى غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأى ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب " وكان الى هــذه الخلال حسن التدبير الى حد الاعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجنــد على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعبا للفتن والدسائس وميــدانا للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة اســتقام الأمر ،

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠ (٢) راجع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور و يضبط الأعمال " و بسط عدله وأقام هيبته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترخى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء الممدَّحين، فقصده الشعراء من كل صوب ، وساقوا اليه جياد المدائح، وللمتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدى ورد عليه وهو بالرى وآمتدحه بقصيدته التى أوّلها[1] :

بَرْحُ آشـتياق وادكار	ولهيب أنفاس حِـرارِ
ومـدامع عـبراتها	ترفضُّ عن نوم مُطـار
لله قلـبي ما يجنّ	من الهموم وما يوارى
لقـد آنقضى سـكر الشبا	ب وما انقضى وَصَب الخُمار
وكبرت عن وصـل الصغا	رِ وما سلوت عن الصـغار
سَـقيًا لتغليسى إلى	باب الرصافـة وابتكارى
أيام أخطـر فى الصبا	نشـوان مسحوب الإزار
حجى الى حجـر الصرا	ةِ وفى حدائقها اعتمارى
ومواطن اللـذات أوطا	نى ودار اللهـو دارى
لم يبـق لى عيش يـلذ	سـوى معاقرة العقار
أحيـا بألحان قـر	تُ بهن ألحان القمارى
واذا استهـل ابن العميـ	ـد تضاءلت ديم القطـار
خرقٌ صفت أخلاقـهُ	صـفو السبيك من النضار
فكأنما زفت مـوا	هبـهُ بأمـواج البحار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٦

وكأن نشر حديثه نشر الخزامى والعَرار
وكأننا مما تفرق راحتاه فى نثار
كلِفٌ بحفظ السر تحسب صدره ليل السِّرار
إن الكبار من الأمورِ تنال بالهمم الكبار
وإلى أبى الفضل اتبعتُ هواجس النفس السوارى

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الاهمال مع رقة حاله التى ورد عليها الى بابه فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو فى مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدّى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار اليه بيده وقال :

"أيها الرئيس ! انى لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك، والله مابى من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء: وهم قوم نصحونى فأغششتهم، وصدّقونى فاتهمتهم، فبأى وجه ألقاهم، وبأى حجة أقاومهم، ولم أحصل من مديح بعد مديح، ومن نثر بعد نظم، إلا على ندم مؤلم، ويأس مسقم. فان كان للنجاح علامة فأين هى وما هى؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وان الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمناكبك أعظمهم شأنا، وأنورهم شعاعا، وأمدهم باعا، وأشرفهم بقاعا" .

فحار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك فى الاستزادة، وعن الاطالة منى فى المعذرة ، واذا تواهبنا ما دفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنىّ اذا مطل لئيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولى نعمة فأحتملك ، ولا صنيعتى فأغضى عليك، وان بعض ما أقررته فى مسامعى ينغص مرة الحلم، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقريظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيِّم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهينا له، ومشتريه مما كسا فيه !

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه ٱلتمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم ير فيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونخشى أن يكون ضاع أبد الآبدين، مع أنه كان موجودا بالآستانه منذ ثلاثين عاما ، ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لأستطعنا تخطئة ابن خلكان ، فاننا نجزم جزما قاطعا بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علميــة ، فانا نعرف التوحيــدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو ألقيتْ جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأول نظرة . فليكن الشــاعر من يكون، وليكن المخاطب من يكون، فان واضع المجلس هو التوحيــدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميــد لا على غيره ، لأن هــذه الحفيظة من التوحيــدى ما كانت لتثور فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثلبه وتجريحه حينا من الزمان .

٧ — وكان لأبن العميــد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فآهــتم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقاته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه و ينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه آشتغل ليلة بمــا يشتغل به الأحداث من عقــد مجلس مسرّة و إحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شرابا فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدس آبن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

” قد اغتنمت الليــلة أطال الله بقاء ســيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمــر ، وانتظمت مع أصحــابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينــا النظام، باهداء المدام، عدنا كبنات نعش والسلام[1] “ .

فاستطير آبن العميــد فرحا بهذه الرقعــة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعتــه، ووثقت بجريه فى طريقى، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمــل رؤساء الجند وقوّادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقال ليسلموا له الرياســة . ”حتى لا يأنف أحد من تقبيــل الأرض بين يديه والمشى قدامه إذا ركب ، ممــا لا يؤثره

---

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٦

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق اليه ".

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته فى كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم فى الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد، ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالا، وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة فى آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به فى ذلك الوقت[1]».

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا فى تقويم ذلك الفتى، فكان ابوه يأخذه معه فى أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا فى تغير ركن الدولة على وزيره. واتفق أن خرج أبو الفضل فى إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح، فلما كان فى بعض الطريق — وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير فى موكبه أحدا، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبى الفتح الى الصيد. قال ابن مسكويه : «فاستشاط من ذلك وساءه أن يجرى مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو فى وجه حرب، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتتم عليه حيلة. فدعا أكبر حجابه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر. وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخليهم من الخلع والالطاف، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا، ولم يحب أن يخرق هيبة نفسه بإظهار ما فى قلبه ، ولا أن يبالغ فى الانكار وهو فى مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه، فدارى أمره، وتجرع غيظه، وأداه ذلك الى زيادة فى مرضه حتى هلك

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٢

بهمذان وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) و يقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها منه[1] " .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ — كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"[1] وهى مبالغة تذكر بما قيل فى ذلك العهد : " بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبى فراس . وهذه وتلك من المبالغات التى تجرى على ألسنة المترلفين من الحواشى والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته فى النثر كما كان لأبى فراس أشياع يقولون بإمامته فى الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه و يطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد،ولكننا لا ننكر أن عبدالحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل فى الكتابة أساليب وتعابير وتقاليد لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل فى فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هى إعزاز القلم ورفعه الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، وانما يطالعك بقلبه و روحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين فى هدأة الليل، وهو فى رقته وجزالته، وغضبه وحنانه، عبقرى لا يعبث برجع الحديث المعاد، وانما يجد بابداع الرأى الصائب والقول الرصين .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التى حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطى عن نثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التى كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثانى رسائله الشخصية التى عبر فيها عن ذات نفسه وهو يراسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين فى نثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التى كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التى كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوّة وحرّية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء فى الملك الذى يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحوّل مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

"كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك، وميل عليك ، أقدّم رجلا لصدمك، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو".

وفى هذه المقدّمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصى ويقفه موقف المتردّد بين يومه وأمسه، وحاضره وماضيه، ثم يعرض عليه وجوه حاليه فى الطاعة والعصيان فيقول :

" وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتنى عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وغذاء غذىّ، وماء روىّ، ومهاد وطىّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حصين ، عززت به بعد الذلة، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المتربة ؟ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العِوض عما عددت، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست فى خلافها يدك؟ وماالذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! ".

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : "تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها، وآلمس جسدك وآنظر هل يحس ؟ وآجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح، أو موت مريح[1] ؟ " .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة فى أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طلائع السيوف . وهذا فى الواقع متابعة موفقة لذلك العرف الذى سنّه كتاب الدولة الأموية وأقره كتاب الدولة العباسية، وهو أسلوب فى الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هى الدنيا والناس هم الناس، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهى فن من الشعر الوجدانى البليغ، هى قصائد منثورة فى موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع يتيمة الرسالة فى اليتيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هـذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق، لأنه فى عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصـديق . وهو فى عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يثور فيها ثورة جارفة فيرمى بإخاء من يعاتب فى جحيم النسيان، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

"وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك، وبعـد تضييع ما غرسـته، ونقض ما أسسته، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا، وجوا غذيا، وماء رويا، لم يرج زكاؤه، ولم يجر ماؤه، ولم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهى ممازجة طبع، وموافقة شكل وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتـلاف، وحمتنا من اختلاف، ونحن فى طرفى ضـدين، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار، وأقل ما بيننا من التضار، أكثر مما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار" (١) .

وهـذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى، ولا يتوهمن القارئ أن هـذه العبارات الجافيـة تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصـديق : هيهات! فنحن نعرف ما تشـير اليه أمثال هـذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هـذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه فى الرسالة نفسها معاتبة المغلوب فيقول :

" ولو بقيتْ من الصـبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجـلد لأمسكت، فقديما لبست الصديق على علاته، وصفحت له عن هناته، ولكنى مغلوب على العزاء

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٨

مأخوذ على عاداتى فى الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاء، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى بجعله هباء، وتولى علىّ قبح فعلك فى هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لامتلأت صدورهم ... الخ" [(١)].

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبى عبد الله الطبرى هذا، وقد غالب نفسه فى وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيرا أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه فى جواب خطاب:

" وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالّتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء، ونزع من عنق ربقة الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبى فلأم فُطورى بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعوّض عن النزاع اليك نزوعا عنك، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك، وكشف عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنى غيابات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب عن صفحات شِيمك، وسفر عن وجوه خليقتِك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستنكرا، فوليت منها فرارا وملئت رعبا. فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذمم عهدك ! » [(٢)].

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد ليرى ابن العميد اقتبس أكثر معانيه فى هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفا كيف اتصلت هذه المعانى بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسَلَة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجَوْد الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس.

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٥ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — ولكن ابن العميد لايستطيع فى كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه ويرد اليـه ذمم عهده، فليس القلب فى كل لحظة بمطواع حتى يزهد فى كل نافر صدوف ، وكذلك نجد ٱبن العميد على قوة نفسه وسـعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفـة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

"ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة ، وطرحتنى طرح القَذاة، ولم تلفظنى من فيك ، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب ، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة ، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبـة . وأحسب كتابى سـيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، وٱسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، وٱستمالتى لك وقد تأبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالمـاء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودى وقفٌ عليك، وحبسٌ فى سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، فجربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد" [1] .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة فى صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فللوزراء كسائر الناس جوانب وجدانيـة تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة "وزير" كان يلحظ فيها دائمـا معنى "كاتب" وكان الإبداع فى الكتابة من المؤهلات الأساسية فى الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — وممـا يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن ٱتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٤٥

هـذا هو صديقه الذى حدثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تنم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

"واركب فى الخـدمة طريقة تبعدك من المـلال ، وتوسطك فى الحضـور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال، فلأن تدعى من بعيـد خيرٌ من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تحترز فيـه من الخَطل والإسهاب، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاه، فان اضطررت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصـل وزنها، وتطالع موضعها ، فان وجدت النفس بالإجابة سمحة ، و إلى الاسـعاف هشة، فأظهر مافى نفسك غير محقق، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهـك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك (١) » .

وهـذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسـه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممـازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك الصديق، و إلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

" لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك، ويخلو ذرعى مع خلوى منك، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشمل أنسى، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس ميت بلا نظام؟ (٢) " .

٧ — ومما امتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية، وهو فن برع فيه كتّاب القرن الرابع وصيروه سنة يجرى عليها الأصفياء والألاف. وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٣٠ (٢) ص ١٨٠ ج ٤

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والببغا و بديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة فى هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفى أمين ، وكان يتحدث فى الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى وهمٌ أكاد به أقبّل فاكِ

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل فى قول ابن العميد :

" قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيّلك ، فنحن فى الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى التسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح[1] " .

وهو معنى جيد انتهبه الببغا فى إحدى رسائله الاخوانية[2] .

ولا يقف ابن العميد فى ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق فى وصف كتبهم اليه فيقرظها فى حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله فى وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

" وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت لكل ما أوليت ، وابتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فملكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنىّ ، وحلل وحلىّ ، وشذور الفرائد ، فى نحور الخرائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود

فلم أره لشىء عدلا ، ولا أرضى ماعددته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم[3] "

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلَب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحة أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازه للكاتب، كقوله فى خاتمة خطاب :

" وقد قرأت كتابك — جعلنى الله فداءك — فآمتلأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان كذلك و إلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى[(١)] " .

هذا ولآبن العميد رسائل فى الحب تضارع فى روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق آتصال، وله فى التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع واطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ، وما نحسب معاصريه أسرفوا فى مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ – أبو حفص بن برد

١ – أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسى من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ كما فى الذخيرة(١) وإرشاد الأريب(٢)، لا سنة ٤٢٨ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العامرية .

٢ – ولم نجد على كثرة البحث مايعيّن مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تحدّد شيئا : فذكر ياقوت أنه كان "كاتبا بليغا"(٣) وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك، وقطب رحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصْم إبداعا وإحسانا"(٤) وذكر صاحب المطمح أنه" غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه " بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان " وأنه" مليح الكتابة، فصيح الخطابة(٥) " وفخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال :

من شاء خُبْرى فأنا ابن برد ... حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى ... مَن نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد ... وكف بالأقلام أيدى الأسد(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفس من قرأوا له ، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعيّن منحاه فى مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ — وعذر من ترجموا لآبن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن بسام على قرب عهده به صرّح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله ،(١) وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتّاب التراجم من الخلط بين آثار آبن برد الأكبر وآبن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى آبن برد الأكبر،(٢) وينسبها ياقوت(٣) الى آبن برد الأصغر — والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دىّ الحرير وقد بهر
كبّرت من فرط الجما ل وقلت ما هذا بشر
فأجابني لا تنكرنْ ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى آبن برد الأكبر.(٤) ونسبها ياقوت(٥) الى ابن برد الأصغر .

٤ — تولى آبن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكفى، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليه رياسة ديوان الإنشاء أثر قوىّ فى حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتّاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم كتبا خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب، كما فعل آبن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا لنجد آبن برد يكتب عن المظفر بن أبى عامر رقعة وجهها الى القوّاد والكتّاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا . ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم، وقد كانت سجية غالبة، وخليقة لازمة، فرب شبع تحت مخيل النعماء، وكم غصص فى شهىّ الغذاء، ومن شرق فى نمير الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلتْ معرفته ، وآتضعت همته، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوّم حروفه، ويراعى المداد فيجيد صنعته، ويميز الرق فيحسن آختياره ، وعزه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع نفح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢
(٤) نفح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد فى رؤوس غصونها بخطوط أيدى القوّاد والعمال ، من كان منهم كاتبا فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد اليه كتاب اعتراض عمل فى رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر فى عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع فى بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل"[1] .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

"وإن قوما منهم عادوا لما نُهُوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق فى دنىّ الرقوق ، رقة من هممهم ودناءة فى اختيارهم ، وجهلا بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منثوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجنته لاحقة بكاتبه ، إلى ما آقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهدا لئن ارتفع إلىّ بعد بلوغ عهدى هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو مداد أو خط لأفينّ لصاحبه بما قدّم اليه من الوعيد"[2] .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية آبن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر فى الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولها كذلك نفع فى تحديد الاتجاهات الأدبية فى تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحيانا فى لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأنا لا نعرف عصبة ناوأت العرب فى الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام "جماعة العبيد" جاء فى إحداها :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) ص ٥٠

" ولم تزل الأئمة مقبلة على مواليها مختصــة لعبيدها تقدّمهم فى الثقة، وتقرّبهم بالمودّة، وتعـدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم فى معضـلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبـة ، حتى شرف القوم ونبلوا ، وسمـا ذكرهم ، ونسـبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم الينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من انتمى لغير أبيـه، أو ادّعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام . وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلايجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا فى أمثالكم من مواليهـم ، فان نقمتم حالا فرّقت الشمل ، أو لقيتم أمرا صدع الجمع ، فتلك الفتنة التى يعق فيها الابن أباه، و يقتل لهـا المسلم أخاه... ولعلنا فيا ساءكم من تلك الهنـات ، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشـدّ غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنـا عليكم . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وما زلتم الشعار والدثار : لا نؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزغ بمـا نزغ به بين ابنى آدم فمن بعـدهما من ذرّيته فقد آن أن تثوب الحلوم : فتعود السـيوف فى أغمـادها ، والنبال فى كنائنها . ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نعفو ونصفح[1] " .

ونجـد فى رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعمـاء البربر الى سليمان يصرحون فيـه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمنّ عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم فى الدين واستنقذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهـم بالتصرف فى الخدمة[2]، الى أن يقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٥٠ — ٥٣ (٢) راجع ص ٥٣

" وأقسمتم على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنّى لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبَّرون مسوسون، وأتباع مربوبون ، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينــه وخلائفه فى غنى عمن عند عليه وحادّه ، وأنجر فى الاسلام وشاقه، وخرج عن الجمــاعة، وشق عصا الإمامة، وآستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهــله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملأكم لم يجتمع على هــذا الكتاب ، وأن أهل الســداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له فى ذلك نظر يقيم الأود، ويعدل الميل... وآعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فآقبــلوا أدبه ، وانتفعوا بموعظته ، فلو كشف لكم الغطاء، واجتــلى عليكم الغيب ، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا ينى فى منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يردّ ألفتكم، ويجمع كلمتكم (١) " .

وهــذا كله كلام طيب ، ولكن أين دلالتــه على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر ما يسطِّر كتّاب الدواوين، فليس فيــه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه فى الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

" إن الرعيــة من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونمــاؤها ونقصانها منتظمان : إذ كانت الرعية عنصر المــال، ومادّة الجباية، وفيهما قوام الملك وعز السلطان، ورزق الأجناد التى بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمى الحرم (٢) " .

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل ممــا سُبق اليه فى مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد فى تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى، وكان لهذا العهد صدى فى كتب المتقدمين : فتحدث عنه ابن بسام والمقّرى والقلقشندى وابن خلدون (٣) . وليس لهــذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لمــا

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يكفى ان تراجع نفح الطيب ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام انه" بعد اطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويفوّض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطانى المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد[1] وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجتزأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لانتزاح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعيتنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبُلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما احتجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فجحته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذه الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

(١) راجع الذخيرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٩

وإنما وصفنا هـذا الكتّاب بالفجور لأن ذلك الوزير أُخِذ للقتل من مجلس شرابه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النمائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتّاب فى دولة العامريين ولكن أدبه ضاع فى الدفاع عن الحق حينا ، والترلف الى الباطل أحيـانا . وكان لا يعرف ما يأتى وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهده لم تكن تمكن كاتبا ولا شاعرا من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتبـا ووزيرا ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهـم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هـذه الدنيا الغَرور .

٩ — وهـذا الجانب النفعى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميـل من أدب الكتّاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صـدق وإخلاص فلم تبق منـه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهـم النثر إلا عمـا يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيـد . وكذلك آسـتذل الكتّاب حينا لأهواء المسـيطرين : فلم يكن أدبهـم صـورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان فى الأغلب صـدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ — أبو المغيرة بن حزم

١ — فى الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب فى تقويم الكتاب، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون. أما الرجل الذى أتحدث عنه فى هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل، وهو ابن حزم! وهنا يلتفت القارئ باسما بسمة السخرية: لأن ابن حزم معروف، طبَّق صيته الشرق والغرب، فلنسارع إذن بتقرير ما هدانا اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهما من بيت واحد وابنا عم[1]، ويمكن الحكم بأن أولهما أفقه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر.

٢ — لم أجد من المصادر ما يغنى فى تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سِرار القرن الرابع وفجر القرن الخامس، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله[2] عبد الرحمن بن هشام، وربما كان السبب فى خموله أنه اعتبط[3] شابا "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقته فى لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا الخمول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول:

كفانى بذكرى الناس لى ومآثرى   ومالك فيهم يا ابن عمىَ ذاكر

---

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء فى النفح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من «بنى حزم» وهى أسرة عربية أندلسية.

(٢) قال المقرى فى الحديث عن المستظهر: "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك فى بطالته، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته" نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩

(٣) اعتبط بالبناء للمجهول: مات.

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتقى ولا لك فيهم من صديق يكاثر
وقولىَ مسموع له ومصدق وقولك منبث مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقته المقادر يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غدا يستعير الفخر من خِيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنىَ سائر وإن أنا عن قوم فانىَ حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، و بيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب[1] .

(١) راجع ص ٥٠٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابنى حزم أحدهما عن الآخر فى اتجاه الأذواق، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه فى أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبى المغيرة ورسائله وقصائده على انه كان دقيق الحس فى اختيار أطايب الحياة، وفى كلامه فقرات فى الدعوة الى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالى وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شموسها، وأماطت عبوسها، وكأنى بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وان كنا لا نشارك فى تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات فى الدنيا شهود[1]"

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لاتتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم فى مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر الى العالم نظرة مُشرَبة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن فى الاحتماء حسم الداء، وأنْ لا عدوّ للانسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس فى الحيوان أخبث من الانسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغنّ من جحر مرتين، واذكر المثل السائر فى الملاعب بين وتدين، والعاقل من حمله كل بلد، وتقى عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبى متكلف، الى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا الى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه[1]".

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤

وهـذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ماتنطوى عليه صدور الأصحاب والألّاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض، والطبيعة الانسانية لئيمة تبيح كل شر، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفيائه ولا يجنى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه، وحنينه اليهم، وعطفه عليهم، فنراه يقول فى بعض رسائله :

"وما أعلم نائبة كفراقك أهدّ لمتن، ولا نازلة كنأيك أجلب لحزن، وما كنت أريم ربعك لو كان لى الخيار، أو أبرح منزلك لو سامحتنى الأقدار"[1] .

ويقول من رسالة ثانية :

"وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور، وجواهر النحور، ودرر الثغور، وأجتنى ثمر السرور، وأرتع منه فى رياض العلوم، مابين منثور ومنظوم، نفّست خناق مشتاق، وأنست من وحشة الفراق، منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم، ولا صديق حميم، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخـلة إلا كمقام المسيح بين اليهود"

وللقـارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانيـة يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه بالوجود، اذ يعيش منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشـكو غربة قومه فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٥

"لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التى خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه ، ويذهب حسه ، ويعـارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمـه ، والنار بذكائه ، والزمان بمضائه ، ونتائج فكره محجوبة ، وبنات صدره غير مخطوبة ، إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وان رأوا فضيلة وجموا لها ترحا" (١) .

وتارة يتحدّث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان ، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدّعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها "الحمـد لله خالق الأنام ، فى بطون الأنعام" فجذب الرقعة من يده وبالغ فى إجزال صفده . واذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لى مع فلان انقلبت الخطبة فصارت " الحمـد لله خالق الأنعام، فى بطون الأنام" وكم قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، واعلاما بمـا يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار» .

وأصرح من هذا قوله فى وصف غدرات الأيام :

"فحين شمخ بالظفر أنفى، واهتز لنيل الأمل عِطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذهلنى الجذل عن سـوء ظنى به ، وأوهمنى نزوعه عن ذميم مذهبه ، أتت ألوانه ، وفسا ظَرِبانه، ونادى ليقم من قعد، ويتنبه من رقد، انمـا فترتُ تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة ، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت فى عمياء من ظفـرى، وقلت هو الذى أعهـده من لؤمه، وأعرفه من شـؤمه : ما وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهام القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح ما أحدّ شفرته" .

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٥

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع فى الهجاء. وله فى الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة " قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، والى الكريم أتانا" وربما كان أقبح أهاجيه ماقارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدأ الأسنان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدبّ فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبو بها الطباع، فوقفت متبلدا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقالتا أيها الانسان، لست بالنبى سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت؟ ألم تسر فى صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل فى ميدانه فسبقت؟ ألم تسر فى ظلمائه فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرُّود، ونثرت كالنجوم، فى صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قالتا: فأعرض عن رطانة الزط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفتما طاعنين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواره، فجاء كالفلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليلة الظلماء: لا نجم ولا قمر» (١).

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن ثائرة الحقد أشدّ ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشدّ الحوافز لإيقاد ما خمد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهكم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى نفح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليهما القارئ إن شاء.

بعض المتطببين : " وآشرح لى خبر فلان، وأين بلغ من تكسبه، وحيث انتهى من تطببه، وكيف ظروفه وخزائنه، ولعوقاته ومعاجنه؟ وهل ينفذ طبه، وينفق حبه؟ وصف لى مايقوله على المـاء، ويبديه من الأدواء، وأهد الىّ ما ينقّه من المقال، على الكبد والطحال، ويرقشه من الكلام، فى الفالج والزكام، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام، بشريعة الاسلام، والتمهر فى الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والفلج عند الخصام[1] " .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشـعراء الفحول فانا نراه يتخـذ النثر أداة للتعبـير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو فى ذلك يحاكى بديع الزمان الذى يحرص أشـدّ الحرص على أن يؤدّى بالنثر كل ما يؤدّى بالقصـيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأنا نرى فى نثر أبى المغيرة نفحة همذانية . ويكاد الرجلان يتشابهان، لولا جزالة ابن حزم ورقـة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمذانى كانت وصلت مسرعة الى الأندلس، وآطلع عليها المتأدّبون هناك، والى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمذانى أصدق تمثيل :

" فكم ليث كان فى غابة سمعت صريف أنيابه، وقفر أمست فى يبابه، الى عواء ذئابه، لأمر إلا بالنص المستلب، ولا ألق غير الخارب المنتهب، والشعار عند النائبه ألقاها فأتخطاها، والنازلة أراها فأتعدّاها، قول أبى الطيب :

فان أسلم فـا أبق، ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه، وأتوقع من الحمام وقوعه، وهو يذهب بى الى قبلة الآمال وأنا لا أصـدّق، ويسوقنى الى محط الرحال وأنا لا أحقق، ويؤم بى البحـر الذى لا تحصى فرائده، والغيث الذى لا يجدب رائده، حتى أدانى الى الحضرة العلياء، والمحلة الشماء، فكبرت إكبارا لمـا صرت اليـه، وهللت إعظاما لمـا سقطت عليـه، وعلمت أنى فى الحـرم الذى لا يضار جنابه، ولا يطار غرابه، ولا يخضد شجره، ولا يمنع ثمره، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصيب، وتمكنت من الرشاء والقليب[1] " .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل، والقليب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته فى المذهب والأسلوب ، بل تعدّاه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمذانى رسالة شائقة فى إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين ، وهى رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتّاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة نقتطف منها الفقرات الآتية :

" ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا ، ويرقع خلَق عهدنا ، ويطلب ما أفاتته جريرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم منآد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سدّ ، وأقبح صدّ ، وأقدح زند ، وأبرح ردّ ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وانتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلالك كسوفا ، وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياءك ضبابك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محرّما :

وبت مداماً تسر النزيفا   فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصرت مجازًا جديب المحل   وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تتسلل الينا لواذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ، ووجد قد كفّ . وعزاء قد أبّد ، وصبر قد غار وأنجد ، وننظر منك الى روض قد صوّح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ[1] " .

١١ — نثر أبى المغيرة فى جملته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح التعمل ، ودمامة التكلف ، وهو فى الأغلب مسجوع . وفى الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممضّ ، نكتفى بالاشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص ، ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٧

٥ – أبو الفرج الببغا

١ – الببغا هو عبد الواحد بن نصر المخزومى . وانما لقب بالببغا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه، نشأ فى نصيبين واتصل بسيف الدولة فى شبابه، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد، فنادم الملوك والرؤساء، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

قال الثعالبى : "وأخر ما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد فى سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا عالى السن ، متطاول الأمد، نظيف اللبسة ، بهى الركبة، مليح اللثغة ، ظريف الجملة، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض علىّ القاضى أبو بشر الفضل بن محمد بجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبى الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع[1]" .

٢ – كان الببغا من أركان الحياة الأدبية فى زمانه، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التى تكفى لتعيين اتجاهاته الأدبية، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعيّن بعض صفاته، لأن المؤلفين يهتمون فى الأغلب بتقييد ما يصل اليهم من أخبار المشاغبين من الكتّاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا فى حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكاتب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان فى حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال. ومجموعة

(١) ص ١٤٧ ج ١ يتيمة الدهر .

ما وصل الينا من شعر الببغا و رسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل الصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ — و إنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية فى أكثر ما أُثِر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفافه والإملاق ، وأن يكون فى يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفى هذا الذى نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجدانى، فقد كان شعر الببغا يُغنَّى به وكان من مُتَع السامرين فى الشام والعراق، ولننظر كيف يقول فى محبوب رمدت عيناه :

بنفسىَ ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دهَى حسنه ورد
أراقت دمى ظلما محاسن وجهه فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكى لقد طال ما آستشفت بها مُقَلٌ رمد (١)

ولننظر كذلك كيف يقول فى محبوب فصده مِبضع الطبيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عنى فأشكو اليه همّ المغيب
باشرتْه كف الطبيب فلو نا ت الأمانى قبلت كف الطبيب
فعلتْ فى ذراعه ظبة المبـ ضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفونى عصفرته بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الدهـ ر لأمسى عطرى وأصبح طيبى (١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

(١) ص ١٩٥ ج ١ يتيمه .

وإنا لنتأمل فى شعره فنجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلا فى الورد والربيع والشراب :

زمن الـــورد أظرف الأزمان	وأوان الربيـــع خير أوان
أدرك النرجس الجنىّ وفـــزنا	منهما بالخـــدود والأجفان
أشرفُ الزهر زار فى أشرف الدهر	فصِـــلْ فيـــه أشرف الاخوان
وأجلُ شمس العقار فى يد بدر الـ	ـحسن يخـــدمك منهما النيّران
وأدرها عـــذراء وأنتهـــز الامـ	ـكان من قبـــل عائق الإمكان
فى كؤوس كأنهـا زهر الخشـ	ـخاش ضمت شقائق النعمان
وأختدعها عنـــد البزال بألفـا	ظ المثـانى ومطربات الأغانى
فهى أولى من العـرائس إن زفّـ	ـت بعزف النايات والعيـــدان (١)

وللقارئ أن يتأمل أحتفاء الشاعر بالصهباء ودعوته الى أختداعها كما تختـدع العروس بالناى والعود .

٤ — ومـمـا يؤكد أن أطماع الببغا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمـــل المنن	فكن عزيزا إن شئت أو فهن
اذا اقتصرنا على اليسير فمـا العلـ	ـة فى عتبنـا عـــلى الزمن (٢)

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر فى سهل وحَزن	وجربت الأمور وجربتـنى
فلم أر مذ عرفت محل نفسى	بلوغ منًى يساوى حمل مَنّ
ولم تتضمن الدنيا لحظى	منـال مســـرة إلا بحـزن
وليس عـلىّ غير الجـد فيما	سعيت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجـز	وان أبلغ فنفسى بلغتنى (٢)

(١) ص ١٩٩ ج ١ يتيمه . (٢) ص ٢٠٠ ج ١ يتيمة .

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخى يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود المـاء فى النهر بعدما عفت منه أيات وسُدت مشارعُ

فقلت الى أن يرجع المـاء جاريا وتعشب جنباه تموت الضـفادعُ (١)

وحرص الببغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلوص الببغا من مشاكل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبى اسحاق الصابى، وقـد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منـذ مدة طويلة فلم يصبر عنـه فزاره فى محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفـرج ٱسـلم وٱبق وٱنعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص

مضى زمن تسـتام وصـلى غاليـا فأرخصـته والبيـع غالٍ ومرتخص

وآنستـنى فى محبسى بـزيارة شفت كمدا من صاحب لك قد خلص

ولكنها كانت كحسـوة طائر فواقا كما يسـتفرص السارق الفـرص

وأحسبك ٱستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذكرك القفص

كذا الكرز (٢) اللـاح ينجو بنفسـه اذا عاين الأشراك تنصب للقنص

فحوشيت ياقس الطيـور فصـاحة اذا أنشـد المنظوم أو درس القصص (٣)

وقد أجابه الببغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالببغاء قدما ملقبا فكم لقب بالجور لا العدل مخترص

وبعـد فـا أخشى تقنص جارح وقلبـك لى وكر ورأيك لى قفص (٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والببغا من المراسلات ،ولأكتف بما كان بينهما من وصف "الببغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة .

(٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالببغا للثغته استطاع الصابى أن يحاوره محاورة طريفة فى وصف الببغاء فهو مثلا يعتذر عن إهماله الرجوع اليه لزيارته فى السجن بقوله :

وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى   وأوجست خوفا من تذكرك القفص

ولننظر كيف يقول فى وصف الببغاء :

أنعتها صبيحةً مليحة   ناطقةً باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيار واللسانُ   يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى الى صاحبها الأخبارا   وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سميعة   تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقِّنت العضيهة   فتغتدى بليهةً سفيهة
زارتك من بلادها البعيدة   وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قِراه الجوز والأرزُّ   والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقارها الحلوق   كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفصّين   فى النور والظلمة بصّاصين
تميس فى حلتها الخضراء   مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الاقفاص   ليس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها ومالها من ذنب   وإنما تحبسها للحب
تلك التى قلبى بها مشغوفُ   كنيت عنها وآسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان   والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر   تقيه نفسى عاديات الدهر (١)

وقد أجاب الببغاء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها إلا قوله فى الببغاء :

---

(١) ص ١٨٨ و ١٧٩ ج ١ يتيمة .

تزهى بدوّاج[1] من الزمرد ومقلة كسبج فى عسجد
وحسن منقار أشمّ قان كأنما صيغ من المرجان
صيّرها انفرادها فى الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت فى الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لجد أو لعب
غذاؤها أزكى طعام رغدا لا تشرب الماء ولا تخشى الصدى
ذات شُعًى[2] تحسبه ياقوتا لا ترتضى غير الأرزّ قوتا
كأنما الحبة فى منقارها حبابة تطفو على عقارها
إقدامها بيأسها الشديد أسكنها فى قفص الحديد[3]

٧ — وهذا الوصف وصف الببغاء الذى أجاد فيه الشاعران أتاحته لنا اللثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنتْ منك المحاسن لثغةٌ وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدّم خاليا لعير اذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوّغا[4]

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه فى النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظُّبا عاطيتهم فى الروع كأس مُدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب اللحاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر المشعان ، والشعوانة الجمة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدنو كأنما أنفتْ رؤوسهمو عن الأجسام [١]

وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بنى كلاب وعفوه عنهم :

اذا ٱستلّك الجانون أغمدك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم

ومن مختار هـذه القصيدة :

ومن لم يؤدبهُ لفرط عتوهِ — إذا ما جنى — الإنصافُ أدبه الظلم

إذا العرب لم تجز ٱصطناع ملوكها بشكر تعاوت فى سياستها العجم

اعدها الى عادات عفوك محسنا كما عودتْها قبل أباؤك الشُّم

فان ضاق عنها العذر عندك فى الذى جنته فما ضاق التفضل والحلم [٢]

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعانى الموصوف، من ذلك قوله فى وصف معصرة :

ومعصرةٍ أنختُ بها وقرن الشمس لم يغبِ

تخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب

وقد ذرفتْ لفقد الكر م فيها أعين العنب

وجاش عباب واديها بمنهلّ ومنسكب

ويا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحبب

فيا عجبا لعاصرها وما يفنى به عجبى

وكيف يعيش وهو يخو ض فى بحرٍ من اللهب [٣]

وقوله فى وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجردَ الخفافَ قريبُ

تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها فى الخافقين هبوب

تماشى بفتيان كأن جسومهم لخفتها فوق السروج قلوب [٤]

---

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار . (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ - نثر أبي الفرج الببغا

١ — يمتاز نثر الببغا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب فى ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حينا ويسوده التكلف أحيانا . وهو من جهة الموضوع يتصل فى أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقلّ أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر الببغا فى طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التى تشغل بال الرجل المهذب الذى يحرص على مجاملة الأوِدّاء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيرا بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول فى حماه العقول .

٢ — وأول ما يطالعنا من نثر الببغا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهى الرسائل التى بث فيها شوقه الى أصحابه وأُلّافه وإخدانه ، بطريقة وجدانية تقرب فى روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

"شوق المملوك إليه شوق الظمآن الى القطر، والسارى الى غرة الفجر"[1] .

أو يقول :

" شوقى إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه "[1] .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

"ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق، ويبرد أُوار الفراق، بالتخيُّل الممثل لمن نأت محلته، والتفكر المصوِّر لمن بعدت شقته، لألهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهَمَتْ دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح"[1] .

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٣

وله فى هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وآنظر كيف يقول فى رفق أشبه بتناجى المحبين :

"إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت، فقد دنت الأنفس وتقاربت؛ فلا تُمِضُّ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى" (١) .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده فى وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفى رسائل الببغا تفسيرٌ لبعض الجوانب الاجتماعية، وتأكيدٌ لما عرف عن العرب من بعض الخلال، من ذلك رسالته فى التهنئة بمولودة : فهى تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه فى هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنىء، فيقول :

"لو كان الانسان متصرفا فى أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة، وآستحالت حقائق الصنعة، ودرست معالم الآمال، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا، وعلى ما عنه ظهر فى الابتداء مطبوعا، كان المخرج له الى الوجود من العدم، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله! — مع كمال فضله، وتناهى عقله ، وحِدّة فطنته، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه، فيرمقها بنواظر الكفر، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد آتصل بى خبر المولودة، كرم الله غرّتها وأطال مدّتها، وعرّف مولانا البركة بها، وبلغه أمله فيها، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر، وإنكار ما اختاره له سابق القدر، فعجب المملوك من ذلك وآستنكره، من مولانا وأنكره : لضيق العذر فى مثله عليه . وقد علم

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤

مولانا أنهن أقرب الى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جلّ من قائل ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى، ولكم نسب أفدن، وشرف آستحدثن؛ من طرق الأصهار، والآتصال بالأخيار، والملتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكرٍ الأنثى أكرمُ منه طبعا، وأظهرُ منه نفعا، فمولانا يصوّر الحال بصورتها، ويجدّد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الآعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، ان شاء الله تعالى[1] ".

ويظهر أن هذا النوع من التهانى كان من الموضوعات الملحوظة فى القرن الرابع، فقد عقد له الحصرى فصلا فى زهر الآداب. ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأنثى على الذكر قول بعض الكتّاب:

" الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب؛ والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام؛ والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون، وفيها ينعم المرسلون[2] ".

ويتصل بهذا المعنى ما آقترحه سيف الدولة على الببغا من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا. وقد آتفق لعمرو بن مسعدة أن سأله سائل: كيف تكتب لمن تزوجت أمه![3] وهذا دليل على أن كتّاب القرن الثانى كانوا يعدّون ذلك من فنون الانشاء. أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور، وفصّل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق مايستحسن تركه، ويستهجن عمله، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

---

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية.

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه، وآنفرد عن أودّائه، وتوارى عن أصفيائه . حياءً من لقائهم، وكرها لتهنئتهم أو عزائهم . ثم بيّن نماذج ما يكتب فى مثل هذه الحال.[1] و إلى القارىء نص رسالة الببغا التى اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

"من سلك اليك — أعزك الله! — سبيل الآنبساط، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الآنقباض عن ذكر مثله . وآتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وفّر الله صيانتها — فى آختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره، لكنت فى مثله بالرضا أولى ، و بالآعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع ، وحسّنه أدب الديانة، ومباح الله أحق أن يتبع و إياك أن تكون ممن لما عدم آختياره تسخط آختيار القدر له ، والسلام"[2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الببغا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض، ولكن رسالة آبن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

"وهَناك الله الذى شرح للتقوى صدرك، ووسّع فى البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما بجزعته من أَنَف ، وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من آمتعاضك لفعلها ، المنتظر من آرتماضك[3] لدفنها، وعوضك من أسرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليك بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة"[4] .

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا الى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية، ولا نقول شرقية، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان، فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات إلا لظهور ذلك فى أدبهم ظهورا قويا[١] ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيناهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغا رسائله فى آستهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفى طى ذلك الآستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالبا إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوبا) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لايكون المجلس محروما من نفحة الصهباء . وآنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولفلك الفتوة قطبا ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس فى آستماحة المسار إلا عليه . وقد طرقنى من إخوانى من كان الدهر يماطلنى بزيارته ، وينفس[٢] على بقربه ومشاهدته ، فصادفنى من المشروب معسرا ، ووجدت الانبساط فى التماسه من غيرك على متعذرا ، والى تفضلك تفزع مروءتى فى الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك فى رق الآعتداد بالمنة ، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة[٣]" .

وفى المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

" ألطف المنن موضعا ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى الى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف مايسترق حر الشكر ، ويحرز قصب السبق الى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تجد بالممكن منه مروءتى ، على قضاء حق من أوجب على المنة بزيارتى ، فعلت[٤]" .

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفى فى بيانه قول مؤلف كليلة ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألفاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فريدا» . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أوّلا على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — فى السهرات الاخوانية ، ويدل ثانيا على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء، كما يقع ذلك اليوم فى أكثر الحواضر الشرقيــة ، وانما كان مما يدّخره المترفون، حتى استطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه ويمقون فى طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان فى الرسم والنطق المدلول[1] .

٥ — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد، ونحن نعلم قيمة ذلك فى أنفس الكتّاب . وقد استهدى الببغا دواة فقال :

” أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضــل نسبا ، وللصــناعة والحظوة سببا ، وبالدُّوِىّ تجتنى ثمرة الصــناعة، ويُحتلب درُّ الكتابة، وقد أوحش الملوكَ الدهر ممــا كنت أقتنيه من نفائسها، وضايقه فى وجود الرضىّ على الحقيقة منها، فان رأى مولانا أن يميط ببعض ما يســتخدمه من حاليها أو عاطلها سمــة عطلة المملوك، ويســمح بإهدائها الى أهــل تصريفه، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته، فعل، إن شاء الله تعالى[2] “ .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوِىّ سواء فيما تصدره الأقلام عنهــا، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه،وينصرف التخير بالضرورة اليه ، المدادُ الذى هو ينبوع الآداب، وعتاد الكتّاب، ومادة الافهام، وشرب الأقلام ... ولا معدل بى عن استماحة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده، فان رأيت أن تستنقذ دواتى من خمول العطلة، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة، وتكشف عنها سمــة النقصان والخلّة ، فعلت إن شاء الله تعالى[2] “ .

---

(١) فى هذه اللفتة شىء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون فى أذواقهم وان كانوا فقراء .

(٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن الببغا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان ، وانما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، ويستهدى مدادا (جيدا) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . وآختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتّاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا فى بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه فى المقدّمة الفرنسية التى صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع اليه القارئ هناك[1] .

٦ — وقد لاحظنا أن الببغا يكتب فى الموضوع الواحد غير مرة، وَفقا للظروف . من ذلك رسائله فى التهنئة بالزواج[2] والتهنئة بولاية عمل[3] والتهنئة بالقدوم من سفر[4] والتهنئة بالمواسم والاعياد .

وهذا كله طبيعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه فى التهنئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه فى رأينا من التكلف المحجوج، و إن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتال الببغا فى مثل هذه الحال :

” من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبل، كان معظما فى حالتى الولاية والعزل . لا يقدح فى قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“[5] .

” لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آختصك به من كمال الفضل، ومأثور النبل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوىّ والأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنأ مسرورا، كما كنت فى الولاية محمودا مشكورا[١] " .

٧ — وهـذا الاستطراف لا يفارق الببغا : فقد كتب عدة رسائل فى التهنئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صـديقه فى العلة والشكوى . و يعجبنا من ذلك قوله :

" ماكنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتـك، ولا سلامتى مضافة لسـلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمـد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك، و جمل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، و إياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك[٢] " .

ولكنا نبتسم حين نراه يهنئ صديقا بالمرض فيقول :

" فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية ، إيقاظًا له من سـنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكّر بطروق الآلام، وتنبيـه العظات، غير الصفوة من عباده، الخـيرة من أوليائه، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه، وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه[٣] " .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتـاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للببغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضـوع واحد كقوله فى التعزية :

" اتصـل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة ، وسكب العبرة، وأضرم الحرقة، وضاعف اللوعـة[٤] "

(١) الصبح، ج ٩ ص ٧٧ (٢) ص ٦٥ (٣) ص ٧٦ (٤) ٩٦

فتراه يعيد هذه التعابير فى كلمة ثانية فيقول :

" اتصل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة، وقدح اللوعة، وامترى الدمعة[١] " .

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة، وبعض المعانى يعسر الافتنان فى تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفى فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقة) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزيةً لصديق :

" أحسن الله فى العزاء هدايته، وحرس من فتن المصائب بصيرته[٢] " .

وقـوله :

" وحرس يقينك من آعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك، وتولى من فتن المحن رعايتك[٣] " .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار[٤] والتهنئة بالمنزل الجديد[٥]، وان كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصّع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

" فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره "

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى آختصر ما آختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . والى القارئ نموذجا من رسالة له فى مدح سيف الدولة[٦] .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠، ١٧١ (٥) ٧٢، ٧٣ صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

"الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق المجد اذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين جديدا ، وذميم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا آنتزع الله الهدى عز بأسه ولا آنتزع الله الوغى عز نصرهِ

وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعْيِ سوام الدين توفير شكره

فما تدرك المدّاح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكّر القارئ بأن فضل الببغا فى رسائله لا يقاس الى فضله و براعته فى نثره المرسل الذى دبج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظ له منها شاهد يعزّ على من رامه من أندى الكتّاب قلما وأسماهم بيانا[1] .

(١) تجد هذا الشاهد فى باب «الأخبار والأقاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ — فى ذى القعدة سنة ٣٢٦ (١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد فى الطالقان — وهى ولاية بين قزوين وأبهر — فى بيت معروف بالعلم والفضل، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين فى عصره فى علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت فى معجم البلدان من البقاع التى غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق فى فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا (٢)، ولكن يظهر من المصير الذى انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعدّ نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدّث عن نفسه قال: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة، وأنا إذ ذاك فى ريعان شبابى ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بينى وبين نفسى واستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوما مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة (٣) .

٢ — وأوّل مانعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبى الفضل بن العميد، فقد كان يخدمه خاصة، ثم ترقت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، ومؤيد الدولة

---

(١) هكذا ذكر ياقوت فى معجم الأدباء، وفى بغية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦). (٢) فى بغية الوعاة انه كان فى الصغر اذا أراد المضىّ الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته دينارا فى كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه فى شبابه الى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لئلا نساه .

(٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان آستوزر ابن عباد وحكّمه فى أمواله ، وكان لقّبه الصاحب فى حياة أبيه أنساً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب فخر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقرّ الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلمة فخر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة[1] : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه فخر الدولة ، وهو أوّل من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومُه ما عظمه فخر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن فخر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكوينا جيدا ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدّث وقعد للإملاء ، وآزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين[2] . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما آعتذر به الصاحب أنّ نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة جمل[3] . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظا فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الآطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريما ولكن كرمه كان نخفا ينصب لشياطين الشعراء والكتّاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(١) ص ١٩٦ (٢) بغية الوعاة ١٩٦ (٣) ص ٣٥ ج ٣ من يتيمة الدهر .

القوطانى الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدّعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدّعى العقل، وهما فى دعواهما كاذبان[1] .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفّق سواه الى حق. قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة، فقال ابن الدارى :

* يزدحـــم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة[2] ! .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما آستخبره عنــه : رسائل مَن تُقــرأ عندكم ؟ فقال : رسائل آبن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن، ورآه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس[3] ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وآنتحال الفضائل التى ربما قصرعنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر فى تأييد ذلك أن الصاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقــه فتثاقل فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضـعف حركته وقصور نهضــته، فأخذ الصاحب بضُبعه وأقامه وقال : نعــين القاضى على قضــاء حقوق إخوانه ! فخجل أبو السائب وآعتذر إليه . والقصة وقعت لغير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها فى مجلس أنسه فشاعت عنه[4] .

وسُمع الصاحب يقول : ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصــدّر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابى ويكتب عنى وأغيّر عليه[5] . وهى شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابى أحد أعلام ذلك الزمان. والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ص ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .
(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبثوثة فى معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبى حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل فى هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقده على الكذب والافتراء، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه لحط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرىْ زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع، والحرمان من السيد المأمول فاقرة، والجهل من العالم منكر، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد(١)» .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأوّل أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدّا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية(٢) .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنّوا فى ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانا تستطيب ما يقال فيه من الاثم والبهتان. الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان فى الهجاء. ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ماعرضه التوحيدى فى التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه فى إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد، فاذا أفاق قيل: ما أصابك؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى حتى

(١) ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ج ٢ ياقوت . (٢) بغية الوعاة ١٩٦

فارقني لبي، و زايلني عقلي، وانسرحت مفاصلي، وتخاذلت عرى قلبي، وذهل ذهني، وحيل بيني و بين رشدي . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك و يتنفس و يضحك عُجبا وجهلا . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة و يقدّمه على جميع بني أبيه وعمه[1] .

والتوحيدي بعد أن يقص هـذا يقول : " ومن يتخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . و بالصبيان الضعاف أمثل " ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلق ، فان الرؤساء كثيرا مايؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعيـة ، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدّث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقا هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

" ناظر ابن عباد بالرى اليهودىَّ رأس الجالوت فى إعجـاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيـه طويلا حتى احتدّ وكاد يتقد، فاحتال اليهودى فى مخاتلته وقال :

أيهـا الصاحب ! لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عنـدى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنـه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصـدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثرا هو فوق ذلك، أو مثـل ذلك وقريب منـه، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليـه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هـذا فتر وخمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبليغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

(١) ٣٠٤ ج ٢ ياقوت .

المزية التي لا تجهل، والشرف الذى لا يجل ، وأين ماخلقه الله على أتم حسن و بهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهـذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أسار ير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهـل الملل شبيها بالقرآن[1] .

فهذه أيضا صورة جميـلة من صور التوحيدى، وليس يضـيرها أن تكون مختلقة . فقد تكون صور الواقع أفظع من صور الأختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التى نراها غالبا فى الرؤساء المفتونين ، ور بما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه ينخدع ، وقد ينخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب و يرقص لثناء أتباعه عليه، وفنائهم فيـه، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهـم يثنون عليـه راغبين أو راهبين، ويبيّت لهم من الحقد والضغينة والكيد ماقد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنـدية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار فى أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لهوانهـم على سرائرهم أن مايوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ — وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب، وقد أراد التوحيـدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، فى شـؤون كثيرة، بعضها مما لاتصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصبهان لأبن عبـاد : لو كان القرآن مخلوقا لجـاز أن يموت ، ولو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح فى رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا، ويقول : لا حياة لى بعدك، ولا نصلى التراويح ونستريح[2] ! “ .

---

(١) ص ٢٩٧ بتصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ ياقوت .

وهــذه الفكاهة تمثــل روح الارتياب الذى كان يدب فى صــدور أهل ذلك العصر . والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصــل عن طريقه الى نشر هــذه النكتة برفق ولطف ، ولا ينس القارئ دقة الخيــال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بمــاذا كنا نصــلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شيء فى الاســلام ، وانمــا أراد الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتّاب القرن الرابع شيء ثقيل ، هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفضل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما التوحيدى يلح فى ثلبــه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليــه ، يقوم الثعالبى من جانب آخر فيقول فيه :

” ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علوّ محله فى العــلم والأدب ، وجلال شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشــتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليــه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ، ولكنى أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل مايمدح به مخــلوق ، ولولاه ماقامت للفضــل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيّده ، وإنعام يجدّده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولمــا كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواســطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليــه من الآفاق وأقاصى البــلاد كل خطاب جزل ، وقول فصــل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمــار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعــدّ فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الإعجــاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى، وملك رق المعانى، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. الخ[1]".

وهنا مضى الثعالبى يسرد أسماء الشعراء والكتّاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبى الحسن السلامى، وأبى بكر الخوارزمى، وأبى طالب المأمونى، وأبى الحسن البديهى، وأبى سعيد الرستمى، وأبى القاسم الزعفرانى، وأبى العباس الضبى. الخ. الخ[2].

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم فى كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا فى عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ولهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقرى يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشمائل، وسيئ الطباع. والانسان فى جملته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامى والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساويهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذى يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتّاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبى العباس الضبى فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان فى الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعنى «أفعل»[3].

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٣ يتيمة. (٢) انظر ص ٣٢ ج ٣ (٣) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة.

وكتب بعض العمال رقعة اليه فى التماس شغل ، وفى الرقعة : " إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالى ببعض أشغاله " فوقع تحتها : " من كتب إشغالى لا يصلح لأشغالى[١] " .

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب فى ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : " فى حديد بارد[١] " .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب فى معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبى : "سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذرى يقول إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ، ونسبته فى نفسى الى التزيد والتكثر الى أن ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه وقوة المعرفة بدقائقه[٢] " .

والمهم فى هذا هو ارتياب الثعالبى فيما نسب الى الصاحب من التطبب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثر . ففى هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب فى التطبب لم تكتب الا معارضة للخوارزمى فى رسالة كتبها الى أحد تلامذته فى نفس المعنى ، وفى هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الخوارزمى والصاحب حين كتبا فى الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة فى لغة جميلة تفيض بالعذوبة واللين ، مع أن فى بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكا اليه علة ألمت به :

(١) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ يتيمة .

"قد عرفت ماشرحه مولاى من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه، فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزّت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بدّ مما يطفى ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص فى آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها، والبلدة التى وردها، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقيًّا من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طوّل هذا التطويل ... الخ . وهى رسالة طويلة"(1) .

واليك قطعة من رسالة الخوارزمى الى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدرى :

"هذه العلة وان كانت موجعة، وفى رأى العين فظيعة شنعة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هى قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طبا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمرى إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير فى جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفى الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ"(2) .

وللخوارزمى رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، نقتبس منها الفقرات الاتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ٣٣ من رسائل الخوارزمى

"... الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعامٌ وشراب، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن ، وعسكر من عساكر البلاء تمدّه القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطا وراءه النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلىّ داويتما ظاهرا   فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد ، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة،وفى أعدل موازين البرودة، ولابدّ من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية،... وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء، وثورثه خجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ...ولولم يكن من دقائق آفاتها، ومن عجيب هناتها، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمى، وأعجميا وليس بأعجمى، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة   الموت والعشق والافلاس والجرب (١)

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أُرِّخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبى بعيدة عن متناول الكتّاب . والصلة بين الصاحب والخوارزمى

(١) ص ١١٠ — ١١٢ رسائل الخوارزمى .

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وان كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمى الى الصاحب يعاتبه :

"...ولقد كانت أيامى بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتى فيها أسحارا ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وانى بعد صبرى على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال فى ميدان الصبر..." (١) الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب فى الإغراب عند حد معقول ، وانما مضى يغرب فى الصنعة شعرا ونثرًا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو ، فآنبرى أبو الحسين الهمذانى وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب فى أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبائب لما بدا فالدمع ساكب
أمدامعى منهلة هاتيك أم غزر السحائب
نثرت لآلئ أدمع لم يفترعها كف ثاقب (٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمذانى الذى صنع هذه القصيدة هو الهمذانى صاحب المقامات (٣) . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذاك بديع الزمان أحمد بن الحسين .

والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء فى خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف فى الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك ، إذ كان ألثغ ، أما الصاحب فيمضى فى هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .
(٣) ترجمة المسيو روش الفرنسية التى تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتّاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون الصاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن الصاحب كان شديد الرغبة فى آستعباد الكتّاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبى استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها الصاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتّاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيـل من قدره . ويمكن الحكم بان الحملات التى هوجم بهـا المتنبى وهو حى كان أكثرها بتحريض الصاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبى اليـه . وقد اشترك الصاحب بنفسـه فى مهاجمة المتنبى فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقـدّمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبى، فأجاب الصاحب : انه بعيـد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربمـا يأتى بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وآدعى أن شعر المتنبى مُمَـتز النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال الصاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتى، ولا تتبع الزلات من طريقتى . وقد قيـل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو، وأى جواد لا يكبو، وانمـا فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يروّى، ويخبِر قبل أن يخبُر، فآسمع وأنصت، وآعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليـلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسـيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيـه يعلو الغارب، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لايضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى، وقـد يوهمون أنهم يعرفون فاذا حكموا رأيت بهـائم مرسنة، وانعاما مجفـلة .[1]

---

(١) ص ٢٢١ «الكشف عن مساوى المتنبى» .

وهـذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضـيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخـير . فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ — وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدّته : بجالس الشعراء، وكاثر الأدباء، وباحث الفضلاء، عشرين سنة، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضـل بن العميد "فانه يتجاوز نقـد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" ثم مضى فى سرد الأحاديث التى وقعت بينه وبين ابن العميد فى نقد الشعر، الى أن قال : "وسمعته أيده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغـرض الذى قصده، والمعنى الذى آعتمده، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا، ومع أى القوافى يحصل أجمل آطراد، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه"[1] .

ونحن نسـتجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى نقـد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شُهيد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : " إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة"[2] .

١٦ — وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بمـا قاله فى نقد قصيدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

" ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسـبطرٌ *

(١) ص ٨ (٢) ص ١١٨ ج ١ من الذخيرة لابن بسام . مخطوط .

ولعل لفظة الأسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض آبلعى ماءك» من القرآن و «آصدع بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طرًّا ... لأول ميتة فى ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردّده فى آنتهاك الستر .

ولما أبدع فى هذه المرثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط ... على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه آستعارة . فقلت : صدقت؟ ولكنها استعارة حداد فى عرس!

ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبد شعره، فقال :

ولا من فى جنازتها تجار ... يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطِيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشلت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا ... قبيل الفقد مفقود المثال

فالمصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى[1] .

١٧ — وخلاصة القول أن الصاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل زمانه. وقد بقى من رسائله جزء فى المكتبة الأهلية بباريس[2] . وفى زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) فى دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

و يتيمة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد، وفى أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به فى حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردىء . ومهما احتال خصومه فى الحط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدبين كانت تمضى طعمة الفقر والخمول لولم يمسها يمنه وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين[1] .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارئ كتابنا يجد فى غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التى كانت من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمى

١ — وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التى نهضت بالأدب العربى وشغلت الناس عدّة أجيال. والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذى يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمى فهو فى نثره عقل قوى يمتاز من العقول التى سبقته أو عاصرته . وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا. فهو دون ابن العميد فى سمو الغرض ، ودون بديع الزمان فى حلاوة التعبير ، ودون التوحيدى فى وفرة المحصول، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال — والنبوغ الأدبى هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ. ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضُه النمير . وقد كان الخوارزمى شاعرا، ولكن ديوانه ضاع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فمن الصعب أن نعطى القارىء فكرة عن حياته الشعرية ، وان كان من السهل أن نجزم بأن خموله فى الشعر كان أمرا مقضيا ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضى والمتنبى والمعرى وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس بجيد وان لم يكن بردىء ، من ذلك قوله فى بعض الأصدقاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا ... مقيما وان أعسرت زرت لماما

فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه ... أغبّ وان زاد الضياء أقاما

وقوله فيمن يطلب الصهباء وهو بخيل :

يامن يحاول صرف الراح يشربها ... ولا يفك لما يلقاه قرطاسا

الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما ... ففرّغ الكيس حتى تملأ الكاسا[1]

(١) أنظر بقية شعره فى اليتيمة ج ٤ ص ١٢٧ — ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمى غير رسائله فلنكتف بها فى درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمى، أما موته ففيه خلاف، فمن قائل انه توفى سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفى[1] سنة ٣٩٣ وسمى الخوارزمى لأن أباه من خوارزم. وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات. وكان الخوارزمى معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليذكرون انه قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر: ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال، أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى[2] .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت تحتاج الى نقد: أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمى عشرين ألف بيت من شعر النساء؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ؟ الظاهر ان فى هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشى قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لامرأة، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار فى الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب حافل يوجد منـه الجزء الثالث فى دار الكتب المصرية بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سـنة . وفى هـذا دليل على أن الرواة شُـغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وان كان لا ينكر ان حظ المرأة فى الشعر العربى ضئيل، حتى ليمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما الى منافسة الرجل فى الشعر، وها نحن أولاء نعيش فى عصر من عصور النهضة فى اللغة وفى الأدب، فأين الشواعر المجيدات، وكم عددهنّ فى هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقـد كان لمـا حفظه الخوارزمى أثر كبير فى أدبه فقوى أسـلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتّاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر مافيها حادثان : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنـا غرامه بالنيـل من المتنبى والغض من شعره ، فهجومه على المتنبى لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه الى كشف عيوب المتنبى ومساويه . ولكنه اندفع فى ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذى كان يحقد على المتنبى لترفُّعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشـد ما عرف من هجاء الخوارزمى للمتنبى قوله فى الرسالة التى كتبها الى الحاجب أبى إسحق لمـا نكبه الوزير ابن عباد :

"ونظرت الى أبى الطيب والى تناقض حكمته ، وتفاوت طرفَىْ فعلتـه ، حيث قال فى سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال فى كافور الإخشيدى :

قواصـد كافور توارك غيره ومن قصد البحر ٱستقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء عِلقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء، بينه وبين العهد والوفاء، وكان يضايق نفسـه فى اختبار المتاع ، ويسامحها فى اختيار

المبتاع ، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة ، على عرض من لا يساوى بعرة ، ويزن كريمة من كرائم شعره ، الى من لم تقم عنده كريمة ، ولم تعرف له قيمة ، لو رأى الطمع فى جحر فأر لدخله ، ولو أتاه الدرهم من آست كلب لما غسله ، فلا جرم أن الناس كما استحسنوا قوله ، استقبحوا فعله ، وكما أعجبوا بشعره ، تعجبوا من غدره ، يشكر ثم يشكو ، ويمدح ثم يهجو ، ويشهد ثم يجرح شهادته ، ويعطى ثم يسترجع عطيته . وكم من حر فضّله ثم ثلبه ؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه ؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها (١) .

٥ — وهذه الكلمة نص فى أن الخوارزمى كان يعجب بشعر المتنبى ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال ، وقد جرّه ذلك الى التغنى بخلقه هو ، واحتفاظه بالود ، ووفائه بالعهد ، فقال " ولكن فى قميص أبى بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع ، واذا طلق لم يراجع ، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم ، واذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم ، وإذا طيب فكيه بالمدح لكريم ، لم يلطخهما بمدح للئيم ، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرّجن إلا لديه ، ويجتليهن غير عينيه ، وإنما الغدر من أخلاق النساء ، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران ، وجذبها الى شق النسوان (٢) .

فالمتنبى مؤنث الخلق لأنه غادر ، والخوارزمى مذكر الطبع لأنه وفىّ !

هكذا حكم الخوارزمى لنفسه بالنبل ، وحكم على المتنبى بالخساسة ، لأن المتنبى يتغير ويتبدّل ، أما الخوارزمى فلا يتلون ولا يحول .

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمى على بغيه الأثيم : فساءت الصلات بينه وبين آبن عباد فتحوّل عنه وشغل بذمه وقدحه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه ، وآستطاع أن يرمى ممدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لاتحمدنّ آبن عباد وإن هطلت ... يداه بالجود حتى أخجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

(١) ص ٦ رسائل . (٢) ص ٧

وجرى فى النـاس ذكر الخوارزمى بالتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شهيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مـودته اذا دامت لخـل فمن وقت الصباح الى المساء

وأنشد الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم قيـل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمى بكثير من الرؤساء، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن آستقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثـانى فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشئوم قضى عليه ، ويرجع السر فيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه، والراغبين فى إسـقاطه[1] والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال فى غرارة الصبا ، وغفلة الحـداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير فى ذلك الحين، وهو غلوهم فى التشيع فآنطلق يبكى القتلى من أهـل البيت، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسـول ، وكذلك آجتمع على الخوارزمى كيد أعدائه فى نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور ”وآنخـذل انخذالا شديدا وانكسف باله وآنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره“ كما قال ياقوت[2] .

وقد سُبقت تلك المنـاظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكاتبين مجرى العتاب ، وهى رسائل جيـده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعدّ الحمـلة ويتأهب للنزال ، وكان الخوارزمى يقابل عتبه بأرق من النسيم فى بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن، وكلامه لين ولكنه خشن ”أما قبحه فلأنه عاتب بريئا، ونسب الى الإساءة

(١) ياقوت ص ١٠٤ ج ١ . (٢) ١٠٦ ج ١

من لم يكن مسيئا ، وأما حسنه فلألفاظه الغرر ، ومعانيه التى هى كالدرر ، فهى كالدنيا ظاهرها يغر ، وباطنها يضر ، وكالمرعى على دمن الثرى ، منظره بهى ، ومخبره وبى" وربما أنشده :

يابديع القول حاشا لك من هجو بديع
وبحسن القول عوذ تك من سوء الصنيع
لا يعبْ بعضك بعضا كن مليحا فى الجميع

وقد مضى الخوارزمى يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن ثياب بره اذا قبلها ضافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعنته وتعصبه ، ولم يخترق الثياب بتجنبه وتسحبه » وهنالك يذكر الخوارزمى أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ، ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادثين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل باعباء الحياة وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذل لها نفسه ويجرح بها كبرياءه ، ألسنا نراه يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا فى بره ، فيكون هذا عند ظنه ، فيكتب اليه رسالة تجئ فيها هذه الفقرة التى تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

" ومن أنقذ انسانا من الفقر ، وأنتشله من مخالب الدهر ، وفكه من إسار العسر ، فقد أعتقه من الرق الأكبر ، ونجاه من الموت الأحمر ، والرق رقان : رق الملك و رق الهوان ، والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان[1] " .

(١) ص ١٠٢ رسائل .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل، فكتب الخوارزمى كتابا جاء فيه :

"وأظن أنى لو لقيتك عليلا لأنصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فانى بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائى، غير جلد على أوجاع أصدقائى، ينبو عنى سهم الدهر اذا رمانى، وينفذ فىّ اذا رمى اخوانى، فأقرب سهامه منى، أبعد سهامه عنى، كما أن أبعدها عنى، أقربها منى"(١)

وهذه الفقرة تمثله جَلْدا صبورا ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور باعباء الحياة أنطقه بالحكمة فى تعليل الحزن ، فهو من أسبق الكتّاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدّثنا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينة أن سيكون له مثل ذلك المصير، اذ كانت المآسى الانسانية كأسا تدور على الجميع . ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء فى شقيق له :

"ورد علىّ خبر وفاة فلان فدارت بى الأرض حيرة، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة، وملأ الوله والوهل قلبى وسواسا وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعنى واياه من سكرى الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها، فبكيت عليه بكاء لى نصفه، وحزنت له حزنا لنفسى شطره"(٢) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التى كان يعانيها الخوارزمى بين احداث زمانه جعلته يتشاءم من صحبة من يقاسون إدبار الأيام ، ويتفاءل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى "أن من تعلق بذيل المقبل أقبل"(٣) ويرى كذلك أن "أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته"(٤) وعنده أن "الاقبال يستر العيوب، والدولة تجعل البعيد قريبا ، والجد يرى المخطئ مصيبا، والمجدود يمس بيديه، ما لا يراه المحدود بعينيه" وكلمتا الإقبال والإدبار

(١) ١٠٥ رسائل . (٢) ص ١٥ (٣) ص ١٠٣ (٤) ص ٩٨

يجـدهما القارئ فى رسائله هنـا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوسا من هذه الناحية . وفى هذا الوسواس شىء من الحق والصدق ، فكم من عقل ضاع ، وكم من عبقرية أخمـدت وأفلت، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر، أو الدفاع عن فكرة تهـم بالأفول . وفهم الخوارزمى للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين، من ذلك قوله فى سياسة النفس : "ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية،وانخلع عن ربقة الانسانية، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش، لا أن يعيش ليأكل، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع مآكله ، وقتيل أنامله ، وأن يجنى ببعضه على كله، ويعين فرعه على أصله ، فكم من لقمة أتلفت نفس حر، وكم من أكلة منعت أكلات دهر ، وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفـوت . وكم من شهـوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر، وقطعت جسدا كانت تنبو عنه السيوف البواتر، وهدمت عمـرا هدمت به أعمار، وخربت بخـرابه بيوت بل أمصار ... والمشـتهى غاش لنفسه، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفســه ، وكيف يؤتمن على من لا يتمايز عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه" [1] .

٩ — ولننتقل بعد أن ألممنا بشىء من حياة الخوارزمى ووقفنا على شىء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنـا على فهمه لسر البيان، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

"واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جادّ، وفى مدحك لاعب، وأنى فى الشهادة عليك صادق، وفى الشهادة لك كاذب، فانظر الى تهافت قولى اذ لاينتـك وجاملتك، والى اصابتى الغرض وحزّى المفصل اذ كاشفتك وصـدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٌ ومأخوذ بيديه، والكاذب مخذول مغضوب عليه" [2] .

(١) ١١١ و ١١٢ (٢) ص ١٩٢

فسر البلاغة عنـد الخوارزمى يرجع الى الصدق، وهـذا دليل على أنه كان مأخوذا بفنه مفتونا به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صـدق، وفى الصدق وحده سر العبقريه والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلفين من الكتّاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم، و باعوا ضمائرهم ونفوسهم، ورضـوا بأن يكونوا أبواقا تردد أصوات الآمرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوّم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وانما يقاس نبوغ الكاتب وتوزن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التى تجعل ربها أبا وأخا وأستاذا وزميلا لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه و بينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو الهـادى الأمين الذى يسير بنـا فى اودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيغ ولا نقاسى ضر الضلال، وحين نصدق ونفنى فى الصدق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبثوثه فى ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعـزف عن أغانينا أحد من الموفّقين، وانمـا تفتح لنا صـدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيهـا ما صدقنا فى الإيمـان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور . فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهداه، والكاتب الانسانى هو الذى يصدق و يفنى فى صـدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشاكل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بمـا فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ ممـا فيها من شح ولؤم وجور وطغيان .

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولا بالخـير وحده لا يتغنى إلا به، ولا يتحدّث إلا عنـه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقا، يتغنى بالخير حين يؤخذ به، ويتغنى بالشر حين يفتن به، وفى صـدقه السر كل السر فى فتح ما أُغلق من

سرائر النفوس وضمائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصيره الى فناء، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذى لا يشعر لنفسه بوجود خاص، ومن فقد شخصيته وٱطمأن إلى الاعتماد على سواه لجدير به أن ييأس من أن يروى له قول، أو يوزن له رأى، أو يرجى لبهرجه بقاء .

١٠ — ونعود فنذكر أن الخوارزمى يضعف حينا ويقوى أحيانا ، يسمو ويحلّق حين يصدق، ويهوى ويسفّ حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع، فيبدو نثره الضعيف ثقيلا ممجوجا كالمرأة الفانية حين تتزين وتختال . ومن ذا الذى يسيغ قوله فى وصف رجل :

"إذا ناظره العربى صار أعجميا، وإذا ناظره الأعجمى صار عربيا ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره، وفارق فخره، فهو رفيق الجود وخليله ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لا بل حضرة الاقوال والأفعال، لا بل حضرة الرجال، تنصب إليها موارد الرغبات، وتنشد فيها خيول الطلبات[1]" .

وأثقل من هذا ورود الجناس فى قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

" أذكره وإن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وٱستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة[2]" .

والحرص على السجع فى مثل قوله :"لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، ولا تمهل نفسك فى شغل السبت إلى الاحد[3]" فان كلمتى السبت والأحد لم تقعا هنا إلا ٱبتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة فى مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمى أنه حمل نفسه ما لا يطيق من التزام الصنعة والسجع فى جميع رسائله ، حتى فى الموضوعات التى لا تحتمل التكلف، فكان من الحتم أن يقع فى مهاوى الضعف والإسفاف .

(١) ص ١٠٠ (٢) ص ٩ (٣) ص ٤٤

١١ — والخوارزمى حين يجيد يسمو سموا عظيما، ويقدم من صور الجد والهزل ما يمتع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزح فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعوب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يخترق شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد اتفق للخوارزمى أن شكا وروده إلى بعض النواحى بعد ماقاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر الى الآخرة وهو فى الدنيا. قال "وأول مامر بى سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرة الحمّار، على أن الحمّار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأنى كنت بين حمارين، إلا أنى كنت بين جنسين" (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره ، ومتنفس خاطره ، ومجال بصره ، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام فى حافتها وجه صبيح، وتقلب فى أطرافها قدٌّ مليح . الى هنا يمضى الكلام فتتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الخوارزمى يفاجئنا بأن بستانه ليس بذاك، ثم يقول "وإنما أذكر بُقَيعةً طولها باع، وعرضها ذراع، أعنى باع البقة، وذراع الذرة (٢)، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذى لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسعط صباحا، وتكنس بالخلال مساء ، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين ، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين (٣) " .

١٢ — ولكن أمثال هذه الفكاهات تمر كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد، فتلك فقرات تصيدناها من رسائله ، وهيهات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذى قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان، فالفكاهة حين تقع تحت سنّ قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا فى كلام أبى الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ أصغر من عنفقة بقه ، وأقصر من أنملة نملة » (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالى : كتابك أقصر من نبقة ، وأصغر من بقة ، وأخون من درة ، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة). (٣) ص ١١

نستق أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدّم لقرائنا صورا من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمى لم يكن من هؤلاء، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيّق، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء، وأما مهنة التعليم التى احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجمل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التى جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم فى الأغلب قوم ممن بسط الله لهم فى الرزق، واستطاعوا أن يغلّوا عنق ذلك الرجل بشىء من المال يقدّمونه اليه ثمنا لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصوّرها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثرا فى كبت ذلك الروح وحبسه فى حدود الجدّ والرزانة، وحرمانه من نسمات اللهو المباح .

١٣ — فاذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا الى جدّ الخوارزمى وجدناه جدّا رصينا ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأوّل ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجعه لأن يراه مما ينال اللئام، وإنه ليذكر أن " البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله " وأنه يغار على الأدب الكريم، من المتأدّب اللئيم، وينشد فى ذلك :

وأرثى له من موقف السوء عنده كمرثيتى للطرف والعلج راكبه

ويودّ أن يكون الأدب فى جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر فى أنياب الأسود، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار، أو كتب الدفتر بقنطار، فلا يتأدب إلا شجاع كمى، ولا يحرز الدفاتر إلا جواد سخىّ (1) .

وفى مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعانى آلاما كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده الى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة الى قلقه من بعض الطبائع الدنيئة التى يورثها العلم والأدب ألوانا من العظمة البغيضة والكبرياء الممقوت،

(1) ص ١٠١

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرّش بالشخصيات الكبيرة ليتم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسماؤهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوّة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى رُوعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

” طلب الشيخ نسخة من رسائلى فمرحبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدّى ، والقلم من بنانى، والمداد من ماء أجفانى، ولأمليت هذه النسخة على السفرة البررة، ليكتبوه بيد العصمة، ويخلدوه فى بيت الحكمة، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه، لحاسبت عليه بقلبى ولسانى أدق حساب، وطالبت شيطانى بتهذيبه وتنقيحه أشدّ طلاب، ولقلت لخاطرى دقق طرزك، وجود بزك، فان المبتاع كريم، والثمن عظيم، وقد قيل : الراوية أحد الشاعرين، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين“ (١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو بره وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : ” إن قوما أنا أصغرهم لكبار ؛ وإن أمة أبو ذرّ شرّها لخيار“ (٢) . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى انتهينا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

(١) ص ١٠٢ (٢) ص ٩٩

ووزن فضله؛ وهو فى ذلك معــذور لأنه كان يعيش من فيض قلمــه وهى حالة جعلتنا نرى المتنبي فى عظمته وكبريائه يبدو فى بعض الأحيــان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — وللخوارزمى صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضا بشــعا رهيبا، مثال ذلك قوله فى وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمنة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم، ويسير فى بلادنا سـيرة لا يسيرها السِّنور فى الفار، ولا يستخيرها المسلمون فى الكفار، حتى ٱفتقر الأغنياء، وٱنكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته، وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسـل، وحتى أخرب البـلاد، بل أخرب العباد، وحتى شوّق الى الآخرة أهل الدنيا، وحبب الفقر الى أهل الغنى، وحتى لقب بالجراد، وكنى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم فى أيامه، أقل من الصدق فى كلامه، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أعماله . فليته إذ أوحش الرجال، حصّل المـال، وليته إذ ضيع المـال، أرضى الرجال، ولكنه حرم الأثنين، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب فى الغنم بالقياس اليه إلا من المصلحين، ولا السوس فى الخز فى الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفى فى أهل العراق إلا أول العادلين، ولا يزدجرد الأثيم فى أهل فارس بالإضافة اليـه إلا من النبيين والصدّيقين، ولا فرعون فى بنى إسرائيـل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين“[1] .

١٦ — وفن الخوارزمى يظهر جيدا فى هذه الصورة، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العـدل وخطة العسف، فأشار الى أنهم كانوا قبـل ورود ذلك الوالى فى سكر الغنى وغفوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أذلهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفى قول الخوارزمى ”حتى افتقر

(١) ص ١٠٧ و ١٠٨

الأغنياء، وانكشف الفقراء" دقة بالغة، فان انكشاف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنيّ افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهنالك البؤس الجائر، والهول المبين . وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان فى الشكوى من قاض ظالم "وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود"[1] . وفى مثل هـذا التوافق دليل على أن كتّاب ذلك العصر يبالغون فى بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان . وقوله "حتى صار الدرهم فى أيامه أقل من الصدق فى كلامه، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله" من العبارات الجميلة لولا أنه ترديد لمـا وقع من مثل هـذه المقابلة فى شعر الهجاء . وذكر الحجاج و يزدجرد وفرعون فى الحـديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد فى صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن آستغلال ما ورد على ألسنة الأقدمين .

١٧ — وللخوارزمى رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح ، ولكنا نجـد فيها كلمات قلقة نابية هى أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله فى خطاب تلميذ له :

"كتابى هـذا ولو آستقبلت من أمرى ما آستدبرت، وقدمت من رأيى ما أخرت، لمـا أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولأقمنا جميعا أو رحلنا معا . وانى لأظلم الفراق اذا شكوته، وأتعنف الدهر اذا هجوته، و بيدىّ ضربانى، ومن سهمىّ رميانى. فأنا كالقاطع يده بيده ، والفاجع نفسه بنفسه ، ومطرق الفراق الى قلبه ، ومتجرّع غصص البين وكربه"[2]

والفقرتان الأخيرتان تكرار ثقيـل . والمعنى كله ماخوذ من أبيات حوّرها الخوارزمى . وهى فى الأصل الذى أثبته القالى :

تطوى المراحل عن حبيبك دائبا	وتظـل تبـكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى	تشـكو الفراق وأنت عين الظالم

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان . (٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمى .

ألّا أقمت ولو على جمر الغضا قلّبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمى فى هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند[1]، بل من النقد، وأعبق من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل فى أثر الصد، بل كانت أرق من نسيم الزهر، فى السحر، ومن قضاء الوطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكارى، أو نهار الحيارى[2] " .

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ — بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمى فى جدّه وهزله فلسفة خاصة يقف عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمى للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه، فليست رسائله فى جملتها إلا شذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل فى تلك الرسائل التى تعدّ من ذخائر الأدب العربى، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير من المتأدبين، فانه لم يهب شطرا من منثوره فى الدفاع عن فكرة فلسفية، أو نزعة وجدانية، ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص، ولم يسم به الى سماء من سموات الفن الخالص الذى ينسينا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمى أنه أشعرنا بوجوده، ووقفنا بجدّه أمام شخصية قوية لها فى الحياة مطامع وأهواء، ولها فى عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا، ولكننا لا نكتفى به . فان الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق والجمال .

(١) القند : عسل قصب السكر . (٢) ص ١١

١٩ — ولقد انحاز الخوارزمى الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه. وفى صف هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دلتنا على أنه رجل جِلاد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب فى روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بنى أمية و بنى العباس . ونستطيع أن نقول إنه فى هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها فى الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشَر فى زمرة المجاهدين فى الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهنات حين عرض للخلفاء فى ألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى فى أرحام القيان[1] .

ومن الحق أن نقرّر أن الرسالة المطوّلة التى بعث بها الى الشيعة فى نيسابور تبدو لمن يقرؤها وكأنها صاعقة تصب على رءوس من عادى من الرؤساء، وفى هذه الرسالة يبدو الخوارزمى وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية النضناض . وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكرمه ولؤمه، وشهده وصابه ، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : " فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعوّدناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد انتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة : فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر[2] " . وهو تارة متحزب حقود يعدّد آثام الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس ويذكر ما اقترفوا من الجرائم فى تقريب المغنين، و إقصاء الفاطميين، وله فى ذلك لذعات مسمومة يعفّ قلمنا عن تفصيل ما انطوت عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء .

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير الى أن فى تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوّح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، و رواها مثل الواقدى و وهب بن منبه التيمى ومثل الكلبى والشرقى بن القطامى والهيثم بن عدىّ، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للحط من علىّ بن أبى طالب، وعرفنا

(١) ص ١٣٣ من رسائل الخوارزمى . (٢) ص ١٣٠

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَن قُطع لسانه ومُزق ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقى فصار لذلك من الشخصيات المجهولة فى تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البخترى ومروان بن أبى حفصة الأموى وعبد الملك ابن قُرَيب الأصمعى وبكار بن عبد الله الزبيرى وأبا السمط بن أبى الجون الأموى وابن أبى الشوارب العبشمى، هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتحامل على آل أبى طالب [1] .

وهذا كلام ليس جديدا فى ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمى مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها فى تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ — قابوس بن وشمكير

١ — فى سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربيــة ببغداد، فمن الواجب فى رأس هــذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتى الفاضلين نعمان الأعظمى ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هــذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعــالى قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ — أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريبا لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان. قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالى". ولكن فتنــة نشأت فى الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيــه فخر الدولة فى السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن آنهزم فخر الدولة ولجأ الى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضــد الدولة الذى أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفرّ قابوس لاجئــا الى خراسان . وبعد سنتين آستطاع فخر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس فى جملته، ففكر قابوس فى الآستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطل لنية كان يخفيها الوزير آبن عباد . فلما توفى فخر الدولة سنة ٣٨٧ أعدّ قابوس حملتين عسكريتين واستردّ ملكه سنة ٣٨٨، ولكن عصره كان مملوءا بالقلاقل والآضطرابات فانتهى الأمر بخلعه وتولية ابنــه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذى أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ — كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاســية التى عاناها فى حياته السياســية أثر بليغ فى طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذى يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عبــاد الأندلسى ، فكلاهمــا بكى ملكه وحظه ومجده ، ولننظر كيف يقول قابوس حين آستولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى — وأصبح جمعى فى ضمان التفرق
فقد بقيت لى همة ما وراءها — منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مركبا — وتكره ورد المنهل المترنق
فان تلفت نفسى فلله درها — وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدبين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيّرنا — هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ — وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا — ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد — وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرّض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفل — وقصرى فضل ما أرخيت من طِوَل
أسرفت فاقتصدى، جاوزت فانصرفى — عن التهور ، ثم امشى على مهل
مخدمون ولم تخدم أوائلهم — مخوّلون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى — فأحس منها فى الفؤاد دبيبا
لا عضو لى إلا وفيه صبابة — فكأن أعضائى خلقن قلوبا .

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الانشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد عنى بدراسته من المتقدمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود اليها الأدباء بالنقد والتمحيص، لأنها مكملة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المجنَّح كقوله :

" صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه " .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشىء له جناحان من قِبَل أن فى أوّله سجعا وفى آخره سجعا و بينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أوّل القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أوّل القرينة الثانية .

ومنها الممثل كقوله :

" ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، و يأذن لطوالع معاليه بالأفول " .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

" أين الطبع الذى هو للصُّدود صَدود، وللتآلف ألوفٌ ودود " .

وسماه كذلك لأن ٱسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، والتآلف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

" اذا حالف، فأحسبه قد خالف، واذا أعار، فأحسبه قد أغار " .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : فحالف وخالف فى صورة واحدة ، وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وٱنظر كيف علّق على قوله :

" قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار " .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثّل سواد الليل بالمداد، و بياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لها نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتفى به قرائحهم ، فإنى قد أجلت الفكر فى عدّة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النفور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع[1] .

وفى مكان آخر يقول :

" وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مباين، فى الفصاحه والعذوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على ألسنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر، ولا من المعرفة البشرية ،والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوة العلوية[2] " .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة، ورأيناها حقا من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعا من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بها المتقدمون . وكل ما تمتاز به هو شدّة الأسر، وآطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن إن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثّال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن نقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا مايجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلا قول الثعالبى فى الزوزنى الكاتب :

" يغرس الدر فى أرض القراطيس، وينشر عليه أجنحة الطواويس " .

فان هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حللت مافيها من آستعارة لأعياك الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبى أيضا فى أبى الفرج الببغا :

"له كلام، بل مدام، بل نظام من الياقوت، بل حب الغمام" .

(١) ص ٢٦ و ٢٧ من كمال البلاغة . (٢) ص ٣٢

فان الانتقال من هـذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عنـد الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقـد رسائل قابوس من هـذه الناحية وجدناه يحلّق أحيانا ويسـفّ حينا . فمن المستجاد له هذه العبارة :

"ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، و يأذن لطوالع معاليه بالأفول" .

فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن آنظر قوله فى وصف نثر ابن العميد :

"ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيرى زئيره ، وما ساجلت ببعيثى جريره[1] " .

فان الربط بين هـذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم آنتقل فقابل بين الصفير والزئير ، وأبعد من هذا انتقاله فى قوله "وما ساجلت ببعيثى جريره" فان القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير فى تصوّر هـذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنهـا إشارة إلى البعيث وجرير من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

"حتى يثمر ما أزهر من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل[2]" .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه فى عالم الوجود . ولكن آنظر قوله :

"الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمنها العجائب" .

فان الآنتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

"أمن صخر تدمر قلبـه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميّله الإعتاب ، أم من صفاقة الدهر مجنّ نُبوّه فقد نبا عنـه غَرب كل حِجَاج ، أم من قساوته مزاج إبائه فقـد أبى على كل علاج[3]" .

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٧ (٣) ص ٥٣

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات ، ولكن أنظر قوله :

"فأما ذلك المهم فما أحراه بأن يلجم فيه مسرج وعده ، وينتج بالنجح ماضمنه نسج يده"[1] .

فان هذه الأخيلة قليلة الأئتلاف .

٧ — ومن الحق أن أقرر أنى أجد صعوبة فى البحث عن مَقاتل هذا الكاتب الفنان ، فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التآلف والاتساق . ويعجبنى قوله :

"فمن أين للضباب ، صوب السحاب ، وللغراب ، هُوِىّ العقاب"[2] .

وقـــوله :

"ولم لا يســترد عازب الرأى فيعلم أنه ما لم يعاود الصــلة مأفون ، ويستعيد غائب الفكر فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون ، أظنه يقدّر الاستغناء عنى هو الغنى والغَناء ، ولا يدرى أن الالتواء علىّ هو البِلى والبلاء ، ويخال أنه مكتف بجاهه وعرضه ، ولا يشعر أنى كلٌّ لبعضه ، وطول فى عرضه ، وأن قوة الجناح بالقوادم والخوافى ، وعمل الرماح بالأسنة والعوالى"[3] .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيهـا الغلو والإسراف ، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليهـا نسمة من القبول . وإليك قوله :

"بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء ، وجسّم الهباء ، وفصّل تراكيب السماء ، وألف بين النار والمـاء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر ، وكفاهما عناء السـير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع ألســنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض الشـيطان بمعرض الانسان ، وكحّل[4] الحور العين بصـور الغيلان ، وأنبت العشب على البحار ، وألبس الليل ضوء النهار"[5] .

---

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .
(٥) ص ٥٥

٨ — وهذه القطعة التى نعدها من المبالغات والتهويلات، ألا تدلنا على شىء ؟ إنها لتدلنا على أن الانسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم فى الأرض والسماء ، والماء والهواء . إن هذا الكلام الذى نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس، أو قاله ملك انجلترا اليوم، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف . فقد آستطاع الانسان فى هذا الجيل أن يكمد ضوء الشمس والقمر، وأن يسخر الهواء ، وأن يؤلف بين النار والماء ، وأن يسد مناخر الرياح، وأن يطبق أجفان البروق ، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال . وقد ألبس الليل ضوء النهار، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار .

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورا عجيبة من أحلام الانسانية . فهذا الطيران الذى أصبح قوّة القُوَى فى هذا العصر كان حلما يتردّد كثيرا فى أخيلة الأقدمين؛ فقد تصوروا لسليمان بساط الريح ، وقدّروا أنْ سيكون فى الجنة طيارون، ولم يتمثلوا الملائكة إلا مجنّحين، لأنهم كانوا يرون القوّة الكاملة فى أن يطير الانسان من أفق إلى أفق ، ومن قطر إلى قطر، كلما بعثته الدواعى وأهابت به الظروف .

فما نراه مبالغة فى كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانسانى الذى قدّر ما ينتظره من البأس والقوة فى عالم الوجود . ولننظر كيف يقول فى نفس الرسالة التى اقتطفنا منها القطعة السالفة :

” كيف يُزَهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمتثل، ويرقب نهيه فيعتزل؟ وكيف يُهَجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت فى الانقياد له كخدمه ؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجدبت ؟ وكيف يستغنى عمن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالى والأيام، فمن هرب منه أدركه بمكايدها، ومن طلبه وجده فى مراصدها ؟ وكيف يُعرَض عمن تُعرِض رفاهة العيش بإعراضه، وتنقبض الأرزاق بآنقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجد إذا تهلل؟ وكيف يزهى على من تحقر فى عينه الدنيا، ويرى تحته السماء العليا، قد ركب عنق الفلك ، وآستوى على

ذات الحُبُك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وأثرت بمآثره أوضاح الثرى"[١] .

وإنى لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التى مرت بذهن الانسان الغابر، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التى تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرةٌ فى كتاب ألف ليلة وليلة ، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هى اليوم أيسر ما يأتى به الانسان فى أعوام الحروب . وستتبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتمسى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح . وسينتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التى يتصورها الإنسان الحديث . ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم فى جميع أدواره التاريخية ، وعز عليه أن تكون أيامه فى هذه الدنيا هى كل ما يملك من حظوظ الحياة ، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذى تعلق بأهدابه الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفانى الذى يزعجه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات. وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقررت فى ثقة مصحوبة بالرفق والعطف أنْ سيكون للانسان حياة أخرى هى أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأنْ سيكون له جنة ونعيم، ورَوح وريحان . ولا أكتم القارئ أنى أعجب كيف يعيش الناس فى بعض أنحاء الصين فى ظلال المعتقدات الجافة التى تنذر بأنْ لا حياة بعد الموت، وأنْ لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه .

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الاثار المادية والمعنوية التى يفنى الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود . والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

(١) ص ٥٤

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم فى أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، علّهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر ، وأنا أكتب هـذا ، أن دنونزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق فى الأجواء ، ولم ذلك؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التى حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفـة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قشوراً من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسى بعض الألم فى الأمعاء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قِصَر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبيـة التى لا تقدّم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبداوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمامى إلا هـذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود الى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به ، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب ، حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه فى العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذى يفضى بالانسان الى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم الفانى الى عالم خلود . وانظر كيف يقول :

"إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ... ولو لم يكن لنا هذا التدرب والممارسة للمشاهدات ، ثم القياس بها على المغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان ما على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التى شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه ان كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارى بحيوان لم نشاهده فى صورته الخاصة به . فجائز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارى جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول فى الشرف والكمال ، فلا توجد فى شىء من أحواله حال تنافى الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، منزها عن الزوال والانقضاء[(١)]" .

وفى رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارى عز شأنه ، ولا ينبغى أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : " هلا فعل ذلك فى الأول ؟ " لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيرا مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فنتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فأنا أكتب هذا فى غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

---

(١) ص ٩٢

الستائر، لا يهدينى فيها غير الكتاب والمصباح، وليس لدىّ من وسائل التحقيق غير الخيال . ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هى قارة، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت، فان هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقا فى عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدرى القارئ فى كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنبيق؟ وهل يعرف فى كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكوّن لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفترق فى حيوانها ونباتها عن أفريقا بعض الافتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذّ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر، أبيض الصدر، كأنه يستعد لحفلة ساهرة! ففى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المترامى الأطراف، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تحوّل بها الموجودات من وضع إلى وضع ،ومن حال إلى حال، فى مدى مالا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال .

اذن فلنسمح للانسانية أن تحلم بأنْ سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ — وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هى تقديره لنفس الحيوان، فعنده أن قوة الفكر والتميز كامنة فى جميع الحيوانات، ومامن أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه فى طلب المعاش، والاحتراز من المضار والآفات .وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته فى دفع المضار عن نفسه وحريمه، ومستغنيا فى تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وآعتاده، ثم ماكان بجبلته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا الى التزين بزينة متخذة من خارج ، وانما يغنيه حسن شعره فى مختلف ألوانه، وأنوار ريشه فى صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب ، ثم ماكان من ابتداء مولده إلى منتهى أمده على طبع واحد: لا يتبدّل حالا بحال، ولا يتغير بين غدو وآصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

”كل هذا الذى ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، فى سائر الحيوان موجود، وفى الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة ، ومعرفة أفلاطون وأرسطاليس ، وفيثاغورس وانبذقليس ، وأرشميدس وبطلميوس ، وهرمس وواليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقىّ يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم ، أن بعر الظباء طب لهذا الحكيم العالم ، وما يتولد فى أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف فى الناس معدوم“ [1] .

ولقابوس آراء فى الفلك والنجوم هى صورة لمعارف أهل عصره فى هذا العلم ، يضيق عن نقدها المجال ، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك ، والعلم يمضى بأقدام راسخة فى تحقيق أوهام الأولين ، وفوق كل ذى علم عليم [2] .

---

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما فى آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهى عنده منقصة للآباء . ومن رأيه أن التكنية رسم حدث فى أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال اذا زار أحد الآباء آبنه : جاء أبو فلان وأبو فلان ، أى أن هذا والد فلان وذاك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه ، فلا يعترض الاشتباه فيه ؛ فلما دارت الأيام على ذلك ، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس الى هذا أن التكنى ”ترتب برتبة أهل الذمة ، واستعمال لرسوم تلك الأمة . وقبيح سمج بالمسلمين ، أن يكونوا بسماتهم متسمين“ أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب كنية ، والكنية هى التى ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكرى والحسن بن عبد الله العسكرى فهما متساويان فى التسمية وتفرق بينهما الكنية : فأحدهما أبو أحمد ، وثانيهما أبو هلال .

= ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا فى أصل التكنية ، ولكن لا مرية فى أنها صارت عادة عربية . فان الجاحظ يحدّثنا أن كل من اسمه علىّ صار يكنى بأبى الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبى حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدّثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكتنى بأبى محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبى الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عنـد العرب وعند الفرس وأن ملوك بنى ساسان لم يكنها أحد من رعاياها قط ولا سماها فى شعر ولا خطبة و إنما حدث هذا فى ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وغلظ تركيبها كانوا اذا أتوا النبى صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والكنية مألوفة فى شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء فى النـاس والكنى ... كثيرا ولكن ميزوا فى الخـلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبى صخر الهذلى :

أبى القـلب إلا حبها عامرية ... لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد النـاس فى العصر الحـاضر ، وأهل مصر يكنون الرجل أحيـانا باسم أبيـه لا باسم ابنـه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف فى مصر : فكان السيد أحمـد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه فى ليلة من ليالى رمضان فى غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكناهم أبلغ الفـرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها فى ذلك البيت معنى من معانى التشريف .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فان انتقالها الى الخلق الاسلامى فى هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعانى فى كل شيء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيـال !

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ — تلك شخصية جذابة اَمتُحنت بالحوادث،وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدى الفيلة لولا شفاعة الشافعين، وظل يعانى أحداث الأيام الى أن توفى فى شوّال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ — وأوّل ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلا ألوفا حلو الشمائل بليغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئيا ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل — والصابئون يحرمون الفول والجمام[1] — ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للسلمين وحسن عشرة منه لهم، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه[2] . وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق، كريم الطبع، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفّع قلبه عن إضمار البغض للسلمين . وفى حفظه القرآن كفايةٌ لعصمة روحه من وَضَر الشرك وقبح الزيغ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصداقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

---

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم فى ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبل النفس، وعظمة الروح . فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التى يوجبها ٱختلاف العقائد، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجلّ من أن يعادَى ويراه لذلك جديرا بالحفظ والإجلال .

٣ — وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف فى عصره، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدّرنا الظروف التى جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وٱفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف (١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم نحيزته وطهارة قلبه أكبر الأثر فى التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا، وهى فى طولها محكمة النسج، جيدة السبك، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق .

ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور فى تلك القصيدة جانبين من أهم الجوانب فى بكاء مثل ذلك الفقيد : الأوّل حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب فى ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صوّر حزنه وتفجعه فى قوله :

بُعـدًا ليومك فى الزمان فإنه ... أقذى العيون وفتّ فى الأعضادِ

لا ينفد الدمع الذى يبكى به ... ان القلوب له من الأمداد

أعزِزْ علىّ بأن أراك وقد خلت ... من جانبيك مقاعد العواد

أعزز علىّ بأن يفارق ناظرى ... لمعان ذاك الكوكب الوقاد

أعزز علىّ بأن نزلت بمنزل ... متشابه الأمجاد والأوغاد

(١) ص ٣ من مقدّمة الديوان .

الى أن يقول :

يا ليت أنى ما ٱقتنيتك صاحبا ... كم قُنية جلبت أسى لفؤادى

برد القلوب لمن تحب بقاءه ... مما يجر حرارة الأكباد

ويقول من لم يدر كنهك إنهم ... نقصوا به عددا من الأعداد

هيهات أدرج بين برديك الردى ... رجل الرجال وأوحد الآحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا ان لم يكن ... شرفى مناسبه ولا ميلادى

ان لم تكن من أسرتى وعشيرتى ... فلأنت أعلقهم يدا بودادى

لو لم يكن عالى الأصول فقد وفى ... شرف الجدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنافث بيننا بمعاود ... أبدا وليس زماننا بمعاد

ضاقت علىّ الأرض بعدك كلها ... وتركتَ أضيقها علىّ بلادى

لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ... ومن الدموع روائح وغوادى

سلّوا من الأبراد جسمك وٱنثنى ... جسمى يسل عليك فى الأبراد

إن الدموع عليك غير بخيلة ... والقلب بالسلوان غير جواد

سوّدت ما بين الفضاء وناظرى ... وغسلت من عينىّ كل سواد

رىّ الخدود من المدامع شاهد ... أن القلوب من الغليل صواد

ما كنت أخشى أن تضن بلفظة ... لتقوم بعدك لى مقام الزاد (١)

وفى هذه القطع التى ٱخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين، وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة (٢)، وٱستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلا

(١) تجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صابئا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته، ولننظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ ... مرهوبة الإصدار والايراد
تدمى طوائفها اذا استعرضتها ... من شدة التحذير والإبعاد
حمر على نظر العدو كأنما ... بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطلٌ ... أن ينهزمن هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرون إذا ونى ... وعنان عنق الجامح المتمادى
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ ... حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحدوثة ورفعة شأنه بين النابهين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبى . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبته، وأنا ان مدحتك تنكّر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك، لأنى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمست ، وما أريد منك منالا، ولا عن شعرى عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم[1]، فكان المتنبى بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبى وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

(١) ص ٣٤٦ ج ١ ياقوت .

٥ — وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوقا أو تشرفا، ولكن الصابى آحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال[1].

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكتّاب والشعراء، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتّاب الدنيا فى عصره. وفى أخبار الصاحب اعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب[2].

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الرجع والحنين. لقد عرف حلو العيش ومره، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس، وتلك أزمة يعانيها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتتبدل النفوس. ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء:

" لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال، لضاق علىّ فيه المرتكض والمجال، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم، طائفتان: طائفة مجاملة ترى أنها قد وفتك خيرها، إذا كفتك شرها، وأجزلت لك رفدها، إذا أجنبتك كيدها، ومكاشفة تنزو إلى القبيح نزو الجنادب، أو تدب دبيب العقارب، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق، وإن غولطوا تلثموا بلثام النفاق، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام:

أيارب كل الناس أبناء علة	أما تعثر الدنيا لنا بصديق!
وجوهٌ بها من مضمر الغل شاهدٌ	ذوات أديم فى النفاق صفيق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهم	قذى لعيون أو شجا لحلوق
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحناء حر حريق
اخو وحدة قد آنستنى كأننى	بها نازل فى معشر ورفيق
فذلك خير للفتى من ثوائه	بمسبعة من صاحب وصديق[3]

(١) ص٧٣٧ ج ١ ياقوت. (٢) ص ٣٣٥و٣٣٦ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠و٣٤١ ج ١ ياقوت.

٦ — وبمناسبة هذا الشعر نقرر أن الصابى يمتاز بين معاصريه من الكتّاب برقة الشعر وعذوبته، ويكاد يمر على أنه شاعر فحل، ولهذا أهميته فى تقدير كفايته النثرية، إذا لاحظنا أن النثر الفنى الذى أُغرم به معاصروه هو نثر شعرى، لا يختلف عن الشعر إلا فى الوزن وفى بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله فى القد الرشيق يشبّه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد   خفنا عليك به ظلما وعدوانا
الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا   وأنت أحسن ما نلقاك عريانا

وقوله فى أثر العناق :

الى الله أشكو ما لقيت من الهوى   بجارية أمسى بها القلب يلهجُ
اذا آمترجت أنفاسنا بالترامنا   توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة   ووجدىَ ما بين الجوانح يلعج
أضفت الى النفس التى بين أضلعى   بأنفاسها نفسا الى الصدر تولج
فان قيل لى آختر أيما شئت منهما   فإنى الى النفس الجديدة أحوج

وبديع الزمان فى المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ، فهو عندهم : " من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره "[1] وكذلك كان الصابى : فهو يجيد فى الصناعتين إجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

---

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابى

١ — أما نثر الصابى فهو فى الأغلب موضوعىّ، لأنه فى أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التى يخدمها، ويندر أن يتحدّث عن نفسه . وهى مهمة دقيقة لا يوفّق الى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتّاب الفحول . وأوّل ما يروعنا من نثر الصابى فناء روحه فى البيئة الاسلامية التى يعيش فيها، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدّث بلغته ، وتجرى تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن ، وهو فى هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : "لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تمثله العيون بنواظرها ، ولا تخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظلّ، وخالق الأرض وما تقلّ، الذى دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبين بجلىّ برهانه ، عن خفىّ وجدانه، وآستغنى بالقدرة عن الأعوان، وآستعلى بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع، الممتنع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذى لا يزول ولا يحول، العادل الذى لا يظلم ولا يجور ، الكريم الذى لا يضن ولا يبخل، الحليم الذى لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم فآدعوه مخلصين له الدين» [١] .

٢ — ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابى يستق من نفس المنبع الذى آستق منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتّاب ذلك العصر كانوا يميلون الى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنبيائه خصوصا فى المواطن التى يخاطبون فيها الجماهير . وفى ذلك دلالة على أن الروح الدينى كان لا يزال حافظا لبعض سحره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بألباب الرجال .

---

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابى . وانظر مثل هذه الفقرة فى ص ٤٣ و ٤٤

٣ — وورود نثر الصابى فى شئون ادارية ومشا كل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبو عنه ميول القراء فى العصر الحديث . فان الكتابات التى تعنى بمشا كل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها فى الأغلب حظ مقالات الصحف التى تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا ، وانما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابى كذلك لا تنفع فى جملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهى صريحة فى أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وانما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التى وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التى يبطش بها ، وعدته التى يعوّل عليها ، ويأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد فى ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة فى أعناقكم ، وجعلكم فى أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته والاخلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين واعملوا عليه واعتمدوه وانتهوا اليه“ [1] .

٤ — فاذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التى كتبها الصابى على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابى وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية فى يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه ... وكاتبه الكافى السديد الموفقُ
أؤازره فيما عرا وأمده ... برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بى نهج العلا وهو دارس ... ويفتح بى باب الهدى وهو مغلق

(١) ص ٢٠٨

فيمناى يمناه ولفظى لفظه | وعينى له عين بها الدهر يرمق
ولى فِقَر تضحى الملوك فقيرة | اليها لدى أحداثها حين تطرق
أردّ بها رأس الجموح فينثنى | وأجعلها سوط الحرون فيعنق
فإن حاولتْ لطفا فماء مروّق | وإن حاولت عنفا فنار تألق (١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للملوك يحز فى أعدائها | بظبىً من القول البليغ حِداد
من للممالك لا يزال يلمها | بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزل رماحها | ويرد رعلتها (٢) بغير جلاد
من للسوارق يسترد قلوبها | بزلازل الإبراق والإرعاد (٣)

٦ — وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابى ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلا فنانا يحكم القول، ويجيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضا، وهى غريقة فى لجج إسهابه وتطويله هنا وهناك ، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

"وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان (٤) ... فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمخنق، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق، فلما آستعرت الملحمة، وعلت الغمغمة، ودارت رحى الحرب ، واستحر الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) اليتيمة ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرعلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف الرضى . (٤) البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير، و يقال التقت حلقتا البطان للأمر اذا اشتد .

فى الهزيمة، وآعتدّوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وآستلحمتهم السيوف، واحتكمت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم الثار، وعجل الله بأرواحهم الى النار" (١).

٧ — وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هى أنه كان خبيرا بنفوس أهل عصره، وكان لذلك موفقا فى الوصول الى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء، و إرهاب من يكتب فى زجرهم من العصاة والثائرين، وكان يعرف مايصح أن يسمى " سياسة القول " يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه "لغة المنشورات الرسمية" فيما كتب عن المطيع لله الى الوزير المهلبى سنة ٣٥١ :

" واذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها. وكانت أوامره — يريد أمير المؤمنين — فيه خارجة اليك والى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله، والذين يكتفون بالإشارة، ويجترئون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ و إيضاح المعنى الى الحدّ الذى يلحق المتأخر بالمتقدّم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما اذا كان ذلك مما يتعلق بعلامات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولايسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، الى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز فى المعرفة مذكّرا، ولمن تأخر فيها مبصّرا، ولأنه ليس فى الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورها، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة فى مخاطبة جمهورها، حتى اذا آستوت الاقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به، وفقه ما دُعُوا اليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين، ولا آسترابة المستريبين، اطمأنت قلوبهم، وآنشرحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، وآستمر الاتفاق فيهم، وآستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة فى المنهاج، ومحروسون من جرائر الزيغ والآعوجاج، فكان الانقياد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلّدون مسلّمون، وطائعون مختارون، لا مكرهون مجبرون (٢).

(١) ص ٥٠ (٢) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٨ — على أن فى الرسائل التى كتبها عن الخلفاء فقرات تنحو منحى الرسائل الاخوانية، وتجرى فيها المعانى طلقة رقيقة كأنفاس العتاب، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

"أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألّا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب فى الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتمهدة عنده لك، أن يجم صفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يعيبها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها، واليد الباطشة التى تحفظ عما يدويها" (١).

غير أنى ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومى فى العتاب :

لا أجازيك من غرورك إيا ... ى غرورا وقيت سوء الجزاء

بل أرى صدقك الحديث وما ذا ... ك لبخل عليك بالإغضاء

أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء

ومن المعانى الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوجة بعدة الدولة أبى تغلب إليه بالموصل :

" قد توجه أبو النجم بدر الحرمى وهو الأمين على ما يلحظه، الوفىّ بما يحفظه، نحوك ياسيدى ومولاى أدام الله عزك بالوديعة، وإنما نقلتُ من وطن الى سكن، ومن مغرس إلى معرس، ومن مأوى برّ وانعطاف، إلى مثوى كرامة وإلطاف، ومن منبت درّت لها نعماؤه، إلى منشأ يجود عليها سماؤه، وهى بضعة منى انفصلت إليك، وثمرة من جَنَى قلبى حصلت لديك، وما بان عنى من وصلتُ حبله بحبلك، وتخيرت له بارع فضلك، وبوّأته المنزل الرحب من جميل خلائقك، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك، ولا ضياع على ما تضمنه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك" (٢).

(١) ص ٢٠١ (٢) ص ١٩١ ج ١ يتيمة .

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابى استمدّ روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون فى ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه[(١)] .

٩ — ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظه الثعالبى على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابى كان يجتهد فى آستغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمنثور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم .

١٠ — وبالرغم من المؤاخذات التى واجهنا بها نثر الصابى فإننا نعترف بأنه نجح فى ناحيتين :

الأولى — ظهوره بمظهر التفوّق فى لغته الفنية الزاخرة التى وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور فى الموضوعات الكثيرة التى جرى فيها قلمه ، فاننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظا إلا فى أحوال قليلة تغتفر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابته مع مافيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية — سعة حيلته فى التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد مايصلح فى التخاطب بين تلك القوى المختلفة التى كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشراك ، وكان يزيد فى حرج الصابى ودقة موقفه أنه كان مسئولا عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثر قوىّ فى رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه فى جميع الظروف : فقد وقعت فى إحدى رسائله لفظة عدّها عضد الدولة تعريضا به ، وأسرّها فى نفسه إلى أن ملك العراق فحبسه وآستصفى أمواله[(٢)] . وقضى لذلك بقية أيامه فى عسر دائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحياة .

---

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة . (٢) ص ٣٢٧ ج ١ ياقوت .

١٢ – أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصبواته — ضجره من المرض — وصاياه المحزنة

---

١ — " ابن شهيد " اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبى البرابر ، وقيل إنه رومى[(١)] . وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموى ، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير[(٢)] ، وكان كذلك من أبرع الشعراء ، وهو الذى يقول :

ترى البـدر منها طالعا فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب

بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى ... ومفعمـة الخلخال مقعمة القلب[(٣)]

من اللائى لم يرحلن فوق رواحل ... ولا سرن يوما فى ركاب ولا ركب

ولا أبرزتهن المدام لنشـوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب[(٤)]

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدّر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك ، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء[(٥)] ؛ ولكنه انقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه ، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

---

(١) نفح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن . (٢) نفح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الأليتين ، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم . (٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرائر ما كنّ يجتمعن على الشراب . (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ — كان هم أبي عامر أن " يعيش " ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك[1] .

والعيش فى عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب؛ فالحياة عنده وجه أصبح ، أوكأس مترعة، أو رسالة أنيقة ، أوقصيدة بديعة ، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهى لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل .

وماظنّ القارئ برجل يبيت فى الكأس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول فى وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شممت بديره ... خمر الصبامزجت بصرف عصيره

فى فتية جعلوا السرور شعارهم ... متصاغرين تخشعًا لكبيره

والقَس مما شاء طول مقامنا ... يدعو بعود حولنا بزبوره

يهدى لنا بالراح كل مخفّر[2] ... كالخشف خفّره التماح خفيره

يتناول الظرفاء فيه وشربهم ... لسلافه والأكل من خنزيره[3]

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح فى كناس) فتنصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طيّ القناع ... دعاها إلى الله بالخير داعى

سعت خفية تبتغى منزلا ... لوصل التبتل والانقطاع

فجاءت تهادى كمثل الرءوم[4] ... تناغى غزالا بروض اليفاع[5]

وجالت بموضعنا جولة ... فحلّ الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب نفح الطيب (بالمنهمك فى بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد فتى الطرائف ، كان بقرطبة فى وقته و براعة ظرفه خليعها المنهمك فى بطالته ، وأعجب الناس تفاوتا بين قوله وفعله ، وأحطهم فى هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه) ص ٢٦ ج ١

(٢) المخفر : الممنوع ، والخشف بالتثليث ولد الظبي .

(٣) راجع نفح الطيب ص ٣٤٥ ج ١

(٤) الرءوم : الظبية الألوف .

(٥) واليفاع ما ارتفع من الأرض .

أتتنا تبختر فى مشيها ... فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها ... فناديت يا هذه لا تُراعى
غزالك تفرق منه الليوث ... وتنصاع منه كماة المصاع [1]
فولت وللمسك فى ذيلها ... على الأرض خط كذيل الشجاع [2]

٤ — وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إن الكريم إذا نالته مخمصةٌ ... أبدى الى الناس شبعا وهو طيان [3]
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا ... والوجه غمرٌ بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألمتُ بالحب [4] حتى لو دنا أجلى ... لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعت به [5] ... ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح الناس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته ، وأشدهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له فى الكرم والجود آنهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق [6]) .

ومن العجيب فى تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف ؛ فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته [7]) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال!

---

(١) الكماة جمع كمىّ وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .

(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفى رواية أخرى (ريا وهو ظمآن) : أنظر هامش النفح ص ٤١٠ ج ١

(٤) وفى رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفى رواية أخرى « وذادنى كرمى عمن ولهت به » وهى أفصح من الرواية الثالثة «وعاقنى كرمى» . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١

(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمته فى شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل فى طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق فى حياته الشخصية : فلم يكن لزوجته ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تفرّد بالكمال !

٥ — قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وآمتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال آبن بسام : " ولما طال بأبى عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعد له حركة ولا تقلب، وكان يمشى الى حاجته على عصا مرة، وآعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه[1] " .

فلنتصوّر قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله فى ذلك :

أنوح على نفسى وأندب نبلها	إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله فى كل حالة	علىّ وأحكاما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا	على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة	كشفت ودار كنت فى المحل وبلها
ورب قريض كالجريض[2] بعثته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو	أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلامٌ من فتى عضه الردى	فلم ينس عينا ثبّتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهوّن ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصحفى قال :

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الريق ، وهى فى نسخة الذخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علته التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تجني بعض إخواني عليّ ونفاره عني، فقال: سأسعى لإصلاح ذات البين. فاتفق لقائي لذلك المتجني مع بعض إخواني وأعزهم عليّ، فلما رآني موليا عن ذلك الصديق أنكر عليّ وسأل عن السبب الموجب. فأخبره وزادا في مشيهما حتى لحقاني، وعزم عليّ في تكليم صاحبي، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما، حتى جئنا دار أبي عامر، فلما رآنا جميعا ضحك وقال: من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا: قد كان ما كان! فأطرق مليا ثم أنشد:

من لا أسمي ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدري كيف تداوى مواضع البلوى
ولي حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفي يعدها دعوى (١)

وحدث المصحفي أيضا قال: دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعي غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام: هجوتني يا أبا عامر دون أن تتثبت في أمري، ولا تعلم من سري ما يوجب ذلك، فقال: عليّ تكفيره بما يمحوه من القراطيس والصدور. وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا اليه فأنشدنا:

ألا بأبي زائر في العتم بوجه يجلّي سواد الظُّلم
تكتّم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير الينا به كما جاور البان رطب العَنم (٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات:

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيدة بقية طويلة يجدها القارئ في الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه ... وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة ... بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلىّ من ذاق المنية مرة ... فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان ٱرتحالى ولم أفز ... قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغٌ عنى ابن حزم وكان لى ... يدا فى ملماتى وعند مضايق
عليك سلام الله إنى مفارق ... وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى اذا ما فقدتنى ... وتذكار أيامى وفضل خلائق[1]

٦ — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكَى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم ... وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى ... بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى ... أقلّوا فقدما مات أبناء عامر
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب[2] ... بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر ... قوىّ ولا للضعف مهجة صابر
يحل عُرى الجبار فى دار ملكه ... ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منيتى ... يصدق فيها أولى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى ... هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركنى والموت يحفر[3] همتى ... ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًّا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو ، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد ، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

---

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الابيات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة .
(٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم ❊ وخُصَّ عمـرًا بأزكى نور تسـليم

وقـل له يا أعز النـاس كلهـم ❊ شخصـا علىّ وأولاهم بتـكـريم

الله جارك من ذى منعـة ظفرت ❊ منـه الليالى " بإلف " غير مظلوم

ما كان حبـك إلا صـوب غادية ❊ طيبـا وحاشا بحـبى فيـك للوم

إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا ❊ فقد رضيت حمـاك الله تقـديمى

عشـنا رفيقين فى بر الهوى زمنـا ❊ حـتى زقا بنوانا طـائر الشـوم

فشتتت نـوب الأيام ألفتنـا ❊ قسرا ولم يغنهـا طـبى وتنجيمى

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شـعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيهـا ودّع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أسـتودعُ الله إخوانى وعشرتهـم ❊ وكل خِرق (١) الى العليـاء سـبّاق

وفتيـة كنجـوم الغـرب نيّرهم ❊ يهـدى وصابهمو يردى باحراق

وكوكـبًا لىَ منهم كان مغـربه ❊ قلبى ومشرقه ما بين أطـواقى

الله يعـلم أنى ما أفارقـه ❊ إلا وفى الصـدر منى حر مشـتاق

فان أعش فلعل الدهر يجمعنا ❊ وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى

لا ضـيع الله إلا من يضـيعه ❊ ومن تخلّق فيـه غير أخلاقى!

قـد كان بردى إذا ما مسنى كلف ❊ لا يشـلم الحب آدابى وأعراقى

إنى لأرمقـه والموت يضـغطنى ❊ فأقتضى فرجـة ترتـد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجنب صـديقه أبى الوليد الزجالى، ويكتب على قـبره فى لوح رخام هذه الكلمة :

" بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه معرضون. هذا قبر أحمد بن عبد الملك ابن شهيـد المذنب، مات وهو يشهـد ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبـده

(١) الخرق بالكسر : السخىّ أو الظريف فى سخاوة ، والفتى الحسن الكريم الخليقة .

ورسوله ، وأن الجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور . ومات فى شهر كذا من عام كذا " .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود!
فقال لى : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا فى ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا سحابهُ ثرةً تجود
كلٌّ كأن لم يكن تقضَّى وشؤمه حاضرٌ عتيد
حصَّله كاتب حفيظ وضمه صادق شهيد
يا ويلتا إن تنكبتنا رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولًى قصَّر فى شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدّة السَّوق ، فيسَّر الله عليه، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شُهد على قبره من البكاء والعويل .

١٣ – نثر ابن شهيد

١ – اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء، فقال ابن حيان : "كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر فى البلاغة رسنه، قلت عبد الحميد فى أوانه، والجاحظ فى إبانه، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لما شاء نظمه ونثره فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب، ولا اعتناء بالطلب، ولا رسوخ فى الأدب، فانه لم يوجد له – رحمه الله – فيما بلغنى بعد موته – كتابٌ يستعين به على صنعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان فى تميق الهزل والنادرة الحادّة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال، برز فيها شأوه، وأبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدّته مع رقة حواشى كلامه، وسهولة ألفاظه، وبراعة أوصافه، ونزاهة شمائله وأخلاقه، آية من آيات خالقه[1]" .

وقال الثعالبى : "فنثره فى غاية الملاحة، وشعره فى غاية الفصاحة[2]" .

وقال ابن بسام : "وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة، ورسائله الباقية الخالدة، ونوادره القصار والطوال، وتعريضاته السائرة الأمثال، ما يحل له الوقور حُباه، ويحن معه الكبير إلى صباه[3]" .

وقال الحناط وهو يهاجمه : "الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظماً، شامخا بأنفه،

---

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عِطفه، مخيلا أنه أحرز السبق فى الآداب ، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ فى قَرَن ... لم يستطع صولة البزل القناعيس"[1]

وهـذه الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبى والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حينا من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بمـا اعتقده من إجادة النظم والنشـر ، والتفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف مافيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانئ الأندلسى فأجاب : "رحًى تطحن قرونا" وهو جواب حـذق وذكاء، فضـلا عما فيـه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقـلة فى غير نفع ولا غَناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم، ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ماالحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا مابقى منـه أكثر من عشرين مرة، فلم نزدد إلا اقتناعا بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربمـا كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لهـا فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية،واستطاع ابن شهيد أن يناضـل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدّى فى عالم النـثر ما كانت تؤدّى النقائض فى عالم الشعر ، فوقع له مع الافليـلى والحناط وغيرهما منافرات كان لهـا فى مجالس المغرب دوىّ شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يسـتطيع أن يقارع خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيـد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قنعاس بالكسر وهو العظيم من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيى فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى الشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعىٌ الى إمداده بمختلف المعانى والأغراض، ولكنه انحدار بالنثر الى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدَّى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشُد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئا ذا بال، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة فى وصف الافليلى :

" ليست مشيته مشية أديب، ولا وجهه وجه أريب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر[1] " .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

" من عز بز، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار، جَدٌّ كبا ، وحسامٌ نبا ، وآمال تفرقت أيدى سبا . كلمات أنثرها عليك، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميها، وتلق علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالى ركضا ، تِربَىْ صحبة، وحليفَىْ صبوة، قد تخلينا عن الأنساب، وانتسبنا الى الآداب، والدار إذ ذاك صقب، والملتقى كثب، والزمان غِر، وحواصلنا صُفر، نترنم ترنم الحمام، على زرق الجمام[2]، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ... ... فنشرتنا بكل فج عميق، وأفق سحيق، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

(٢) الجمام : المياه الكثيرة، والمفرد جم، وهو فى الأصل الكثير من كل شىء .

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء، وافترشت لبدة العواء[(١)]، وكلما دعيت للنزال والعراك، تترست بالثريا وطعنت بالسماك، فزحمت منكب الدهر، وقضيت أربك منه على قصر، فكان أول حيصتك عن الوفاء، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء، أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المكاتبة، خشية أن يكون كلنا عليك، ورغبتنا فيما لديك، وهيهات! يأبى ذلك كرم محض، وهمة علياء نالها خفض، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل، والقضاء بأكرم العهد أقبل، قد يشغل بالرؤساء، ويجاذب العظماء، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم، فانطويت على ود، وثبت على صحة عهد .... الخ[(٢)] " .

وهذا نثر مقبول، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

" لما قدم زهير الصقلبي فتى بنى عامر، حضرة قرطبة من المرية، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المروانى وابن الحناط والطبنى ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلًّى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلىّ، حتى طلع أبو جعفر علينا، ساحبا لذيل لم ير أحد سحبه قبله، وهو يترنم، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال، فرد رد الطغيان، فعلمت أن فى أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام، ولا تراض إلا بمستحكم النظام، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء علىّ، جالبا فى المحافل ما يسوء إلىّ — : الوزير حضره قسيم من الشعر، وهو يسألنا عن إجازته، فعلمت أنى المراد، فأنشده، وهو :

مرضُ الجفون ولثغةٌ فى المنطقِ

فأخذت القلم وكتبت بديها :

---

(١) العواء : من منازل القمر .
(٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١

مرض الجفون ولثغة فى المنطق ‏ شيئان جرا عشق من لم يعشــق
من لى بألثغ لا يزال حديثـــه ‏ يذكى على الأكباد جمرة محـرق
ينبى فينبـو فى الكلام لســانه ‏ فكأنه من خمـر عينيه ســـقى
لا ينعش الألفـاظ من عثراتها ‏ ولو آنها كتبت له فى مُهـــرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبرونى أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه : وسألونى أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفحش، فلم أستحسن الإفحاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول[1] .

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا فى "التوابع والزوابع" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلماته فى وصف جارية ، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض . وهـذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح . ويظهر أن الجن الذين آستجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقـد الكلام، مع أنهـم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح"

وقوله فى وصف البعوض :

" تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته[2] " .

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيــه نهم لقيه فى المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «آضطرب به الألم، وآستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسال من لعابه، وآزورّ جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نسـتجيز رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والذوق . وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١ ‏ (٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شـاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصـفها واحدا واحدا ، فالفالوذج "مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة، فجاءت أطيب من ريق الأحبة" والخبيص "جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللفظة"، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : "فأمرت الغـلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أنطقتـه ، وتحتوى على ضروبها التى صرعته، فجاء بهـا فوضعها بين يديه، فلمـا عاينها انحنى عليها بلَبانه، وألقى عليها بجرانه، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذيه، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكمها، فجعل يقطع ويبلع، ويوجر فاه ويدفع، وعيناه تبصان، كأنهما جمرتان، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنـة ! وهو يقول : أُكلها دائم وظلها، حتى التقم جماهرها، وألحق أولها بآخرها، فهبت منه ريح عقيم، قرن إقبالها بالعذاب الأليم، نثرتنا شـذر مذر ، وفرقتنا فى كل شعب شغر بغر، فالتحمنا منـه الظَّربان، وصدق فيه الخبر العيان"[1] .

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية، والنكتة فى الرسالتين متشابهة، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ[2] :

"فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء، أو الى السوق نشترى شواء، والسوق أقرب، وطعامه أطيب ، فاستفزته حُمَة القرم، وعطفته عطفة النهم، وطمع، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شوّاء يتقاطر شـواؤه عرقا، ويتسايل جوذابه مرقا[3]، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واختر من تلك الأطباق، ونضد عليها أوراق الرقاق،

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ص ١٣٦ و١٣٧ ج ١ وفى اليتيمة ص ٣٩٢ و٣٩٣ ج ١ ، وفى النسختين اختلاف شديد، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين .

(٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد .

(٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماق(١) ، ليأكله أبو زيد هنيئـا ؛ فأنحى الشواء بساطوره، على زبدة تنـوره ، فجعلها كالكحل سحقا، وكالطين دقا، ثم جاس وجلست، ولا نبس ولا نبست، حتى استوفيناه وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى فى الحلوق، وأسرى فى العروق، وليكن ليـلىَّ العمر ، يومىَّ النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو ، لؤلؤىَّ الدهن، كوكبىَّ اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئا . ثم قعـد وقعـدت ، وجرد وجردت، وآســتوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة(٢) ، و يفثأ(٣) هذه اللقم الحارة ! إجلس ، أبا زيد ، حتى آتيك بسقاء ، يجيئنا بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولايرانى، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليــه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال : ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكى و يمســح دموعه بأردانه ، ويحل عقــده بأسنانه، ويقول : كم قلت لذلك القُرَيد، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! ”.

و إنمـا آفترضـنا ان ابن شهيــد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشـغوفا بأدبه ومعنيا بمعارضته، فقــد حدّثنا فى ” التوابع والزوابع “ أنه قابل بأرض الجنّ (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهـما مصاولة انتصر فيهـا ابن شهيد . وهـذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها فى أنفس الأدباء هناك ، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد ، وقدّمه كذلك الى شعراء الجنّ فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزِل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمـات تُليح بمغامز الفتك والمجون، وكانت جاريته ” أخت نِعمة ، وربيبة نَعمة ، كأن شعرها على

(١) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان . (٢) الصارة : العطش .
(٣) يفثأ : يسكن .

غرّتها الغرّاء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلّمك بألحاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بنرجسة ، كأنما ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان ، وتنفتل عليك بكفل مائج ، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك ، أو علتك تداركت عليك ، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، ان شئت قلت خمرة أو رضاب، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان[1] ".

٨ — ورسالته عن النار والحطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد ، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلةٌ بالصنعة، خالية من الروح . وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل — والحطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصوّر آصطدام النار بالوقود :

" حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلتُ مجنّى حطبا دل على نفسه، وتشظى من يبسه، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورميته منها ببنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا ، وعاركه طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج، ثم خز لها صريعا ، وآستولت عليه صعبا منيعا؛ فبدّدت شمله وألفت شملها، وآستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى بألوان، وتتهدّد بلسان، فلذعت البرد لذعة،ونكزته على فؤاده نكزة،نخرّ لها على جبينه،ومات بها من حينه[2] ".

٩ — وبعد فان نثر آبن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليلٌ على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشدّ الآختلاف . والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوّقها الناقدون . وكان للرجل فى حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول ، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء ؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمدّ عصره بروحه وآستولى بقوّة على عرش البيان .

(١) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٠ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصـل الينا منه إلا شيء قليـل ، ولم يدوّن منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت الينا جمـلة صالحة من نثره الذى جرى فيـه على سليقته وفطرته ، وانحاز فيه الى فيض عقله و روحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبيـة ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدّث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شـعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا ننقد وننقض ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةٌ وسلام !

١٤ – أبو الفضل الميكالى

١ – أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتفيأ ظلالهم أبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتّاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والازدواج فى رشاقة وعذوبة واتساق . وفيه يقول الثعالبى فى مقدّمة فقه اللغة :

"ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالى فكره، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وايم الله مامن يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نَوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوِىَ لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميما، وآرتياحا مقيما، ورَوْحا وريحانا ونعيما " .

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيدها الميكالى هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

" أيامَ ظلُّ العيش رطب ، وكفّ الهوى رحب ، وشرب الصبا عذب، وما لشرق الأنس غرب "[1] .

وقوله من رسالة ثانية :

"إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر مما متع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف فى نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الأجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رَهن التلهف والآشتياق "[2] .

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

"أنا أسأل الله تعالى أن يرد علىّ برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته، فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذى رقّت غلائله ، وصفت من الأقذاء مناهله ، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذى مضى ... بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومربعى

شددت بأعناق النوى بعد هذه ... مرائر إن جاذبتها لم تقطّع

وما على الله بعزيز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق الآشتياق أسيرا "[3] .

---

(١) ص ٢٥١ ج ٤ يتيمة (٢) ص ٩٣ ج ٤ زهر الآداب (٣) ص ٩٣ و ٩٤ ج ٤

ومع أن صلته بأبى منصور الثعالبى كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

" كتابى، وأنا أشكو إليك شوقا لو عالجه الأعرابىّ لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الخلىّ لانثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يبخل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنانهُ بعثرة حال والزمان عَثورُ
فتدرَك آمالٌ وتقضى مآربٌ وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هى أقدار تجرى كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهام إلى مراميها، فهى تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس للقاء الإخوان كأتمّ مالم يزل معهودا، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملىّ به والقادر عليه" (١) .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال ، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتّاب والشعراء، فنراه يقول :

" يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرّده، ونظام أنس يبدّده، ومخلب ظلم يحدده . ولو آنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماحه، ولكنه الحية الصماء لاتستجيب لراق، والداء العضال لايشفى منه طبيب ولا واق" (٢) .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

" لو آستطعت لخلعت عليه سلامتى سربالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنأ بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه" (٣) .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمه .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

" أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخيبر صالب[1]، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خُلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، و بياضها جلدة بين عينى وأنفى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكباد وقلوب ، وكانت بينى و بين النوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها ، حتى تفارق الحمائم أطواقها " .

٤ — وٱهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

"وصل كتاب مولاى وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا و ديمة ، ومعانيه در السخاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعَرف ، فائزة بقداح الحسن والظَّرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفِقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الغرر والأوضاح ، كما أطلق فيها ألسنة الثناء والآمتداح " .

٥ — و بجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق ، وما ألطف ما يقول الثعالبى فيه :

"وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى ٱستغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت فى أكثر أوقاتى عالى مجلسه ، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته ٱغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحمى دامت واشتدت .

الغضب فى الحضر، أو تصـلى بنار الضجر فى السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه" .

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألافه آتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسّم بين كتاب شوق، أورسالة عتب، أوكلمة توجع، أو خطاب آقتضاء، أو مألكة تهنئة، أو نميقة ثناء .

والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق: لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبيـة ، ولكن ينبغى الآحتياط فى فهم هـذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشـعراء والكتّاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب اليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليقة، فاذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، والى القارئ قوله :

شـافهَ كفى رشأٌ بقبـلة ما شفتِ
فقـلت إذ قبَّلها ياليت كفى شفتى

وقـوله :

مَن لى بشـمل الأنس أجمعـهُ بشادن حلَّ فيـه الأنس اجمعـهُ
ما زال يعرض عن وصلى فأخدعه فالآن لى لانَ بعد الصـد أخدعه (١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكرُهُ لا طول مدتهِ وموته خزيه لا يومـه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع .

وقـــوله :

كم والد يحــــرِم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعــدُ

كالعين لاتبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبــعد

وجمــلة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صــناع اليد ذكى الجنان .

٨ — وسـلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العــلم مما يكفى لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . و إنمــا يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة الروح، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك آستطاع الميكالى أن يستعبد طائفة من أحرار القــلوب والعقول بمــا كان له من صــفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة الوجدان .

١٥ – بديع الزمان

١ – ولد أبوالفضل أحمد بن الحسين في همذان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في نثره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذى أحرزه في حياته الأدبية ، فقد آنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطنا لأبى بكر الخوارزمى أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدا لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمى بعد تردّد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فآستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغُلب الخوارزمى وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمى حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمى خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار يتنقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن آستقرّ في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله ، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد آستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ و يطلب الغوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا اليه الا بعد مدّة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفزع حين يئس من النجاة .

٢ – اهتم كتّاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته ، ومن لم ير ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة ثم يهذ بها عن ظهر قلبه هذا ، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، والجواب عنها فيها ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه[1] ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونفس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد ، وجمرات الحدة ، وثمرات المدة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة . وفارق همذان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة ، غض الحداثة ، وقد درس على أبى الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ماعنده ، وآستنفد علمه ، وآستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها ، وحسن آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش فى أكنافهم ، والاقتباس

---

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وآختص بأبى سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة فى إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما آستقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله فى سفرته ، فوافاها فى سنة ٣٨٢ ونشر بها بزّه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامة[1] نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجِدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه و بين أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره، وقرب نجحه، و بعد صيته، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويجترئ على مجاراته، فلما تصدّى الهمذانى لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلّب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين ، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق، وآرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدرّ له أخلاف الرزق وأركبه أكتاف العز . وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة، ولم يبق فى بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها، وجنى ثمرتها، وآستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا آستمطر منه بنوء ، وسرى معه فى ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القِسم، وألقى عصاه بهراة وآتخذها دار قراره، ومجمع أسبابه ... وخار الله له فى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى ... فانتظمت أحوال أبى الفضل بصهره ، وتعرفت القرة فى عينه، والقوة فى ظهره، وآقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية . وحين بلغ أشدّه وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه فى سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وآنثلم حد القلم ... الخ[2]» .

---

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات فى الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ — ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبى على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتّاب القرن الرابع فى كتابة التراجم ، ولأن الثعالبى كان من معاصرى البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة مايفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات فى نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمى فى ذلك الحين ، وهذا يعيّن أن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان [١] .

وتاريخ إنشاء المقامات الذى نص عليه الثعالبى ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله فى المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التى أشار اليها الثعالبى والتى آستفاض ذكرها فى كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهى وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة فى القرن الرابع ، ومن أشهر من آهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدّثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما آقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمى الى العجز ، كما يساق المــاء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام فى الثناء على من وجه اليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فنتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافَع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

(١) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وآختلف ذلك التقدير كل الآختلاف، وقد كان آتفق علينا فى الطريق من العرب آتفاق، لم يوجبه آستحقاق، من بزة بزُّوها ، وفضة فضُّوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنق من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزى أوحش من طلعة المعلم (١) بل آطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلا قصبة جواره ، ولا وطئنا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها . فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أوّل دنه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع فى صدره، وصديق آستهان بقدره، وضيف آستخف بأمره . لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب ، وواصلناه إذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، وابسناه على خشونته، ورددنا الأمر فى ذلك الى زىّ آستغثه ، ولباس آسترثه ، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآده " .

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله فى سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص فى الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال ، وفكر عند وصوله فى الآتصال بأبى بكر الخوارزمى ، ولكن الخوارزمى لم يكرم زيارته ، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد فى زى غث، ولباس رث .

أما المراسلات التى سبقت المناظرة فهى خطاب من البديع وجواب من الخوارزمى .

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحناء :

" الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، فى أطمار الغربة، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة، وفى الآهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع فى صدر القيام ، عن التمام،

---

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس ، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة» فى جميع الأحوال ! !

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربيته صعرا، وآحتملته وزرا ، وآحتضنته نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفى هذه الأسمال، أتقزز صف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ

ولو طوّحتْ بأبى بكر أيده الله طوائح الغربة ، لوجد مغنى البِشر قريبا ، ومحط الرحل رحيبا ، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفّقٌ ان شاء الله تعالى " .

فأجاب الخوارزمى :

" وصلت رقعة سيدى ومولاى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكباج ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى عنهم فكما وصف حسن عِشرة ، وسداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فأحمدت المَراد، ونلت المُراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ فما عهد نجد عندنا بذميمِ

والله يعلم نيتى للاخوان كافة،ولسيدى من بينهم خاصة،فان أعانى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع علىّ طريق عشرتى بالمعارضة، وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارةٍ اذا لم تكدَّر كان صفوا معينها

وبعد فحبذا عتاب سيدى اذا آستوجبنا عتبا، وآقترفنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العربدة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن آحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكنى أسأله أن يقول لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " .

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء، وآنقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمى « ومضى على ذلك الأسبوع، ودبت الأيام، ودرجت الليالى، وتطاولت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين، فتردد الخوارزمى وهش بديع الزمان، ثم ركب الخوارزمى فى جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال، ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صـــورة المناظرة [1]

" ... فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض ما فى راسه، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : ياعافاك الله! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وآستزرناك وقصدنا غير المناوشة، فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك، وما آجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك، ولتلن فورتك، ولا ترقص لغير طرب، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسر بما عندنا، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبنى الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلمّ الى الأدب نتفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف آستطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدى نوعا من القصص فى تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التطويل .

وللقارئ أن يرجع الى رسائل بديع الزمان ص ٢٨ — ٨٣

فآسمع خيرا وأسمعنا مثله، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفُقت به أقرانك ، وملكت به عنانك ، وأخذت منـه مكانك ، فطار به آسمك بعـد وقوعه ، وآرتفع له ذكرك عقب خضوعه، وأفحمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل ... بجارنا بفرسـك ، وجُدْ لنـا بنفسـك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن آخترت ، والبديهة إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأخم عن الحفظ رأسا ، ولم يحل فى النثر قِدْحا . وقال :

أبادهك .

فقلت : أنت وذاك !

فمـال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنـه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليـه عمره ، وآستنزف فيه يومه ، ودونه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجمان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وسأقرن كل بيت بوفقـه ، وأنظم كل معنى الى لِفقه ، بحيث أصيب أغراضـه ، ولا أعيـد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النَفَس ، فان تهيأ لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظـر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أو لى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هـذه المقاومة ، ويتنحى لنـا عن أرض المماثلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنـار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق، ويفتضح الزرق[١]، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة، وتنطرد فيعرف الحالى من العاطل، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ،وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ،وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان، إذ قلنا :

هـذا الأديب على تعسف فتكهِ ... وبروكه عنـد القـريض ببركهِ[٢]

متسـرع فى كل ما يعتـادهُ ... من نظمـه متباطئ عن تركهِ

والشـعر أبعد مذهبا ومصـاعدا ... من أن يكون مطيعَـه فى فكه

والنظم بحـرٌ والخواطر معـبرٌ ... فانظر الى بحر القـريض وفُلكه

فمتى توانى فى القـريض مقصِّر ... عرّضت أذن الامتحان بعـركه

هـذا الشريف على تقدّم بيتـهِ ... فى المكرمات ورفعـه فى سمكه

قـد رام منى أن أقارن مثـله ... وأنا القرين السوء إن لم أَنْكه[٣]

واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارحة القـرين بدكه

ودبغت منـه أديمه وتركته ... نهـج الأديم بدبغـه وبدلكه

أصغو الى الشـعر الذى نظَّمته ... كالدرّ رصِّـع فى مجـزة سلكه

فمتى عجزت عن القـريض بديهة ... فدمى الحـرام له إراقـةُ سفكه

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من اللحاف ، فلم يفعـل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله، كالولد لناجله ، فما لك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق آبنك وتضيمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهزة أعقل منه لأنها تحدث فتغطى ، فلم يستجرئ أن يظهر ثم مسح جبينه و بسط يمينه للبديهة نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . وآقترح علينا أن نقول على وزن قول أبى الطيب المتنبى حيث يقول :

أرق عـلى أرق ومثـلىَ يأرقُ   وجـوًى يزيد وعَبرةٌ تترقـرقُ

وآبتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :

و إذا آبتدهت بديهة يا سيدى   فأراك عنـد بديهتى تتقـلقُ
و إذا قرضت الشعر فى ميدانه   لا شـك أنك يا أخى تتشـقق
إنى إذا قلت البـديهة قلتهـا   عجلا وطبعك عنـد طبـعى يرتق
مالى أراك ولست مثلى عنـدها   متمـوها بالـترهات تمخـرق
إنى أجيز على البـديهة مثـل ما   تربانه و إذا نطقت أصـدق
لو كنت من صخـرٍ أصمَّ لهـاله   منى البـديهة وآغتـدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البـديهة خادرا   لرئيت يا مسـكين منى تفـرَق
و بديهـة قـد قلتهـا متنفسـا   فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر و يقول : إن هذا كما يجىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنى أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلق وتتشقق وتمخرق وتخرق وتطلق وتعلق وتـبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، فخذ الآن جزاء عن قرضك ، وأداء لفرضك ، وقلت :

مهـلا أبا بكر فزندك أضـيق   فاخرس فإن أخاك حىٌّ يرزق
دعنى أعرك إذا سكتَّ سلامةً   فالقول ينجد فى ذويك و يعرق
ولقاتك فتكاتُ سـوء فيـكمُ   فدع الستور وراءها لا تخرق
وآنظر لأشنع ما أقول وأدعى   ألهُ إلى أعراضكم منسـلّق
يا أحمقـا وكفاك ذلك خزيةً   جربت نار معرتى هـل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمقا لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : ياهذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عَيبة عيب فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه فى القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه المواقفة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيئان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نخاطبت بيا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت نتقلق وهما لا يركضان فى حلبة ولا يخطان فى خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وآسكت علينا حتى نستوفى حظنا ، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وآحفظ علىّ أنفاسى ووافقنى عليها فإن عجزتُ عن اختلافها حفظتها لك، فسلى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبى :

أهلا بدارٍ سباك أغيدها أبعدَ ما بان عنك خرّدها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخنق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال: معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه بريا وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تتم ونتم، ثم نبحث ونفحص، فنبذ الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكيلنا بصاعه ومُده ، وينفض فيه حُمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا ، ويستق من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة، فان نفضت من هذا السخف يدك، وثنيت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك . ولو كان

فى بابَ الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، و إنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يعضى على غُلَوائه ، و يمعن فى هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند، و وضعت اليد على اليد، وقلت استغفر الله من مقالتك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس، وأيقن الجلاس، أنى أملك من نفسى ما لا يملكه ، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى ، وتعجبوا من فضلى ، و بقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عىّ ، وأن تكلفى للسفه أشدّ آستمرارا من طبعك ، وغَربى فى السخف أمتن عودا من نبعك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لى : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همذان فما أولانى أن أجيب عنه ولكن هذا الذى تمدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، وآجتديت فآقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم ياعافاك الله ! ولأن يقال للرجل يافاعل يا صانع أحبُّ اليه من أن يقال يا شحاذ و يامكدى ! وقد صدقت ، أنت فى هذه الحلبة أسبق ، وفى هذه الحرفة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفى الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الوِرد لهذه الشِّرعة ، مرمل اليد فى هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودىّ يماثلك فى مذهبه ، و يزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرفنى إلا بعين الرهبة ، ولا يمد الىّ إلّا يد الرغبة ، ولو كان الغنى حظا لأخطأه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غُنما لما أُدركَ بهذا السعى . ولكن عرفنى هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مضرجا بدمائك ، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى صفتْ مشارعك ، وأخصبت مرابعك ، إلا فى هذه الأيام القذرة؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك فى غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك ، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدُفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبَّهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم فى الخد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما فى الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتى تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

فأتته السكتة، وأضجرته النكتة، وانطفأت تلك الوقدة، وانحلت تلك العقدة. وأطرق مليا وقال : والله لأضربنك وإن ضُربت، ولأشتمنك وإن شُتمت، ولتعلمن نبأه بعد حين، ولتعلمن أينا الضارب وأينا المضروب ! فقلت : ياأبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تخطها من عمرك وثلاث أحوال لم تتعدها فى أمرك، وأنت فى جميع الثلاثة ظالم فى وعيدك، متعدّ فى تهديدك، لأنك كهل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة فى الفصول الثلاثة ضيقٌ عن هذا الوعيد، لكنا نصفعك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم قصف، وغدًا خسف، وقيل اليوم خمر، وغدًا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة، واتخذت السندس والإستبرق جُنة، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا فى درج فى خرج فى برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ماطاب وخبث، وأنشدت قول ابن الرومى :

إن كان شيخا سفيها يفوق كل سفيه
فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت آمرءا لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودُفع القوال فبدأ بأبيات، ولحن بأصوات، وجعل النعاس يثنى الرؤوس، ويمنع الجلوس، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وُطِّئ من مضجع، ومُهِّد من مهجع، ولم يكن النوم ملء الجفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيعل المؤذن بالفلاح،

وندب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم مثواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويبكى على ماجرى دمعا ودما، فانه إذا سمع بحديث همذان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون ندامة، وأنه إذا نام هاله منا طَيف، واذا آنتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما جرى و يتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد بجعل يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق، والمكتوب فى الرقّ، إنه أخذ قصب السبق، و إنه ينطق عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين! وسعوا بيننا بالصلح يحكمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأومأ إيماءة مهيضة، وآهتز آهتزازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحبا، و بسطها فى الجو بسطا، وعلمنا أن للقمور أن يستخف و يستهين، وللقامر أن يحتمل و يلين، فقلنا إن بعد الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجميل أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم، فاعتللنا بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك فطعمنا عنده، وأخذَنا دندانُ مزده ، وخرجنا والنية على الجميل موفورة، و بقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملأنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، و بتنا نحن من الحال فى أعذبها شِرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة، ومن المودة فى أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالته، مؤدّيان لرسالته، ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، فى أنك قَهرت وأنى قُهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت، وأجبته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتى صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك، ولا أتبجح بقسرك . و إن لنفسك عندك لشأنا إن ظننتنى أقف هـذا الموقف ، أنا ان شاء الله تعالى أبعـد مرتقى همة ومصعد نفس أسأل الله سترا يمتد ووجها لا يسودّ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت على الناس لخطتُ أفواههم، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل؟ ثم هذا التواتر، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التساتر، فان كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل، ولأن يترك الأمر مختلفا فيـه خيرٌ لك من أن يُتفق عليه . و إن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا. فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تنشد الا بيت القائل :

وعيـدٌ تخرج الآرام منهُ وتكره نيـة الغنم الذئابُ

فكم تتكوكب تلامذتك و يتعسكرون، و يتجيش أصحابك و يتجمعون، ولست أراك إلا بين ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغـدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك بمسلفات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح، فلا مفر من القدر المتاح، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من راى بنا بطيش! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا لم نحتسـبه، و وصلت موقفا لم نرتقبـه، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسِـع من الغيظ فوق ملئه،وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال : قد بلغ السيل الزبا، وعلت الوهاد الربا، فى أمرك . وستُرى فى يومك ، وتُعرَف فى قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل، و ينظر بيننا بالعـدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وآستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد فى عالَم أُفرغ فى عالِم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا والى الترفع تواضعا، ونطق فودت الأعضاء لو أنهـا أسماع مصغية وآستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن يزرِق[1] وكنت أول من حضر وآنتظرت مليا حضور من ينظر وقدوم من يناظر، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج مافى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والإمام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالَم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحى والمحتبى بفناء النبوة والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى النطق بحذقه، وفى الإنصاف بحسن خلقه، بخشم الى المجلس قدّم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه، وحديث كان شبّه لديه، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين، طرت بجناحين، وإذا متّ سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغُرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت فى البلاد، ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق، ولم تسر على ساق ، ولكنى أتسوّق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين آدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمةً ضرب الزما ... ن على مُعرَّسها خيامهْ
لله درك من خُزا ... مَى روضة عادت ثَغامه
لرزية قامت بها ... للدين أشراط القيامه
لمضرَّج بدم النبو ... ة ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو ... ف مجرَّع منها حمامه
مُنِع الورودَ وماؤهُ ... منه على طَرَف الثُمامه
نصب آبن هند رأسهُ ... فوق الورى نصب العلامه
ومقبَّل كان النبيُّ ... بلثمه يشفى غرامه
قرع آبن هند بالقضيب ... عِذابه فرط آستضامه
وشدا بنغمته عليـ ... ـه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع ... والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولّى الكتا ... ب قفاه والدينا أمامه
ليضرسنّ يد الندا ... مة حين لا تغنى الندامه

وليدركنّ على الغـــرا مة سوء عاقبـــه الغـــرامه

وحمى أباح بنـــو أميـ ـة من طوائلهـــم حرامه

حتى آشـتفوا من يوم بد رٍ وآســـتبدوا بالزعامــه

لعنـــوا أمـــير المؤمنيـ ـن بمثـــل إعلان الإقامه

لم لا تخـــرّى يا سمـا ءُ ولم تصـــبى يا غمـــامه

لم لا تـــزولى يا جبـا ل ولم تشـــولى يا نعـــامه

يا لعنـــةً صـــارت على أعناقهـــم طوق الحمـــامه

إن العـــمامة لم تكـــن للئـــيم ما تحت العمامـــه

من ســـبط هنـــد وآبنهـا دون البتول ولا كرامه

يا عينَ جـــودى للبقـ ـيـ ـع وزرّعى بدم رغامـــه

جـــودى بمذخور الدمو ع وأرســـلى بَدَدًا نظامه

جـــودى بمكنون الدمو ع أجُدْ بما جاد آبن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما آعتقدت، انحلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، و يقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شيمة من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحميه لألأوه ولوذعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى حبل الكتابة ما شاء، و يركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم و رائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضـــل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله.

" وما منهمُ إلا أغر نجيبُ " .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبى الحسن الماسرجسى :

" وكلٌّ إذا عدّ الرجال مقدّمُ "

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبى عمر البسطامى وهم فى الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمذانى وله فى الفضل قِدحه المعلى، وفى الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم فى نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمى، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وٱنتُظِر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علىّ قوافى أثبتوها واقتراحات كانوا بيتوها، فما ظنك بالحلْفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، و بيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه، ونفَس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن نؤمن لك حتى نقترح القوافى ونعيِّن المعانى وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروى الذى أسومه، وذكرت المعنى الذى أرومه ، فأنت حىّ القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لا فتى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى ٱرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم، ثم التفتّ فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع فى شملته وهبّ بجملته، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين فى رأسه تزران، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تزحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرنى والمناظرة ٱشتقت إما من النظر أو من النظير، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتطاول السابق و يتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هـذا الفاضل من تلك الحكمة ، وآنحط عن تلك العظمة، وقابلني بوجهـه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصا على اللقاء، سريعا الى الهجاء .

" ولو زبنتك الحرب لم تترمرم " .

ففى أى علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ الى النحو، فقلت: يا هذا إن اليوم قد متع، والنهار قد آرتفع، والظهر قد أزف، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فما ذا يخرج الناس، فعلاهتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المجيب. فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآن لى ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل . ثم أنا أجاريك فى هذا، فقـال : لا أسـلم ذلك ولا أناظر فى غير هـذا، وآرتفعت المضاجّة وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليـه فقال : أيها الأسـتاذ انت أديب خراسان وشيخ هذه الديار و بهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق والحـذق، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم و يوهم، وآضـطره الى منازلة أو نزول عنها ومقارّة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ، فأنشدت قول القائل :

ومسـتلئم كشفت بالرمح ذيلهُ   أقمت بعضب ذى شقاشق ميلهُ
فجعت به فى ملتقى الحى خيله   تركت عتاق الطير تحجل حولهُ

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتا من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجرأ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقـدم، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ، فقلت : الراجع فى شيئه، كالراجع فى قيئه، لكنا نقيلك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتا من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانيا، كما سلمه باديا، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبى الشيص فى قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضِ ورمى ســواد قرونه ببيـاضِ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدِّرا أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضــيا ما مثــلهُ من قاضِ أنا بالذى تقضى علينـا راض

فلقـد لبست ضــفية ملمومـة من نسج ذاك البارق الفضفاض

لا تغضبنّ إذا نظمت تنفسا إن الغضا فى مثـل ذاك تغاض

فلقــد بليت بشـاعر متقادر ولقد بليت بنـاب ذئب غاض

ولقد قرضت الشعر فاسمع وآستمع لنشـيد شـعر طائعـا وقِراض

فلأغلبنّ بديهـة ببـديهتى ولأرمينّ ســواده ببيـاض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون قاله قافية ، فواقفه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت! ثم قلتُ : فمـا معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وآنقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا فى مثـل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة، فقلت : ياويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتتبرأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافيــة كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدّة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

الكمال[(١)]! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله فى الفضل قَدم وقِدم وفى الأدب هم وهمم وفى العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد ٱدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعونى من البديهة على النفس وٱكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسّك ومعنبر ... من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفَّر ... فى حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح ... مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ ... يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر ... وجلوت للرائين خير جلائه
فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... فى خلقه وصفائه وعطائه
يجمى أعز محجَّر وندى أغر ... محجل فى خلقه ووفائه
يعشو اليه المختوى والمجتدى ... والمجتوى هو هارب بذَمائه
ما البحر فى تزخاره والغيث فى ... إمطاره والجو فى أنوائه
بأجل منه مواهبا ورغائبا ... لا زال هذا المجد حلف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم ... متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء، وإيطاء، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا ونقدنا عليه فيها كذا نقدا، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لو أن رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون ٱمرأته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق! ثم قلت : ٱنقدْ علىّ فيما نظمت، وٱحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال: نظرت اليه، فكفتنى الجماعة إجابته، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال الى ... عيب يوقيه من العين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شوادى الأطيار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المغنى ، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أديبا لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى الخصمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فاسقونى على الظفر . فقالوا : كفاك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح علىّ غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، واختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل فان سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وانظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وافرغ منهما فراغا واحدا ، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوّق لهذا الغرض سهما ، أو تجيل قِدحا ، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدّم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة ولا يجمّ فيها قلمك ، هل كنت تفعل ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصبّ معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفا ممدوحا أو يبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل؟أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطوره كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرَّجا وسرد معوَّجا كان شعرا هل كنت تقطِّع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطِّع ولكن من ذقنك! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا و إذا فسر على وجه كان قدحا. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبته تكون قد حفظته، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل آست البائن أعلم ؟ ! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طِرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفمك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين النـاس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهـذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، و يعارض إنشائى بإنشائك. وآقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وآنقطاعها والأسعار وغلائها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

" الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، و يخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ماأكبرناه أشدّ الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك ما يربح للناس فى الزرع والضرع، و يعود اليه أمر الضر والنفع".

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإكار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أسجاع قـد نبتت فى المعـد ، ولم تزل فى اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثـل ما أنشأت فآقرأ ولك اليد . وناولته الرقعةفبق و بقيت الجماعة وبهت وبهتت الكافةوقالوا لى : اقرأه ، فجعلت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بســـم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر، صـدور بها وتملأ المنابر، ظهور لهـا وتفرع الدفاتر، وجوه بهـا وتمشق المحابر، بطون لها ترشق، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه، فى تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل، هذا و يرفع الدين، أهل عن الكل، هذا يحط أن فى اليه نتضرع ونحن واقفة، والتجارب زائفة، والنقود صيارفة، أجمع الناس صار فقد كريما نظـرا لينظر شيمه، مصاب وانتجعنا كرمه، بارقة وشمناهممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ، وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماه تأييده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار[1] .

فلمـا فرغت من قراءتها آنقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا فملنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغـة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها فخذ غريب المصنف إن شئت و إصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف و رقة وأدب الكاتب إن أردت، وآقترح علىّ أى

(١) هذا الخطاب فى ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماه ، أن يتداركنا بجميل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ، وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على هممه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانتجعنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع اليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين و يرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فاذا جرى الأمير أدام الله تأييده فى أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ، كانت آثارا ترشق لهـا بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لهـا ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر ان شاء الله .

باب شئت من هــذه الكتب حتى أجعله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس، خفيف على مثال مال وما أمساه! فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه، وأتيت على الباب الذى يليه ثم قلت آقترح غيره، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عمـا عداه، فوقف حماره، وخمــدت ناره ، وقال الناس اللغــة مسلمة لك أيضـا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدوننى بالأمهات والأب، ويشيعونه باللعن والسب، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت اليه فقلت :

يعــز علىّ فى الميــدان أنى قتلت مناسبى جلدا وقهــرا
ولكن رمت شيئا لم يرمهُ سواك فلم أطق ياليث صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفى باب العشرة؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام، مع أفاضل ذلك المقام، ولمـا حلقنا على الخوان ، كرعت فى الجفان، وأسرعت الى الرغفان ، وأمعنت فى الألوان ، وجعل هذا الفاضــل يتناول الطعام بأطراف الأظفار، فلا يأكل إلا قضما، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرَّى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنــة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفــظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرنى يا أبا بكر لم غُشِّى عليك؟ فقال : لحمى الطبع وحمى الفرو، فقلت : أين أنت من السجع، هلا قلت حمى الطبع وحمى الصفع! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأســتاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير فى بطنه مغصا، وفى عينــه رمصا، وفى جلده برصا، وفى حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير فى عينك قذى، وفى حلقك أذى، وفى صدرك شجى! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البرا، وعلى هامك الثرى، ولا أطعمك الخ ... إلا من ورا، كما ترى فقال : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الى وقالوا : ملكت فأسجح! فأبى أبو بكر أن يبق لنفسه حمة لم ينفضها ، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركك بين الميمات، فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهـذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقــة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخاآت فقــد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين الباآت فقــد علمتنى الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هــذا المتاع ، وكاثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجر فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقونى إلا بالشفاه تقبيلا، وبالأفواه تبجيلا، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ – أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هى فى صميمها ألوان للنفوس الانسانية . واذا كان هناك كتّاب يخاطبونك بما لاتفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبيّ عن قلبك ، فان بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هى أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر فى أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه فى زهوه وخيلائه لايكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

” فانى و إن كنت فى مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، و بلوت طعمى الحلو والمر ، و رضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا ، أو تسمعني من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا الا ملأت حاقتى سمعه و بصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره “ (1) .

٢ – وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطرمة متأججة ، فنرى فى كتاباته صورة نفسه وهى تتوثب كما تتوثب ألسنة الجحيم ، كقوله فى خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

(1) ص ١٠١ ، ١٠٢ رسائل بديع الزمان .

أن أراك محتاجا اليك، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلك[1] ! » وليتأمل القارئ « ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا اليك » فانه غاية فى التهكم اللذاع .

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف، بجزاؤه مائة ألف، واذا انتهت الدعوة الىّ فقد عزل عزرائيل، ولم يبق فى ولايته إلا قليل،والله ما يصلح لحمى للقديد، ولا يحسن فوق الثريد، و إنه ليأبى فى المضغ ، وينشب فى الحلق ، و يقلق فى البطن ، ولا يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وان كانوا شهاوى[3] » .

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى، وكان لذلك مغرما بالنيل منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمى، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه فغضب لذلك و رأى فى هـذه التهنئة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبـله ، وقذف صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطال الله بقاك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى، ووصف أحواله صـفتى، اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معـدومة فهى أمانى، فان وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان و إن مطلت فستفد، وان لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه، ولا يعدمها فى جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، و إن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة، بمن أمن الإماتة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة. والدهر غرثان طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهـل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وان ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودا جميلا، والحر عنـد الحمية لا يصطاد، ولكنه عنـد الكرم ينقاد، وعنـد الشدائد تذهب

---

(١) ص ٥٤ (٢) ص ٣٣٩ رسائل . (٣) ص ٣٣٩

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبى يعزيه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

" أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجَفَلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت ، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فان كان العدم أصلا، والوجود فضلا ، فليعلم الموت عدلا . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدرا لايملؤه فرحا، ولبؤسها قلبا لايطيره جزعا ، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حدا، وللعارية ردا . ولقد نعى الىّ أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت علىّ آمالى قعودا، وأمانىّ سودا، وبكيت والسخى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ " .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود ، فقد خلق من حيث لا يريد ، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا ألعوبة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرمى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وانما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هـذه الرسالة أجمل صورة للجزع عنـد فقد الأعزاء، فقد أضحكه الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر فى رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيها من العيوب . وهو بهـذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيّت والشر المستطير .

٥ — لكن هـذه السماحة النفسية ليست سمة غالبـة فى بديع الزمان ، فهو فى أكثر الأحوال رجل ماكر خبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهـم حتى يملأ جيبـه ثم يقول فى السخر من أولئك المتصدقين :

النـاس حُمـرٌ فجـوِّزْ ... وابرز عليهـم وبرز
حـتى اذا نلت منهـم ... ما تشـتهيه ففـروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للمـال :

أنا أبـو قلمونٍ(١) ... فى كل لون أكونُ
إختر من الكسب دونا ... فانّ دهرك دون
زجّ الزمان بحمـق ... إن الزمان زبون(٢)

(١) أبو قلمون ثوب رومى من الأبريسم يظهر للعين فى ألوان مختلفة بصناعته . (٢) الزبون : الناقة التى تدفع بثفنات رجلها عند الحلب .

لا تكذبنّ بعقـــل ما العقـــل إلا جنـــون

وفى المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع و يقول :

أنا حالى من الزما ن كحالى من النسب
نسبى فى يد الزما ن اذا سامـــه آنقلب
أنا أمسى من النبيـ ـط وأضحى من العرب

وفى المقامة الساسانية يقول :

هـــذا الزمان مشوم كما تراه غشـــومُ
الحمـق فيـــه مليـــحٌ والعقـــل عيب ولُومُ
والمـال طيف ولكن حول اللئـام يحـــوم

وهذه الأبيات تمثل حقده على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لئيم ، ومثل هـــذا قوله فى المقامة البصرية :

الفقر فى زمن اللئـا م لكل ذى كرم علامـهْ
رغب الكرام الى اللئـا م وتلك أشراط القيامـهْ (1)

٦ — والذى يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه فى أكثرها يحارب معاصريه من الكتّاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولايمكن أن تكون لبـــديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التى ألفها فى حياته وهى العنف المطبق فى البحث عن أسـباب الغنى والجـاه . ومن دلائل حقده وبغيــه أن واليـا عزل وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذى انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(1) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غيرمرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحمـق «لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل» وفى ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن رده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، الخ .

" تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك . فاقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام انقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كأن لم يكن وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر فاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغنى الان ماأنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، فى الغسق... و إفنائك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه مايعفل الشعر بالخدود (١)

وهى رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها فى أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم فى المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسى (٢) وأشهرهم فى المتاخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه فى مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتبا التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التى اختارها أساسا لفلسفته وهى سوء الظن بالناس تلاشى أثرها فى مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هى صورة الاستجداء، ثم التزم منهجا واحدا لا يختلف إلا قليلا بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شىء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التى يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء ، ثم لا يكونون فى أنفسهم وفى سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

(١) (٨٤ — ٨٨) . (٢) الذخيرة ج ١ ص ٦٦

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ — كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبى «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»[(١)] وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا فى وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعــده لأبنائه[(٢)] . وكان الصاحب بن عباد يقول: كتّاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع[(٣)]، يعنى نفسه .

وجملة أخباره تدل على أنه كان فى زمانه من أعلام الكتّاب .

٢ — ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس . وقد شــفع لأبى إسحاق الصابى عنــد عضد الدولة فى ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سـعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوّغته نفسه: فان عمــل كتابا فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى فى محبسه فى تأليف كتاب فى أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمله فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة — ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانيها الأحرار فى جميع الأزمان ! — فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون اليه فى أمره حتى أمر باستحيائه[(٤)] .

٣ — والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودّد المشوب بالتملق[(٥)] . أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان .

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل فى اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤

وآنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاى بما قرب الىّ جناه، وبعد علىّ مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومباره التى ما يزال يؤثرنى فيها بالرغائب، ويصفينى منها بالعقائل . فوقفت منه بين آعتبار واقتباس، وآعتذار وآغتباط، وآستبصار فى موضع الفضيلة، وشكر لما جمع الله لى فى وده من المنح الجزيلة، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام فى آنحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه، وآستعديت عليها لاستعدائه . وشايعت المهجنين لا ثارها، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها فى أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهرٌ أناخ على مولاى بصرفه، وآختزله دون واجب حقه» (١) .

٤ — وتمتاز رسائله فى الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره، فقد آبتدأ إحدى رسائله الى الصاحب بهذه الأبيات :

كتابٌ لو آن الليل يرمى بمثله ... لألقت يدا فى حجرتيه ذُكاءُ

تهادى بأبكار المعانى وعُونها ... وأعيان لفظ ما لهن كفاء

شواهد لولا أنهن أوالف ... ضرائر إلا أنهن سواء

لبسنا بها نعمى وألبست الربا ... خمائل روض جادهن سماء

بنان آبن عباد تعلين نوءه ... وما صوبه إلا حَيًّا وحِباء

وثلاث (٢) كتب تناظرت فى الحسن والاحسان، وتقابلت فى البر والإنعام، لا زالت أياديه قلائد الأعناق، ومراميه مضامير السباق، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به (٣) .

ويظهر أن الصابى كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبى القاسم من رسالة ثانية :

«وقفت على الأبيات التى آتحفنى بها سيدى، وتكلفت لجوابها على ظلع فى خاطرى لطول السفار، وآتصال حالى بالحل والترحال . ومولاى يأخذ العفو ويرضى بالميسور، ويعذر

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب فى وصل الشعر بالنثر فى سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير فى جواب ما يأتينى من أمثاله ، مادمنا فى ملكة الهواجر، وتعب البُكر والأصائل» [1] .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبى القاسم وصف الرسائل الاخوانية؛ كقوله فى وصف رسالة للصابى :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتق طرف الخطابة، وتتراءى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والاحسان، وقرأت لفظا جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا ، رمى غرضا بعيدا، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة، ولحمة الموافقة، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى، وتعلق العجز فيها بالهادى، أولاد أرحام مبروزة، وذوات قربى موصولة، تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكاها وعُونها» [2] .

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب فى فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة آشتهرت منهم فى آستباحة الناس وأكل لحومهم ، وبلغ من كلَبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شىء فى الانسان ألذ من كفه وبنانه ، وكان فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابته فآختلسوه وآقتسموه بينهم وأكلوه فى الوقت، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم،وقد أبادهم الله تعالى جده،وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم، فآنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة، معتصمين بذمة الجماعة، وتمت نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح، وكملت له مغانم الأجر، ووصل أمس غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغير بقدّ الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٩٣

الأنفس وتلذ الأعين . والله تعالى يجني مولانا ثمار الأرض برا و بحرا، وسهلا وجبلا، بمنه وكرمه . آمين " .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات فى الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

"فأنت وعضد الدولة — كلأ كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر، وناظراه فيما يقرب ويبعد، بكما آفترش مهاد الملك بعد إقضاضه، ورفع منار الدين بعد آنخفاضه، فأبشرا من الله تعالى بالحسنى، إن الله لا يضيع أجر المحسنين" (١) .

ومن كتاب عن عضد الدولة فى عود الطائع الى بغداد والتقائه معه :

"ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالاذن لنا فى تلقيه على الماء، فامتثلناه وتقبلناه وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجميل آرائه، وعواطف أنحائه، ورعاية ما كنفنا يمنه، وشايعنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، فى الجديدية، التى استقبلت منه بسليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه در الغمام، فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره، وغزتنا جهات تفضله وفضله، وقرب علنا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يديه، على كرسى أمر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسته، وأوسعنا من جميل لقياه، وكريم نجواه، ما يسم بالعز أغفال النعم، و يضمن الشرف فى النفس والعقب، ويكفل من الفوز فى الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا فى الوصول اليه، والقعود بين يديه، فى مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتبُ لم يعطها أحد فيما سلف، ولم تجُد الأيام بمثلها لمن تقدّم " .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، والذى يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب، والى القارئ هذه الكلمات مقتبسةً من رسائله القليلة التى أعفاها الزمان من الضياع .

(١) ص ٨٧ (٢) ص ٨٨

"وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم" .

"سار الى سدّة دار الخلافة والسعود تشايعه، والميامن تواكبه، وطـلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يبتسم اليه" .

"وقـد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقتـه عن مجاثمه المكايد والكتائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسـبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم آنتعاشا والجد خاذله، ويبغى آنتياشا والبغى طالبه" .

"ولمـا ضاق عن هـذا المخذول حلمنا باتساع غوايتـه، ووعر الطريق الى آسـتبقائه، استخرنا الله تعالى فى آسترجاع ما ألبسناه من النعم" .

" إن الله سائلك عن الخَطرة والخَطفة، واللحظة واللفظة " .

" ادّرعْ من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك " .

" احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم " .

" التقوى هى العدّة الوافيـة ، والجُنة الواقية ، والتجارة الرابحـة ، والسعادة السانحة ، والجلاء للشبهة، والضياء للغمة " .

" سيعيض الله من حَرّ الهواجر بَرد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب " .

" أيقظوا قلوبكم من سِنة الخواطر، وآحبسوا ألحاظكم عن محظور المناظر " .

الفهرس المفصل

الباب الرابع
كتاب النقـــد الأدبى

	صفحة
١ — أبو الحسن الجرجانى	
القاضى إنسـان له عواطف وأهواء ...	٧
وصف جرجان وما كان بها من نعيم ...	٧ ، ٨
وفاء أبى الحسن لجرجان	٨
أسفاره وأعماله	٩
مؤلفاته فى الأدب والفقه والتاريخ ...	٩، ١٠
إباؤه وعزته	١٠
نماذج من شعره فى التصوّن والعفاف ...	١١
اعتذاره من الانقباض عن الناس... ...	١٢
تغريده على أفنان الجمال	١٣
وصفه لنعيم الحواس...	١٤
حنينه الى ليالى بغداد	١٥
رقة الشوق...	١٦
٢ — نقد آراء الجرجانى	
كيف ألف كتاب الوساطة...	١٧
أخوة الأدب وحقوقها المفروضة... ...	١٧، ١٨
أغلاط الجاهليين	١٨، ١٩
التعسـف فى الدفاع عن أشعار الجاهلية	٢٠، ٢١
أثر المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه	٢١، ٢٢
أثر الخلقة الطبيعية	٢٢
ما هو الجزل وما هو الرقيق	٢٣
إشارة الى ما نقله عن السالفين من النقاد	٢٤
الفرق بين الشعر والدين	٢٤، ٢٥
رأى مؤلف هـذا الكتاب فى حـدود الشاعرية	٢٥، ٢٦
٣ — ابن فارس	
مولد ابن فارس ومذهبه وأشياخه... ...	٢٧
ما وقع بينه و بين تلميذه بديع الزمان ...	٢٨—٣٠
منزلته الشعرية والنثرية	٣٠
نماذج من شعره...	٣١
كتاب الصاحبى...	٣٢
حياته العقلية بين التحرز والجمود	٣٢
إنكاره أن يكون للفلاسفة شعر و إعراب	٣٣
الجانب المشرق من حياته العقلية... ...	٣٣، ٣٤
نمـاذج مما استجاده من شعر المحدثين ...	٣٥، ٣٦
آراء ابن فارس فى فقه اللغة	
نقد رأى السنيور جويدى	٣٧، ٣٨
ماهو فقه اللغة فى رأى الثعالبى وابن فارس	٣٨، ٣٩

	صفحة
رأى آبن سيده وآبن جنى	٤٠
أوّل من كتب بالخط العربى...	٤٠
رأيه فى التوقيف والاصطلاح	٤١
رسم المصحف	٤٢
رأيه فى نشأة العلوم العربية	٤٢
رأيه فيما جهل أصله من التعابير	٤٣، ٤٤
نقد هذا الرأى	٤٥
الألفاظ المبهمة المدلول	٤٥
خصائص اللغة العربية	٤٥، ٤٦
تعليل ما عرف من كثرة المترادفات ...	٤٦
تأثير الأقاليم فى اللغات	٤٧

٤ — النقد عند آبن شهيد

الفرق بين البيان و بين النحو والتصريف	٤٨
التنديد بالنحاة والمعلمين	٤٩
كلمة الجاحظ فى معلم النحو ومعلم البيان	٤٩
نقد رأى الجاحظ وآبن شهيد...	٥٠
محاورة آبن شهيد لتلاميذه من العــرب واليهود	٥١
الأنساب والقرابات بين الحروف... ...	٥٢
اختلاف البلاغة باختلاف أقدار المخاطَبين	٥٢
الشعر الذى يوضع للجندين	٥٣
هل فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض	٥٣، ٥٤
البلاغة ضرب من السياسة النفسية ...	٥٤
سر البلاغة يرجع الى الطبع	٥٥
هــل الأجسام من صور النفوس ؟ ...	٥٦
كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة وكيف سبقه آبن الزيات و إبراهيم ابن العباس	٥٧
نقد رأى آبن شهيد فى ذلك	٥٨

٥ — أبو بكر الباقلانى

حيــاته...	٥٩
تصو يره لمـا كان فى زمانه من أزمة عقلية	٥٩
موقفنا من درس إعجاز القرآن...	٦٠
الموازنة بين القرآن و بين غيره من الكلام	٦٠، ٦١
نتيجة هذا البحث	٦١
نقد رأى الباقلانى	٦٢
الفرق بين القرآن و بين غيره من الكتب الربانيـــة	٦٣
لمـاذا لم يصف الله التوراة والانجيــل بالاعجـاز ؟	٦٣
شرح أسرار تفوّق اللغة العربية	٦٤
نقد رأى الباقلانى و رأى المسيو مرسيه	٦٤
بين اللغة العربية واللغات الأجنبية ...	٦٥
أثر الغــرور القومى	٦٥
ليس القرآن من جنس كلام العرب ...	٦٦
نقد هذا الرأى	٦٦
رأينا فى الفوارق بين اللغات	٦٧
سر البـــلاغة والفصــاحة يرجــع الى ما فى المعنى من قوّة و روح	٦٨—٧٠
بين القديم والجديد	٧١
نقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع الى المعانى	٧٢

صفحة
شواهد من القرآن بلاغتُها فى معانيها ... ٧٣، ٧٤
شواهد من كلام العرب وأشعارهم ... ٧٤–٧٦
مناقشة بعض السرقات الشعرية ٧٦
أهمية الألفاظ والأساليب ... . ٧٦، ٧٧
الباقلانى ينفى السجع من القرآن ٧٧
خطأ هذا الرأى... ... ... ٧٨–٧٩
غلط فى فهم السجع ... ... ٨٠، ٨١

٦ — أبو القاسم الآمدى

حياته ومذهبه فى الأدب ٨٢
نمـاذج من شعره ٨٣
معرفته لنفسية أدعياء الأدب والبيان ... ٨٤
رأيه فى الحاسة الفنية ٨٥
هل يمكن كسب الذوق بكثرة المران ... ٨٦
إيثار الشعر المطبوع على المصنوع... ... ٨٦
يغتفر للأعراب ما لا يغتفـر للشـعراء
المثقفين... ... ... ٨٧
مسألة التعمل والإغراب بإيثار وحشى
المعانى والألفاظ ٨٧
دخل هذا الاتجاه فى أعمار الألفاظ ... ٨٨
اللحن لا يعرى منه أحد من الشعراء ... ٨٨
بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى ٨٩
اجتماع أبى تمام والبحترى لأول مرة ... ٨٩
التحليق والإسفاف عند هذين الشاعرين ٩٠
هل ابتدع أبو تمـام مذهب البديع ... ٩٠
غرابة شعر أبى تمام وحسد معاصريه... ٩١
صفحة
تجنب البحترى للغريب ٩٢
السهو والغلط عند المتقدمين ٩٣

٧ — أبو هلال العسكرى

تحقيق تاريخ وفاته ٩٤
أبو أحمد العسكرى ... ... ٩٤، ٩٥
إباء أبى هلال ٩٦
شـعره فى التوجع لحظ الأديب ٩٦
صلته بالصاحب بن عبـاد ٩٦
دفاعه عن أدب الصاحب ... ... ٩٧، ٩٨
تحامله على المتنبى ... ... ٩٨، ٩٩
نثر أبى هلال ٩٩
نماذج من نثره ١٠٠
نماذج من شعره... ... ... ١٠١

٨ — كتاب الصناعتين

الغاية من علم البلاغة... ... ... ١٠٣
جودة كتاب الصناعتين ... ... ١٠٣، ١٠٤
غلبة الأدب على هذا الكتاب ... ... ١٠٤، ١٠٥
إهماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب ... ١٠٦
سر البلاغة عند أبى هلال ١٠٦
حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى... ١٠٧
السهل الممتنـع ١٠٧
الكلام الجزل ١٠٨
المدار على إصابة المعنى ١٠٩
أطايب من الأدب ... ... ١٠٩، ١١٠

صفحة

٩ — أبو على الحاتمى

حيـاته وأدبه ١١١
مَثَل القصيدة مَثَـل الانسان فى اتصال
بعض أجزائه ببعض ١١٢
القدماء والمحدَثون ١١٢
براعته فى نقد الشعر... ... ... ١١٣
السر فى خمول الحاتمى هو صلفه وكبرياؤه ١١٣
اصطدامه بالمتنبى ١١٤
وصفه لغطرسة المتنبى ١١٥
الرسالة الحاتمية ١١٦
مناقشة هذه الرسالة ١١٧–١١٩

١٠ — أبو عبدالله المرزبانى

حياته و إدمانه على الشراب ١٢٠

صفحة

إيثاره لمذهب المعتزلة ١٢٠
تحامل معاصريه... ... ... ١٢٠
مؤلفاته المختلفة ١٢١
عنايته بجمع أشتات الثقافة الأدبية... ... ١٢٢
كتاب الموشح ١٢٢
جمعه للمؤاخذات الشعرية ١٢٣
تجنيه على أبى تمام ١٢٤
سوق المآخذ بدون تمحيص ١٢٤–١٢٦
وحدة البيت ووحدة القصيدة ١٢٧
دقـة الوصف ١٢٨
تقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء... ... ١٢٨
الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف
ما يعيشون فى فضائلهم ١٢٩
بعض الفكاهات ١٣٠

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١ — أبو حيان التوحيدى

أسرار العبقرية ١٣٣
مولد التوحيدى وخمول نشأته ١٣٣
ثورته على الحياة والأحياء... ... ... ١٣٤
اتصاله بالصاحب وخروجه عليه... ... ١٣٤
ثورة نفسية ١٣٥
إحراقه لكتبه وغضبه على الناس ١٣٦
هجاؤه لمعاصريه ١٣٧
حديثه عن ابن مسكويه... ... ... ١٣٧

شخصيته الفلسـفية ١٣٨
رأيه فى حياة أهل الجنة... ... ... ١٣٩
حياته الوجدانيـة ١٣٩
كتاب الصداقة والصديق ١٤٠
براعته فى تصوير الصـداقة والحب ... ١٤١
تحليل العواطف والأهواء ... ... ١٤١، ١٤٢
صورة فنية لمودة صديقين ... ... ١٤٢، ١٤٣
رأيه فى الشريعة والفلسفة ١٤٣
إخوان الصفاء ١٤٤

صفحة

٢ ــ أبو على بن مسكويه

تحقيق آسمه و إسلامه ١٤٥
اتصاله بابن العميد ١٤٥
سخرية التوحيدى من آشتغاله بالكيمياء ١٤٦
سر تحامل التوحيـدى عليه ١٤٧
بديع الزمان يتودّد اليه ... . ١٤٧، ١٤٨
شغف آبن مسكويه بالفلسفة اليونانية... ١٤٩
وصيته ودستوره فى نظام السلوك ١٥٠

٣ ــ الأخلاق عند ابن مسكويه

تعريف الخلق ١٥٢
حيرته بين الفلاسفة القدماء ١٥٣
اهتمامه بتثقيف الخواص... ... ... ١٥٤
ثقتـه بالمنطق ١٥٤
الجسم والنفس ١٥٥
نقد رأيه فى خلود النفس... ... .. ١٥٥، ١٥٦
جهوده فى الفلسفة العملية ١٥٦
تحديد آرائه الأخلاقية ١٥٧
آداب الصداقة و رعاية الصديق ١٥٨

٤ ــ ابن نبـاته الخطيب

أبناء نباته فى الأدب العربى ١٥٩
حياة آبن نباته الخطيب ١٥٩
خطبة المنـام ١٦٠
ولوعه بالأخبار المنامية ١٦٠
تعليل هذه الأخبار ١٦١
أثر الزهد والصلاح فى خطبه... ... ... ١٦١

صفحة

القيمة الفنية لخطبه المنبرية ١٦٢
اهتمامه بالسجع والازدواج ١٦٢
تضمينه لآى القرآن... ... ... ١٦٣
كلفه بالخيال ١٦٣
وقوفه عند الأفكار السطحية... ... ... ١٦٤
سياسته لعامة الجماهير ١٦٥

٥ ــ أبو محمد بن حزم

حياته وكلفه بالكتابة عن الحب ١٦٦
كتاب طوق الحمامة ١٦٧
المحبة لا تصح إلا بعد طول الأنس ... ١٦٧
دوام الوصل لا يذهب بالحب ١٦٨
إغرامه بتتبع أخبار العشاق ١٦٩
وصف رسائل الحب ١٧٠
دراسة الحب جزء من علم النفس... ... ١٧١
رأى آبن حزم فى طبيعة المرأة... ... ... ١٧٢
غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة... ... ١٧٣
شاهد محزن من وفاء المرأة ١٧٤
المرأة أكثر مواساة من الرجل... ... ... ١٧٥
السر فى تمكن طبع المواساة من النساء... ١٧٦
المرأة والرجل فى الضعف سواء ١٧٦
ما الصلاح وما الفساد فى الرجال والنساء ١٧٧
عفاف آبن حزم... ... ... ١٧٧
الجمال أهل للدرس ١٧٨

٦ ــ أبو منصور الثعالبى

حياته وشـعره ١٧٩
مواهبه النثرية ١٨٠

صفحة

طرائف من الكنايات ... ... ١٨١، ١٨٢
كتاب ثمار القلوب ١٨٣
ثعابين مصر فى كلام الجاحظ... ... ... ١٨٣
النقش والتصوير عند الأمم القديمة ... ١٨٤
عرق الخال ١٨٤
حشو اللوزينج ١٨٥
ماء عناق ١٨٦
يتيمة الدهر ١٨٧
غرام الثعالبى بإطراء من يترجم لهم من الشعراء ١٨٨
استغلال الثعالبى لألفاظ معاصريه ... ١٨٩
إغفاله لتاريخ الوفيات ١٩٠
كتاب فقه اللغة ١٩٠

الباب السادس

كتاب الوسائل والعهود

١ — أبو الفضل بن العميد

حياته ومواهبه ١٩٣
إجلاله لأبى بكر الخياط ١٩٤
طريقته فى نقد الشعر ١٩٤
أدب النفس ١٩٥
رائية ابن نباتة السعدى ١٩٦
ما وقع بين ابن العميد وبين السعدى ... ١٩٧
عمل التوحيدى فى هذه المحاورة ... ١٩٨
أبو الفتح ابن العميد ونزواته فى صباه... ١٩٩
توجع أبى الفضل من سيرة ابنه ٢٠٠
مرض ابن العميد ومماته... ... ... ٢٠١

٢ — نثر ابن العميد

عظمته النثرية ٢٠٢
خطاب وعيد ٢٠٣
رسائله الوجدانية ... ... ٢٠٤—٢٠٧
ما يجب أن يتحلى به الرجل فى الحياة الرسمية ٢٠٨
الرسائل الإخوانية ... ... ٢٠٨—٢١٠

٣ — أبو حفص بن برد

حياته وأدبه ٢١١
ضياع رسائله ٢١٢
خطابه الى القوّاد والكتّاب ٢١٢
صور النزاع بين العرب والبربر ... ٢١٣—٢١٥
قيمة ابن برد الأدبية ٢١٥
عهد المؤيد بن هشام ٢١٥
كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد ٢١٦
الجانب النفعى والوجدانى عند ابن برد ٢١٧

٤ — أبو المغيرة بن حزم

حياته ونحوله ٢١٨
ما وقع بينه وبين أبى محمد بن حزم ... ٢١٨

صفحة

سخريته من الدراسات الفقهية ٢١٩
دقة حســه فى ٱختيار أطايب الحياة ... ٢٢٠
سوء ظنه بالنــاس ٢٢٠
حنينه الى إخوانه ٢٢١
غربة أدباء الأندلس... ... ... ٢٢٢
حديثه عن بلائه بالناس... ... ... ٢٢٢
إقذاعه فى الهجاء... ... ... ٢٢٣
محاكاته لبــديع الزمان ٢٢٤
معارضته لإحدى رسائل بديع الزمان ... ٢٢٥
غلبــة التكلف على نثره ٢٢٥

٥ — أبو الفرج الببغا

حياته وخموله ٢٢٦
دورانه حول أغراضه النفسية ٢٢٧
نماذج من شعره... ... ... ٢٢٧، ٢٢٨
مودته لأبى إسحاق الصابى ٢٢٩
وصف الببغاء ٢٣٠
وصف الصابى للثغة الببغا ٢٣١
غلبة النزعة الوصفية على الببغا ... ... ٢٣١، ٢٣٢

٦ — نثر الببغا

اهتمامــه بالإخوانيات ٢٣٣
نماذج من إخوانياته... ... ... ٢٣٣، ٢٣٤
رسالته فى التهنئة بمولودة... ... ... ٢٣٤
تفضــيل الأنثى على الذكر ٢٣٥
"تهنئة" من تزوجت أمه ٢٣٥
رسالة ٱبن العميد فى الموضوع نفسه ... ٢٣٦

صفحة

استهــداء الشراب ٢٣٧
استهداء الدواة والمداد ٢٣٨
الموضوعات المكررة... ... . ٢٣٩
تهنئة بالشفاء من المرض... ... ... ٢٤٠
تهنئة بالمرض !... ... ... ٢٤٠
تكرير العبارات والألفاظ ... ... ٢٤٠، ٢٤١
رسائله المرصعة بالشعر ... ... ٢٤١، ٢٤٢

٧ — الصاحب بن عباد

بداية أمره... ... ... ٢٤٣
اتصاله بابن العميد... ... ... ٢٤٣
ولايته الوزارة ٢٤٤
عدّته العلمية ٢٤٤
أخلاقه بين الكرم واللؤم... ... ... ٢٤٤
رغبته فى ٱستكتاب الصابى ٢٤٥
ما ٱختلقه التوحيدى على ٱبن عباد ... ٢٤٦
صور من غرور الصاحب ٢٤٧
مفتريات التوحيدى عليــه ٢٤٨
رأى الثعالبى فى الصاحب ٢٤٩
من قصد الصاحب من الشعراء والكتاب ٢٥٠
إغرابه بالكتابة فى الطب ... ... ٢٥١، ٢٥٢
رسالة الخوارزمى الى تلميــذ ظهر عليــه
الجــدرى ٢٥٢
كلام الخوارزمى عن الجرب... ... ... ٢٥٣
إغراب الصاحب بنظم قصائد خاليــة
من بعض الحروف ٢٥٤

صفحة

تحامل الصاحب على المتنبي ٢٥٥
إعجابه بمذهب ابن العميد ٢٥٦
شذرات من رسالته عن المتنبي ... ... ٢٥٦، ٢٥٧
قيمته الأدبية ٢٥٨

٨ — أبو بكر الخوارزمى

نبوغه بين معاصريه... ... ... ٢٥٩
حياته وأسفاره ٢٦٠
كلمة عن أشعار النساء ٢٦٠
اتصاله بالصاحب ٢٦١
تحامله على المتنبي مجاملةً للصاحب ... ٢٦١
فساد الصلات بينه وبين الصاحب ... ٢٦٢
اصطدامه بالهمذانى بديع الزمان ٢٦٣
شعوره بأعباء الحياة... ... ... ٢٦٤، ٢٦٥
تشاؤمه من صحبة من يعانون إدبار الأيام ٢٦٥
فهمه لأسرار البيان ٢٦٦
سر البلاغة يرجع الى الصدق... ... ... ٢٦٧
الخوارزمى بين التحليق والإسفاف ... ... ٢٦٨، ٢٦٩
المرح والفكاهة ٢٦٩
الجوانب الجدّية ٢٧٠
شعوره بهزيمته فى الحياة... ... ... ٢٧١
تصويره لبعض من عرف من الظالمين ٢٧٢
شاهد من سجعه المتكلف ٢٧٣
هل كانت للخوارزمى فلسفة خاصة؟ ... ٢٧٤، ٢٧٥
إشارته الى ماوضع بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية... ... ... ٢٧٥

صفحة

٩ — قابوس بن وشمكير

نشأته وأدبه ٢٧٧
شعره فى محنته ٢٧٨
صنعته فى نثره ٢٧٨
ما ابتكره من فنون البديع ٢٧٩
الجمع بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة ٢٨٠
نقد رسائل قابوس ... ... ٢٨١، ٢٨٢
دراسة الآداب القديمة تعطينا صورا عجيبة من أحلام الانسانية... ... ... ٢٨٣—٢٨٥
هل كانت لقابوس فلسفة؟ ... ... ٢٨٦—٢٨٨
نشأة التكنية عند العرب... ... ... ٢٨٨، ٢٨٩

١٠ — أبو إسحاق الصابى

حياته وأخلاقه النبيلة ٢٩٠
تأثره بالروح الاسلامى ٢٩٠
صداقته للشريف الرضى... ... ... ٢٩١
قصيدة الشريف فى رثائه ... ... ٢٩١—٢٩٣
رغبته فى أن يمدحه المتنبي ٢٩٣
تأبى الصابى عن الاتصال بالصاحب... ٢٩٤
توجعه من الحياة ٢٩٤
رقة شعره وعذوبته ٢٩٥

١١ — رسائل الصابى

فناء روحه فى البيئة الاسلامية ٢٩٦
استقاؤه من منبع على بن أبى طالب ... ٢٩٦
نثره تغلب عليه الصبغة الادارية ٢٩٧
ضعف الخلفاء لعهده ٢٩٧

	صفحة
فخاره بمواهبه الأدبية...	٢٩٧
فقرات وصفية	٢٩٨
أثر الحكمة قليل فى نثره	٢٩٩
كتابه عن الطائع الى عضد الدولة... ...	٣٠٠
كتابه عن عز الدولة وقد زوّجت ابنته	٣٠٠
تفوّقه وسعة حيلته	٣٠١

١٢ — أبو عامر بن شهيد

آل شهيد	٣٠٢
غرام أبى عامر بالفتوّة والصبوة... ...	٣٠٢
عيشه فى القصف والتهتك	٣٠٣
كرم نفسه	٣٠٤
فساد رأيه فى شئون نفسه وسداد رأيه فى شئون غيره ، وما آتفق للشـاعر الفرنسى لافونتين فى هذه الحال ...	٣٠٤
شـعوره بكراهة الموت	٣٠٥
نوحه على نفسه حين فكر فى الانتحار ...	٣٠٥
ظرفه فى مرضه...	٣٠٦
نماذج من شعره الموجع حين أحس دنو الموت	٣٠٧
شعره فى إخوانه ومحبوبه...	٣٠٨
ما أوصى أن يكتب على قبره...	٣٠٨
وفاته رحمه الله	٣٠٩

١٣ — نثر آبن شهيد

براعتـه فى الإنشاء	٣١٠
مظاهر الالتواء فى نثره	٣١١
غرامه بمقارعة كتاب المشرق...	٣١١
خبثه فى هجاء الافليلى	٣١٢
نموذج من نثره الجيد...	٣١٢
وصفه لاحدى المنافرات...	٣١٣
فتنته ببعض رسائله	٣١٤
وصف البعوض ووصف الحلواء... ...	٣١٤
رسالة بديع الزمان فى وصف ماعند الشواء	٣١٥
وصف جارية	٣١٦
رسالته عن النار والحطب	٣١٧
قوّته فى اللغة العربية	٣١٧
نثر آبن شهيد لم يبق منـه إلا القليل ...	٣١٨

١٤ — أبو الفضل الميكالى

أسرة الميكالى	٣١٩
رأى الثعالبى فى أبى الفضل	٣١٩
الاخوانيات عند الميكالى	٣٢٠
كتابه الى الثعالبى	٣٢١
شكوى الزمان	٣٢١
وصف رسائل الاخوان...	٣٢٢
صلته بأصدقائه وألافه	٣٢٣
فنه فى نثره وشعره	٣٢٣
سلطانه على معاصريه	٣٢٤

١٥ — بديع الزمان

حياته وأسفاره	٣٢٥
رأى الثعالبى فيه...	٣٢٦
بوادر الشر بينه و بين الخوارزمى	٣٢٨

صفحة

المراسلات التى تقدمت المناظرة ٣٢٩
جواب الخوارزمى ٣٣٠
صورة المناظرة ٣٣١
المباراة فى نظم الشعر... ... ... ٣٣٢
قصيدة بديع الزمان ٣٣٣
قصيدة الخوارزمى ٣٣٤
جواب بديع الزمان ٣٣٤
مناوشة أدبية ٣٣٥
ملاحاة... ... ... ٣٣٦
ملاحاة أشنع ٣٣٧
هدنة تعقبها حرب ٣٣٨
تحرش وسفه ٣٣٩
قصيدة فى التشيع ٣٤٠
استئناف النضال ٣٤٢
نقد قصيدة للخوارزمى ٣٤٤
وصف الربيع ٣٤٥
ملاحاة ٣٤٦
مباراة فى الترسل ٣٤٧
رسالة للخوارزمى فى التجارات والأســعار ٣٤٧
رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة... ... ٣٤٨
هزيمة الخوارزمى ٣٤٩

صفحة

مناوشات لفظية ٣٥٠

١٦ ــ نثر بديع الزمان

تصويره لألوان النفوس... ... ... ٣٥١
قوة نفسه وخطابه عن خليفة الميكالى... ٣٥١
خطابه الى من هنأه بمرض الخوارزمى... ٣٥٢
خطاب فى التعزية ٣٥٣
تحليل هذا الخطاب... ... ... ٣٥٤
سخريته من الناس ٣٥٤
حقده على الأغنياء ٣٥٥
خطاب الى انسان ولّى صباه... ... ... ٣٥٦
نقد الأخلاق ٣٥٦

١٧ ــ عبد العزيز بن يوسف

حياته وأخلاقه ٣٥٧
صلته بالصاحب ٣٥٧
نمـاذج من رسائلة الاخوانية ٣٥٨
ترصيع النثر بالشعر ٣٥٨
وصف الرسائل الاخوانية ٣٥٩
فتح عمان و إبادة الزنوج... ... ... ٣٥٩
الرسائل السلطانية ٣٦٠
فقرات من نثره ٣٦١

فهرس الاعلام (١)

حرف الألف

آدم (عليه السلام) — ج ١ ص ١٨٣ ، ٢٤٧ ؛ ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١
أبان بن أبي عياش — ج ١ ص ٨٩
ابراهيم بن زيد — ج ١ ص ١٢٧
ابراهيم بن العباس — ج ٢ ص ٥٧
ابراهيم مصطفى — ج ١ ص ٢٩
ابليس — ج ١ ص ١٢٧
ابن الأبهرى — ج ١ ص ١٦٨
أبيّ بن كعب — ج ٢ ص ٤٢
ابن الأثير — ج ١ ص ١٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٣
الآمدى — ج ١ ص ١١٣ ؛ ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨
ابن الأجدابى — ج ٢ ص ٣٩
أحمد بن ابراهيم بن على — ج ١ ص ٢٤٣
أحمد أمين — ج ١ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦
أحمد بن أيمن — ج ١ ص ٣٠٠
أحمد بن بندار — ج ٢ ص ٣٦
أحمد بن حاتم — ج ١ ص ٢٤٦
أحمد بن الحارث — ج ١ ص ٢٤٢
أحمد بن الحسين — ج ٢ ص ٢٢١ (وانظر المتنبى).
أحمد بن الحسين — (انظر بديع الزمان).
أحمد بن الخطيب — ج ١ ص ٨١
أحمد زكى باشا — ج ١ ص ٢٩٧
أحمد بن صالح — ج ١ ص ٢٩٧
أحمد ضيف — ج ١ ص ٢٠٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠
أحمد بن طولون — ج ١ ص ٢٩٧
أحمد عارف الزين — ج ٢ ص ١٧
أحمد بن عبد ربه — ج ١ ص ١٢٢
أحمد عبد الخالق السادات — ج ٢ ص ٢٨٩
أحمد بن كثير الفرغانى — ج ١ ص ٣٠٢
أحمد بن يوسف المصرى — ج ١ ص ١١٣ ، ١٥٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
الأحنف بن قيس — ج ١ ص ٨٩
الأحوص — ج ١ ص ٢٣٩
الأخشيدى (كافور) — ج ٢ ص ٢٦١
الأخضرى — ج ١ ص ٦٤
الأخطل — ج ١ ص ٧٦ ، ٨٧ ، ٢٥١ ج ٢ ص ١٢٣ ، ٢٣١١ ص ١٢٣ ، ٣١١
الأخفش — ج ٢ ص ٨٢
ادريس — ج ١ ص ١٢٧ — ج ٢ ص ٣١٤

(١) فى هذا الفهرس أعلام قليلة مكررة بسبب ورودها مختلفة الكنى والألقاب فى صلب الكتاب .

أبو إسحاق بن حمام — ج ١ ص ٢٦٨
أبو إسحاق (الحاجب) — ج ٢ ص ٢٦١
إسحاق بن ابراهيم الموصلى — ج ١ ص ٢٤، ١٥٢
أبو إسحاق بن محمد البصرى — ج ١ ص ١٣٥
الأسدى (أبو العلاء) — ج ٢ ص ١٨٢
الأسدى — ج ٢ ، ص ٢٠
الاسكافى (أبو القاسم) — ج ٢ ص ١٨٨
إسماعيل (عليه السلام) — ج ٢ ص ٤١
إسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) — ج ١ ص ١٥١
أرسطاليس — ج ٢ ص ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٤٩، ١٥٣، ٢٨٨
أرشميدس — ج ٢ ص ٢٨٨
أشجع — ج ١ ص ١٦١
الأشعرى (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٧٧
الأشعرى (أبو موسى) — ج ٢ ص ٧٥
الأصبهانى (أبو الفرج) — ج ١ ص ٣ ، ١، ٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥
الأصمعى — ج ١ ص ١٥٠، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢ ؛ ج ٢ ص ٣٩، ٤٦، ٧٢، ٩٢، ١٠٩، ١٢٩، ١٣٠، ٢٧٦
الأصفهانى (الراغب) — ج ١ ص ١٦١
ابن الأعرابى — ج ١ ص١٤٩ج٢ص٩١، ٩٢، ١٩٠
الأعشى — ج ١ ص ٢١٧، ٢١٨ ج ٢ ص ٧٠ ، ١٠٧
الأعظمى (نعمان) — ج ٢ ص ٢٧٧
أفلاطون — ج ٢ ص ١٥٣، ٢٨٨
الافليلى (أبو القاسم) — ج ٢ ص ٥٢ ، ٣١١ ، ٣١٢
الأفوه الأزدى — ج ١ ص ٩٤
الأقرع بن حابس — ج ١ ص ٨٩
أكثم بن صيفى — ج ١ ص ٤٨
أبو أمامة — ج ١ ص ٨٧
أمين عبد العزيز — ج ١ ص ٢٩٦
الأمين (الخليفة) — ج ٢ ص ٨٥
ابن الأنبارى (محمد بن القاسم) — ج ١ ص٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧ ؛ ج ٢ ص ٢٧
أوس — ج ١ ص ٩٤
أوسكار وايلد — ج ٢ ص ٩٤
أيوب بن القرية — ج ١ ص ٨٨

حرف البـاء

بابك الخرمى — ج ١ ص ٣٣٢
البارودى — ج ١ ص ٢٠
الباقلانى — ج ١ ص ٦٧ ، ١١٣ ؛ ج ٢ ص ٥١، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١
الببغاء (أبو الفرج) — ج ١ ص ٢٧ ، ١٢٨ ؛ ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
بتروف Petrof — ج ٢ ص ١٦٦
البحترى — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ ج ٢ ص ١٨ ، ٢٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ٣٠٩

البحترى (وهب بن وهب) — ج ٢ ص ٢٧٦
بختيار — ج ١ ص ٢٤٤
بدر الحرمى — ج ٢ ص ٣٠٠
بديع الزمان الهمذانى — ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٥، ٢٧ ، ٧٨، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٤، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٢، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢، ٢٦٢ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢ ص ٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٩، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥، ٣١٢، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ الى نهاية المناظرة ص ٣٥٠ ثم شر بديع الزمان
البديهى (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٢٥٠
ابن برد (الأصغر) — ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢
ابن برد (الأكبر) — ج ٢ ص ٣١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٣١٣
بروكلمـان — ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ ج ١ ص ١٦٧
بزرجمهر — ج ١ ص ٩٩
ابن بسام — ج ٢ ص ١٧٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٥٩ .
البسطامى (أبو عمر) — ج ٢ ص ٣٤١
بطليموس — ج ٢ ص ٢٨٨
بشار بن برد — ج١ص١٨، ٢٠، ٤٨، ٧١، ١٥٥؛ ج ٢ ص ١٨٢
بشر بن المعتمر — ج ٢ ص ٢٤
البشرى (الشيخ سليم) — ج ١ ص ٢٩
البشرى (الشيخ عبد العزيز) — ج ١ ص ٢٩
البصرى (الحسن) — ج ١ ص ٦١ ، ٧٠
البعيث — ج ١ ص ٢٠٦ ؛ ج ٢ ص ٧٦، ٢٨١
البغدادى (أبو القاسم) — ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ الى بقية القصة ص ٣٥٠
البغدادى (أبو محمد عبد الرازق بن الحسن) — ج ٢ ص ١٩٨
البكرى (توفيق) — ج ١ ص ٧٧ ، ٨٦ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ٢١٩
البلاذرى (أبو جعفر) — ج ٢ ص ٢٥١
بلانشو Blanchot — ج ١ ص ٤١
بودلير Beaudelaire — ج ١ ص ١٨٣
البها زهير — ج ٢ ص ٧١
بيان الطفيلى — ج ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤
بيدبا (مؤلف كليلة ودمنة) — ج ١ ص ٢٧١ ج ٢ ص ٢٣٧
بيراست الحكيم (ملك الجن) — ج ١ ص ٢٨٢

حرف التـاء

تأبط شرا — ج ١ ص ٩٤
أبو تمـام — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ١٨١ ؛ ج ٢ ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٨٢ ، ٨٤، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٤ ، ١٢٥
التنوخى — ج ١ ص ١١٣ ، ١٢٢ ، و ٣١٥ الى بقية الفصل

التوحيـدى — ج ١ ص ٢٦، ٦٩، ٧٠، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ٢٥٢، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥؛ ج ٢ ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٩

حرف الثـاء

الثعالبى — ج ١ ص ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٥٥، ٨٤، ١١٣، ١١٤، ١٢٩، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨، ٢٨٦؛ ج ٢ ص ١٧، ٢٧، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٢٢٦، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٨٠، ٣٠١، ٣١٠، ٣١١، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٨

حرف الجيم

جابر بن حيان — ج ٢ ص ١٤٦

الجاحظ — ج ١ ص ٢٤، ٢٥، ٤٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٩، ٧١، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١١٥، ١٥٥، ١٧٤، ١٧٥، ٣٤٠؛ ج ٢ ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٧، ٥٨، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٧، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٩، ٣٠٧، ٣١٠

جالينوس — ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

جبريل — عليه السلام ج ١ ص ٩٩، ١٠٠

جبريل القرداحى — ج ١ ص ٢٠٣

الجرجانى (أحمد بن محمد) — ج ٢ ص ١٨١

الجرجانى (عبد القاهر) — ج ١ ص ٢٢، ج ٢ ص ٧، ٤٢

الجرجانى (أبو الحسن على بن عبد العزيز) — ج ١ ص ١٨، ٢٦، ١١٣، ج ٢ ص ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٧، ١٨١، ١٩٠

جرير — ج ١ ص ٨٧، ٢٠٧، ٢٢٠، ج ٢ ص ١٨، ١٠٩، ١٢٣، ٢٨١، ٣١١

جرير بن عبد الله — ج ٢ ص ٣٧

الجزايرى (طاهر) — ج ٢ ص ١٥٩

الجزيرى (محمد ابراهيم) — ج ١ ص ٥٤، ٥٥

الجعدى (النابغة) — ج ١ ص ٢٨

جعفر بن محمد بن ثوابة — ج ١ ص ١٧ ج ٢ ص ١٤١

جميل — ج ١ ص ١٦١، ٢٣٩، ٢٥١ ج ٢ ص ٩٠

جنان (معشوقة أبى نواس) — ج ١ ص ٢٤١

ابن جنى — ج ٢ ص ٤٠

جوت — ج ٢ ص ٦٦

ابن الجوزى — ج ١ ص ٢٠٢

جولد يزهير — ج ٢ ص ١٦٧

جويدى — ج ٢ ص ٣٧، ٣٨

حرف الحـاء

أبو حاتم السجستانى — ج ١ ص ٧٧، ٢٥٠

الحاتمى (أبو على) — ج ١ ص ١١٣؛ ج ٢ ص ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩

الحارث بن شمر الغسانى — ج ١ ص ٤٨

أبو حامد المروزى — ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

حافظ إبراهيم — ج ١ ص ٢٠، ٤٣، ٥٤، ١٧٣
الحجاج — ج ١ ص ٤٧، ٦٢؛ ج ٢ ص ١٣٣، ٢٧٢، ٢٧٣
ابن الحجاج — ج ١ ص ٣٣٨، ٣٤٠ ج ٢ ص ١١٣
ابن أبي الحديد — ج ١ ص ٦٩، ٩٦، ١٠١، ٢٨٢، ٢٨٣؛ ج ٢ ص ١٥٩
الحربي (أبو بكر) — ج ٢ ص ٣٤٤
الحريري — ج ١ ص ٩٣، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٩٤؛ ج ٢ ص ٢٢، ١٦٢
الحريزي (يهود ابن شلومو) — ج ١ ص ٢٠٣
ابن حزم (أبو المغيرة عبد الوهاب) — ج ١ ص ١١٠؛ ج ٢ ص ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥
ابن حزم (أبو محمد) — ج ١ ص ١٢٥؛ ج ٢ ص ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣، ٣٠٦، ٣٠٧
ابن حزم (أبو بكر) — ج ١ ص ٢٦١، ٢٨٣، ٢٨٤؛ ج ٢ ص ١٧٤
حسان — ج ١ ص ٢١٧
الحسن بن علي — ج ١ ص ١٢٧
حسنين مخلوف — ج ١ ص ٢٩٤
أبو الحسين (السيد) — ج ٢ ص ٣٤٠
الحسين بن محمد الخشنامي — ج ٢ ص ٣٢٧
الحصري (أبو إسحاق) — ج ١ ص ٢٤، ٢٧، ٧١، ١٢٦، ١٩٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٧؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٣٥، ٢٣٩
ابن الخصيب — ج ١ ص ٨٢
الحطيئة — ج ١ ص ٥٥، ٥٦؛ ج ٢ ص ٤٢
حماد بن إسحاق — ج ١ ص ٢٤٢
حمزة الأصفهاني — ج ١ ص ٢٣٠
حممة بن رافع — ج ١ ص ٢٥٢
حميد الدين البلخي — ج ١ ص ٢٠٣
حميد بن ثور — ج ٢ ص ١٠٥
الحميري (السيد) — ج ٢ ص ٩٨، ١٢١
الحناط — ج ٢ ص ٣١٠، ٣١١، ٣١٣
ابن حيان — ج ٢ ص ٣١٠، ٣١١، ٣١٥
الحيري (أبو زكريا) — ج ٢ ص ٣٤٤

حرف الخاء

خالد الخريت — ج ١ ص ٢٣٨
خالد بن عبد الله القسري — ج ١ ص ٧٣
ابن خالويه — ج ١ ص ٢٤٩؛ ج ٢ ص ١١٤
الخبزأرزي — ج ١ ص ٢١٧
الخزرجي (أبو دلف) — ج ١ ص ٣٥١
الخثعمي — ج ١ ص ١٢٠
أبو الخطاب (الصابي) — ج ١ ص ١٣٩
الخفاجي — ج ١ ص ٨٩، ٩٠، ٩١
ابن خفاجة الأندلسي — ج ١ ص ١٧٣
ابن الخلال — ج ٢ ص ١٢٠
ابن خلدون — ج ٢ ص ٢١٥
خلف الأحمر — ج ٢ ص ٨٥، ٩٢، ١٣٠
ابن خلكان — ج ١ ص ١٣١، ٢٤٧؛ ج ٢ ص ١٧، ٩٤، ١٢٠، ١٥٩، ١٦٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨، ٢٦٠، ٣٢٨

الخليل بن أحمد — ج ١ ص ١٨٤ ، ٢٦٩ ؛ ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ؛ ٩٢
خنافر الحميرى — ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٦
الخنساء — ج ٢ ص ١٠٧
خواجا — ج ١ ص ٢٤٩
خوارزم شاه (مأمون بن مأمون) — ج ٢ ص ١٧٩
الخوارزمى (أبو بكر) — ج ١ ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٤ ، ٣٤٦ ؛ ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢
الخياط (أبو بكر) — ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥

حرف الدال

ابن الدارى — ج ٢ ص ٢٤٥
الدؤلى (أبو الأسود) — ج ١ ص ٥٥ ؛ ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣
دانونزيو (شاعر إيطاليا) — ج ٢ ص ٢٨٥
ابن داود — ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ؛ ج ٢ ص ١٧١
الدار قطنى — ج ١ ص ٢٤٧
ابن درستويه — ج ١ ص ١٨ ، ٢٦٩
ابن دريد — ١ ص ٧٣ ، ١١٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ — ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ : ج ٢ ص ٨٢ ، ١٩٠ ، ٣١٩
دعبل بن على — ج ٢ ص ٩١
دكين (من حمير الجن) — ج ١ ص ٢٦٣
دوزى — ج ٢ ص ١١٧
ديك الجن — ج ١ ص ١٧٣ : ج ٢ ص ١٨ ، ٢٥
ديمـومبين (Demombynes) — ج ١ ص ٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ج ٢ ص ١٦٧

حرف الذال

الذبيانى (النابغــة) — ج ١ ص ٦٥ ، ح ٢ ص ٧٠ ، ١٠١ ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ١٣٥
ابن ذريح (قيس) — ج ٢ ص ٧٥
أبو ذر — ج ٢ ص ٢٧١

حرف الراء

رؤبة — ج ٢ ص ٢٢
الرازى (أبو الحسين بن فارس) — ج ٢ ص ٢٧
الرافعى (مصطفى صـادق) — ١ ص ١٦٢
ربيعة بن حذار — ج ١ ص ٨٩
رجاء (أبو سعد) — ج ٢ ص ١٨٥
الرستمى (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٢٥٠
ابن رشد — ج ١ ص ٢٨٢
الرشيد — ج ٢ ص ٤٦ ، ٢٥٠
ابن رشيق — ج ١ ص ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢
الرضى (الشريف) — ج ١ ص ٢٠ ، ٢٦ ، ٦٩ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ٢٨٣ ؛ ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٥٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦
الرقاشى (عبد الصمد بن الفضل) — ج ١ ص ٨١ ، ٨٩ ، ٩٣
الرقاشى (الفضل بن عيسى) — ج ١ ص ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٢

ركن الدولة — ج ١ ص ١١٦، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٣، ج ٢ ص ٢٤٤، ٣٦٠
الرمانى (على بن عيسى) — ج١ص٨٩؛ج ٢ص١١٤
ذو الرمة — ج ١ ص١٨٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٦، ٢١٧
روش (Ruch) — ج ٢ ص ٢٥٤
الروزبارى (أبو بكر بن على)— ج ١ ص٢٨٦
ابن الرومى — ج ١ ص٢٠، ٦١؛ ج ٢ ص ١٠٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٧، ١٨٠، ٢١٦، ٢١٩، ٣٠٠
رينان (Renan) — ج١ص٤٤؛ ج ٢ص ٣٢، ٣٣

حرف الزاى

زبدة الحقب (شيطان بديع الزمان) — ج ١ ص ٢٦٧
أبو زبيد الطائى — ج ١ ص ٢١٥
ابن الزبعرى — ج ٢ ص ٢٥
الزبير بن بكار — ج ١ ص ٢٤٢
الزبيرى (بكار بن عبد الله) — ج ٢ ص ٢٧٦
الزجاج — ج ٢ ص ٨٢
الزجالى (أبو الوليد) — ج ٢ ص ٣٠٨
الزركلى (خير الدين) — ج ٢ ص ٩٤، ١٤٥
ابن زكريا — ج ٢ ص ٢٥١
بنت زكريا بن يحيى التميمى — ج ٢ ص ١٧٤
الزنابيرى — ج ١ ص ٣٤١
أبو زكريا — ج ٢ ص ١٤٦
الزعفرانى (أبو القاسم) — ج ٢ ص ٢٥٠
الزوزنى (أبو على) — ج ٢ ص ١٨٨
الزوزنى (الكاتب) — ج ٢ ص ٢٨٠
زهير بن نمير (من الجن) — ج ١ ص ٢٦١، ٢٦٢
زهير — ج ٢ ص ١٣٠
ابن الزيات — ج ١ ص ١٨؛ ج ٢ ص ٥٧
الزيات (أحمد) — ج ١ ص ٦٠
زياد بن أبى سفيان — ج ١ ص ٤٧، ٦٣، ٩٢
زيدان (جورجى) — ج ١ ص ٢٣٤ ج ٢ ص ٩٤
أبو زيد — ج ١ ص ٧٧
ابن زيدون — ج ١ ص ١٨، ١٨٠، ٢٩٤؛ ج ٢ ص ١٥٩، ٢٠٩
زيد بن عدىّ — ج ٢ ص ١٨٦
زيد بن على — ج ١ ص ١٢٧
أبو زيد القرشى — ج ٢ ص ٢٦٠

حرف السين

السجستانى (أبوسليمان محمد بن طاهر) — ج ٢ ص ١٤٢
السجستانى (أبو حاتم) — ج ١ ص ٢٥٢
سحبان — ج ١ ص ٣٧، ٥٩، ١٣٩
ابن السراج — ج ٢ ص ٨٢
سعد باشا — ج ١ ص ٥٤، ٥٥
ابن سعدان (أبو عبد الله) — ج ١ ص ١٢٣
ابن سعد (أبو الحسين) — ج ٢ ص ١٨٥
السعدى (ابن نباتة) — ج ٢ ص ١٥٩، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨
سعيد بن حميد — ج ١ ص ١٩١ ج ٢ ص ١٠٨
سقراط — ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

ابن سكرة (أبو الحسن) — ج ١ ص ٣٣٨

السلامى (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٢٥٠

سليمان عليه السلام — ج ٢ ص ١٨٣

سليمان بن الحكم — ج ١ ص ٢١٤، ٢٥٩ ج٢ ص ٢١٣

أبو السمط بن أبى الجون الأموى — ج ٢ ص ٢٧٦

سنوك هوجرنيه (Senouk) — ج ٢ ص ١٦٧

سوار بن شراعة — ج ١ ص ٢٢٥، ٢٩٧

سهل بن هرون — ج ٢ ص ٥٧، ٥٨

السيرافى (أبو سعيد) — ج ١ ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٦، ٢٨١ ج ٢ ص ١١٤

ابن سيار القاضى — ج ٢ ص ١٤٢

ابن سيده — ج ٢ ص ٣٩، ٤٠

سيف الدولة بن حمدان — ج ١ ص ٢٣٤، ٢٨٦ ج٢ ص ١١٣، ١٥٩، ١٦١، ١٨٩، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١

أم سيف الدولة — ج ٢ ص ٢٥٦

السيوطى — ج ١ ص ٢٠٢ ج ٢ ص ٧، ٢٧، ٢٤٤

حرف الشين

ابن شاذان — ج ٢ ص ١٢٠

الشافعى (الامام) — ج ١ ص ٢٩

شبيب بن شبة — ج ١ ص ٨٠

شكيب أرسلان — ج ١ ص ٨٤

الشنقيطى — ج ٢ ص ٣٢

ابن شهيب (أحمد) — ج ٢ ص ٢٦٣

ابن شهيد — ج ١ ص ١٨، ٢٦، ١١٣، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩ ؛ ج ٢ ص ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٧٧، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨

شوقى — ج ١ ص ٢٠، ٤٣، ١٠١، ١٨٥

الشيبانى (أحمد بن يحيى) — ج ٢ ص ٩١

حرف الصاد

الصابى — ج ١ ص ١٧، ١٨، ٢٦، ٥٨، ١١١، ١١٣، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٧٤، ٢٨٦؛ ج ٢ ص ١٤٤، ١٨٢، ٢٠٣، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٥، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٥٧، ٣٥٨

الصابى (أبو الخطاب) — ج ١ ص ٣٩

الصاحب بن عباد — ج ١ ص ١٧، ١٨، ١٩، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩٤؛ ج ٢ ص ٨، ٤٦، ٥٢، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٨٦، ١٨٨، ٢٩٢، ٣٢٦، ٣٥٧ (وانظر ابن عباد)

صالح بن عبد الجليل — ج ١ ص ٢٠١

صحر (اسم فتاة) — ج ١ ص ٢٤٨

صدقى باشا — ج ١ ص ١٨٥

الصديق أبو بكر — ج ١ ص ٥٠، ١٤٣

صعصعة بن صوحان — ج ١ ص ٧٥، ٧٦، ٧٧

الصقلبى (زهير) — ج ٢ ص ٣١٣

الصلتان العبدى — ج ١ ص ٢٠٦

الصولى (ابراهيم) — ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ؛ ج ٢ ص ١٨١
الصولى (أبو بكر) — ج ١ ص ٥٦ ، ٢٤٩
الصيمرى (أبو جعفر) — ج ١ ص ١٦٧

حرف الضــاد

الضبي (أبو العباس) — ج ٢ ص ٢٥٠
الضبي (أبو عامر) — ج ٢ ص ٣٥٣
ضمرة بن ضمرة — ج ١ ص ٨٩

حرف الطــاء

الطائع لله — ج ٢ ص ٣٦٠
الطائى (أبو تمام) — ج ٢ ص ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦
ابن طباطبا — ج ٢ ص ٨٢
ابن أبى طاهر (أحمد) — ج ١ ص ١٧
الطبرى (أبو عبد الله) — ج ١ ص ٤٩ ؛ ج ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
الطبنى — ج ٢ ص ٣١٣
طه حسين — ج ١ ص ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ؛ ج ٢ ص ٤٦
طرفة — ج ١ ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ؛ ج ٢ ص ٢٠
الطرماح — ج ٢ ص ١٢٥
ابن الطواء — ج ١ ص ٣٤١
ابن طوق (مالك) — ج ١ ص ٨١
ابن طولون — ج ١ ص ١٧
أبو الطيب الرازى الكيمائى — ج ٢ ص ١٤٦
أبو الطيب (الامام) — ج ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤٢
أبو الطيب اللغوى — ج ٢ ص ١١٤
أبو الطيب — ج ٢ ص ٢٢٤ (وانظر المتنبى).

حرف العين

عاتكة بنت قند — ج ٢ ص ١٧٤
العارض (أبو الفضل) — ج ٢ ص ٩
عامر بن الطفيل — ج ١ ص ٩٤
عامر بن الظرب العدوانى — ج ١ ص ٢٥٢
العامرى (المظفر أبو عامر) — ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ١٤٦ ، ٢١٢
أبو عامر النجدى — ج ١ ص ١٦٧
ابن عباد (الصاحب) — ج ١ ص ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٤ ج ٢ ص ١٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٩٤ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٧
العباس بن الحسين (أبو الفضل) — ج ١ ص ١٦٧
ابن عباس — ج ٢ ص ٤١ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤
أبو العباس (كاتب محمد بن إبراهيم) — ج ٢ ص ٢٧١
أبو العباس (عبد الله بن المعتز) — ج ١ ص ٥٦
أبو العباس بن سابور — ج ١ ص ١٣٩
أبو العباس — ج ١ ص ١٣٧
العباس بن الأحنف — ج ٢ ص ٧٥ ، ١٠٧ ، ١٢١
العبشمى (ابن أبى الفوارس) — ج ٢ ص ٢٧٦

العبيد (فى عرف أهل الأندلس) — ج ٢ ص ٢١٣
أبو العتاهيـة — ج ٢ ص ١٠٥، ١٢٥، ١٢٧
عتيبة بن أرقم (شيطان الجاحظ) — ج ١ ص ٢٦٥
عتيبة بن عبيد — ج ٢ ص ٢٤٥
عتيبة بن مرداس — ج ١ ص ٨٧
عدة الدولة — ج ٢ ص ٣٠٠
عز الدولة — ج ٢ ص ٣٠٠
العسكرى (أبو أحمد) — ج ٢ ص ٩٤، ٩٥، ٢٨٨
العسكرى (أبو داود المتكلم) — ج ١ ص ٢٢١
العسكرى (أنظر أبو هلال)
عبد الحميد العبادى — ج ١ ص ١٨
عبد الحميد بن يحيى — ج ١ ص ٦٠، ٦١، ٦٣، ٧١، ٧٢، ١٣٠، ١٣٩، ٢٦٢ ج ٢ ص ١٣٣
عبد الرحمن الشيرازى — ج ٢ ص ١٨٨
عبد الرحمن بن عبـد الله ابن أخى الأصمعى — ج ١ ص ٢٤٦، ٢٤٩
عبد الرحمن بن هشام — ج ٢ ص ٢١٨
عبد الصمد بن الفضل — ج ١ ص ٧٩، ٨٨
عبد الصمد بن المعذل — ج ١ ص ٢٠، ٢١
عبد العزيز البشرى — ج ١ ص ١٨٥
عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل) — ج ٢ ص ٢٦٤
عبد العزيز جاويش — ج ١ ص ٥٤ ج ٢ ص ٧١، ٢٢٥
عبد العزيز بن يوسف — ج ١ ص ٢٥، ٢٦ ج ٢ ص ٣٥٧ — ٣٦١
عبد الله بن خلف — ج ١ ص ٢٤٠
عبد الله بن شدّاد — ج ١ ص ٧٤
عبد الله بن عبد الله — ج ٢ ص ١٨٦
عبد الله عفيفى — ج ١ ص ١٦١
عبد الله بن عمار البرق — ج ٢ ص ٢٧٦
عبـد اللطيف بن يوسف البغـدادى — ج ٢ ص ١٥٩
عبد الملك بن مروان — ج ١ ص ٩١
ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) — ج ٢ ص ٨٢
ابن عبـد الواحد (القاضى أبو جعفر) — ج ٢ ص ٨٢
العتبى (أبو نصر) — ج ١ ص ١٧٠
أبو عبيدة — ج ١ ص ٦٩، ٢٥٢، ٢٨٣، ٢٨٥
عثمان بن ابراهيم الحاطبى — ج ١ ص ٢٣٨
عثمان بن عفان — ج ١ ص ٥٨، ٦٩، ١١٢، ٢٢٨ ج ٢ ص ٤٢
عثمان بن مظعون — ج ٢ ص ٦٦
عثمان بن يوسف القليوبى — ج ٢ ص ١٥٩
العجاج — ج ١ ص ٧٤
العجلى (محمد بن على) — ج ٢ ص ٣٤
عدى بن زيد — ج ٢ ص ٢٢
العذرى — ج ١ ص ٢٣٨
عصمة بن بدر الفـزارى — ج ١ ص ٢٠٦، ٢٠٧
عضد الدولة — ج ١ ص ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣ ؛ ج ٢ ص ١٢٠، ١٤٥، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠

العكلى (بن حزام) — ج ١ ص ٢٤٨ ج ٢ ص ٤٦
علقمة بن لبيد — ج ١ ص ٧٤
العلوى (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٤٦
العلوى (أبو البركات) — ج ٢ ص ٣٣٠
العلوى (محمد) — ج ٢ ص ٢٦٨، ٢٧١
أم عفيف المحاربية — ج ١ ص ٢٦٤
العقاد (عباس محمود) — ج ١ ص ١٦١
عقال بن شبة — ج ١ ص ٧٠
عليكة بن أحمد — ج ١ ص ١٤٢، ١٤٦
ابن عمر القاضى — ج ٢ ص ١٨٢
على بن أبى طالب — ج ١ ص ٢٤، ٣٣، ٤٧، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٦٨، ٦٩، ٧٥، ١١٢، ١٢١، ٢٨٣، ٢٨٤، ج ٢ ص ٢٩، ١٦٤، ٢٧٥، ٢٩٦
على ابن ابراهيم — ج ٢ ص ٢٧
على بن أحمد (عليكة) — ج ١ ص ١٤٣
على بن الجهم — ج ٢ ص ١٨
على بن عاصم — ج ١ ص ٢٣٩
على بن عبد العزيز — (أنظر الجرجانى أبا الحسن) .
على بن عبيدة الريحانى — ج ١ ص ١٥٢
على بن عرس الموصلى — ج ١ ص ١٤٣
على بن كامه — ج ١ ص ١١٦
على ماهر باشا — ج ١ ص ١٨٥
على بن محمد الكوفى — ج ٢ ص ١٨
على بن المستنير بن بنت قطرب — ج ١ ص ٢٤٦
على بن موسى — ج ١ ص ١٢٧
على بن هشام القائد — ج ١ ص ٢٤، ١٥٢
على يوسف — ج ٢ ص ٧١
ابن عمار — ج ٢ ص ٨٢
عمر بن الخطاب — ج ١ ص ٤٧، ٥٠، ٥٤، ٥٨، ٦٩، ١٤٣، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ج ٢ ص ٧٥
عمر بن أبى ربيعة — ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ج ٢ ص ٩٧
عمر بن ذر — ج ١ ص ٨٧
عمر المطوعى — ج ٢ ص ٣٢٣
عمر بن هبيرة — ج ١ ص ٢٠١
عمر بن عبد العزيز — ج ١ ص ٢٣، ٦١، ٧٠
أبو عمر الزاهد — ج ١ ص ٢٤٩
عمر بن شبة — ج ١ ص ٢٤٢
عمرو (معشوق ابن شهيد) — ج ٢ ص ٣٠٧
عمرو بن سعيد — ج ١ ص ٢٥٢
أبو عمرو (غلام ثعلب) — ج ٢ ص ١٨٥
عمرو بن عبيد — ج ١ ص ٨٩، ٢٠١
عمرو بن كلثوم — ج ١ ص ٢١٧
أبو عمرو بن العلاء — ج ٢ ص ٤٢
ابن العميد (أبو الفتح) — ج ١ ص ١١٧، ١١٨، ١١٩، ج ٢ ص ١٩٩، ٢٦٩
ابن العميد (أبو الفضل) — ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦، ٢٧، ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٥٧، ١٦١، ١٧٠، ١٧٤، ١٩٠، ج ص ٥٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٢، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢،

٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨،
٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤٣،
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٦، ٢٥٩،
٢٦١، ٣٥٧

عميد الملك — ج ٢ ص ١٤٥

عيسى بن سعيد — ج ٢ ص ٢١٦

عيسى بن عمر — ج ٢ ص ٣٧

عيسى بن موسى العباس — ج ١ ص ١٢٧

عيسى بن هشام — ج ١ ص ٨٦، ١٣٣، ١٣٩،
١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٩،
٢٢٣، ٢٢٤

أبو العيناء — ج ١ ص ٨١، ٨٤

حرف الغين

الغزالى — ج ١ ص ٢٨٢، ٣٣٧

الغضنفر بن حمدان — ج ٢ ص ٣٦١

حرف الفاء

ابن فارس (أحمد) — ج ١ ص ٤٤، ٥٥، ٥٦،
١١٣، ١٨٤، ٢٤٩، ج ٢ ص ٢٣، ٢٧،
٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧،
٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٦٤،
١٩٠، ٢٣١، ٢٤٤، ٣٢٦

الفارسى (أبو على) — ج ٢ ص ١١٤

السيدة فاطمة (بنت الرسول) — ج ١ ص ١٢٦

فاطمة بنت عبد الملك — ج ١ ص ٢٤٠

أبو الفتح الاسكندرى (بطل المقامات) —
ج ١ ص ٧٨، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦،
١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٩،
٢٢٤، ج ٢ ص ٢٠٠

فخر الدولة — ج ١ ص ١٢٠، ج ٢ ص ٢٤٤، ٢٧٧

ابن الفرات (محمد بن على) — ج ٢ ص ١٨٥

أبو فراس — ج ٢ ص ١٨٨، ٢٠٢، ٢٥٩

فرانك هاريس (Franc Haris) — ج ٢ ص ٢٦٩

الفراهيدى (الخليل بن أحمد) — ج ١ ص ٢٦٦

الفرزدق — ج ١ ص ٨٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٠،
ج ٢ ص ٢٠، ٢١، ٢٢، ٦٦، ٧٦، ٣١١

فرعون — ج ١ ص ٢٧٢، ٢٧٣

الفضل بن محمد (القاضى أبو بشر) — ج ٢
ص ٢٢٦

فلوجل (Flügel) — ج ١ ص ٨٤

فيثاغورس — ج ٢ ص ٢٨٨

حرف القاف

قابوس بن وشمكير — ج ١ ص ١١٣، ١٥٧ ج ٢
ص ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣،
٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩

ابن القارح — ج ١ ص ٢٦٠

قاسم أمين — ج ٢ ص ٧١

القاسم بن على — ج ٢ ص ٩

أبو القاسم الإفليلى — ج ٢ ص ٥٧

أبو القاسم الآمدى — ج ٢ ص ٨٢، ٨٧، ٨٩

القالى — ج ١ ص ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٥٠، ج ٢
ص ٢٧٣

ابن قتيبة — ج ١ ص ٥٩، ٦٠، ٩٩، ١٢٩

قدامة بن جعفر — ج ١ ص ١٨، ٤٤، ٥٦، ٩٧،
٩٨، ١٠٦ ج ٢ ص ٨٢، ٢٧٩

ابن قريعة (أبو بكر) — ج ١ ص ١٤١

ابن قرة — ج ٢ ص ٢٥١
قس بن ساعدة — ج ١ ص ٣٥
قريط بن أنيف — ج ٢ ص ٦٨
قطرى بن الفجاءة — ج ١ ص ٩١
القلقشندى — ج ١ ص ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٨٠، ٢٠٢، ٢٨٢، ج ٢ ص ٢١٥، ٢٤١
القيس (امرؤ القيس بن حجر) — ج ١ ص ٢٨، ٦٠، ٦٥، ١٨١، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩، ج ٢ ص ١٩، ٢٠، ٥٥، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٨٢، ١٠١، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ٢٠٢

حرف الكاف

الكسائى — ج ٢ ص ٣٩
ابن الكلبى — ج ١ ص ٢٥٠؛ ج ٢ ص ٢٧٥
كلثوم ابن عمرو العتابى — ج ١ ص ٨١
كولان (Colin) — ج ١ ص ٣٤٢

حرف اللام

لافونتين (La Fontine) — ج ٢ ص ٣٠٤
لامرتين (Lamartine) — ج ٢ ص ٦٦
لبيد — ج ٢ ص ١٩، ٢٩
لقمان بن عاد — ج ١ ص ٢٤٨

حرف الميم

ماسينيون Massignon — ج ١ ص ٦٧، ٢٣٦، ج ٢ ص ١٣٣، ١٦٧
مالك بن الأخطل — ج ١ ص ٨٧
المأمون — ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص ١٨٦
المأمونى (أبو طالب) — ج ٢ ص ٢٥٠
مؤيد الدولة — ج ١ ص ١١٨، ١١٩، ج ٢ ص ٩٤، ٢٤٣، ٢٤٤
المبرد (محمد بن يزيد) — ج ١ ص ٢٤٦ ج ٢ ص ٩١، ١٢٨، ١٨٦، ٢٥٦
متى بن يونس — ج ١ ص ٢٨١
المتنبى — ج ١ ص ١٧، ١٨، ٢٠، ١٧٤، ٢١٥، ٢١٨، ج ٢ ص ١٠، ١٧، ٢٤، ٥٢، ٦٦، ٧١، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٨، ١٣٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤، ٢٣١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٩٣، ٣٣٤
مثقال الشاعر — ج ٢ ص ١٢٥
مجنون ليلى — ج ١ ص ١٦١، ١٨٥، ٢٣٩
المجوسى (أبو نصر) — ج ١ ص ٢٠، ١٢٣
محجوب ثابت — ج ١ ص ١٨١
المحسن (أبو على) — ج ٢ ص ٢٤٧
المحسن بن الحسين — ج ١ ص ٢٤٩
المختار بن عبيد — ج ١ ص ٧١
ابن المدبر (ابراهيم) — ج ١ ص ٢٤، ١٥٥، ١٥٦، ٢٠٠، ٢٠١، ج ٢ ص ٢١٢
ابن محلم الشيبانى — ج ١ ص ٢٢٥
محمد (عليه السلام) — ج ١ ص ٢٤، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٨، ٦٨، ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١١١، ١٢٧، ١٤٧، ١٨٥، ج ٢ ص ٢٥، ٤١، ٤٤، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ١٠٥، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٧
محمد بن ابراهيم (من أعداء الشيعة) — ج ١ ص ١٢٦
محمد بن ابراهيم (كان يكتب عنده أبو العباس

الذى راسله الخوارزمى) — ج ٢ ص ٢٧١
محمد بن أحمد — (أنظر أبو المطهر الأزدى) .
محمد بن أحمد — ج ٢ ص ٢٧
محمد بن أرمك — ج ٢ ص ٣٤١
محمد بن اسحاق — ج ١ ص ٨٤
محمد بخيت — ج ٢ ص ٣٢
محمد بن جامع الصيدلانى — ج ٢ ص ١٧١
محمد بن جعفر — ج ١ ص ٢٤٦
محمد بن حامد — ج ٢ ص ١٨٩
محمد بن حبيب — ج ١ ص ٢٤٢
محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسى) — ج ٢ ص ٧
محمد بن خلف — ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
محمد السباعى — ج ١ ص ١٧٤
محمد بن سعيد الكاتب — ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٤
محمد بن سلام — ج ١ ص ٣٧
محمد بن سليمان — ج ١ ص ٢٩٧
محمد بن صالح الغورى — ج ١ ص ٢٩٨
محمد عبده — ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ج ٢ ص ٧١ ، ١٣٣
محمد عبد الرحمن المستكفى — ج ٢ ص ٢١٢
محمد بن على — ج ٢ ص ١٠٥
محمد بن عمران المرزبانى — ج ١ ص ٢٤٧
محمد عبد المطلب — ج ٢ ص ٢٦٩
محمد فريد — ج ١ ص ١٨١
محمد لطفى جمعه — ج ١ ص ٢٠٥
محمد نجيب الغرابلى باشا — ج ١ ص ٢٩
محمد بن منصور (أبو سعد) — ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩
محمد المويلحى — ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
محمد المهدى — ج ١ ص ٢٥٨ ج ٢ ص ٢٦٠
محمد بن موسى — ج ١ ص ٣٠٢
محمد هلال بك — ج ١ ص ١٧٤
محمد هيكل بك — ج ١ ص ٣٣
محمد بن يوسف الثغرى — ج ٢ ص ٨٩
المهلبى (أبو محمد) — ج ١ ص ١٦٧ ، ٢٨٢
ابن ميمون (العباس) — ج ٢ ص ١٣٠
المرزبانى (أبو عبد الله) — ج ١ ص ١١٣ ، ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٦١
ابن المرزبان (أبو نصر) — ج ٢ ص ٣٤١
مرسيه (Marçais) — ج ١ ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٧١ ، ١٩٩ ج ٢ ص ٦٤ ، ١٦٧
المرقش — ج ١ ص ٤٨
مروان — ج ١ ص ٦٠
مروان بن أبى حفصة — ج ٢ ص ٢٧٦
المستعين — ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢٩
أبو مسلم — ج ١ ص ٧٠
مسلم بن الوليد — ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ج ٢ ص ٩٠ ، ٢٥٧

ابن مسكويه — ج ١ ص ١١٣، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤؛ ج ٢ ص ١٣٧، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠

ابن مصعب (عبد الله) — ج ٢ ص ٢٧٦

أبو المطهـر الأزدى — ج ١ ص ٢٣٨، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥١

المطيع لله — ج ٢ ص ٢٩٩

معاوية — ج ١ ص ٢٥، ٥٧، ٧١، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٣٣، ٢٥٢؛ ج ٢ ص ٢٨

ابن المعتز — ج ١ ص ٢٠، ٥٦، ٨٢، ١٥٦، ١٧٤

المعتصم — ج ١ ص ١٢٣، ٢٢٣، ٣٣٢؛ ج ٢ ص ٨٥

المعتضد — ج ١ ص ١٧

المعتمد بن عباد — ج ٢ ص ٢٧٧

المعرى (أبو العــلاء) — ج ١ ص ٢٦، ١٩٢، ٢٥٨، ٢٦٠؛ ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٥٩، ٣١١

معز الدولة — ج ١ ص ٢٤٤

معن بن أوس — ج ١ ص ١٦٦؛ ج ٢ ص ٢٦

معين الدولة — ج ١ ص ١٤٢

المقّرى — ج ٢ ص ٢١٥، ٢١٨

ابن المقفع — ج ١ ص ١٨، ٣٨، ٤٣، ٦١، ٧١، ٧٢ ج ٢ ص ٢٨٩

المكتفى — ج ٢ ص ١٨١

المنادى (يوسف بن حمويه) — ج ٢ ص ٣٥

ابن مناذر — ج ٢ ص ١٣٠

المنتصر — ج ٢ ص ١٢٩

المنخل اليشكرى — ج ٢ ص ٢٢

المنصور (الخليفة) — ج ١ ص ٢٠١

المنصور بن أبى عامر — ج ٢ ص ١٧٤

المنفلوطى — ج ١ ص ١٨٤؛ ج ٢ ص ٧١، ٨٩

المهدى — ج ١ ص ٣٦، ٣٧، ٢٠١؛ ج ٢ ص ١٨٢

المهلبى (أبو محمد) — ج ١ ص ١٦٧؛ ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٩٣، ٢٩٩

موسى عليه السلام — ج ٢ ص ٧٧، ١٨٣

موسى بن جعفر — ج ١ ص ١٢٧

الموصلى (إسحاق) — ج ٢ ص ٨٥

ميتس (Mez) ج ١ ص ٣٣٨ ج ٢ ص ٢٥٤

ابن ميادة — ج ١ ص ١٨٤؛ ج ٢ ص ٤٤

الميكالى (أبو نصر) — ج ١ ص ١١١ ج ٢ ص ٣٥١

الميكالى (أبو الفضل) — ج ١ ص ١١٣، ١٧٠، ١٧٨؛ ج ٢ ص ١٨٢، ١٨٦، ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٥

حرف النون

النابغــة — ج ١ ص ٢٢٠

ابن ناقيا — ج ١ ص ٢٠٢

ابن نباتة الخطيب — ج ١ ص ٥٨، ١١٣؛ ج ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥

ابن نباته المصرى — ج ٢ ص ١٥٩

ابن نباتة السعدى — ج ١ ص ٢٠٢

نجاح بن سلمة — ج ٢ ص ١٣٤

نجبة بن على — ج ٢ ص ٢٤٤

أبو النجم — ج ١ ص ١١٧

ابن النديم — ج ٢ ص ١٢٠
نصر بن نوح — ج ١ ص ٢٤٩
نصيب — ج ١ ص ٢٣٩
النصيبي (أبو اسحاق) — ج ٢ ص ١٣٩
نعم (جارية ابن حزم) — ج ٢ ص ١٧٣
النعمان — ج ١ ص ٣٦ ؛ ج ٢ ص ١٢٦، ١٨٦
نفيل بن عبد العزى — ج ١ ص ٨٩
النمر بن تولب — ج ١ ص ٩٤ ؛ ج ٢ ص ١٠٥
أبو نواس — ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٤٨، ١٤١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤١، ٣٤٩ ؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٣٥، ١٦١

حرف الواو

واصل بن عطاء — ج ١ ص ٦١ ج ٢ ص ٢٥٤
واليس — ج ٢ ص ٢٨٨
الواقدى — ج ٢ ص ٢٧٥

حرف الهاء

الهائم (أبو على) — ج ١ ص ١٦٧
هرون (عليه السلام) — ج ١ ص ١٢٧ ؛ ج ٢ ص ٧٧
هرون بن أبي الجيش — ج ١ ص ٢٩٧
ابن هرون (سهل) — ج ٢ ص ٥٧، ٥٨
ابن هانئ الأندلسي — ج ١ ص ١٨٨ ؛ ج ٢ ص ٣١١
ابن هراسة (كثير) — ج ٢ ص ١٠٤
الهذلى — ج ١ ص ١٨١، ٢١٦ ؛ ج ٢ ص ٢٠، ٢١
هرم بن قطبة — ج ١ ص ٨٩
هرمس — ج ٢ ص ٢٨٨
هشام بن حسان — ج ١ ص ٨٩
هشام بن الحكم الأموى — ج ٢ ص ٢١٥، ٢١٦
هشام بن عبد الملك — ج ١ ص ٧٠، ٢٠١
أبو هلال العسكرى — ج ١ ص ١٨، ٢٣، ٢٤، ٤٨، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١١٣، ١٦١ ؛ ج ٢ ص ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٣٧، ٢٨٨
الهلباوى بك — ج ١ ص ٥٤
الهمذانى (أبو الحسين) — ج ٢ ص ٢٥٤
الهمذانى — (انظر بديع الزمان)
الهمذانى (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٣٤٢
هند بنت الحارث — ج ١ ص ٢٣٩
هوميروس — ج ٢ ص ٦٥
الهيثم بن عدى — ج ٢ ص ٢٧٥

حرف اليـاء

يأجوج ومأجوج — ج ١ ص ٢٧٧
ياقوت — ج ١ ص ١٨، ٢٤، ٨١، ٨٢، ٨٤، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٩٩، ٢٤٢، ٢٤٦ ؛ ج ٢ ص ٢٧، ٢٨، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٢، ١١٣، ١١٥، ١٢١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٩، ١٩٣، ٢١١، ٢١٢، ٤٣ — ٢٤٨، ٢٦٣، ٢٦٩
يحيى بن أكثم — ج ٢ ص ١٨٦
يحيى بن محمد — ج ٢ ص ١٧٤

اليربوعى (أبو الأقيشر) — ج ٢ ص ٨

اليزدادى — ج٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠

يزد جرد — ج٢ ص ٢٧٣

يزيد بن معاوية — ج ١ ص ٢٥١

يزيد بن الوليد — ج ١ ص ٦٠

يعقوب بن ابراهيم (أبو الفرج) — ج ٢ ص ١٨٥

يعقوب بن أبى شيبة — ج ١ ص ٢٤٢

اليعقوبى (أبو محمد) — ج ١ ص ٣٣٨

يموت بن المزرع — ج ١ ص ٢٤٦

يوسف عليه السلام — ج ١ ص ٩٩، ١٠٠

يوسف بن ابراهيم — ج ١ ص ٢٩٧

يوسف الاسرائيلى — ج ٢ ص ٥١

أبو يوسف (القاضى) — ج ١ ص ٣٣٤

جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك، ورتبه حضرة سليمان فهمى مبارك افندى : فلهما من المؤلف أجزل الثناء .

المراجع

الغرض من هـذه المراجع هو تحـديد الطبعات التى اعتمدنا عليها عنـد تحرير الشواهد أو نقد بعض الآراء ليسـتطيع القارئ الرجوع اليها حين يشاء، ولم نرد استقصاء كل ما رجعنا اليه عند تأليف هذا الكتاب وانما اكتفينا بمـا لم يكن بدّ من الاشارة اليه فى معرض البحث والتحقيـــق[1] .

إحياء علوم الدين — الغزالى — القاهرة — ١٢٧٨

الأخلاق عند الغزالى — زكى مبارك — ١٩٢٤

الأدب الجاهلى — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨

أدب الكاتب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٧

أدب الكتّاب — الصولى — القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب، الى معرفة الأديب (هو معجم الأدباء) .

أسواق الذهب — أحمد شوقى .

الأغانى (٢١ جزء) — الأصبهانى — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسى .

الأمالى — القالى — طبع بولاق ١٣٢٤

بغية الوعاة — السيوطى — القاهرة ١٣٢٦

بلاغة العرب فى الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤

البيان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربى — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راعينا فى تواريخ الطبعات ما أثبته الناشرون ، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة الهجرية من السنة الميلادية .

التحفة البهية — الاستانه — ١٣٠٢

تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوث .

التفضيل بين بلاغة العرب والعجم — أبو هلال العسكرى (ضمن مجموعة التحفة البهية) .

ثمار القلوب — الثعالبى — القاهرة .

تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩

حب ابن أبى ربيعة وشعره — زكى مبارك — الطبعة الثالثة .

حكاية أبى القاسم البغدادى — أبو المطهر الأزدى — طبع هيدلبرج .

جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى .

الحيوان — الجاحظ — القاهرة .

الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .

خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١

درة الغواص — الحريرى — الطبعة الأولى .

دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجانى — القاهرة ١٣٣١

ديوان أبى نواس — طبعة دمشق .

ديوان الشريف الرضى — طبعة بيروت .

الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .

الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية) .

رسائل اخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩

رسائل بديع الزمان — بيروت .

رسائل البلغاء — كرد على — القاهرة ١٩١٣

رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤

رسائل الخوارزمى — القاهرة ١٢٧٩

رسائل الصابى — القاهرة

رسالة الغفران — المعرى — القاهرة ١٩٢٥

الرسالة العذراء — ابن المدبر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكى مبارك) .

زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى — ١٩٢٥

سحر البلاغة — الثعالبي — دمشق .

سر الفصاحة — الخفاجى — مخطوط بدار الكتب المصرية .

شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد — القاهرة ١٣٢٩

الصاحبي — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠

صبح الأعشى — القلقشندى — طبع دار الكتب المصرية .

الصداقة والصديق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣

الصناعتين (فى مجلدين) — أبو هلال العسكرى — ١٣٢٠

صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠

ضحى الاسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣

طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢

طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤

طوق الحمامة — ابن حزم — ليدن ١٩١٤

العقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١

عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .

فحول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة ١٣١٣

الفرائد والقلائد — الثعالبي — ١٣١٧

فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧

الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

الفهرست — ابن النديم — طبع القاهرة .

كتاب الكتاب — ابن درستويه — بيروت ١٩٢١

كليلة ودمنة — ابن المقفع — القاهرة ١٣٢٧

كمال البلاغة — اليزدادى — القاهرة ١٣٤١

الكنايات — الثعالبى — القاهرة ١٩٠٨

المثل السائر — ابن الأثير — بولاق ١٢٨٢

محاضرات الراغب الأصفهانى — الطبعة الأولى .

مصارع العشاق — جعفر بن أحمد — القاهرة ١٩٠٧

معجم الأدباء (سبعة مجلدات) — ياقوت — طبعة مرجوليوث ١٩٢٣

معجم البلدان (ثمانية مجلدات) — ياقوت — القاهرة ١٣٢٤

المقابسات — التوحيدى — القاهرة ١٩٢٩

المكافأة — أحمد بن يوسف — القاهرة ١٩١٤

مقامات بديع الزمان — بيروت .

مقامات الحريرى — طبع الحلبى .

مقدمة ابن خلدون — القاهرة ١٣٢٢

من غاب عنه المطرب — الثعالبى — طبع الآستانه .

مختارات المنفلوطى .

الموشح — المرزبانى — القاهرة ١٣٤٣

الموشى — أبو إسحاق الوشاء — ليدن .

الموازنة بين الطائيين — الآمدى — بيروت .

الموازنة بين الشعراء — زكى مبارك — القاهرة ١٩٢٦

نثر النظم ، وحل العقد — الثعالبى — القاهرة ١٣١٧

المخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .
نشوار المحاضرة — التنوخى — طبعة مرجوليوث .
نفح الطيب — المقرى — طبع ليدن .
نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الآستانه ١٣٠٢
نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
نهاية الأرب — النويرى — طبع دار الكتب المصرية .
نهج البلاغة — على بن أبى طالب — ١٩٢٥
الوساطة — أبو الحسن الجرجانى — صيدا ١٣٣١
الوسيط — أحمد السكندرى ومصطفى عنانى — ١٩٢٩
وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
يتيمة الدهر — الثعالبى — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.

Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1er trimestre 1927).

Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).

— Abulkasim. (Heidelberg 1920).

Mubârak. — La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire.

— Paris 1931.

*
* *

كَمُلَ طبع الجزء الثانى من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
(أول فبراير سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

ديوان زكي مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتّاب والشعراء الذين نقدوا هذا الديوان

نوصى قراءنا بالاطلاع على مقدمة هذا الديوان، بل بالامعان فيها، فقد أرّخ فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهى نموذج من النثر الفنى الرشيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخلانه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظما بدل حصرها فى نثره الفنى لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هى مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة، وهو أمين بفطرته فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه، وكفى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير فخرا لأى شاعر، فان هذه هى الصفة الخالدة التى لا يقال عنها أى نقد، والتى تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية

⁂

لعل المقدمة التى كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب فى تحليل شعره : فقد تجرد كناقد من ذاتيته وعمد الى ما يعلمه عن نفسه فجعله أساسا لتلك النظرة النقدية التى وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فان الشاعر نفسه يحدثنا فى مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل) وأشار فى الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيد عليك يا صديقى أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب فقد فهمت كل

شىء ويبقى قلبى كالغابة المجهولة فى ضمير الظلماء) وكلاهما قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرأ أشعار هـذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها ، والإجادة فى اختيـار ألفاظها . ومن غرر الديوان قصيدة (غريب فى باريس) . محرر المقتطف

***

نقلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهـل أسيوط وهى مثال حسن لسائر القصائد والمقطوعات . وأحسن ما فى الدكتور زكى مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف مغانى الطبيعة على ضفاف النيل . محرر المجلة الجديدة

***

لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكى مبارك ، ولعـل الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات، فهو كاتب وشاعر ومن متخرجى الأزهر والجامعة، ومن أبناء سنتريس وباريس، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم، ومن الكهول الذين لهم نشاط الشبان وثورة الشباب ... جمع فى هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت به قريحته الخصبة من قصائد فى الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداه تحفة ممتعـة لقراء العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام اللذيذة، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره، قديما بنسجه العربى ، وأسلوبه الأدبى، ونسجه المحكم الذى لم يفسده شرود عن القواعد ولا تجنّ على أصول اللغـة بدعوة الابتكار والتجديد . محرر الهلال

***

ديوان زكى مبارك مجموعة من حالاته النفسية فى الفراق والبعد والشكوى والحنين وذكر الديار والأحباب . وفى شـعره الطابع العربى الصميم، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت فى حداثته من الشعر القديم . محرر الحديث

* * *

أهدانا الأستاذ زكى مبارك مجموعة من شـعره ، سماها بالعربية " ديوانا " وبالفرنسية " قصائد غرامية " والتسمية الثانية أحق أولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربى الى حدّ بعيـد ، ولا غرو فالأستاذ أديب فى الفرنسية كما هو أديب فى العربية .

محرر جريدة الهدى

* * *

الدكتور زكى مبارك عالم وأديب وقد طالع له القرّاء فصولا رائعـة فى مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكى مبارك لايكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضة، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبلغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكى مبارك بشيء من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الجاف النابع من العقل وحده وليس بالشـعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمح فيه أثر الأسـلوب المتين والصياغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفى وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر العصرى القائم على قوّة الملاحظة والتحليل والشعر العربى القائم على قوّة الخيال وبلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع　　　ابراهيم المصرى

* * *

كان همى حين تصفحت هـذا الديوان أن أتحسس من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محوِّم عليه على قرب أو بعد، أو أنه لم يعمره أبدا ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لصـديق الوفى الدكتور زكى مبارك حين رأيت روح الشـعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويجيل فيه الحياة ... قرأت فى هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية فى حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسـلوب . ذلك الى إحكام فى ربط المعانى بعضها ببعض وبراعة فى حسن السياق مما لا يتهيأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

الاهرام محمد خالد

***

مزية شعر الدكتور زكى مبارك التى تبدو لى هى حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيــه بعد طىّ الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يسـتقر فى ذاكرتى لها طيف . ولكن الدكتور زكى مبارك أديب كبير وبحاثة له آثاره المشهورة ودراساته المعـروفة وعالم من كبراء العلماء، وله فى ذلك فضل غير منكور لا يزيده أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون.

البلاغ إبراهيم عبد القادر المـازنى

***

شعر زكى مبارك يطّرد فيه المـاء، ديباجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد. شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جنابه ... ثم ان هنـالك ما يبعثنى على أن أوثر شـعر الدكتور زكى مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى فى قوافيه قلقا ولا نفورا ولا عيبا ولا تراها مستكرهة على مواضـعها ... وإنا لنراه يجيد الشعر حين يسـتلهم صبوته . والذى يؤخذ من هـذا أن فى دخيلة نفس زكى مبارك ميلا شديدا الى الفتك، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيرا فكبا .

الاهرام بشر فارس

***

لقد آزدحمت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكى مبادك وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شـعر زكى مبارك فحسـبه أنه لا يقول شعرا لمجرد أن يملأ صفحة أو صفحتين ولكنه يقوله عند ما يمتلئ قلبه رغبة فى أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكى مبارك وحى هذا القلب الكبير الناضج الذى غمرته الأيام بحادثاتها

وصهرته فى أتُّون تجاريبها وأخرجتــه لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... تقرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له فى نفسك راحة وتستشعر بلذة وتدرك ما ذا عسى أن يريد قوله، أهو جادّ أم عابث، أهو ضاحك أم باك، أهو متحمس أم متريث، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هــذه الخواطر وتدركها بنفسك، وأنت تنصف هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغاريد سامية فى هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك هى أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش فى عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من قلبه قيثارة عجيبة، وإن كان ضنينا بشعره كما تضن الحياة بالنبوغ .

الصباح محمد على غريب

***

كان لا بدّ من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتحف الأدباء بطائفة طيبة من نثره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية، وكان موفقا فى نظمه كما هو موفق فى نثره وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك آستطاع أن ينشئ نفســه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليهـا استعداده الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفى الديوان مجموعة طيبة من الشعر العصرى النفيس . وهو يلبس شعره ديباجة بدوية، ورقة حضرية . وللديوان مقدّمة بديعة كتبها الشاعر بنفسه ولم يُسبق اليها فيما أعلم .

المقطم محى الدين رضا

***

للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشــباب، لأنه يكتب بروح الشــباب وينظم بعواطف الشباب، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو فى الحياة عصامى وفى الأدب يكاد يكون عصاميا، ولذلك كان لمـا يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به . وقد أصدر أخيرا ديوانا من الشــعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الديباجة ومتانة الأسلوب وبين الافكار المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجــذابة . فنهنئ الدكتور زكى بهذا الديوان، ونهنئ القرّاء بهذه الهدية التى يهديها اليهم .

المصور طاهر الطناحى

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦١/١٩٣٢/٣٠٠٠)

